

الطريقه من

بسم الله الرحمن الرحيم

12/10/2019

المحرف

ملک المکرمة سید حسنة

والدراسة



11345

८१०१४-१५०-२९५३-७६८

رسالة للحصول على درجة الماجستير
في التاريخ الإسلامي

مقدمة من ١٠١

سید ابوالفتح محمد بن محمد

امشراق

الأستاذ الدكتور محمد عبد الوهاب

أستاذ المناهج الإسلامي بكلية الشريعة - جامعة أم القرى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م







لروحك الطاهرة يا أجي ...

يا من زرعته فينا حب الخير .. والمعرفة .. والتحصيل ..
لك يا من كنت وراء هذا النجم .. وشاء القدر أن لا
تراه ...

دعوات تصعد بها مهبتي إلى السماء ... بأن
يجزيك الله عنا خير الجزاء ... ويكونك بهات
فعله مع عباده الصالحين ..

وطيل لنا في عمر من ضمت الجراح ... وأملت
الميرة .. وأضاءت شموع الأمل في نفوسنا ..

إنه سميع مجيب

ابنك
سعاد

مَلِكًا مَلِكًا

هذا البحث يتناول بالدراسة النشاط التجاري في مكة المكرمة ففى العصر المملوكى ... وهذا الموضوع على جانب من الاهمية يتضح ذلك من النتائج التى أدى اليها البحث ...

فالمعروف عن مكة هو ما اشتهرت به من المكانة الدينية بحيث طفئت هذه الشهرة فى الازدهان على ما عداها من جوانب الحياة والحضارة التى لا يخلو منها مكان عمره البشر فى زمن من الازمنة ، فالزراعة والصناعة والعمارة والتجارة وأمور سائر الفنون واحوال المعيشة البشرية ظواهر من نتاج حياة الانسان فى مجتمع يرتبط بالمكان والزمان ، وتقوم بينه وبين غيره من المجتمعات صلات وعلاقات وروابط يقتضيها الجوارا و احتياجات المعيشة . ومن هذا كله يأخذ النشاط الانسانى اتجاهات شتى مما سبقته الاشـــارة اليه .

ولكن مكة امتازت بجانب لا يشاركها فيه مكان آخر وهو كونها موطن الكعبة " البيت الحرام " أول بيت لعبادة الله وضع للناس ، وهو من قبل الاسلام محجة العرب جميعا على اختلاف عباداتهم ، وبالإسلام صار الحج اليه ركنا من اركان الاسلام ، وهو قبلة المسلمين فى صلواتهم اينما كانوا وبهذه الميزة تفردت مكة حتى صارت كأنما هى مقتصرة على ذلك الجانب الدينى دون غيره ، ولكن مجتمع مكة من البشر له نشاطاته الحيويــــــــــــة الاخرى مما يقتضيه عمران الحياة فى المكان من اعمال البشاء والصناعة والتجارة وما الى ذلك .

وقد اعتنى هذا البحث بجانب مهم من جوانب نشاط السكان فى مكة ففى فترة شهدت أوج ازدهاره . هذا الجانب هو التجارة ابان العصر المملوكى.

ومن الاسباب التى دعت الى اختيار هذا الموضوع أنه لم يخض احد غمار البحث فيه فاتسم بالجدة فى منهجه وفى تبويبه وتصنيفه - فقد برزت هذه المدينة دائما أو انفردت بمستوى حضرى شديد الخصوصية على مستوى شبه

الجزيرة العربية بل والعالم الاسلامى برمته ... فكانت دائما من أهم ملامح الحجاز التى ميزته عن غيره أما بقية المراكز الحضرية الاخرى فلم تكن تعدو ان تكون مجموعة من الاسواق المحلية .. يتبادل فيها الزراع والرعاة فائض انتاجهم القليل .

وقد رأيت كمختصة^{للمختصة} فى التاريخ أن أخوض غمار البحث فى أهم مسائل الحياة الاقتصادية أو النشاط التجارى لمكة المكرمة فى العصر المملوكى... وألقى الضوء عليها لاحقق بذلك غرضين :

الاول :-

اعطاء صورة قيمة عن ذلك النشاط وما تمتعت به مكة من مكانة وموقع فريد على طريق التجارة واثّر هذا على مظاهر الانتعاش الاقتصادى المزدهر الذى كانت تعيشه مكة المكرمة . ودور الحجيج والسلاطين والامراء والتجار فى تنمية اقتصادها وجعلها مدينة دولية تموج باسواق السلع والطرائف الشرقية والغربية وتجلبية ذلك جهد يبذل لابرار تلك المكانة وذلك النشاط التجارى العظيم لمكة المكرمة . ولى ويطيد الامل أن يوءتى هذا البحث أينع الثمار .

الثانى :-

خدمة هذا الفن الناشء الذى اشاد كبار المؤرخين بعظيم نفعه الا وهو (التاريخ الاقتصادى) فقد خضّ كتاب التاريخ واساتذته على سلوك هذا الفرع والاعتراف من فيض بحره .

والجدير بالذكر هنا أن المعلومات عن النشاط التجارى لمكة المكرمة شحيحة فى المصادر التاريخية بصفة عامة ... وأن وجدت هذه المعلومات فى المصادر الخاصة بتاريخ مكة فهى خاصة بالناحية السياسية اكثر من الناحية الاقتصادية . يضاف الى ندره المعلومات ... بعثرتها فى مصادر عديدة تحت عناوين قد لا تمت الى التاريخ الاقتصادى بصلة ، نتيجة الاستطراد واسلوب

التأليف الخاص بتلك الفترة . ثم ان هذا النوع من الدراسة ^{الدراسة} يحتاج ^{إلى} دراسة واسعة لكتب التراجم ... والى اطلاع على كتب الحديث والفقه ... والى صبر ودأب على استقراء المخطوطات مع عدم وضوحها احيانا .. الامر الذى تطلب منى جهدا ومشقة ووقتا طويلا فى جمع المادة العلمية ، مما كان له أبلغ الاثر فى موضوع البحث الذى سلكت فيه مسلك المناقشة والاستنباط ، والمحاكمة باستدلالات أرجو أن تكون راجحة .

وعرضت ذلك كله بأسلوب سلس لا تعقيد ^{فيه} ولا غموض بفضل التوجيه العلمى السديد الذى درسته والذى أحاطنى به استاذى الفاضل .

هذا وينقسم البحث الى ستة فصول

الفصل الاول : يتناول عوامل الازدهار التجارى فى مكة ويشتمل خمسة بنود :

١ - مكاشة مكة فى نفوس المسلمين ، وهذه هى الميزة التى تفردت بها مكة بوجود البيت الحرام فيها وبكونها مهبط الرسالة الاسلامية وقد أشرت فى هذا القسم الى ذكر مكة فى التاريخ القديم وفى اللغات فى العربية ، والى ما اطلق عليها من اسماء متعددة فى العربية ، وما ذكره العلماء فى المفاضلة بينها وبين المدينة المنورة .

٢ - المجاورون ودورهم الاقتصادى والسياسى والعمرانى والعلمى .. وهذه النقطة نابعة من السابقة فبسبب المكاشة التى احتلتها مكة فى نفوس المسلمين نشأت فكرة المجاورة وقد تناولتها بالتوضيح وتحديث عن المجاورين بمكة وما كان لهم من اثر فى مجالات الحياة المختلفة ، فقد كان لهم اثر فى الحياة العلمية وفى العمل السياسى وفى نواحي العمران والاجتماع وفى الاقتصاد كذلك .

٣ - مواسم الحج ... ولم يكن بد من الاشارة اليها فمن انحاء العالم الاسلامى يفد حجاج بيت الله لاداء فريضة الحج فى كل عام وقد كان لخروج الحجاج

من بلادهم احتفالات عظيمة وبصفة خاصة كان لخروج المحمل المصرى من القاهرة يحمل معه كسوة الكعبة ويرافق حجاج مصر احتفال خاص ولعودته احتفال آخر .. وكان لقوافل الحجاج والتجار المتجهين الى مكة فى موسم الحج تنظيمات دقيقة وترتيبات تكفل سلامتهم فى الطريق وقد كان لموسم الحج اثر عظيم فى انعاش الاقتصاد المكى ومن اجل الحج اهتم الحكام المماليك ومن له صلة بهم باقامة المنشآت فى مكة والمدينة من مدارس ورباطات وعيون للمياه واقفوا الاوقاف العظيمة للانفساق على الحرمين والفقراء فيهما .

٤ - موقع مكة على طرق القوافل .. ولا شك فى أن الموقع الجغرافى يصبغ حياة السكان بصفة خاصة فساكن السواحل لهم نشاطهم وسكان المراعى والجبـال لهم نشاطهم وقد كان للقوافل فى العصور الوسطى طرق خاصة يراعى فيها الامن والسهولة فى السفر فكان ملتقى تلك الطرق فى مكة بحكم وجود المجتمع المكى ووجود البيت الحرام والاتفاقات التى كانت تعقد بين أصحاب القوافل والقبائل على الطرق التجارية لتأمين مرور التجارة .

وقد عرضت لاثـر طريق القوافل من مصر الى مكة فى ازدهار الحركة التجارية والحياة الاقتصادية بمكة وتناولت بالوصف ذلك الطريق البرى ثم الطريق البحرى وطريق القوافل من الشام الى مكة ثم لطريق القوافل من اليمن الى مكة ومن عمان الى مكة ومن اليمامة الى مكة .

٥ - جدة ميناء مكة المكرمة ... وبالطبع كان لتقدم المسلمين فى شئون الملاحة البحرية وظهور اساطيل التجارة اثره فى ضرورة قيام ميناء لمكة على ساحل البحر الاحمر يصلح لاستقبال السفن فظهرت جدة لتقوم بهذه المهمة وتزايدت أهميتها بعودة الملاحة الى البحر الاحمر، كما انها تأثرت باستخدام الطريق البرى عبر سيناء وعودة الملاحة الى الخليج العربى وقد كان تحصيل المكوس والفرائب على التجارة

بجدة موردا مهما للخزانة المملوكية بمصر كما كان جزء منها يوجه الى امراء مكة وحكام جدة للانفاق منه فكان لذلك اثره فى ازدهار الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى جدة .

أما الفصل الثانى : فقد كان عن دور سلاطين المماليك وامراء مكة فاستتباب الامن وتأمين الطرق

وهذا جانب مهم فى امور الاحوال الاقتصادية والتجارية والسياسية كذلك . وقد عرضت فى هذا الفصل لوضع مكة السياسى منذ كانت تابعة للخلافة العباسية تبعية مباشرة ثم سيطر عليها بنو رسول وبعد ان زالت الخلافة العباسية من بغداد واعلن المماليك قسام الخلافة الاسلامية فى مصر صارت السيطرة لهم على مكة .

وقد استقل اشراف بنى قتادة بحكم مكة وقسام بنى حكام مكة وحكام المدينة وتدخل المماليك وحكام اليمن فى النزاع على حكم مكة وكان لذلك النزاع على امرة مكة آثار واضحة فى الحياة الاقتصادية وفى الاوضاع الامنية.

ولما لمكة وهى البلد الحرام من حرمة دينية تدخل السلطان بيبسرس لاقرار الاوضاع بين المتنازعين على حكم مكة وكان سلاطين المماليك حريصين على استتباب الامن فيها ولذلك ازدهرت التجارة بسبب استقرار الاوضاع الامنية وتحقق العدالة فى مكة .

وقد عرضت فى هذه النقطة للسياسة الخارجية لحكام مكة . كما عرضت لمظاهر الاهتمام الذى أبداه سلاطين المماليك بنواحي العمران فى مكة ، فقد اهتموا اهتماما عظيما بامور الحياة فيها وبما يتعلق بالقوافل التجارية وقوافل الحج فأصلحوا الطرق البرية وأقاموا بها المحطات لراحة القوافل وأمنها واهتموا بحفر الآبار لتوفير المياه اللازمة للمسافرين ووفروا الحراسة التى توءمن لهم طريق سفرهم ، بتزويد تلك المحطات بالجند المناسبين .

وعرضت كذلك للجهود التي بذلت لتأمين طريق البحر الاحمر وتنشيط الحركة التجارية فيه فتناولت أهمية البحر الاحمر من الناحية التجارية واثّر انتشار الاسلام فى زيادة أهمية البحر الاحمر باعتباره طريقا تجاريا، واهتمام سلاطين المماليك بالتجارة فيه . وعرضت للتنافس الذى قام بين حكام اليمن وسلاطين المماليك للسيطرة عليه ثم لما طرأ من تغيير على الاحوال التجارية بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وسيطرة البرتغاليين على المياه الشرقية وما واكب ذلك من ضعف القوة المملوكية عن مجابهة البرتغاليين .

وفى الفصل الثالث : عرضت بتفصيل للسلع الصادرة من مكة والواردة اليها... وقد بينت فى مقدمة الفصل ما حققته جده ميناء مكة من ازدهار فى الحركة التجارية وما كان لتوابل الشرق وتحفه وكنوزه من رواج لدى اهل اورب... وما كان يعود على التجار من ارباح وفيرة من تعاملهم فى هذه الاصناف، وان ذلك كان من اسباب دفع حركات الاستكشاف الجغرافى الاوربية للسيطرة على بلاد التوابل . واوضحت المكانة العظيمة التى كانت لمصر فى النشـاط التجارى الخاص بالتوابل فى العصور الوسطى وما كان من اهتمام سـلاطين المماليك بتنشيط تجارة التوابل لما كان يعود عليهم من أرباحها الوفيرة واشرت الى سيطرة التجار الكارمية على تجارة التوابل و سلع الشرق .

ثم عرضت لانواع التوابل والنباتات الطبية والعقاقير والعطـور والاحجار الكريمة والمنسوجات والمواد الغذائية والحيوانات مما كان يدخل فى تجارة مكة الواردة أو الصادرة فبينت مصادر كل نوع واستعمالاته من ذلك " الفلفل والقرنفل والكافور والمسك والعنبر والياقوت واللؤلؤ والمرجان والقمح والذرة والشعير والسكر والتمر والبن والاعناب والابل والخيـل " .

ثم تناولت الاسباب التى كانت تؤدى الى ارتفاع اعار السلع وغلوها فى مكة وقد حصرتها فيما يلى :-

- المجاعات والقحط والأوبئة .

- الاحوال الاقتصادية السيئة فى البلاد المصدرة للسلع .
- الحوادث والكوارث الطبيعية كالزلازل والعواصف وتحطم السفن .
- تهديد البرتغاليين لطرق المواصلات التجارية .
- الزيادة البشرية فى مكة وخاصة فى موسم الحج .
- اضطراب الاحوال الامنية والسياسية فى مكة فى بعض الاحيان .
- وقد دعمت كل واحد من هذه الاسباب بامثلة من الاحداث التاريخية .

وفى الفصل الرابع تناولت المكوس والمعاملات التجارية
 فعرضت للعشور والضرائب التجارية فى جدة فى العصر المملوكى فدرست
 فريضة الربع التى كان شريف مكة يأخذها ممن تصلح سفنهم فى جدة والضريبة
 السنوية التى كان اشراف مكة يتقاضونها من التجار لحمايتهم وأموال من
 يتوفى من التجار بدون وارث وكان اشراف مكة يستولون عليها ، والاموال التى
 كان شريف مكة يجبيها من البلاد المحيطة بها كالطائف ووادى مر .

وعرضت كذلك للمكوس التى ليس لها سند شرعى ومنها مكس الحاج ومكس
 التجارة أما مكس الحاج فقد ابتدعه القرامطة سنة ٣٣١هـ والفاهاه
 السلطان صلاح الدين الايوبى ثم اعيد بعد زمن والفى وتكرر ذلك عدة مرات .

واما مكوس التجارة فى مصر والحجاز فقد بدأت فى عهد الفاطميين والفاهاه
 صلاح الدين ثم اعادها الوزير المملوكى هبة الله الفاضلى وكانت التجارة
 فى موسم الحج يؤخذ منها مكوس ويعفى منها الطعام ثم أعيد المكس على
 الطعام مرة اخرى والفى فيما بعد .

وقد اهتمت السلطات المملوكية بتنظيم جباية المكوس على المتاجر القادمة
 من البحر وصارت عملية الجباية مضبوطة فكان من اثر ذلك انتعاش مرفأ جدة
 لوفرة حصيلة المكوس .

ولجأت السلطات المملوكية منذ عهد برسباى الى طريقة مشددة فى جباية
 الضرائب والمكوس من التجار الذين يتعاملون فى مكة وجدة فقد فرضت عليهم

أن يتوجهوا بعد الحج ببضائعهم أولا لتجبي المكوس منهم هناك كما زادت نسبة المكوس على السفن التي ترسو في عدن قبل قدومها جدة وكان هذا بهـــدـف اجتذاب السفن الى جدة مباشرة واضعاف ميناء عدن .

وتناولت بالدراسة أوجه انفاق المكوس فقد كان صاحب مكة ينفرد بها ..
وينفقها على نفسه وعلى خاصته وعلى شئون الإمارة وكان ذلك في معظم فترات
العصر المملوكي ولكن عندما احتاج سلاطين المماليك في العهود المتأخرة إلى
الأموال لسد احتياجات الدولة وخاصة فيما يتعلق بأعداد الجيوش فانهم
شاركوا أهراء مكة في هذه المكوس .

وعرضت في هذا الفصل ايضا للمعاملات التجارية فبينت ما في الاسسـلام من توجيهات وتشريعات خاصة بالبيع ثم وضحت صوراً من صور التجارة تشمل :-

١ - المقايضة : وقد كانت المقايضة تتم بين المدن التجارية—

الايطالية والدولة المملوكية في اواخر القرن التاسع الهجرى وفي مكة كانت تتم بين تجارها واهل الراء وبجيلة بشكل خاص .

٢ - الشركات التجارية ومن صورها :

- شركة القراض أو المضاربة وقد وضحت معنى المضاربة في اللغة ومعناها في الفقه الاسلامي وبينت شروط صحة عقد الشركة .
- شركة العنان وقد وضحت معناها وتعريفها وشروط قيامها .

٣ - المعاملات الربوية : وقد بينت تحريم الاسلام للربا وذكرت تعريف الربا ثم عرضت لنماذج شاذة من تجار مكة الذين تعاملوا بالربا في تلك الفترة .

٤ - الرهن : وقد عرفته وبينت التزامات طرفي الرهن .

٥ - الوديعة : وقد ذكرت الاسباب التي يلجأ التجار من اجلها الى الابداع ، وتناولت واجبات المودعين ، ومتى يلزم الضمان .

٦ - الحوالات المالية : وقد وضحت معناها وشروط صحة الحوالة .

٧ - النظام المصرفى : وهو ابتكار اسلامى وتطوير لعمل الصرافين .

٨ - الاحتكار التجارى : وقد عرفته وبينت موقف الاسلام منه وهو النهى عن الاحتكار بوجه عام واحتكار الطعام بوجه خاص لان هذا العمل محرم ، وقد نهى عنه الدين وبين ما ينتظر فاعله من عقوبة عند الله .

ثم عرضت فى هذا القسم لما كان يفعله كبار رجال الدولة فى العصر المملوكى ومنهم السلطان نفسه من احتكار لانواع من السلع وكذلك ما كان يفعله اشراف مكة من احتكارهم للتجارة فى مكة وجدة . من ذلك ما فعله السلطان برسباى من احتكاره لتجارة السكر والخشب والمعادن والتوابل وفرضه اسعارا منخفضة على تجار الفلفل ليشتريه منهم بها ومنعه اياهم من بيعه للتجار الاوربيين حتى يضطروهم الى بيعه له دون غيره بالسعر الذى حدده . ومن ذلك ايضا منع تجار الكارمية من بيع التوابل الا للسلطان برسباى واحتكاره لتجارة القصب .

ولقد كان لنظام الاحتكار فى التجارة أثر واضح فى توجيه الكشوف البرتغالية الى البحث عن طرق تجارية الى بلاد التوابل فى الشرق لا تخضع للدولة المملوكية ، وقد ادى كشف طريق رأس الرجاء الصالح الى تدهور اوضاع الدولة المملوكية وعجل بنهايتها .

وفى قسم خامس هذا الفصل تناولت النقود والقيم النقدية فى ذلك العصر فبينت اولاً دور النقود فى تسهيل عمليات البيع والشراء وما ينشأ عنه من زيادة فى حجم المعاملات التجارية واتساع نطاق الاسواق وتنشيط الحياة الاقتصادية .

ثم تناولت بالتفصيل الانماط الاساسية للنقد المملوكى وهى : الدنانيس الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية ولقد كانت علاقة مكة بهذا الجانب

الاقتصادى النقدى علاقة قوية اذ كانت مكة قد تحولت الى سوق للعملات وكانت عملات الدولة المملوكية بحكم الصلة بينها وبين مكة عملة رئيسية فى الحياة التجارية بها .
وقد خصصت قسما وافيا لكل عملة من تلك العملات .

فبدأت بالوحدات الذهبية وبينت أن قوتها كانت ترجع الى ان قيمةالذهب الذى كانت تتكون منه كانت تساوى قيمتها النقدية وعرضت لاصل كلمة دينارار وبينت أنه من الكلمة اللاتينية " Denarius " وعرضت بعد ذلك لتسميته بالمشقال ولتحديد وزنه .

ثم قارنت الدينار المصرية الموجودة في مكة بالدينار المكي ودينار الخلافة العباسية وقد كان عيار الدينار ووزنه وحجمه عرضة للتغير الى الاقل بسبب ارتفاع سعر الذهب كما كان سعر صرف الدينار يتغير تبعا لسعر الذهب .

وعرضت كذلك للتعامل بالعملات الذهبية والأجنبية من ضرب البندقيسة وفلورنسا وما كان لها من مزايا تتمثل في جودة السك وثبات الوزن وارتفاع العيار وفي مقابل هذا كانت الدنانير المملوكية مليعة بالعيوب من عدم شبات العيار وتفاوت السمك والقطر .

وأُشرت الى الإصلاح النقدي الذى امر به السلطان فرج بن برقوق فى سنة ٨٠٣ هـ بتثبيت قيمة الدينار المملوكى ولكن هذا الإصلاح لم يدم فقد تطرق اليه الفساد ثم اعيد سك الدينار المملوكى على وزنه الناقص وقد نتج عن ذلك وقوع خسائر بالتجار ، وفقدت الثقة بهذا الدينار الجديد ولكن السلطان برباي اعاد سكه بوزن الدينار الافرنى أى المضروب فى البندقيّة وابرمت معاهدات بين الدولة المملوكية والبندقية لخفض الضرائب على الذهب المعد للسك .

وقد انهيت هذا القسم بذكر اسعار صرف الدينار الذهب في القرن التاسع

• الهی ری

وفى القسم الخاص بالوحدات النقدية الفضية (الدراهم) بينت ان الفضة اخذت تنافس الذهب باعتبارها قاعدة للنقد فى العصر المملوكى حتى ان الرواتب والخدمات والاسعار كانت تقدر بالدنانير الذهبية ويتم بالدراهم الفضية وذكرت وزن الدرهم الشرعى واوزان الدراهم المملوكية واشرت الى ان الدراهم الفضية قد اخذت فى التسرب الى خارج الدولة المملوكية فى تلك الفترة .

وقد حددت أشهر الدراهم الفضية المملوكية وهى : الظاهرية ، ودراهم الامير توروز ، والدراهم المؤيدية ، والاشرفية .

وقد وضحت ان خاتمة المطاف باستعمال الدراهم الفضية كانت اختفاءها من الاسواق وحلول الفلوس النحاسية مكان الدراهم والدنانير .

ثم انتقلت الى القسم الخاص بالوحدات النقدية النحاسية وهى الفلوس ،
فبينت ان الغرض من استخدامها هو تسهيل المعاملات فى امور البيع الصغيرة
للحاجيات اليومية وقد كان عام ٦٥٠ هـ بداية النشاط النقدى للفلوس فى الدولة
المملوكية ثم كتب لها ان تروج فى الاستعمال ، وقد ادى ذلك الى ظهور الفش
فى سنها .

وختمت هذا الفصل بالإشارة الى ان الاختلال فى النظام النقدى المملوكى وارتفاع الاسعار قد أدبى الى تعطل التجارة وكسادها ولكن مكة اتبعت نظاما نقديا خاصا ساعد على نجاح تجارتها واستقرار اقتصادها .

وفى الفصل الخامس : تناولت بالدرس المنشآت التجارية فى مكة المكرمة
من اسواق ووكلات وخانات وقياسر . والوظائف الاشرافية على تلك المنشآت
والمنشآت التجارية اساس لتنظيم الحركة التجارية حيثما تكون وظهور
هذه المنشآت يستلزم ظهور وظائف معينة للاشراف والرقابة على ما يجرى فيها

مــــــــــــن أ مور .

والاسواق من اقدم اشكال التنظيم التجارية وقد نشأت فى مكة قبل الاسلام اسواق متعددة أخذت صورتها المنتظمة الواضحة بعد استقرار المجتمع الاسلامى فى الحجاز وسائر شبه الجزيرة ، وقد اضى عليها صفة الانتظام والاستقرار توافد الحجاج والمعتمرين فى مواقيت معروفة من كل عام . وكان لسلطين الممالك اهتمام شديد بالحركة التجارية فى البحر الاحمر لذلك كانوا يشجعون التجار على القدوم بسفنهم الى جدة وكانوا يحاربون القراصنة فى البحر الاحمر وأخذوا يوءنون طرق القوافل التجارية حتى تحولت تجارة الشرق الى جــــــــــــدة .

وفى القسم الخاص بأسواق مكة تناولت اشواع هذه الاسواق فصنفتها ثلاثة أصناف :-

أ - الاسواق المحلية :

واعنى بها الاسواق الدائمة حيث يتجمع أصحاب الحرفة الواحدة وتجار الصنف الواحد فى حى أو عدد من الاحياء الخاصة بسوق العطارين وسوق السبازين ومثلهما سوق الليل وسوق المسعى وقد كانت هذه الاسواق قريبة من الحرم وكسوق الحطب وسوق العلامة باسفل مكة وسوق المسفلة وسوق اللبن والحشيش وسوق الفنم بأعلى مكة وسوق الجمال بمنى .

وكان التجار بهذه الاسواق المحلية فئتين : اولاهما التجار المستقرون فى حوانيتهم ومتاجرهم والاخرى الباعة الجائلون الذين يمشون معظم النهار فى السوق ثم يغادرونها آخره ليعودوا اليها فى النهار التالى .

ب - الاسواق الموسمية :-

واعنى بها الاسواق التى كانت تقام فى مواسم ورود التوابل من الهند والصين الى اسواق مكة وجدة وكانت هذه الاسواق تقام فى مواعيد سنوية ثابتة فقد ارتبطت بمواقيت هبوب الرياح الموسمية .

وكانت هناك سوق موسمية أخرى تقام لدى وصول أهل السراة من بلادهم وقد كانوا يجمعون بين أداء العمرة وبين بيع منتجاتهم في مكة وقد كان لهذه الأسواق أثر واضح في رخاء مكة فقد كان أهل مكة يعتمدون في مؤنهم السنوية على ما يجلبه أهل السراة وكان ورود منتجاتهم سببا في خفض أسعار السلع في مكة كما كان تخلفهم عن جلب المنتجات سببا في ارتفاع الأسعار .

ج - الأسواق السنوية :-

واعنى بها الأسواق التي كانت تقام في موسم الحج من كل عام فـلى مشاعر الحج بمنى وعرفة وكان التجار البائعون والمشترون من الحجاج الذين يجلبون بضائعهم من بلادهم يبيعونها ويشترون مما يجلبه الحجاج الآخرون من بلادهم . وقد تطورت هذه الأسواق حتى صارت تقام مرتين في كل عام بعـسـد ان تفاوت وصول الركـب الرجـى لأداء العمرة من مصر والشام .

ثم انى تناولت الوكالات والخانات والقياس وبينت أن هذه المنشآت كانت تقوم بمهمة الأسواق فقد كان التجار المحليون الذين ينزلون بها يتمون صفقاتهم من بيع وشراء حيث ينزلون وكانت كذلك تقوم بمهمة دور الإقامة والفنادق والنزل للتجار الوافدين وبدور المستودعات فقد كان التجار يحفظون بها أموالهم وبضائعهم .

وقد توسع سلاطين المماليك وأمراء مكة في إنشاء الخانات والريـوع كانوا يجعلون ريعها وقفا على جهات البر كالمدارس والارـيطة ومكاتب الإيتام

وتناولت بعد ذلك وظائف المشرفين على المنشآت التجارية ومنها :

ـ وظيفة المحتسب وبينت أنه كان من واجباته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإشراف على الأسواق لمنع الغش والتلاعب في البضائع والأسعار والأوزان والمكاييل وعرضت كذلك لاشهر محتسبى مكة في العصر المملوكى . وقد وكانت معظمهم من بيتين هما ٠٠ (بيت بنى ظهيرة ، وبيت بنى النويرى) .

وبينت كذلك أنه قد ظهر نظام يعرف بنظام المراصد والمقصود منه

قوائم للأسعار والضرائب على التجارة العابرة وأنه قد أنشئت هيئة لتحصيل
المكوس من التجار والحجاج .

ولتحقيق المصلحة المالية للدولة المملوكية انفصلت عن مكة من الناحية
الاقتصادية وأنشئت جمارك في جدة لتحصيل الضرائب التجارية والمكوس والرسوم
التجارية .

وقد اقتضى ذلك التطوير إنشاء وظائف جديدة منها :-

- وظيفة ناظر جدة وقد تعددت هذه الوظيفة فقد كان هناك ناظر المال
وناظر الجيش وناظر الخاص .

- وظيفة المباشر وكان يسمى مباشر الختم وقد كان يستوفى المكوس على
البضائع ثم يختتمها بخاتم خاص ليبدل على ذلك .

- وظيفة المستوفى وكان يضبط الديوان ويتابع أعماله .

- وظيفة الشاد وكان يفتش على الديوان ويراجع حساباته .

كما اشرت الى ان طائفة الكارمية كان لهم هيئة اشرافية خاصة تتبع ناظرالخاص

ثم استحدثت من اجلهم وظيفة مستوفى البهار والكارم ووظيفة المراقب
والمفتش ومحصل الزكاة كما انشئت لهم نقابة تجار الكارمية كما انتشرت
نقابات التجار المختلفة فصارت على غرار الغرفة التجارية في العصر الحديث.

وأما الفصل السادس فقد خصصته لفئات التجار
وفيه عرضت لاسماء كثير من تجار مكة المقيمين بها والوافدين عليها،
كما افردت قسما للحديث عن تجار الكارمية والتعريف بهم وبأنشطتهم التجارية،
وبدورهم في تجارة التوابل في الدولة المملوكية وفي بلاد الشرق بوجه عام..
واختلاف الباحثين في سبب تسميتهم بالكارمية .

واخيرا جعلت مسك الختام لاهم النتائج التي أسفر عنها البحث

ولست أدعى انى قد وفيت بهذا البحث الحديث حقه عن تجارة مكة فى العصر المملوكى ١٠٠٠ او عن المقام الذى وصل اليه نشاطها فى هذا الميدان ٠٠ غير أنى قدمت جهد المقل ، واطهرت من الحقائق ما ارجو أن يكون قبساً يستضىء به الباحثين فى هذا المجال .

وفى هذه المناسبة أقدم شكرى ... وجزيل امتنانى الى جامعة أم القرى وكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بها - فقد غرست فى نفوسنا ما نسود أن نزرع بذوره فى مدارك الجميع لنوعدى الدين وهذا جزء من العرفان .

كما أتوجه بالشكر الجزيل الى استاذى المشرف الاستاذ الدكتور / محمد عبد العال أحمد استاذ التاريخ الاسلامى بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة أم القرى الذى اعطانى من وقته وجهده ، ولم يبخل بتوجيهاته العلمية السديدة فجزاه الله عنى وعن طلابه وطالباته اعظم الجزاء .

ولا يفوتنى هنا أن أنوه بجهود استاذى الدكتور / حسنين محمدربيع
وان اتقدم له بخالص التقدير . . . فقد اشرف على رسالتى قبل سفره وكان له
الفضل فى توجيهى للعناية بالتاريخ الاقتصادى بعد أن لمس الرغبة منى فى
الابحار فى هذا الفن العلمى الجديد .

وتحية صادقة اخيرة ... تحية حب وتقدير واعتزاز لآخي / عبد الله
الحسن ، الذي شجعتني ووفر لي جميع متطلبات الرسالة من مصادر ومراجع ، وكان
عونا لي طوال فترة البحث .

والله أسأل التوفيق والسداد .

والحمد لله رب العالمين •

[illegible]

الفصل الأول

عوامل ازدهار النشاط التجاري في مكة المكرمة

- مكانة مكة المكرمة في نفوس المسلمين .
- المجاورون ودورهم الاقتصادي والسياسي والعمراني والعلمي .
- مواسم الحج .
- موقع مكة على طرق القوافل التجارية .
- جدة ميناء مكة المكرمة .

مكانة مكة فى نفوس المسلمين :

تتمتع مكة المكرمة بمكانة عظيمة فى نفوس المسلمين ، فهى مهبط الوحي وفيها يزغ شعاع الاسلام حينما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة التوحيد ... وقد كرمها الله سبحانه وتعالى بأن خصها بالبيت الحرام فقال عز وجل " .. ان اول بيت وضع للناس للذى بمكة مباركا وهدى للعالمين" (١).

وجاء فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : ان المسلمين واليهود افتخروا فقالت اليهود " بيت المقدس أعظم من الكعبة " ، وقال المسلمون بل الكعبة أعظم .. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية .

واختلف العلماء فى معنى كونه (أول) على قولين ، فزعم السدى أنه أول بيت وضع على وجه الارض مطلقا ، وقال مجاهد عن الشعبى عن على رضى الله عنه " كانت البيوت قبله ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله ، بالشرف لا بالزمان وهو الصحيح . (٢)

وقد حفظت لنا لغات الاقوام القديمة لفظ مكة المكرمة فلفظ " مكأ " يعنى فى اللغة البابلية البيت العتيق (٣) . وفى جغرافية بطليموس جاء

(١) سورة آل عمران : الآية ٩٦ .

(٢) ابن الجوزى : (أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد ، مثير الغرام الساكن فى أشرف الاماكن فى تاريخ مكة والمدينة ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد احياء المخطوطات بجامعة الدول العربية ، رقم ٤٣٧ ، تاريخ ، ق ١٠٧ ب ، ابن كثير ، (عماد الدين أبى الفداء اسماعيل تفسير القرآن الكريم ، طبعة دار الكتب المصرية ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ، أبو السعود ، (أبى السعود بن محمد العمادى الحنفى) تفسير أبى السعود أو ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتب الكريم ، تحقيق عبد القادر احمد عطا ، الرياض ، بدون تاريخ ج ١ ص ٥١٦-٥١٧ .

(٣) عبد الرحمن اباحسين " دور مكة التاريخى والثقافى ، مجلة قافلة الزيت ، المجلة العشرون ، العدد ١٢ ، سنة ١٣٩٢ هـ ، ص ٤٣ .

ذكر مكة تحت اسم Macoraba "ماكورابا" (١) ويبدو ان هذا الاسم له علاقة بالبيت العتيق الذى كان سر شهرتها على انها افضل بقعة او مدينة دينية فى الجاهلية فلفظ ماكورابا قريب من مكرب وهو لقب كان يحمله الكهنة فى سبأ قبل ان يتحولوا الى ملوك ، ومن المرجح انها تعنى المقرب الى الله لانها مدينة مقدسة . (٢)

ولمكة فى اللغة العربية اسماء كثيرة منها : مكة المكرمة (٣) ، والبلد والقريفة ، وأم القرى (٤) ، والبيت العتيق ، والبيت الحرام ، والبلد الامين ، والمأمون ، وأم رحم وصلاح ، والعرش ، والقادس ، والمقدمة ، والناسة ، والياسة ، والماسة ، ومعاد ، والحاطمة ، والرأس ، وكوشاء والبلدة ، والبنية ، والكعبة (٥) .

ويندر ان يكون لمكان ما فى العالم ما لمكة من تداعيات تاريخية ونفسية غير محددة فقد تركزت حولها أحاسيس ومشاعر مئات الملايين من مسلمى العالم فهى قبلتهم الى يوم الدين ، يتجهون اليها فى صلاتهم اينما كانوا ومهما تباينت لغاتهم ، واختلفت ألوانهم وأجناسهم .

وقد عقد الفقهاء مقارنة بين مكة والمدينة للمفاضلة بينهما : فذهب أبو حنيفة ، والشافعى ، واحمد وأصحابهم الى تفضيل مكة أما مالك فانه ذهب الى تفضيل المدينة فهى دار هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأهلها عضد الله رسوله وفيها قامت دولة الاسلام ، وبها توفى صلى الله عليه وسلم وفيها دفن جسده الطاهر (٦) .

(١) Lammens: La mecque a la veille de l'Hegrie, Beyrouth, 1924, P. 22.

(٢) السيد عبدالعزیز سالم، تاريخ العرب قبل الاسلام، الاسكندرية ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص ٢١٤، ٢١٣.

(٣) ابو السعود - تفسير ابو السعود ١، ص ٥١٦ .

(٤) ابن الجوزى : مشير الغرام ، ق ٩٢ أ .

(٥) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ١، ص ٣٨٣ .

(٦) القطبى ، (عبد الكريم بن محب الدين ، تاريخ البلد الحرام المعروف

باعلام العلماء الاعلام ببناء المسجد الحرام ، تحقيق وتعليق احمد محمد جمال وعبد العزيز الرفاعى، ط١، مكة المكرمة ١٣٩٦/١٩٥٠، ص ٢٢-٢٣.

أما من قالوا بتفضيل مكة المكرمة فإنهم استندوا في ذلك الى احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهها قوله " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام " ... مما يدل على تفضيل مكة على المدينة لان الامكنة تشرف بفضل العبادة فيها على غيرها مما تكون العبادة فيه مرجوحة (١) . وقوله صلى الله عليه وسلم عن مكّة " والله انك لخير ارض الله واحب ارض الله الى الله ... ولولا اني اخرجت منك ما خرجت " . وقوله صلى الله عليه وسلم عنها " ما أطيبك من بلد وأحبك " (٢) وقوله عليه افضل الصلاة والسلام " اللهم أنت بيني وبين فلان وفلان (٣) . لرجال سماهم فانهم اخرجوني من مكة وهي أحب ارض الله (٤) " .

هذا بالاضافة الى كثير من الاسباب التي تدعو الى التشوق الى مكة المكرمة ، مما لا يتسع المجال للإشارة اليها جميعا ، منها ما ذكره ابن الجوزي عن دعاء ابراهيم عليه السلام حيث قال : " فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم " . قال ابن عباس : " تحن اليهم قال : " واراد حب سكنى مكة ، ولو قال : أفئدة الناس تهوى اليهم لحجة اليهود والنصارى لكنه قال : من الناس (٥) .

-
- (١) البخارى: الامام أبى عبد الله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخارى ، طبعة دار الفكر ، بدون تاريخ ، المجلد الاول ج٢ ، ص ٥٧ . مسلم : (الامام ابى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم ، الجامع الصحيح المسمى بصحيح مسلم ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج٤ ، ص ١٢٤ .
- ابن حجر : (الامام الحافظ احمد بن على ، فتح البارى بشرح صحيح البخارى بيروت ، بدون تاريخ ، ج٣ ، ص ٦٣ ، العينى : (بدر الدين ابى محمد محمود بن احمد ، عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى ، بيروت ، بدون تاريخ المجلد الرابع ، ج٧ ، ص ٢٥٤ .
- (٢) ابن ماجة : (الحافظ ابى عبد الله محمد بن يزيد ، السنن ، تحقيق وتعليق محمد فوءاد عبد الباقي طبعة دار الفكر ، ج٢ ، ص ١٠٣٧ ، الترمذى : الامام الحافظ ابى عيسى محمد بن عيسى الجامع الصحيح ، حققه وصححه عبدالرحمن عثمان بيروت ج٥ ، ص ٣٨٠ .
- (٣) هماشية وعتبة ابنا ربيعة وامية بن خلفه انظر ابن الجوزي : المصدر السابق ق ١٧ ب .
- (٤) العينى : المصدر السابق ، المجلد الرابع ، الجزء السابع ، ص ٢٥٧ .
- (٥) ابن الجوزي : المصدر السابق ، ق ١١٦ .

ولذلك فالفطرة البشرية تحمل الوجدان الانساني والفكر والارادة للتشكيل الحميم المجرد لهذا البلد الطاهر في رحلة الحج ... وشعائره ومساكنه تستثيره نية الزيارة من الشوق الكامن لمنيع السور ... بل أن النفس لتتزعج أبدا الى حب البقاء فيه والمجاورة له .

ويكفى اهل مكة وزوارها علوا وشرفا انهم اهل الله وضيوفه وبهيمهم اوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله لعتاب بن أسيد عندما استعمله على اهل مكة " يا عتاب اتدري على من استعملتك ؟ استعملتك على اهل الله فاستوصي بهم خيرا ... قالها ثلاثا " (١) . وكان وهب بن منبشة يروى أن الله تعالى يقول : " من آمن اهل الحرم استوجب بذلك أمانى ومن أخافهم فقد خفرتنى فى ذمتى ، ولكل ملك حيازة مما حواليه ، وبطن مكة حوزتى التى اختبرت لنفسى أنا الله ذوبكة اهلها جيرتى وجيران بيتى وعمارها وزوارها وفدى واضيافى وفى كنفى وأمانى ضامنون على فى ذمتى وجوارى " (٢) .

" المجاورون ودورهم الاقتصادى والسياسى والعمرانى والعلمى "

لقد كانت المجاورة مظهرا بارزا من مظاهر الحضارة البشرية فى مكة المكرمة ولا شك أنه على قدر العمران البشرى تتقدم الامصار وتنشط الاسواق ومكة كانت ومازالت منطلق الحضارة الانسانية ...

ويمكن القول دون مبالاة أنه من النادر ان يخلو مصدر تاريخى من مصادر مظهر العصر المملوكى من ذكر العلماء والمجاورين فى مكة وأثرهم الايجابى فى تطور احوالها وتاريخها . بل كاشوا من أهم أسباب انتعاش

- (١) ابن الجوزى : المصدر السابق ، ق ٩٦ ب .
- (٢) ابن الجوزى : المصدر السابق ، ق ٩٦ ب ، ابن الضياء القرشى ، (تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد احياء المخطوطات العربية ، ١٢٨ تاريخ ، ق ٦ ب - ٧ أ .

الحياة الفكرية والاقتصادية حيث كانت مكة بمثابة البوابة التي تستقطب خطوط حركتهم وتنقلاتهم .

وكان طبيعيا أن يسهم هؤلاء المجاورون فى النشاط التجارى فى مكة واتخاذها قاعدة تجارية فى مجال التبادل المتنوع والعلاقات ذات المدى الجغرافى الواسع فكان أن بلغت ذروة ازدهارها فى هذا العصر فقد حرص المجاورون على المجيء الى مكة قبل شهر رمضان فيحصل لهم صيام رمضان فيها مع أداء العمرة والمجاورة وفى غضون ذلك يحصل لكثير منهم المكاسب^(١)

وظل كبار التجار من المجاورين مصدر خير لهذا البلد فكانت لهم الأيادى البيضاء والمآثر الحميدة فى هذه البقعة الطاهرة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر تاجرا دمشقى يقال له ابن المرجانى^(٢) ، قام بعمارة مسجد الخيف سنة ٧٢٠هـ - وكلفه ذلك أكثر من عشرين ألف درهم^(٣) . ومنهم عز الدين الواسطى وكان من اصحاب الاموال الطائلة يحصل اليه من بلده المال الكثير فى كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ويتولى حملها الى بيوتهم بنفسه^(٤) والتاجر على بن أبى بكر الزيلعى العقيلى كان فقيها ناسكا كثير اطعام الطعام توفى بمكة سنة ٧٢٩هـ^(٥) ، ومنهم احمد السمنانى البنانى كان كثير الحج كثير البر يحصل له من املاكه فى العام نحو تسعين ألفا فينفقها فى القرب^(٦) كما

(١) ابن حجر : (احمد بن على بن محمد ، انباء الغمر بابناء العمر ، تحقيق

وتعليق الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م ج ٣ ، ص ٥٣٩ .

(٢) لم اعثر له على ترجمة فإتيح لى الرجوع اليه من كتب التراجم .

(٣) ابن الضياء القرشى : تاريخ مكة ، ق ١٩٢ .

(٤) ابن بطوطة : (ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ، رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، ص ١٤٨ .

(٥) الخزرجى : (شمس الدين ابو الحسن على ، العقود اللؤلؤية فى اخبار الدولة الرسولية ، تحقيق محمد بسيونى عسل ، القاهرة ١٣٢٩هـ / ١٩١١م ،

ج ٢ ، ص ٥٤ .

(٦) ابن حجر : (احمد بن على بن محمد بن على ، الدور الكامنة فى اعيان

المئة الثامنة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج ١ ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

اوصى على الخروبى وهو من أعيان التجار فى مصر بمائة ألف درهم فضة
 لعمارة الحرم الشريف المكى فعمر بها وحج مرارا وكان ذا مروءة وخير
 توفى سنة ٨٠٢ هـ (١) . كما هو عمر الخواجا سراج الدين عمر بن محمد
 المزلق الدمشقى كبير التجار بدمشق عين حنين المعروفة بعين بازان سنة
 ٨٣٥ هـ فجرت فى شهر رمضان ودخلت مكة ومرت على سوق الليل الى الصفا
 وانتهت الى باب ابراهيم ثم الى المأجل^(٢) فعم النفع بها وكثر الخير لشدة
 احتياج الناس بمكة الى الماء وقلته احيانا وغلاء سعره وقد انفق عليها
 خمسمائة دينار (٣) . ومن كبار المجاورين ذوى الشراء الواسع محمد بن
 احمد الخزرجى الذى ترك قضاء دمنهور بمصر ليجاور بمكة وكانت له فيها
 مآثر وصدقة وافرة (٤) ومنهم التاجر زين الدين بركات بن عبد الله المكين
 الذى انشأ بمكة المشرفة عدة اماكن جليلة كان فى سعة من المال ومعظمها
 من عند الناس (٥) .

ولم يقتصر اسهام المجاورين على النواحي الاجتماعية والاقتصادية فى مكة
 بل انهم اسهموا فى الحياة السياسية فكثيرا ما كانوا وائل اتصال بين
 امراء مكة وسلاطين المماليك نذكر منهم العلامة أحمد القسطلانى الذى استعان
 به امير مكة فى التول الى سلطان مصر وقد توفى سنة ٧١٤ هـ (٦) . والتاجر
 شرف الدين الانصارى الذى توجه سنة ٨٥٠ هـ بمنديل الامان من عند السلطان
 الظاهر جقمق للشريف بركات بن حسن بن عجلان (٧) .

- (١) ابن حجر ، ابناء الغمر، ج٢، ص ١٢٣، ج٣، ص ٤٧١ .
- (٢) المأجل "هو فى الاصل البركة العظيمة التى تستنقع فيها المياه . ياقوت: (شهاب الدين
 ابن عبد الله معجم البلدان، بيروت ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م مادة المأجل، ج٥، ص ٣٢ .
- (٣) ابن فهد (نجم الدين عمر بن محمد، اتحاف الورى باخبار أم القرى مكتبة الحرم المكى رقم
 ٥٤ تاريخ، ص ٣٧٦ .
- (٤) الفاسى: (تقى الدين محمد، العقد الثمين فى تاريخ البلد الامين تحقيق محمد حامد
 الفقى، القاهرة ، بدون تاريخ، ج١، ص ٣٨٨ .
- (٥) ابن اياس: (ابو البركات محمد بن احمد تاريخ مصر المعروف ببدايع الزهور ،
 تحقيق محمد مصطفى القاهرة ١٩٦٠-١٩٦٣ م ج٢، ص ١١٧ .
- (٦) ابن حجر ، الدرر الكامنة، ج١، ص ٢٤٤-٢٤٥ .
- (٧) ابن اياس: بدايع الزهور ج٢ ، ص ٢٥٥ ، كان شريف مكة بركات قد اظهر =

وتجدر الإشارة هنا الى اثر المجاورين في اشراء الحركة العلمية نظرا الى اهمية ذلك فيما يتصل بالتحديد الدقيق لطبيعة هذه المجاورة وثقل مكة المكرمة الحقيقي في العالم الاسلامي فقد كانت قاعدة العلم ومحط انظار العلماء وطلاب العلم .

وكان من ابرز مظاهر هذه الحركة العلمية ازدهار حركة التأليف والنسخ التي ادت الى رواج . تجارة الكتب في مكة والواقع ان هذه التجارة اتسعت هالتها وشملت النطاق الخارجى فأصبحت الاموال ترسل الى مكة لشراء المؤلفات الضخمة لكبار العلماء والفقهاء في ذلك . العصر (١) .

وعموما فان هؤلاء العلماء ينقسمون من حيث مدة الاستقرار الى مستوطنين بشكل شبه كامل - وهم نزلاء مكة - ومجاورين لفترة قصيرة ربما لا تزيد على عدة اشهر او سنوات قليلة .

ونذكر من هؤلاء العلماء على سبيل المثال لا الحصر . . أبا الخير ابن منصور الشماخي المتوفى سنة ٦٨٠هـ وهو من أهل اليمن أخذ العلم عن جمع من العلماء في مكة وعاد الى زبيد بعد ان تطلع في علوم الفقه والنحو واللفظ والحديث والتفسير والفرائض - ولم يكن له نظير في اليمن في جودة العلم وضبط الكتب التي جمعت خزائنه منها ما لم يجمعه غيره حتى قيل ان فيها مائة أم سوى المختصرات (٢) .

ومنهم أبو عبد الله بن مطرق الاندلسي المتوفى بمكة سنة ٧٠٧هـ ، وبلغت مدة اقامته بمكة نحو ستين سنة ومما يدل على علو قدره ان صاحب مكة

= العصيان وحصل بسببه في مكة المشرفة فتنة كبيرة ثم ارسل السلطان يطلب الامان ويعتذر عما بدر منه فارسل اليه الامان مع التاجر المذكور ، ابن ابياس ، نفس المصدر والجزء والصفحة .

(١) ابن البديع " ابن الضياء عبد الرحمن بن علي ، قرأ العيون باخبار اليمن الميمون ، تحقيق محمد الاكوع ، القاهرة ١٣٧٤هـ / ١٣٩٧هـ ، ق ٢ ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد " غاية الاماني في اخبار القطر اليماني ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، ق ٢ ، ص ٦٢٢ - ٦٢٣ .

(٢) ابو مخرمة : (ابو محمد عبد الله ، تاريخ شجر عدن ليدن ١٩٣٦ ج ١ ، ص ٧١ - ٧٢ .

حميفة كان فى مقدمة المشيعيين لجنازته (١).

وممن اقام فترة طويلة ظهير الدين محمد البغدادى الذى صارت له مشيخة الحرم المكى فقد حدث بمكة وجاور بها أربعين سنة (٢).

اما المحدث الجليل احمد بن ابى طالب الحمامى فقد جاور بمكة اكثر عمره الى ان توفى بها سنة ٧٠٩ هـ . وممن درس عليه قاضى القضاة شمس الدين محمد ابن مسلم الحنبلى (٣) ، وشمس الدين ابن الصلاح والامام الذهبى (٤) . واجاز لابن رافع وتفرد بالاجازة لناصر الدين المقدسى (٥) .

ومن مشاهير العلماء قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بن جماعة المتوفى سنة ٧٦٧ هـ . تولى القضاء بالديار المصرية ثلاث مرات وافتى ودرس بمصر والشام ومكة وشيوخه بالسمع والاجازة يزيدون على ألف وثلاثمائة (٦).

ومنهم أحمد بن لوء الرومى توفى سنة ٧٦٩ هـ انتفع به الطلبة وتخرج به الفضلاء كان ذكيا أديبا شاعرا فصيحاً متواضعا كثير المروءة والبر ، مواظبا على الاشغال والاشتغال (٧).

ومن العلماء الاديب الفقيه أحمد بن محمد بن حنا المتوفى سنة ٧٨٨ هـ ، تولى نظر المطابخ السكرية بمصر ونظم القصائد النبوية واجاد فى المقاطيع كان كثير الحج والمجاورة وله مقاطيع كثيرة فى ذلك (٨).

أما أبو القاسم بن أحمد اليمانى نزىل مكة المتوفى سنة ٧٨٢ هـ ، فقد تصدى للقراءات وأتقنها وأقرأ الناس بالحرم المكى الشريف ، وناب فى

(١) ابن العماد الحنبلى {ابو الفلاح عبد الحشدر} تالذهب فى اخبار من ذهب، بيروت التاريخ بدون، ج٦، ص ١٦ .

(٢) ابن العماد الحنبلى ، نفس المصدر ، ج٦ ، ص ١٧ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٤) ابن العماد الحنبلى ، نفس المصدر والجزء ، ص ١٩ .

(٥) الفاسى ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٦) السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر ، حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٨ م ، ج١ ، ص ٣٥٩ .

(٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٨) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

الامامة بمقام الحنفية (١).

ومنهم نسيم الدين محمد النيسابورى المتوفى سنة ٨٠١ هـ ، برع فى العربية وشارك فى الفقه وغيره مشاركة حسنة وجاور بمكة نحو ستة عشرة سنة وانتفع به اهل مكة وغيرهم (٢) .

وقد صنف العلامة زين الدين عبد الرحمن الفارسكورى فى اثناء مجاورته بمكة تصنيفا يتعلق بالاحكام وكان له حظ من العبادة والمروءة والسعى فى قضاء حوائج الغرباء لا سيما اهل الحجاز (٣) .

ومنهم العلامة أبو البقاء محمد الدميرى المتوفى سنة ٨٠٨ هـ درس بمكة وأفتى وقد جاورهم سنيين متفرقة وله مصنفات منها الديباجة فى شرح سنن ابن ماجة فى نحو خمس مجلدات وشرح المنهاج للنووى فى أربع مجلدات ، ونظم فى الفقه أرجوزه طويلة وله كتاب حياة الحيوان (٤) .

اما شمس الدين محمد الخوارزمى المتوفى سنة ٨١٣ هـ فقد جاور بمكة زيادة على اربعين سنة وأم بمقام الحنفية وكان بارعا فى الفقه والاصول والعربية وتصدر للاقراء بالمسجد الحرام عدة سنيين وأفتى ودرس وانتفع الفكر به (٥) .

وكان ممن استفاد الناس من علومهم عمر بن عبد الله الهندى المتوفى سنة ٨١٥ هـ ، عالم الفقه والاصول والعربية أفاد الناس طوال اقامته بمكة التى زادت على أربعين سنة (٦) وعبد القوى بن محمد المالكي البيجاني المتوفى

-
- (١) الفاسى: العقد الثمين، ج٨، ص ٨٧-٨٩، ابن حجر، انباء الغمر، ج١، ص ٢٣٠ .
 - (٢) الفاسى: العقد الثمين، ج٢، ص ٣٢٢-٣٢٣، ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص ١٠-١١ .
 - (٣) ابن حجر: انباء الغمر، ج٢، ص ٢٣٨-٢٣٩، ابن العماد: نفس المصدر، ج٧، ص ٧٦ .
 - (٤) الفاسى: نفس المصدر، ج٢، ص ٢٧٢-٢٧٤، ابن العماد: نفس المصدر، ج٧، ص ٧٩-٨٠ .
 - (٥) ابن العماد: نفس المصدر، ج٧، ص ١٠٤-١٠٥ .
 - (٦) ابن حجر: انباء الغمر / ج٢، ص ٥٣٠ .

سنة ٨١٦ هـ نزيل مكة قطن بها ستا وأربعين سنة ودرس بالمسجد الحرام وأفتى باللفظ تورعا وكان ذا معرفة بالفقه (١) وممن حدث بمكة شمس الدين محمد المصري المتوفى سنة ٨١٦ هـ. (٢)

ومن مشاهير القرن التاسع العلامة محمد بن يعقوب الفيروز آبادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ صاحب القاموس المحيط حجة عصره في اللغة جال البلاد شرقا وغربا عظمه الامراء والملوك وكان مولعا بشراء الكتب أذهبها بالبيع قبل موته وله تصانيف كثيرة قدم مكة مرات عديدة وجاور بها كثيرا وكان يحب الانتساب اليها وكان له بمكة دار على الصفا جعلها مدرسة للاشراف صاحب اليمن وقرربها مدرسين وطلبة وفعل بالمدينة كذلك وكان له بمنى دور وبالطائف بستان وولى قضاة الاقضية ببلاد اليمن اكثر من عشرين سنة متوالية. (٣)

والمحدث الحافظ خليل بن محمد المصري المتوفى سنة ٨٢١ هـ اشتغل بالفقه قليلا وبالفرائض والحساب والادب ثم تحول الى الحديث وجد في طلبه وسمع من العلماء بمكة وجاور بها سنوات متفرقة وخرج الى المدينة والى كنيابة من بلاد الهند ثم عاد الى هرمز وجال في بلاد المشرق فدخل هراة ٥٠٠ وسمرقند ٥٠٠ وغيرها. (٤)

وممن انتفع الناس به في علم العقول بمكة شمس الدين محمد بن محمد البخاري المتوفى سنة ٨٢٢ هـ. (٥)

ومن كبار اهل العلم والفضل شيخ الاسلام المحدث الحافظ احمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، تعاني المتجر ، ورحل في طلب الحديث وجاور بمكة واقبل على الاشتغال والتصنيف وبرع في الفقه والعربية وصار حافظ الاسلام قيل عنه : انه كان شاعرا طبعاً محدثاً صناعة فقيها تكلفاً

-
- (١) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص ١٢١ .
 (٢) ابن العماد: نفس المصدر والجزء ، ص ١٢٢-١٢٣ .
 (٣) الفاسي: المصدر السابق ج٢، ص ٣٩٢-٤٠١، ابن العماد: نفس المصدر، ج٧ ص ١٢٦-١٣١ .
 (٤) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص ١٥٠ .
 (٥) ابن العماد: نفس المصدر والجزء ، ص ٢٧٠ .

انتهى اليه معرفة الرجال واستحضرهم ومعرفة العالى والنازل وعلل الاحاديث
فصار هو المعول عليه فى هذا الشأن فى سائر الاقطار وقدوة الامة وعلامة
العلماء وحجة الاعلام ومحيط السنة انتفع به الطلبة وحضر دروسه وقرأ عليه
غالب علماء مصر ورحل الناس اليه من الاقطار . (١)

وقد استوطن مكة المقرئ عبد الرحمن بن عياش وانتصب بها لاقراء
القراءات بالمسجد الحرام كل يوم ، وانتفع به عامة الناس وصار رحلة زمانه
توفى سنة ٨٥٣ هـ . (٢)

وممن اشتغل بالعلم والطب على بن سليمان الهوريانى وقد اخذ عن السخاوى
بمكة . (٣)

هذا وقد احتذبت تلك الحركة العلمية المزدهرة فى مكة التاجر ابراهيم
بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٨٦٧ هـ ، فى اثناء مجاورته بمكة مع أبيه ، فدرس
على علمائها بالحرم ثم رجع الى القاهرة فحدث بها . (٤)

ومن طلاب العلم بمكة بدر الدين الحسين بن الاهدل المتوفى سنة ٩٠٣ هـ ،
جاور بها ثم رجع الى بلاده فكان اماما فقيها حافظا محدثا بارعا فى شتى
العلوم . (٥)

ومنهم محمد بن عبد الرحمن الاسقع ببلوى اليمنى الشافعى المتوفى
سنة ٩١٧ هـ ، مكث فى مكة مدة لطلب العلم فحصل الكثير من العلوم ونفــــــــــــــ
الناس إقراء وافتاء . (٦)

-
- (١) ابن العماد : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٧٠ - ٢٧٣ .
 - (٢) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ٢٧٧ .
 - (٣) السخاوى : (الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، الضوء اللامع
لاهل القرن التاسع ، القاهرة ، ١٣٥٥ هـ ج ٥ ، ص ٢٨٨ .
 - (٤) السخاوى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٧٣ .
 - (٥) ابن العماد : نفس المصدر ، ج ٨ ، ص ٢٠ .
 - (٦) ابن العماد : نفس المصدر ، ج ٨ ، ص ٨٥ .

"مواسم الحج":

الحج فريضة فرضها الله سبحانه وتعالى على المسلمين لقوله تعالى :-
 " ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا " (١) ولقوله عز وجل
 لخليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام " وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا
 وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق " (٢)

واستجابة لهذا النداء توافد المسلمون على مكة المكرمة لأداء الفريضة
 في موسم الحج وقد كانت المحامل السلطانية وجماهير الركبان لا تخرج الا من
 أربع جهات : مصر والشام والعراق واليمن . (٣) يصاحبها الآلاف من المسلمين
 من شتى بقاع المعمورة .

وكانت الاحتفالات تقام بالقاهرة بمناسبة خروج المحمل وعند عودته ويحضرها
 السلطان وكبار رجال الدولة والتجار وكان المحمل يجهز مرتين في السنة
 (الاولى) في رجب ١٠٠٠ (والآخرى) في شوال ١٠٠٠ وقد انتظم ذلك منذ سنة
 ٦٢٥ هـ أيام الظاهر بيبرس . (٤)

اما القوافل فقد بلغت في دقة التنظيم حدا يدعو الى الاعجاب فقد كان
 لكل قافلة امير يعرف بأمير الركب او امير الحج يقوم بتوجيه القافلة
 وتنظيم الركب في مسيرهم ونزولهم ويحوطهم بالرفق والحراسة ويؤدب من يحاول
 الخيانة او الاخلال بأمن القافلة ، ويساعده في ذلك جنود يحمون القافلة

(١) سورة آل عمران ، اية ٩٧ .

(٢) سورة الحج ، اية ٢٧ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣١٠ .

(٤) السيوطي : نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٩٦ .

وأدلاء يسلكون بالركب اوضح الطرق واوسعها وأخفها وأوفرها ماءً وخشباً
ومع كل قافلة قاضي فصل في الحوادث التي تقع بين الحجاج (١)

ومن الطبيعى ان ينضم التجار الى هذه القوافل.....لما يجدون فى كنفها من الامن ولامكان الكسب من الاتجار فيها ونقل بضائعهم الى المدن والقرى التى يمرون بها حيث كانت تتم عمليات التبادل التجارى .(٢) يقول ابن بطوطة فى وصف الركب العراقى

" وفى هذا الركب الاسواق الحافلة والمرافق العظيمة وانواع الاطعمة والفواكه ."(٣) .

وفى كل مرحلة يقيم التجار الاسواق فيشتري القادرون من الحجاج ما يلزمهم ١٠٠٠ اما الفقراء فكانوا يجدون فى الصدقات ما يكفيهم . (٤)

وقد رحل ابن بطوطة مع ركب الحج العراقى وفى ذلك يقول : " وفى هذا الركب نواضح كثيرة لابناء السبيل يستقون فيها الماء وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الادوية والاشربة والسكر لمن يصيبه مرض ، واذا نزل الركب طبخ الطعام فى قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت ، واطعم منها ابناء السبيل ومن لا زاد معه . وفى الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشى " . (٥)

وقد كانت مكة المكرمة في موسم الحج تشهد ذروة الرواج الاقتصادي وكان للموسم اثر كبير في هذا المجال فالاعداد الكبيرة من الحجاج لا يسد ان يصاحبها نشاط كبير في حركة البيع والشراء وقد كان التجار يتحينون هذا

- (١) الجزيري : (عبدالقادر بن محمد ، دور الفوائد المنظمة فى اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، القاهرة ، ١٣٨٤ ، ص ٩١-١٦٨ .
- (٢) ابن طولون : (شمس الدين محمد ، مفاكهة الخلاف فى حوادث الزمان تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ٣٨١ - ١٣٨٤ / ١٩٦٢ - ١٩٦٤ ، ق ١ ، ص ٢٨ ، محمود زائد قافلة الحج تنظيمها ودورها الحضارى ، المجلة العربية ، السنة الثالثة ، العدد الاول محرم ١٣٩٩ / ١٩٧٨ ، ص ٢٢ .
- (٣) ابن بطوطه : الرحلة ، ص ١٦٩ .
- (٤) محمود زائد : نفس المرجع ، ص ٢٥ .
- (٥) ابن بطوطه نفس المصدر ، ص ١٦٨ .

الموسم لينقلوا متاجرهم اليها (١) كما ان بعض الحجاج يلتزمون - الى جانب أداء الفريضة - ضروبا من النفع المادى فيتبادلون التجارات ويتسابقون الى الخيرات .

ولقد أباح الخالق جل وعلا ذلك لعباده فقال تعالى : " ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم " (٢) ، وعن مجاهد بن عباس قال : كانوا يتقنون البيوع والتجارة فى الموسم والحج ، يقولون : أيام ذكر . فأنزل الله هذه الآية وفى رواية أخرى أنه قال : " لا حرج عليكم فى الشراء والبيع قبل الاحرام وبعده " (٣) وجاء فى تفسير أبى السعود لقوله تعالى : " فضلا من ربكم " : عطاء ورزقا منه ، أى الربح بالتجارة . (٤)

وحتى يكتمل اجر الحاج ، ولا يقع فى المحذور اذا أراد التجارة ينبغى له أن يصح قصده ، فتكون تجارته ضمنا وتبعاً لا غاية وقصدا . (٥) وبهذا يكون الحج عملاً مشتركاً يحقق المسلمون فيه صفة الموءتمر الدينى والدينوى ، وعن أبى صالح مولى عمر قال : قلت يا امير الموءمنين كنتم تتجرون فى الحج ؟ قال : وهل كانت معاشهم الا فى الحج ؟ (٦)

ويعد موسم الحج فرصة نادرة لتكتل متاجر اكبر طبقة للتجار المسلمين فى هذا العصر " التجار الكارمية " (٧) حيث تصل افواج الحجاج والتجار من بلدان الاسلام المختلفة وحيث تعقد الصفقات التجارية الكبيرة . . . ومما يدل على ذلك أن السلطان المملوكى الاشرف شعبان الغنى جميع المكوس المفروضة

-
- (١) الفاسى : العقد الثمين ، ج٦ ، ص ٢١٠ .
 - (٢) سورة البقرة : آية ١٩٨ .
 - (٣) الطبرى : (محب الدين الحافظ أبى العباس احمد . القرى لقاصد ام القرى ، تحقيق مصطفى السقا ، الطبعة الثانية ، مصر ١٣٩٠ - ١٩٧٠ ، ص ٩٧ ، ابن كثير : تفسير القرآن ، ج١ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .
 - (٤) ابو السعود : تفسير ابو السعود ، ج١ ، ص ٢٢٦ .
 - (٥) ابن الجوزى : مشير القرام ، ق ٢١ ، الطبرى : نفس المصدر ، ص ٣١ .
 - (٦) ابن كثير : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٤٠ .
 - (٧) انظر الفصل السادس فئات التجار ، مبحث التجار الكارمية .

على المتاجر التي يحملها الحجاج الى مكة ولكنه استثنى منهم تجار الكارم
وتجار الهند وتجار العراق . (١)

وقد أشار الرحالة الى الاهمية التجارية لمكة المكرمة فذكروا أنها
ملتقى الصادر والوارد ، وأسهبوا في التحدث عن الرخاء الاقتصادي السدي
كانت تنعم به في أثناء رحلاتهم لأداء فريضة الحج وما كانت تفص به من النعم
والارزاق والمتاجر المتنوعة " من البر الى الدر " ومن الذخائر النفيسة
كالجواهر والياقوت وسائر الاحجار ومن انواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر
والعود والعقاقير الهندية الى غير ذلك من جلب الهند والحشة الى الامتعة
العراقية والعمانية الى غير ذلك من السلع الخرسانية، والبضائع الهندية
ويذكرون أنه يباع منها في اليوم الواحد ما لو فرق على البلاد كلها لاقام
لها الاسواق النافقة وعمها بالمتفعة التجارية . (٢)

وهذا كلام مبالغ فيه ولكنه بلا شك يدل دلالة واضحة على الازدهار التجاري
في مكة المكرمة .

وحسبنا ان نذكر أن موسم الحج كان مركز جذب للتجار من اصقاع المعمورة
كافة . كما كان مصدر ثراء لهم ، ومعين خير وبر لاهل مكة والمجاورين بها
وقد حرص التجار دائما على حضور هذا الموسم والكسب فيه . ومن لم يستطع
الحضور استعان بمندوبين عنه في شراء المتاجر التي يرغبها . (٢)

لقد كانت مواسم الحج مواسم تجارية مزدهرة للحجاج والتجار على حد

(١) صبحي لبيب : التجارة الكارمية ، وتجارة مصر في العصور الوسطى المجلة
التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الثاني ١٩٥٢ ، ص ١٩ .

(٢) ابن جبير : (ابو الحسن محمد بن احمد ، رحلة ابن جبير ، بيروت ١٣٨٤ /
١٩٦٤ ، ص ٩٧ ، البلوي : (خالد بن عيسى ، تاج المفرق في تحلية علماء
المشرق ، تحقيق الحسن السائح ، المغرب ، بدون تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٠٨ .

(٣) حسنين محمد ربيع : وثائق الجزيرة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي
لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى ، الندوة العالمية الاولى
لمصادر تاريخ الجزيرة العربية ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة
الرياض " الملك سعود حاليا " ، ١٩٧٧ ، ص ١٣٤ .

سواء فيقصد هاتجار الهند والصين القادمون بطريق عدن أو جدة فيبييعون ويشترون . (١) ويجد تجار فارس في هذا الموسم فرصة كبيرة لتبادل السلع مع التجار من جميع الجنسيات ويقومون ببيع صادرات بلادهم من الملابس والياقوت والسجاد والحرير والفيروز وغيرها . (٢)

ويكفي لبيان أهمية هذا المرفق في موسم الحج أن تأثيره الإيجابي لم يكن يقتصر على انتعاش الحياة الاقتصادية في مكة ... فبلاد الشام كانت تعتمد عليه كثيرا في اقتصادياتها ، فقد كان عدم خروج المحمل منها يؤدي الى توقف صناعات كثيرة لانقطاع البضائع والأسفار . (٣)

ويرد كثيرا في سجلات التجارة في العصور الوسطى اخبار وصول قوافل الحجاج القادمة من مكة واشارات لما تحمله من متاجر الشرق ونصائح بعض التجار الى شركائهم ألا يشرعوا في شراء متاجرهم الى أن يرجع الموسم من مكة . (٤)

وكانت الاسواق تقام حول المسجد الحرام وفي منى والمشاعر وحيثما كانت جموع الحجاج . (٥)

ويعد الموسم الذي يحج فيه السلاطين والأمراء وأصحاب الشراء من أكثر المواسم رواجاً للتجارة اذ يقوم هؤلاء بالكثير من أعمال البر ويتمدقون على أهل مكة والمجاورين بالاموال والعطايا ... وقد كان هذا سبباً في زيادة النشاط التجاري .

- (١) علي بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك القاهرة ١٣٩٣/١٩٧٣ ، ص ١٥٩ .
- (٢) علي بن حسين السليمان : النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية في اواخر العصور الوسطى (١٢٥٠ - ١٥١٧ م) القاهرة ١٣٩٤/١٩٧٤ ، ص ٢٧١ .
- (٣) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ق ١ ، ص ٣٤١ .
- (٤) حسنين محمد ربيع : وثائق الجزيرة ، ص ١٣٥ .
- (٥) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٣٦ ، الفاسي : محمد بن احمد بن علي تقى الدين ، تحصيل المرام في تاريخ البلد الحرام ، مخفوط مصور على ميكروفيلم بمكتبة رواق الاتراك ، الازهر ١٤٧١ تاريخ ، ق ٩١ ب ، ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٣٣٧ ، البلوي : تاج المفرق ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، الورثيلاني الحسين بن محمد ، نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار ، بيروت ، ١٣٩٤/١٩٧٤ ، ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

ففى عام ٦٥٩ حج المظفر صاحب اليمن واقام فى مكة عشرة أيام بعد الحج فأجزل العطاء لاهل مكة والحجاج وأنعم على روعساء مكة ونشر على البيت الذهب والفضة . (١)

واظهر السلطان الظاهر بيبرس فى حجته سنة ٦٦٧ هـ التواضع والخضوع فى بيت الله الحرام وأعطى خواصه جملة من الاموال لتفرق فى الناس سرا وألغى المكوس التى تؤخذ من الحجاج والتجار ، وصالح بين الشريفين ابنى وادريس ، وجعل الامير شمس الدين مروان نائبا للسلطنة فى مكة بناء على طلبهما لتقوى به أنفسهما ويرجع اليه فى الامور يكون الحل والعقد بيده كما احسن الى اميرى مكة وينبع وأمير خليص وأكابر الحرم وصار يرسل للحرمين الشريفين كل سنة عشرة آلاف اردب قمح . (٢)

وعندما حج الامير أنس - ويقال أنص بالصاد بدل السين - ابن الملك العادل كتبغا . (٣) سنة ٦٩٥ هـ صحبه كثير من الامراء والحجاج وحجت معه والدته يتجمل زائد وعم خيرهم ونفعهم اهل مكة والمدينة والمجاورين وشكرت سيرته . (٤) ويقال إنه سقى الحجاج فى طول الطريق الروايا ملائى من السكر وفرق من الحلوى ما رخص سعرها فى الركب حتى بيعت كل علبة بدرهمين . (٥)

-
- (١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ١٣٣ - ١٣٥ ، ابن الديبع : قررة العيون ، ق ٢ ، ص ٣٧-٣٨ ، يحيى بن الحسين : غاية الاصابى ، ق ١ ، ص ٤٥٠ محمد عبد العال احمد : بنو رسول وبنو ظاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٣٦٥-٣٦٦ .
- (٢) ابن ايبك : (ابى بكر عبد الله . كنز الدرر وجامع الزهر - الدر الزكية فى اخبار الدولة التركية ، تحقيق اولرخ هارمان ، القاهرة ١٣٩١ / ١٩٧١ ، ج ٨ ، ص ١٤٢ ، المقرئى : (تقى الدين بن على . الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٨٥-٩٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ ، محمد عبد العال احمد : المرجع السابق ، ص ٣٧١ - ٣٧٣ .

Jamier: le mahmal et la Carauane Egyptienne, de Pelgrime de la mecque, le Caire, 1935, P. 210,
De Gaury : Rulers of Mecca, London, 1951, P.93.

- (٣) ابن حجر : الدور الكامنة ، ج ١ ، ص ٤١٧ .
- (٤) ابن تغرى بردى : (جمال الدين ابو المحاسن يوسف . النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٢٩/١٩٧٢ ، ج ٨ ، ص ٥٧-٥٨ ، الجزيرى : المصدر السابق ، ص ٢٨٨ .
- (٥) ابن حجر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١٧ .

ويترحم الجزيري على الامير بكتمر الجوكندار الذى صنع معروفًا كثيرًا وانفق فى حجته خمسة وثمانين ألف دينار من جملتها تجهيز المراكب بالفلال والدقيق والعسل والزبيب والحلوى ثم وزعها على الحجاج فى مكة وينبع وجدة .^(١)

اما الامير سلاى الذى تولى امره ركب الحج المصرى سنة ٧٠٣هـ فقد كان رجل خير حتى كان الناس يدعون له بقولهم : (يا سلاى كفك الله شر النار " فقد كتب أسماء المجاورين وأوفى ما عليهم من ديون لأربابها وأعطى أهل مكة جليلهم وحقيهم وكتب جميع الفقراء وجميع الاشراف لحمل اليهم الدنانير والدرهم .^(٢)

وفى حجات السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثلاث فى سنوات (٧١٢ - ٧١٩ - ٧٣٢) اظهر البر والتواضع والاحسان لأهل مكة كافة وكان يضرب المثل بحجته الاخيرة لما ادت اليه من رخص الاسعار ورخاء البلاد .^(٣)

اما ملك التكرور منسى موسى فقد كان لرحلته لأداء فريضة الحج سنة ٧٢٤هـ^(٤) اشر واضح فى انخفاض سعر الدينار الذهب الى ستة دراهم وقيل الى درهمين وتسهب المصادر فى وصف موكبه الفخم فى هذه الرحلة وما انفقته من الاموال الجلييلة فى الحرمين وفى مصر حتى لم يبق معه شيء رغم كثرة ما كان معه من الذهب ولذلك اقترض من التجار فى مصر واشترى عدة كتب من فقهاء المالكية " مذهبه " ثم عاد الى بلاده .^(٥)

وعندما حج الامير سيف الدين يشبك الناصرى سنة ٧٣٩هـ صنع كثيرًا من

-
- (١) الجزيري : المصدر السابق (درر الفوائد) ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .
 - (٢) ابو الفدا : (الملك المؤيد اسماعيل صاحب حملة . المختصر فى تاريخ البشر ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج ٤ ، ص ٥١ ، ابن ابيك : ابى بكر ابن عبد الله . كنز الدرر وجامع الغرر ، الدرر الفاخر فى سيرة الملك الناصر تحقيق هانس روبرت رويمر ، القاهرة ، ١٩٦٠/١٣٧٩ ، ص ٩٦ ، ص ١١٨ ، المقرئى تقى الدين احمد ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٧٢ ج ٢ ، ص ٤٠٥ الجزيري : نفس المصدر ، ص ٢٩١-٢٩٢ .
 - (٣) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ ، الذهب المسبوك ، ص ١٠٦-١٠٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٠٦ .
 - (٤) الفاسى : العقد الثمين ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، الطبرى : (محمد بن على بن فضل الله ، اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن ، مخطوط بمعهد احياء المخطوطات العربية رقم ٨٧٠ ، ص ٣٢ .
 - (٥) المقرئى : الذهب المسبوك ، ص ١١٣ .

البر والمعروف لركب الحجيج من مصر الى مكة كما احسن الى اهل الحرمين
والمجاورين والحجاج ويقال أن ما انفق في مكة بلغ ثلاثين ألف دينار ...
وأربعمائة ألف درهم . (١)

وفي سنة ٧٥٧هـ كان الركب العراقي في غاية الكثرة وحج بعض العجم
وتصدقوا بذهب كثير . (٢) ويذكر ابن بطوطة ان الركب العراقي كان سببا في
رخص سعر الذهب بمكة اذ انتهى صرف المثقال الى ثمانية عشر درهما شقره (٣)

وعندما حجت بركة خاتون أم الاشرف شعبان سنة ٧٧٠هـ حج معها خلق كثير
وعملت المعروف الواسع في الحجاز وكان خروجها مع الرجبية . (٤)

وبلغ الحاج المصري سنة ٧٩٠هـ سبعة ركوب من كثرتهم سوهم ركوب المغاربة
والتكاثره تسعة ركوب (٥) وقام امير الركب الاول جركس الخليلى بكثير من
اعمال الخير في الحجاز وكان يتصدق في كل يوم بكميات من الخبز على الفقراء (٦)

ولعبت اسواق مكة ايام الموسم دورا كبيرا في النشاط التجارى والتحكم
في الاسعار نتيجة لكثرة المتاجر والسلع التى يحملها الحجاج والتجار
وما توءدى اليه هذه الكثرة من انخفاض في اسعار السلع فقد اخبر الحجاج
الذين قدموا سنة ٨٢٠هـ " ان السنة كانت عليهم شديدة الرخص حتى بيع الحمل
الدقيق بستة دنانير ويقال بانه استقام على الذى جلبه باثنى عشر (٧)

وكان لسلطين آل عثمان دورهم البارز في الاحسان الى اهل الحرمين

-
- (١) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٦٩٤ .
(٢) الفاسى : العقد الثمين ، ج ١ ، ص ١٩٥ ، الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٣١ .
(٣) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٦٧ .
" درهم المنقرة هي اجود الدراهم عيارا - في تلك الفترة - ثلثاها او
اكثر من فضة والثلث او اقل من نحاس وكانت تسك بدار الضرب بالسكة
السلطانية ومنها دراهم صحاح وقرضات مقصومة . القلقشندي : صبح الاعشى
ج ٣ ، ص ٤٣٩ - ٤٦٢ - ٤٦٣ .
(٤) ابن حجر : الدر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٧٤ - ٤٧٥ ، الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٧٠ .
(٥) ابن فهد : اتحاف السالكين ، ص ٣١٥ .
(٦) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ، ص ٥٣٦ ، ابن حجر : ابتداء الغفر ، ج ١ ، ص ٣٨٥ ، ٣٥٢ .
(٧) ابن حجر : الدر الكامنة ، ج ٣ ، ص ١٣٥ .

ومساعدتهم ففي سنة ٨٥٠هـ حج احد وزراءهم بصدقات جليلة واموال وافرة (١)

وفى سنة ٨٦١هـ حجت زوجة الاشرف اينال وكان لها بمكة والمدينة معروف وصدقة ومن اعمالها الجليلة ميضأة ورباط فى كل من مكة والمدينة وقد حجت مرة اخرى سنة ٨٧٩هـ وكانت فى هذه المرة زوجة للسلطان الاشرف قايتباى (٢).

وكان اول من ارسل المر للحرمين من العثمانيين السلطان محمد بن بايزيد (٣) اما السلطان بايزيد المتوفى سنة ٩١٨هـ فقد كان يرسل فى كل عام للحرمين أربعة عشر ألف دينار مناصفة . (٤)

وكان لاهتمام السلطان قايتباى بأمر الحرمين اشره الكبير فى بناء كثير من المنشآت فعندما حج سنة ٨٨٤هـ امر وكيله وتاجره الخواجا شمس الدين محمد الشهير بالزمن أن يبني له مدرسة يدرس فيها علماء المذاهب الاربعية ورباطا يسكنه الفقراء وربوعا ومسقفات اصبحت تغل كل عام ألفى دينار، ووقف قرى وضياعا بمصر تحمل غلاتها كل عام الى مكة وتصدق على الفقراء بخمسة آلاف دينار (٥). وقيل ثمانية آلاف دينار . (٦)

هذا وقد بقيت عائدات اوقاف السلطان قايتباى تصل الى مكة حتى فى عهد الدولة العثمانية وكانت تعرف باوقاف الدشيشة الكبرى ولكن غلاتها لم تكن ترسل كاملة الى الحرمين وصار ما يرسل اقل مما تغل . (٧)

ومع كثرة الحجاج سنة ٨٩٦هـ " الا ان الاسعار كانت رخيصة جدا " يبيع

-
- (١) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٦٩ .
 - (٢) الجزيرى : المصدر السابق ، ص ٧٠٣ - ٧٠٥ .
 - (٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ١٧٢ .
 - (٤) ابن العماد : نفس المصدر ، ج ٨ ، ص ٨٦ .
 - (٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٦٠ - ١٦١ ، الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٨٢ - ٨٣ .
 - (٦) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ق ١ ، ص ٦ .
 - (٧) مصطفى رمضان : وثائق مخصصات الحرمين فى مصر ابان العصر العثمانى ندوة دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الاول ، الجزء الثانى قسم التاريخ وقسم الاثار والمتاحف ، كلية الآداب ، جامعة الرياض - الملك سعود حاليا " ١٣٩٩ ، ص ٢٦٧ .

الحمل الدقيق المصرى بأشرفيين وستة عشر مطلقا بل بيع الربع بحلق واحد وكان الحب والعسل واللحم كذلك فى غاية الرخاء". (١)

وهذا دليل على ان المتاجر فى مكة كانت كثيرة جدا فأدى ذلك الى انخفاض الاسعار على الرغم من كثرة الحجاج .

وفى سنة ٩١٥هـ حج احد الامراء العثمانيين مع الركب المصرى وقام بتوزيع مبلغ أربعين ألف دينار فى مكة والمدينة ، كان قد ارسلها معه السلطان العثمانى (٢)

وكانت هذه السنة فى غاية الرخص على اهل مكة والحجاج (٣)

وعندما حج ولد السلطان قانصوه الغورى مع والدته سنة ٩٢٠هـ استقبله صاحب مكة الشريف بركات استقبالا حافلا وكان ممن خرج معه للقاءه قضاة مكة وأعيان التجار بها ثم توجه الشريف بركات فى صحبتهما عند العودة الى مصر ولقئهم السلطان الغورى كل تقدير واکرام ، ومما يذكر ان ولد السلطان قام بكثير من اعمال البر والاحسان فى أثناء مقامه بمكة . (٤)

وقد جاء الى مكة فى السنة التى قبلها ٩١٩هـ ملكان من ملوك التكاثر وكان خروجهما من مصر بعد الحاج بأيام وعادوا صحبة ركب الحاج المصرى. (٥)

وعموما فقد حفرت السمات الاقتصادية خصائصها فى هذا الموسم باعتباره الظل الاساسى للموءكد لاهمية مكة التجارية المستمدة من تاريخها ومكانتها وثقلها الدينى فى العالم الاسلامى .

(١) الجزيرى : المصدر السابق ، ص ٣٤٤ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ١٦٨ .

(٣) ابن طولون : المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٣٤١ .

(٤) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٤٣٣ . ابن اللبيع : قررة العيون ، ق ٢ ، ص ٢٢٠ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٣٤٣ .

" موقع مكة على طرق القوافل " :

لقد كان لموقع مكة الجغرافى باعتبارها ملتقى الطرق البرية عبر الجزيرة العربية شمالها وجنوبها وشرقها وغربها ، كان لذلك اثره فى احتلالها مكان الصدارة فى الميدان التجارى منذ أقدم العصور فى جزيـرة العرب . (١) فما الايلاف فى قوله تعالى : " لا يلاف قريش ايلافهم ، رحلة الشتاء والصيف " . (٢) الا معاهدات تجارية عقدها القرشيون لتأمين نقل تجارتهم فقد نجح هاشم بن عبد مناف فى تكوين شبكة تجارية تربط مكة بما حولها (٣) بعقده الاحلاف التجارية مع رؤساء القبائل المهيمنة على طرق التجارة البرية عبر الجزيرة .

وطرقت تجارة قريش المجال الخارجى بعقدها المعاهدات مع حكومتى الروم وفارس " وكان يمثل الامبراطور البيزنطى عظيم بصرى بينما يمثل كسرى فارس مرزبان البحرين " (٤) كما كانت صلاتها التجارية كبيرة مع الجنوب " اليمن " فقد اتصل المطلب بن عبد مناف بأقبيال اليمن وعقد معهم اتفاقا تقوم قريش بمقتضاه بالتجارة فى أرضهم واتصلت قريش بالحشة وأبرمت معها اتفاقا مماثلا أصبحت الحبشة بموجبه وجها ومتجرا لقريش (٥) .

وقد نظمت هذه المعاهدات الرحلات فى الصيف والشتاء فكانت القوافل القرشية تتاجر مع مصر والشام والعراق فى الصيف ومع اليمن والحبشة فى الشتاء (٦) هذا عدا متاجرتها مع القبائل الضاربة فى شبه الجزيرة العربية

-
- (١) جورج فاضلو حورانى: العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة واولائل القرون الوسطى ، ترجمة د. السيد يعقوب بكر القاهرة بدون تاريخ ص ١٠٥ .
 - (٢) سورة قريش ، آية ١ .
 - (٣) السيد احمد ابو الفضل عوض : مكة فى عصر ما قبل الاسلام ، ط ٢ ، الرياض ١٤٠١ / ١٩٨١ ، ص ١٢٩ .
 - (٤) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص ٢٢٤ .
 - (٥) احمد ابراهيم الشريف : دور الحجاز فى الحياة السياحية العامة فى القرنين الاول والثانى للهجرة ، ط ٢ ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٣٧ - ٣٨ .
 - (٦) ابو الحسن على الحسينى الندوى : السيرة النبوية ، ط ٣ ، جدة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ص ٧٦ ، على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ، ص ٩٧ .

وفى مقدمتها اليمامة التى كانت ريف مكة . (١).

وكان انصراف اهل مكة الى التجارة نتيجة لظروفهم الطبيعية فالجبال تحيط بواديهم من جميع الجهات (٢) . والمياه شحيحة بها ... ولذلك قيل ان اسم مكة مشتق من مك أى مص لقلعة مائها لانهم كانوا يمتكون الماء أى يستخرجونه (٣) ونظرا لوقوعها فى الاقليم الثانى (٤) فقد تميز مناخها بالجفاف والارتفاع الشديد فى درجة الحرارة . (٥)

وعلى الرغم من كونها بواد غير ذى زرع (٦) ... كان للنشاط التجارى اثره فى ان يجلب اليها ثمرات كل شئ (٧) . ولهذا نرى الاقوات والثمار وسائر البضائع والسلع متوفرة فيها ولا يقتصر وجودها على وقت الحج بل تكاد لا تنقطع طول العام . (٨) وما ذلك الا من فضل الله ورحمته بعباده استجابة لخليلة ابراهيم عليه السلام حين دعاه قائلا : " ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (٩) وفى قوله تعالى : "وارزق اهلهم من الثمرات لعلهم يشكرون " . (١٠)

وتجدر الإشارة الى ان طرق الحج هى نفسها طرق التجارة ذلك ان قوافل التجار كثيرا ما كانت تصحب قوافل الحجيج لما كانت تجده فى كنفها من امن وحماية .

- (١) ابو الحسن على الحسينى الندوى : نفس المرجع ، ص ٧٦ .
" كانت اليمامة ريف مكة - لذلك لم يمنع شمامة بن آشال - سيد بنى حنيفة حمل الحنطة الى مكة بعد ما اسلم ، جهدت قريش وكتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه ان يكتب الى شمامة يخلى اليهم حمل الطعام ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم " . ابو الحسن الندوى : ص ٧٦ .
- (٢) ياقوت : معجم البلدان ، مادة مكة ، ج ٥ ، ص ١٨٧ ، الفاسى : العقد الثمين ، ج ١ ، ص ٢٨ .
- (٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة مكة ، ج ٥ ، ص ١٨٢ .
- (٤) ابن ابيك : الدررة العليا فى اخبار بدء الدنيا ، تحقيق بيرندرامكة ، القاهرة ١٩٨٢/١٤٠٢ ، ج ١ ، ص ٩٩ .
- (٥) احمد ابراهيم الشريف ، المرجع السابق ، ص ٧ ، على بن حسين السليمان : المرجع السابق ، ص ٩٩ .
- (٦) سورة ابراهيم : اية ٣٧ .
- (٧) ابن الضياء القرشى : تاريخ مكة ، ق ٨٣ - ٨٤ أ .
- (٨) ابن جبير : المرحلة ، ص ٩٧ .
- (٩) سورة ابراهيم ، اية ٣٧ .
- (١٠) سورة البقرة ، اية ١٢٦ .

ويعد طريق القوافل من مصر الى مكة من الطرق الرئيسية

التي كان لها دور كبير فى ازدهار الحركة التجارية ونشاطها وقد توفى استخدام هذا الطريق خلال الحروب الصليبية وتحول الحجاج والتجار الى طريق آخر من القاهرة عبر النيل الى قوص^(١) ومنها الى ميناء عيذاب^(٢) والقصير^(٣) برا ثم عبر البحر الاحمر الى موانئ الحجاز .^(٤)

وقد دبت الحياة من جديد فى هذا الطريق حين سلكته السلطنة شجر الدر وهى وطريقها الى الحج سنة ٦٤٨ هـ ^(٥) ثم بدأت اهمية هذا الطريق بشكل رسمى عندما سلكه الظاهر بيبرس وتوجهت عبره قافلة الحجاج ومعها كسوة الكعبة سنة ٦٦٧ هـ ^(٦)

- (١) قوص " من اهم المراكز التجارية النهرية فى مصر تقع عند نهاية طريق القوافل الممتد بين عيذاب والنيل وهى - مدينة عظيمة لها خيرات عميقة بساطينها مورقة ، واسواقها مونة ، ولها المساجد الكثيرة ، والمدارس الاثيرة وهى منزل ولاة الصعيد " .
- رحلة ابن بطوطة ، ص ٤٨ .
- (٢) " عيذاب " على ساحل البحر الاحمر مقابل جدة زادت اهميتها بعد تحول طريق التجارة من الخليج العربى الى البحر الاحمر وصارت محط تجار الهند واليمن والحبشة ثم اصبحت طريق الحج والتجارة بعد استيلاء الصليبيين على ايلة واغلاتهم طريق القوافل وقد ظل طريق قوص عيذاب مسلك الحجاج والتجار " من اعوام بضع وخمسين وأربعمئة الى اعوام بضع وستين وستمئة " . المقرئى : تقى الدين احمد ، المواعظ والاعتبارات بذكر الخطط والاشار (طبعة بالافست) ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .
- (٣) القصير : موقع قرب عيذاب بينه وبين قوص قصبة الصعيد خمسة أيام وبينه وبين عيذاب ثمانية أيام وفيه مرفأ سفن اليمن وقد ازدادت اهميته بعد ما تضاءلت اهمية عيذاب .
- ياقوت : معجم البلدان ، مادة القصير ، ج ٤ ، ص ٣٦٨ .

- (٤) محمد عبد العال احمد : بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٣٨٠ ، ٢٥٠ ، أمين محمود عبد الله : (طرق الحج والتجارة العربية فى العصر الاسلامى مجلة الفيصل ، العدد ١٨ ذى الحجة ١٣٩٨ هـ / نوفمبر ١٩٧٨ م ، ص ٢٢ ، حسنى محمد ربيع : البحر الاحمر ، ص ١١١ .
- (٥) محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية ، القاهرة ، ١٣٢٧ ، ص ٣١ .
- احمد السباعى : تاريخ مكة ، ط ٢ ، مكة ١٣٨٠ ، ص ٢٢٥ .
- (٦) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٣١ ، محمد عبد العال احمد : المرجع السابق ص ٣٨٠ - ٣٨١ ، احمد رمضان احمد : شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى القاهرة ١٣٩٧/١٩٧٧ ، ص ٢٠٧ .

فاستعاد الطريق اهميته واصبح طريق الحج والتجارة واهتم سلاطين المماليك بهذا الطريق لتسهيل الحج وتنشيط الحركة التجارية واصلحوا المنشآت والمرافق فيه فأدى ذلك الى ازدهار تجارتهم بدرجة كبيرة . (١)

ويبدأ الطريق البرى من بركة الحاج على مرحلة واحدة من القاهرة (٢) الى الشمال الشرقى منها ٥٠٠٠٠ وهى مركز الحجاج فى مصر والاندلس والمغرب وافريقيا وغيرها وكانت تعرف باسم " جب عميرة " (٣) و " بركة الجب " . (٤)

وبوعد بالبركة مكسى الجمال وأول من احدث هذا فخر الدين ابن مكانس سنة ٧٨٠هـ حين الزم المقدمين أن يحضروا أوراق المكسى التى معهم ومن لم يحضر ورقة ألزم باعادة المكسى . (٥)

وفى سنة ٨٢٨ هـ فى سلطنة الاشرف برسباى عمر زين الدين بن عبد الباسط فى البركة بستانا وساقية ماء وأنشأ بها فسقية كبيرة تملأ بالماء وكان بها نفق كبير للحجاج والتجارة . (٦)

وتعتبر البركة من انشط الاسواق على بداية الطريق وينصب بالبركة سوق كبير فيه من الجمال وانواع الملابس المعدة للسفر ٠٠٠ وما يحتاجه المسافرين من المركوب والمأكول والملبوس بحيث ان من اراد ابتداء السفر من البركة يتهيأ له سائر ما يحتاجه من أسبابه وينتظم بها سائر احوال الركب . (٧) ومن البركة الى السويس فى خمس مراحل (٨) وهنا يمر بعجود وتقع على بعد عشرين كم من السويس (٩)

- (١) الجزيرى: المصدر السابق ، ص ٤٤٩-٤٥١ ، امين محمود عبد الله : المرجع السابق ، ص ٢٢ .
 - (٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .
 - (٣) البعقوبى : (احمد بن ابى يعقوب بن واضح) البلدان ، ملحق كتاب الاعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١ ، ص ٣٤٠ .
 - (٤) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، ج ١٣ ، ص ٧٦ .
 - (٥) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج ١ ، ص ١٧٧ .
 - (٦) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٩٦ .
 - (٧) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٤٧٩ .
 - (٨) السيوطى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .
 - (٩) سيد عبد المجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ج ١ ، ص ١٠٦ ، ١٩٨١ - ١٤٠١ .
- احمد رمضان احمد : المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

وبها يلتقى اهل السويس مع الحجاج للمتاجرة . " وفيها بئر قديمة بعيدة
الرشا زعقة الماء " . (١)

وقد توالى يد التعمير والانشاء على هذه المحطة منذ القرن السابع
الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فأنشئت بها قلعة متينة البنيان مربعة
الشكل بداخلها اعمدة اسطوانية من حجر الصوان والرخام . (٢)
وفى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون أنشأ بها الحاج آل ملك
الجوگندار خانا للمسافرين وبئرا وساقية ماء . (٣)

وفى سنة ٩١٣هـ توجه الامير علاء الدوادار (٤) الثانى الى عجم—رود
وأصلح السواقى التى فى مناهل الحاج (٥) وأنشأ بها السلطان قانصوه الغورى
ابراجا سنة ٩١٥هـ وجعل بها جماعة من المماليك يقيمون سنة ثم يعودون الى
مصر ويأتى جماعة آخرون لحراسة التجارة والتجار (٦) .. وجدد الخـان
الذى بها . (٧)

ثم يتجه الطريق الى نخل فى خمس مراحل (٨) ، وهى اهم محطات الطريق
التجارية ، وقد عمل فيها الامير آل ملك الجوگندار فى دولة السلطان،
الناصر محمد بن قلاوون بركا ومصانع وأنشأ بها السلطان الغورى قلعة
وأصلح عدة مناهل بالطريق . (٩)

ومن نخل الى ايلة خمس مراحل وبها العقبة العظمى (١٠) وهى منطقة وعرة

-
- (١) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٤٠ .
 - (٢) احمد رمضان احمد : شبه جزيرة سيناء ، ص ٢١١ .
 - (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٧٤ .
 - (٤) الدوادرية : وظيفة تعادل وظيفة السكرتارية الخاصة .
 - المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٧ ، هـ .
 - (٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٢٩ .
 - (٦) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٢ .
 - (٧) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
 - (٨) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .
 - (٩) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .
 - (١٠) ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد ، تاريخ ابن خلدون) وديوان
المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصروهم من ذوى السلف
الاكبر ، القاهرة ١٣٩١/١٩٧١ ، ج ١ ، ص ٥٢ .

وشاقة وقد عمل السلطان الناصر محمد سنة ٧١٩هـ على تمهيد الصخور وتوسعة الطريق ٠٠٠ وانفق على ذلك مبلغا كبيرا من المال . (١)

واهتم السلطان قانصوه الغورى باصلاح طريق العقبة فأرسل المعماري خاير بك لازالة الاماكن الصعبة التى بها العراقيب وبناء خان لحفظ الودائع وبروج وفساقي وعمارة رصيف على البحر عند العقبة . (٢)

وتشير الدراسات الحديثة الى الحفائر الاثرية فى المنطقة التى تؤد كد عناية السلاطين بتمهيد الطريق واصلاح منشآته فقد وجد فى المنطقة حـجـر تاريخى مكتوب فيه امر باصلاح هذه الاماكن الملك الناصر حسن ابن الناصر محمد ابن قلاوون كما ان هناك اشارات الى الاصلاحات التى تمت فى عهد السلطان قانصوه الغورى فقد عثر على حجر رخامى مكتوب فيه : " أمر بقطع هذا الطريق المبارك السلطان الملك الاشرف قانصوه الغورى " ، ووجدت بعض قطع من الرخام مكتوب فيها - السلطان مراد خان " العثمانى " (٣) .

وايلة من المراكز التجارية الهامة فى الطريق التجارى الذى يصل بين شمال شبه الجزيرة وجنوبها ٠٠٠٠٠٠ وساعد موقعها على ازدياد أهميتها باعتبارها محطة تجارية فى ملتقى طريقى الشام ومصر (٤) ، وكانت تقام فيها الاسواق العامة (٥) ، ويجتمع بها الحجاج من الشام ومصر والمغرب وبها التجارات الكبيرة وأهلها أخلاط من الناس . (٦)

ثم يمر الطريق بحقل فى مرحلة واحدة (٧) وتبعد عن أيلة بستة عشر ميلا ٠٠٠ وكانت تعرف قديما بساحل تيماء (٨) وهى من المحطات الهامة فى هذا

-
- (١) ابن تغرى بروى : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٦٠ .
 - (٢) ابن اياس : نفس المصداق والجزء ، ص ١٣٣ .
 - (٣) سيد عبد المجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ١١٥ .
 - (٤) ابن رسته : (ابى على احمد بن عمر ، الاعلاق النفيسة) ، ليدن ١٨٩١ ج ٧ ، ص ٣٤١ ، احمد السباعى : تاريخ مكة ، ج ١ ، ص ٣٠١ .
 - (٥) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٤٩٣ .
 - (٦) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .
 - (٧) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .
 - (٨) ياقوت : معجم البلدان ، مادة حقل ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

الطريق .

ومنها الى بر مدين فى اربع مراحل وبه مغارة شعيب عليه الصلاة والسلام (١)
وتعرف الآن بالبدة . (٢)

(٣)
ويصل الطريق الى عيون القصب فى مرحلتين وتعرف بعينونة وهى امتداد
لواى روى . ودرج الحج يدور حول اقصى نقاط جبل الزهد قبل ان يصل الى
عينونة (٤) . وكانت تخرج من بين الجبلين ماء يسبح فى الواى وينبت فيه
القصب الفارسى (٥) ولعل هذا سبب تسميتها بعينون القصب وقد جفت هذه العيون
وعانى الحاج الكثير لعدم وجود الماء العذب فحفرت بها بئر بأمر القاضى
زين الدين عبد الباسط (٦) وكثر النفع بها . (٧)

ويتهجه الطريق بعدها الى المويلح فى ثلاث مراحل (٨) وتقع على
الشاطئ الشرقى للبحر الاحمر على بعد ٢٣٠ كم جنوبى بلدة العقبة . وقد
قامت على اطلال بلدة مدين وبها قلعة حصينة ونخيل وآبار عذبة ومزارع ويبيع
فيها السمك والتمر والدقيق والبقسماط والفول وكل ما يلزم المسافر . (٩)
والمحطة التالية الازلم ويقطعها المسافر فى اربع مراحل وماؤه
مر ، وبها خان وبئر أنشأها آل ملك الجوكندار (١٠) واقام بها السلطان
قائمه الغورى قلعة وجعل بها جماعة من المماليك لحراسة الطريق طول
السنة - ثم يعودون لمصر ويستبدل بهم غيرهم (١١) وتعرف اليوم بمنزلة دمر

-
- (١) السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
 - (٢) سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع ، ص ١٢٥ .
 - (٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣١١ .
 - (٤) السيوطى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٢٨ .
 - (٥) المقرئى : السلوك ج ٤ ، ص ٨٦٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ، ص ٣٥٥ .
 - (٦) هو عبد الباسط بن خليل بن ابراهيم الدمشقى الطاهرى تولى عددا من المناصب الجليلة وكان ناظر الجيش فى ايام السلطان الظاهر ططر وبعده كما كان متكلما على اوقاف كسوة الكعبة وعظم أمره فى دولة المماليك الاشرف برسباى حتى صار مدير المملكة واطلق عليه عظيم الدولة وقد كان واسع الجاه والعطاء اطلع كثيرا من المنشآت فى طريق الججاز واهتم بشكوى الحاج ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .
 - (٧) المقرئى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٧٦ .
 - (٨) السيوطى : نفس المصدر والجزء ، ص ٣١١ .
 - (٩) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، ج ١٠ ، ص ٢٢٣ .
 - (١٠) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣١١ .
 - (١١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .

أو دمرها (١) وتقام بالازلم سوق كبيرة يباع فيها الزاد والعليق والسلع المتنوعة وتزدهر السوق خاصة فى اثناء عودة الحجاج والتجار . (٢)

ويمتد السير الى الوجه فى خمس مراحل وماؤه من اعذب المياه . (٣)
الا انه قليل فسبب هذا للواردين عليها مشقة كبيرة وربما هلك بعضهم من العطش ولذلك بعث السلطان الاشرف برسباى الامير شاهين العثمانى وبعث معه المهندسين والبنائين لاصلاح المشاهل على طول الطريق من القاهرة الى مكة ، فحفروا بئرين بزعم وقبقاب سنة ٨٣٤ هـ ، ومنذ هذا التاريخ بطل مرور الحاج على منزلة الوجه واكتفوا بمرور الماء فى زعم (٤) .

ومن الوجه الى اكرى فى مرحلتين وماؤها اُصعب ماء فى الدرب ثم الى الحوراء على ساحل بحر القلزم فى اربع مراحل وماؤها ملح (٥) وللحوراء حصن وسوق عامرة وهى من مدن خيبر . (٦)

ومنها الى نبط فى مرحلتين وبها ماء عذب (٧) .

ويتجه الطريق الى ينبع فى خمس مراحل تستغرق ثلاثة أيام (٨) وهى من أهم المحطات فى هذا الطريق وكان سلاطين المماليك يرسلون اليها السفن محملة بالغلال والصدقات وكل ما يحتاجه الحجاج (٩) ونالت ينبع شهرة عظيمة فى أيام المماليك وبلغت اسواقها التجارية أوج ازدهارها (١٠) ويصفها المقدسى بقوله " ينبع كبيرة جليلة حصينة الجدار غزيرة الماء أعمر من يشرب واكثر نخيلا حسنة الحصن عامرة السوق لها بابان الجامع عند احدهما الغالب عليها بنو الحسن (١١) .

-
- (١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج١، ص ٧٤، هـ.
(٢) الجزيرى: درر الفوائد، ص ٥٢٢ .
(٣) السيوطى: نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) المقرئى: السلوك، ج٤، ص ٨٦٠، ابن تغرى بردى: نفس المصدر ج١٤، ص ٣٥٥
ابن فهد: اتحاف الورى، ص ٣٧٥ .
(٥) السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣١١ .
(٦) المقدسى المعروف بالبشارى: احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم بغداد بدون تاريخ، ص ٨٣ .
(٧) السيوطى: نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٨) السيوطى: نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٩) المقرئى: السلوك، ج١، ص ٩١٧، الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٨٩ - ٢٤٤ .
(١٠) ابن فهد: اتحاف الورى، ص ٣١٩
(١١) المقدسى: نفس المصدر والصفحة .

ويصفها ابن شاهين وهي فى قمة ازدهارها فيقول " مدينة ينبوع كثيرة العماثر والاسواق والنخل وهي بندر ترد اليه المراكب بالغلال من سواحل الطور يؤخذ عليها المكوس لصاحب ينبوع فى كل سنة قدر ثلاثين ألف دينار . (١) ومن ينبع الى الدهناء فى مرحلة ، ثم الى بدر فى ثلاث مراحل وفيها عيون وجداول وحداثق (٢) ويصفها المقدسى بقوله : " بدر مدينة صغيرة من نحو الساحل جيدة التمور وشم عين النبي صلى الله عليه وسلم وموضع الوقعة ومساجد بناها ملوك مصر " (٣) .

ومنها الى رابغ فى خمس مراحل ، وهي بازار الجحفة وهي الميقات (٤) وهنا يحرم الحجاج والتجار الذين يقصدون مكة حتى وان لم ينو التاجر الحج وقصد التجارة وحدها فى مكة فى أيام الموسم وغيره لزمه الاحرام لقول ابن عباس رضى الله عنه " لا يدخل مكة تاجر ولا طالب حاجة الا وهو محرم " (٥)

ويواصل السير الى خليص فى ثلاث مراحل (٦) وقد اجرى الماء اليها السلطان الناصر محمد سنة ٧١٩هـ وكان قد انقطع مدة سنين (٧) ، ومنها الى بطن مر " وادى فاطمة حاليا " (٨) ، مارا بعسفان فى ثلاث مراحل . (٩) ، وبالوادي زروع ونخيل وبركة يجرى فيها الماء .

ويصفه صاحب كتاب الخراج بقوله : " وبطن مر قرية عظيمة كثيرة الاهل والمنازل ، وعلى أربعة اميال منها قبر ميمونة زوجة النبي صلى الله عليه

- (١) ابن شاهين : (غرس الدين خليل الظاهري) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باريس ١٨٩١م ، ج١ ، ص ١٩ .
- (٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣١١ .
- (٣) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٨٢ - ٨٣ .
- (٤) السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
- (٥) الطبرى : القري لقاصد ام القرى ، ص ٢٥٩ .
- (٦) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣١١ .
- (٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ٦٠ .
- (٨) حميد الجاسر : مر الظهران " وادى فاطمة " مجلة الغرب ، ج١ ، السنة الثامنة رجب ١٣٩٣ / آب أغسطس ١٩٧٣ ، ص ٤٤ .
- (٩) السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

وسلم ٥٠ وعلى ستة أميال من ذلك مسجد عائشة (١) " ومن بطن مر الى مكة
مرحلة واحدة (٢)

وبالإضافة الى هذا الطريق البرى كانت مصر ترتبط بمكة بطريق بحرى
بواسطة فرضتها جدة ويعد الطريق الذى يربط مكة وبلاد الشام من الطسرق
الرئيسية التى كان لها اثر كبير فى التجارة العالمية فمنه كانت تصل الى

مكة سلع الشام وأوروبا وتواصل سيرها الى بلاد اليمن وتعود القوافل التجارية
محملة بمنتجات اليمن والهند والحبشة مارة بمكة راجعة الى بلاد الشام .

ويبدأ الطريق من العسال على نحو عشرين كيلو مترا جنوبى دمشق (٣)
ويتهجه الى الكسوة أولى محطات الدرب ٥٠٠ ومنها الى قرية صنمين (٤) ثم الى
المزيريب وتقام بها الاسواق والمتاجر ٥٠ تليها ذرعة " درعا " وهى بلدة
صغيرة بها المياه العذبة والمحطة التالية بصرى وهى من المدن التجارية
القديمة ومنها الى الزرقاء ثم الى بركة زيرا ثم الى اللجون وبها الماء
الغزير ومنها الى حصن الكرك وهو من أمنع الحصون وأشهرها وبه يتحصن
الملوك واليه يلجأون فى النواشب ويتجه الطريق بعده الى الحسا (٥) ومنها
الى معان وكانت مخزنا كبيرا للموئن والعلوفة وفيها تقام سوق كبيسرة
للمقايضة ٥٠٠ ومنها يمتد السير عبر يومين فى صحراء قاحلة الى ذات حجج
" ذات الحاج " ثم الى وادى بلدح فتبوك وهى من اشهر المحطات التجارية
على هذا الطريق وكانت تنزل بها قوافل التجارة بين اليمن والشام التى
تمر بمكة قبل الاسلام وبعده ومنها الى وادى الاخضر " الاخضر " ثم الى بركة
المعظم ثم الى الحجر " حجر ثمود " مدائن صالح " ويتجه الدرب بعدها الى

- (١) ابو الفرج قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتاب ملحق كتاب الممالك
والممالك ، بغداد ، بدون تاريخ ، ص ١٨٢ .
- (٢) السيوطى / نفس المصدر والجزء والصفاة .
- (٣) سيد عبد المجيد بكر : المرجع السابق ، ص ١٨٢ .
- (٤) صنمان قرية من اعمال دمشق فى اوائل حوران بينها وبين دمشق مرحلتان
ياقوت : معجم البلدان ، مادة الصنمان ، ج ٣ ، ص ٤٣١ .
- (٥) كورة ومنزل بالحجاز : المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٢٩ ، ابن طولون
مفاكهة الخلان ، ق ١ ، ص ٢٩١ .

العلا... وتقام فيه سوق تجارية نشطة وهي مركز للودائع يصفها ابن بطوطة بقوله : " والعلاقرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة يقيم بها الحجاج أربعا يتزودون ويفسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر الكفاية واهل هذه القرية اصحاب امانة واليها ينتهي تجار نصارى الشام . لا يتعدونها وبياعون الحجاج بها الزاد وسواه" (١) ومن العلايمتد الطريق الى وادي العطاس ومناخه حار ثم الى هدية وماؤها مر ثم الى المدينة المنورة (٢).

ويذكر الجغرافيون منازل الطريق بين المدينة ومكة ويحددون المسافات بينها وهي تبدأ من موضع يقال له الشجرة (٣) على بعد ستة أميال من المدينة ثم الى ملل اثنتا عشر ميلا ، ثم الى السيلة (٤) تسعة عشر ميلا ومنها الى الرويشة أربعة وثلاثون ميلا ثم الى السقيا وبها مزارع ومياه جارية ستة وثلاثون ميلا . ومن السقيا الى الابواء تسعة وعشرون ميلا ثم الى الجعفة سبعة وعشرون ميلا ومنها الى قديد ستة وعشرون ميلا (٥) اوسبعة وعشرون ميلا (٦) ومنها الى عسفان اربعة وعشرون ميلا ثم الى بطن مر ستة عشر ميلا فمكة ستة عشر ميلا . وجميع مراحل الطريق تتوفر فيها البرك والمياه العذبة . (٧)

اما طريق الحج العراقي فهو درب زبيدة . نسبة الى أم جعفر زبيدة

بنت جعفر بن المنصور "زوج الخليفة هارون الرشيد (٨).

وكانت الكوفة بداية الطريق ومجتمع الحجاج والتجار من العراق وفارس

وخراسان يخرجون منها الى القادسية (٩) على بعد ٢٧ كم (١٠) وقد ينزلون

- (١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .
- (٢) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٠٥ - ١٠٨ ، ابن طولون : مفاكهة الخلان ص ١٠٦ ، ١٤٦ .
- (٣) مفاكهة أهل المدينة : ابن خرداذبه : (ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله المسالك و الممالك بغداد بدون تاريخ ص ١٣٠ ، ابو الفرج قدامة بن جعفر : الخراج ، ص ١٨٧ .
- (٤) "السيلة" وتباع بها الشواهين والصقور ، ابو الفرج بن جعفر نفس المصدر والصفحة
- (٥) ابو الفرج قدامة بن جعفر : الخراج ، ص ١٨٧ .
- (٦) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٣٠ - ١٣١ .
- (٧) ابن خرداذبة : نفس المصدر والصفحة ، ابو الفرج : نفس المصدر والصفحة ، ابن رسته ، الاعلاق ، ص ١٧٧ - ١٧٨ ، البعقوبي : البلدان : ص ٣١٣ .
- (٨) المسعودي : (ابن الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب ومفاد الجواهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد بيروت ١٤٠٣ / ١٩٨٣ ، ج ٤ ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .
- (٩) الجزيري : درر الفوائد ، ص ٤٦٥ .
- (١٠) لويس موزل : طريق الحج ==

بالنجف وهي حد بين الصحراء ووادي الفرات (١) ومن القادسية الى العذيب (٢) ٨ كم والعذيب تصغير عذب وهو الماء الطيب (٣) وتعرف الآن بعين السيد (٤) . ويتجه الدرب الى منارة القرون (٥) بركة ام قرون " فالمعيشة والمسافة بينها وبين العذيب ٣٤ كم ومنها الى القرعاء ٤٢ كم (٦) وفيها آبار للمياه (٧) ثم يسير الراكب الى واقصة (٨) ٤٦ كم (٩) وبها القصور والآبار ومصانع المياه (١٠) وتعد سوقها من الاسواق البارزة على الطريق ففيها يلتقى تجارها مع الحجاج والتجار المارين بهم فيكون بيع وشراء وتبادل متنوع للسلع والمنتجات (١١) ثم يتجه الطريق الى العقبة (١٢) بعد ٥٠ كم (١٣) وبها آبار وبرك (١٤) ومنها الى القاع بعد ٤٧ كم (١٥) وبه بئر عميقة وأربعة مصانع للمياه وهو

-
- (=) العراقي القديم ، مجلة العرب ، ج٣ ، السنة الرابعة ، رمضان ١٣٩٢ / تشرين الاول اكتوبر ١٩٧٢ ، ص ١٩٦ ، سيد عبد المجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ٣١ .
- (١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٨٧ ، ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٧٢ .
- (٢) لويس موزل : نفس المرجع ، ص ١٩٦ .
- (٣) بياقوت : معجم البلدان ، مادة الغريب ، ج٤ ، ص ٩٢ .
- (٤) حمد الجاسر : طريق الحيرة الى مكة ، مجلة العرب ، ج٥ ، السنة السادسة ذو القعدة ، ذو الحجة ١٣٩٩ هـ / تشرين اكتوبر نوفمبر ١٩٧٩ م ، ص ٣٦٤ ، لويس موزل : نفس المرجع ، ص ١٩٦ .
- (٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٧١ .
- (٦) لويس موزل : طريق الحج العراقي القديم ، ص ١٩٦ ، سيد عبد المجيد بكر : المرجع السابق ، ص ٣١ .
- (٧) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٢٦ ، الجزيري : المصدر السابق ص ٤٤٦ .
- (٨) لا تزال معروفة حتى الآن وهي داخل الحدود العراقية تقع بقرب خـسـط الطول ٤٣/٣٥ ، وخط العرض ٣٤/٣٠ ويطلق اسم واقصة على مواقع اخرى .
- (٩) حمد الجاسر : طريق الحيرة الى مكة ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .
- (١٠) لويس موزل : نفس المرجع والصفحة ، سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع والصفحة .
- (١١) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ج٧ ، ص ١٧٥ .
- (١٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٨٦ ، ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٧١ .
- (١٣) " لا تزال معروفة حيث توجد بركة باسمها بقرب خط الطول ٤٣/٣٨ ، وخط العرض ٣٠ / ٨ وهناك آكام تدعى خـسـم العقبة وهي على مقربة من الحدود العراقية واسم العقبة يطلق على مواقع اخرى " ، حمد الجاسر : نفس المرجع ، ص ٣٦٥ .
- (١٤) لويس موزل : نفس المرجع ، ص ١٩٧ ، سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع والصفحة .
- (١٥) ابن خرداذبة : نفس المصدر والصفحة ، ابو الفرج قدامة بن جعفر : الخراج ص ١٨٦ .
- (١٦) لويس موزل : نفس المرجع والصفحة ، حمد الجاسر : نفس المرجع ، ص ٣٦٥ .

أكثر محطات الدرب تحصينا (١) ومن السقاع الى الهيثم (٢) وبه قصر وبركة تنسب الى أم جعفر . (٣)

وتليه زبالة بعد ٣٦ كم (٤) وماؤها كثير وهى قرية عظيمة معمورة تقوى الحياة الاقتصادية فى اسواقها وينشط فيها التبادل التجارى (٥) ... ومنها يتجه الدرب الى الشقوق " الشحيات " بعد ٣٩ كم (٦) وبها مصانع للمياه العذبة ويشير ابن بطوطة الذى رحل على هذا الطريق سنة ٧٢٦ - ٧٢٧ هـ بعد آداب فريضة الحج الى انه نزل بمرحلة اخرى قبل الشقوق تدعى " التنانير " وفيها مصنع ممتلئ بالماء . (٨)

ومن الشقوق " الشحيات " الى البطان او قبر العبادى " العشار بعد ٥٠ كم (٩) وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك وبه مصنع كبير يعم جميع الركب " (١٠) .

ثم يند السير الى الثعلبية بعد ٤٥ كم (١١) وبها سوق رائجة لبيع الجمال والاغنام ومنتجاتها . (١٢)

(١٣)

ومن الثعلبية الى الخزيمية " زرود " بعد ٤٦ كم (١٤) ، فالاجفر (١٥)

- (١) سيد عبد المجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ٤٠ .
- (٢) يذكر حمد الجاسر فى طريق الحيرة ص ٣٦٥ ، ان القاع والهيثم موضعان لا موضع واحد كما ظن موزل فالقاع تقع شمال رفحا على الحدود العراقية الآن الدرجة ٤٣/٤١، ٥٩/٥٠ تقريبا والهيثم بقرب القاع ٤٣/٤١ و ٢٩/٥٠ تقريبا
- (٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة هيثم ، ج ٥ ، ص ٤٢١ - ٤٢٢ .
- (٤) سيد عبد المجيد : نفس المرجع ، ص ٣١ .
- (٥) ابن رسته : الاعلاق ، ج ٧ ، ص ١٧٥ ، ابن جبير : الرحلة ، ص ١٨٥ ، ابن بطوطة : الرحلة ص ١٧١ .
- (٦) موزل : المرجع السابق ، ص ١٩٧ ، حمد الجاسر : نفس المرجع ، ص ٣٦٥ ، سيد عبد المجيد بكر نفس المرجع ، ص ٣١ .
- (٧) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ١٢٦ ، ابو الفرج بن جعفر : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .
- (٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٧١ .
- (٩) موزل : نفس المرجع ، ص ١٩٨ ، حمد الجاسر : نفس المرجع والصفحة ، سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع والصفحة .
- (١٠) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٧٠ - ١٧١ .
- (١١) سيد عبد المجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ٣١ .
- (١٢) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٧٠ .
- (١٣) ابو الفرج : المصدر السابق ، ص ١٨٦ ، ابن رسته : المصدر السابق ، ص ١٧٦ .
- " يذكر حمد الجاسر فى طريق الحيرة ص ٣٦٦ أن زرود منزل قبل الخزيمية بميل ونصف بينما يذكر سيد عبد المجيد بكر فى كتابه الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ص ٤٦ أن زرود تقع على بعد ميل واحد الى الشمال من الخزيمية
- (١٤) سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع والصفحة . (١٥) " الاجفر " ما يزال معروفًا ==

بعد ٤١ كم^(١)، وفيه برك وآبار^(٢) مازالت باقية حتى يومنا هذا^(٣) وبه الطين الابيض الذى يحمل الى بغداد للغسول^(٤) ومنه الى فيد بعد ٦١ كم^(٥) وهونصف الطريق الى مكة^(٦) والتجارة هي محور النشاط الاقتصادي في فيد وأهم صادراته الجمال والاغنام وبه تحفظ الودائع للحجاج والتجار^(٧) .

وبعدها يتوجه الركب الى توز " التوزى " على بعد ٦٤ كم^(٨) وبها برك وآبار^(٩) قسميرا بعد ٣٠ كم^(١٠) فيتبادلون السلع والبضائع في سوقهم^(١١) فيأخذ اهلها الثياب الخام من التجار ويعطونهم الغنم والسمن واللبن والعسل

(=) وقد اصبح بلدة كثيرة السكان تابعة من الناحية الادارية لامارة حائل حمد الجاسر : نفس المرجع والصفحة .

- (١) سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع والصفحة .
- (٢) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ١٢٦ .
- (٣) موزل : المرجع السابق ، ١٩٨٠ .
- (٤) ابن رسته : نفس المصدر والصفحة .
- (٥) سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع والصفحة .
" فيد " بلدة لا تزال معروفة تقع في سفح جبل سلمى احد جبال طى ، حمد الجاسر : نفس المرجع والصفحة .
- (٦) ابن خرداذبة : نفس المصدر والصفحة ، ابن رسته : نفس المصدر والصفحة
الامفهاني : (الحسن بن عبد الله ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر ومالح العلى ، الرياض ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، ص ٣٤١ ، هـ .
- (٧) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٨٣ . ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٧٠ .
- (٨) موزل : المرجع السابق ، ص ١٩٩ ، سيد عبد المجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ٣١ .
- (٩) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٢٧ ، ابو الفرج : الخراج ، ص ١٨٦
ابن رسته : المصدر السابق ، ص ١٧٦ .
- (١٠) سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع والصفحة .
- (١١) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٨٢ ، ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٩ .

ثم يتصل السير الى الحاجر بعد ٥٦ كم ومنها الى النقرة مروراً بالفروى على بعد ٥٦ كم (١) فى وسط ارض نجد وهو موضع فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقى التربة ، معتدل فى كل فصل . (٢)

ومن النقرة الى مقيشة الماوان " العميرة بعد ٥٦ كم ومنها الى الريذة بعد ٥٩ كم فالسليلة بعد ٤٧ كم ثم يسير الدرب الى العمق بعد ٤٠ كم ثم معدن بنى سليم (٣) بعد ٤٤ كم الى الافيعية بعد ٥٣ كم ، فالمسلح بعد ٥٢ كم فغمرة بعد ٣٤ كم فذات عرق بعد ٤٠ كم ، " وهى محل احرام اهل العراق ومنها الى بستان بن معمر بعد ٤٢ كم فمكة بعد ٥٦ كم (٤) ويتوفر بمعظم هذا الدرب الابار والبرك . (٥)

وهناك طريق آخر يذكره الجغرافيون يربط العراق بمكة يبدأ من البصرة الى المنجشانية ، ثم الى الحفير ، ثم الى الرحيل ، ثم الى الشجى ، فالخرجا ، فالحفر ، فماوية ، ومنها الى ذات العشر ، ثم الى الينسوعة ، ثم الى البياح ، فالعوسجة ، فالقريتين ، فرامة ، ثم الى طخثة ، ثم الى ضريبة ، فجديلة ، ثم فلجة ، فالدفيئة ، ثم الى قبا ، قم الى مران ، ثم الى جرة ، ثم الى اوطاس ثم الى ذات عرق ، ثم بستان بنى عامر " ابن معمر " (٦) .

ومن أهم الطرق التجارية الرئيسية فى شبه الجزيرة العربية

طريقا اليمن .. واولهما طريق يبعد فى الجبال والآخر يسلك تهامة .

-
- (١) سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع والصفحة .
 - (٢) ابن بطوطة : نفس المصدر والصفحة .
 - (٣) " معدن بنى سليم " مهد الذهب حالياً ، حمد الجاسر : المرجع السابق ص ٣٦٧ .
 - (٤) سيد عبد المجيد : نفس المرجع والصفحة .
 - (٥) ابن خرداذبة : نفس المصدر ، ص ١٢٧ ، ابو الفرج : نفس المصدر ، ص ١٨٦ .
 - (٦) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٤٦ - ١٤٧ ، ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ج ٧ ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

اما طريق الجبل فيبدأ من الجند ، فذى اشرق وتقع فى الشرق الشمالى من تعز ، فذمار فنعاء وبينهما خمسة أيام ، فصعدة بعد عشرة أيام ، ومن صعدة الى الطائف عشرة ايام ثم الى عقبة الطائف " كرى الهدى " وهى مسيرة (١) يوم للطالع الى مكة ونصف يوم للهابط الى مكة وفى كل مرحلة جامع ومصانع للمياه

اما طريق تهامة فهى تفترق أيضا طريقين ٠٠٠ واحدة على الساحل والاخرى على الجادة السلطانية .

الطريق الساحلية تبدأ من :

المخنق ولا تزال تحمل هذا الاسم ثم المعارة ثم عبدة ثم السقيا ثم باب المنذب وفيه يلتقط العنبر الطيب الفاخر ثم المخاء ثم السحارى ثم الخوذة وتعريف الان بالخوذة ثم الاهواب ولا تزال تحمل هذا الاسم ثم غلافقة ثم نبعة ثم الحردة ثم الزرعة ثم الشرجة ثم المفجر ثم القنديرة ثم عشر ثم بيض وهو واد معروف مشهور من المخلاف السليماني ثم الدويمة ثم حمضة ولا تزال تعرف بهذا الاسم ثم ذهبان ثم حلى ثم السرين ثم جدة فمكة (٢) .

طريق الجادة تبدأ من " ذات الخيف وموزع والجدوت وحيس وزبيد وفشال والمجاع والقحمة والكدرا والجتة وعرق النشم والمهجم ومرر والواديـــــان وجيزان والساعد وتعشر وهو واد محتفظ بأسمه حتى الآن والمبنى، ورياح، والهجر وهو اليوم آهل بالسكان من المخلاف السليماني . ثم تلتقى طريق الجادة بالساحلية ويفترقان من السرين وبينهما وبين مكة خمسة أيام فأول ما يلقي الحاج من عمارتــــه بئر الرياضة ثم سبخة الغراب ثم الخبت ثم وادى يللمم ميقات اليمن ثم ادام فبئر البيضاء فالقرين ، فمكة (٣) .

- (١) عمارة اليمنى : ابو محمد نجم الدين بن ابي الحسن على ، تاريخ اليمن المسمى المقيد فى اخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها واعيانها وادبائها حققه وعلق عليه محمد بن على الاكوع ، ط٢ ، القاهرة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، ص ٧٢-٧٥ .
- (٢) عمارة اليمنى : : ، ص ٧٦ - ٧٨ .
- (٣) عمارة اليمنى : نفس المصدر ، ص ٧٨ - ٨٠ .

ويذكر الجزيري ان طريق الجادة تبدأ من تعز وهي مجتمع الركب اليمنى ثم الى البئر في مرحلتين ثم الى وادي الحناء في ثلاث مراحل فوادي الموز في مرحلة واحدة ثم الى زبيد في مرحلتين وبها يجتمع شتات الركب ويتكامل ثم الى المصارفة في اربع مراحل ثم الى الفحمة في اربع مراحل، ثم الى المخالب في ستة مراحل ثم حلى بنى يعقوب في ست مراحل ثم الى ترعة بنسى حازم في أربع مراحل ثم الى الحسنة في اربع مراحل فيلملم في مرحلتين فبئر على في ثلاث مراحل فمكة . (١)

اما الطريق من عمان الى مكة فمنازله على طريق الساحل تبدأ بفرق ثم عوكلان ، ساحل مناه ، بلاد الشحر ، فخالف كنده ، فخالف عبد الله بن مذجج فخالف لحج ، ابين عدن ، مغاص اللؤلؤ ، فخالف بنى مجيد ، المنجلة ، فخالف الركب ، المنذب ، فخالف رمع ، زبيد ، فخالف عك ، الحردة ، فخالف الحكم ، عتر . فمن اراد طريق الجادة سلك المخالف ومن اراد الساحل اخذ من عثر الى مرسى خنكان ثم الى مرسى حلى ثم الى السرين ثم أغيار ثم المرجاب ثم الشعيبه ثم منزل ثم جدة فمكة . (٢)

والطريق من خولان سحيم الى مكة يبدأ من مخلاف خولان الى ذى السحيم ثم العرش ثم الى بيشة ثم الى خنكان ثم الى حلى ثم الى ابن جاواث ثم الى قنونا ثم الى الحسبة ثم الى دومة ثم الى عليب ثم الى يبسة ثم الى منزل ثم الى الليث ثم الى يللم ثم الى ملكان ثم الى مكة . (٣)

واما الطريق من اليمامة الى مكة فيبدأ من اليمامة الى العرض ثم الى الحديقة ثم الى السيج ثم الى الثنية ثم الى سقيراء ثم الى

-
- (١) الجزيري : درر القوائد ، ص ٤٧٠ .
 (٢) ابو الفرج قدامة بن جعفر : الخراج ، ص ١٩١ - ١٩٣ ، ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .
 (٣) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ١٤٩ .

السد ثم الى مرارة ثم الى سويقة ثم القريبتين ثم يأخذ طريق البصرة وهناك طريق آخر من اليمامة الى مانص باحة الزلف ،منزل مصاه ، اهل الجون رامة من طريق البصرة . (١)

ومما لا شك فيه ان هذه الطرق فى مجموعها قد اسهمت فى تنشيط الحركة التجارية فى مكة المكرمة ... وكان لها اعظم الاثر فى جعلها مركزا تجاريا عالميا ... وقيامها بدور الوسيط فى التجارة العالمية ... علاوة على كونها محطة للقوافل التجارية التى تتزود منها بما تحتاجه لمتابعة رحلتها .

جدة ميناء مكة المكرمة :-

سارت مكة فى دروب التجارة بين البر والبحر فقد كان يخرقها شريان رئيسى من شرايين التجارة العالمية " الطريق البرى " ١٠٠٠ وفى موازاة شريان رئيسى آخر له خطره فى عالم التجارة وهو طريق البحر الاحمر . (٢) فقد كانت السفن من شتى البلاد ترسو بشرفها جــــــدة .

وقد ظهرت جدة ميناء لمكة المكرمة في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد أبطل استعمال ميناء الشعبية واعتمد جدة بدلا منها (٣) .
لقربها فهي تقع على بعد نحو أربعين ميلا من مكة (٤) وقد أسهمت جدة منذ ذلك الحين في تنشيط الحركة التجارية في مكة المكرمة وازدهارها .

ويقول الحفراوى " كان بندر جدة من المآثر المشهورة والمعالم المحمودة
لاحتوائها على المعاهد العظيمة والمشاهد الجسيمة لكونها للبلد الاميين

- (١) أبو الفرج قدامة بن جعفر : المصدر السابق ، ص ١٩١ .
- (٢) أحمد إبراهيم الشريف : دور الججاز ، ص ٣ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب ، ص ٢٠٨ .
- (٣) الفاسي : (أبو الطيب تقى الدين محمد بن أحمد ، شفاء الغرام باخبار البلد الحرام تحقيق لجنة من كبار العلماء والادباء ١٩٥٦م ، ١٩٥٨م ، تحقيق المرام ، ق ١٢٧ ، الحفراوي : (أحمد بن محمد بن أحمد الحفراوي الشافعي الجواهر المعدة في فضائل جدة وتاريخها - مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٢٧ دهلوي ، ق ٧ .
- (٤) التجيب السبتي : (القاسم بن يوسف ، مستفاد الرحلة والاعتراب ، تحقيق عبد الحفيظ منصور تونس ، ١٣٩٥ ص ١ - ٢ .

كالرأس من الجسد فهي دهليزه وبابه المعد ولا يكون الدخول من الدار الا من الباب . (١)

وتشير المصادر الجغرافية والتاريخية الى المكانة التجارية لجدة فيصفها الاصطخرى بقوله " وجدة فرضة اهل مكة على مرحلتين منها على شط البحر وهي عامرة كثيرة التجارات والاموال ، ليس بالحجاز بعدمكة اكثر مالا وتجارة منها وقوام تجارتها بالفرس " . (٢)

ويصفها المقدسى بقوله " جدة مدينة على البحر منه اشتق اسمها محصنة عامرة اهلها اهل تجارات ويسار خزانة مكة ومطرح اليمن ومصر وبها جامع سرى غير انهم فى تعب من الماء مع أن فيهما بركا كثيرة ويحمل اليهم الماء من البعد قد غلب عليها الفرس لهم بها قصور عجيبة وأزقتها مستقيمة ووصفها حسن شديدة الحر جدا " . (٣)

ووصفها الحضراوى بانها " ممر الابرار ومقر التجار ضاعف الله فيها البركات وأظهر الخيرات " . (٤)

وكانت جدة محاطة بسور وقد شاهد ابن جبير سورها عند وصوله اليها (٥) ولعل هذا السور هو الذى بناه تجار الفرس عندما سكنوا جدة قديما وذلك لحماية تجارتهم . (٦)

ولا شك أن اتخاذ جدة مرفأ لمكة المكرمة كان اختيارا موفقا فقد قسام

-
- (١) الحضراوى : نفس المصدر ، ق ١ - ٢ .
 - (٢) الاصطخرى : (ابن احاق ابراهيم بن محمد ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، ص ٢٣ .
 - (٣) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٧٩ .
 - (٤) الحضراوى : المصدر السابق ، ق ٢٢ .
 - (٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٣ .
 - (٦) الحضراوى : نفس المصدر ، ق ٧ .

ميناء جدة بدوره كاملا فى المجالات الدينية لاستقبال حجاج البحر والتجارية فكانت البضائع والسلع تصل اليه من شتى المناطق فاسهم بدور كبير فى ترسيخ القاعدة التجارية لمكة المكرمة ذلك ان قرب جدة من المراكز التجارية الهامة فى جنوب الجزيرة العربية وخاصة عدن كونها على الطريق الى الهند بالاضافة الى كون مينائها اوسع من غيره من الموانئ الحجازية ^(١) كل هذا ساعد على قيام جدة بدورها باعتبارها ميناء حيويا لمكة المكرمة .

وقد استوعبت اسواق جدة التجارة من مصر وسواكن وزنجبار والمومـال والهند وجاوة والروملـى والاناؤل والشام والمغرب والعراق والبحرين ومسقط واليمن واوروبا وآسيا وغيرها . ^(٢)

والواقع ان موسم الحج يمثل حركة تجارية عظيمة فى جدة وفيه تكثُر المتاجر المختلفة وتعقد الصفقات التجارية الكبيرة ^(٣) ومنها يستعبد التجار لدخول مكة ويستأجرون وسائل النقل لحملهم اليها ^(٤) ومتابعة تجارتهم فيها والسير بعد انتهاء الموسم الى بلاد الشام ^(٥) وقد اخذت اهمية جدة فى الازدياد نتيجة لعودة حركة الملاحة البحرية فى البحر الاحمر وازدهارها على حساب طريق الخليج فمن المعروف ان التنافس كان على اشده منذ القدم بين طريق البحر الاحمر وطريق الخليج فتزداد أهمية احدهما على حساب الاخر وفقا للظروف القائمة والقوى المتحركة فى كل منهما فنتيجة لضعف الدولة العباسية استطاع الفاطميون تحويل النشاط التجارى البحرى الى البحر الاحمر واصبح الشريان الرئيسى الذى يربط الشرق من الناحية التجارية بالغرب والمتحكم فى التجارة العالمية وقتذاك واهتم المسؤولون بتأمين الملاحة

-
- (١) على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ، ص ١٩ ، العلاقات الحجازية المصرية ، ١٩٥٠ .
 (٢) ابراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين والرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية ، ص ٢٤ .
 (٣) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، ص ١٩ .
 (٤) محمد لبيب البشنونى : الرحلة الحجازية ، ص ١٠ .
 (٥) حسنين محمد ربيع : البحر الاحمر ، ص ١١٠ .

فيه ، حماية للتجارة وحفاظا على سلامة الحجاج الذين يملون الى ساحل الحجاز والذين يفادرونه واستمر ذلك في عصر الدولة الايوبية . (١)

ومما لاشك فيه أن الازدياد في الاهتمام بطريق البحر الاحمر كان نتيجة طبيعية لما قام به الصليبيون من العمل على تحقيق السيطرة على هذا الطريق وهذا يهدد المقدسات الاسلامية تهديدا مباشرا ففي سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م كانت محاولة " رينودى شاتيون " المعروف في المصادر العربية باسم البرنسس ارناط لتهديد البحر الاحمر اذ قام بعملية حربية بحرية دنيئة تستهدف انتهاك حرمة المقدسات الاسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة (٢).

بالاضافة الى ما كانوا ياملون تحقيقه من السيطرة على البحر الاحمر واحتكار تجارة الشرق بالاستيلاء على عدن (٣) .

والواقع ان الايوبيين تمكنوا من القضاء على تلك المحاولة وزاد اهتمامهم بتأمين البحر الاحمر وحمايته من الخطر الصليبي (٤) كما عملوا على أن تستمر أهمية جدة التجارية مع عدم السماح لغير المسلمين بارتداد البحر الاحمر الذي اصبح بحيرة اسلامية . (٥)

وتمكن الايوبيون من تأمين طريق البحر الاحمر كما بذل المماليك من بعدهم قصارى جهدهم لاستعادة مكانة هذا الطريق ونظرا لعدم استخدام طريق سيناء نتيجة للوجود الصليبي في بلاد الشام فقد كان الاعتماد على طريق عيذاب الى ان اعاد الظاهر بيبرس فتح الطريق البري الى الحجاز عبر سيناء

- (١) محمد عبد العال احمد : الايوبيون في اليمن الاسكندرية ١٩٨٠، ص ٨٠ بنو رسول وبنو طاهر، ص ٣٧٧-٣٧٨، حسنين محمد ربيع : البحر الاحمر في العصر الايوبي ندوة ، تاريخ البحر الاحمر عشرين شمس سنة ١٩٧٩م، ص ١٠٦، وثائق الجنيزة ، ص ١٣٥ .
- (٢) جورج فاضلو حورانى : العرب والملاحة ، ص ٢٣٥، محمد عبد العال احمد : الايوبيون ، في اليمن ، ص ١١٨-١١٩، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٣٧٨ .
- (٣) احمد رمضان احمد : شبه جزيرة سيناء ، ص ١٢١ حسين محمد ربيع : البحر الاحمر ص ١١٠ ، علي بن حسين السليمات : النشاط التجارى ، ص ٥١ .
- (٤) احمد مختار العبادى ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام بيروت ١٩٨١ ، ص ٢٦٠ .
- (٥) حسنين محمد ربيع : البحر الاحمر ص ١٠٥ .

واستخدم الطريقان منذ ذلك الوقت من مصر حتى تم القضاء على طريق عيذاب
فى عهد برسبای (١).

ويبدو أن النشاط التجارى فى جدة قد تأثر بعودة الطريق البرى عبر
سيناء فضلا عن كون التجارة المملوكية فى البحر الاحمر قد تأثرت هى ايضا
فى القرن السابع الهجرى بسبب سيطرة المغول على الطريقين التجاريين
الاسويين طريق الخليج والطريق البرى عبر آسيا ، فأخذوا ينهجون سياسة
الجذب الاقتصادى بتأمين الطريقين وتقديم التسهيلات الكبيرة للتجار واقامة
العلاقات الودية مع الصليبيين فى الشام . (٢)

(٣)
وبدا الخليج مرة أخرى يستعيد أهمية تجارية تضارع الاهمية التى كان يحتلها
(٤)
ابان ازدهاره قبل نجاح الفاطميين فى تحويل طريق التجارة الى البحر الاحمر
وقد كان للفرنج وخانات المغول دور كبير فى تشجيع الحركة التجارية عبر
الخليج احتجاجا على الرسوم الجمركية العالية التى فرضها المماليك عليهم
فاتجهوا الى هذا الطريق للضغط على المماليك واطعافهم من الناحية
(٥)
الاقتصادية بمقاطعة الموانئ المملوكية والقضاء على تجارة البحر الاحمر
وخاصة لانه يعد بحرا اسلاميا لايسمح لغير المسلمين بالابحار فيه (٦) .

وكما حدث بعث الطريقين وازدهارهما من جديد على يد خانات المغول
كان للحروب المدمرة التى قام بها تيموليك أثرها الكبير فى تدهورهما بل
فى اغلاق الطريق التجارى البرى الذى يربط شبه جزيرة القرم بالصين فتضاءلت

- (١) محمد عبد العال احمد : بنو رسول : ص ٣٨٠-٣٨١ .
- (٢) احمد دراج : ايضاات جديدة على التحول فى تجارة البحر الاحمر منذ مطلع
القرن السابع الهجرى ، العدد الخاص بالمحاضرات العامة للجمعية المصرية للدراسات
التاريخية المومى الثقافى ١٩٦٨/٦٧ ، ص ١٨٧-١٨٨ ، محمد عبد العال احمد : بنو رسول
ص ٤٤٨-٤٥٠ .
- (٣) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع ، ص ٤٥١ .
- (٤) حسنين محمد ربيع : البحر الاحمر ، ص ١٠٦ ، وثائق الجنيزة ، ص ١٣٥ .
- (٥) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٥٠ ، صحرليب : التجارة الكارمية ،
ص ٢٤ .
- (٦) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٤٩ ، حسنين محمد ربيع : البحر
الاحمر ، ص ١٠٥ ، وثائق الجنيزة ، ص ١٣٤ .

اهمية الطريق التجارى عبر الخليج (١).

على انه يمكن القول انه يعود غالبة التجارة الى البحر الاحمر فى القرن الثامن الهجرى عا. النشاط الى ميناء جدة من جديد .

وبسبب موقع جدة التجارى وقربها من مكة كان التاجر المصرى من السمات المألوفة فيها وفى القرن الثامن الهجرى قدم الى جدة تجار الغلال من سواحل البحر الاحمر وخاصة من مصر فراجت تجارة الحبوب فى جدة بفضل ما يرسل اليها من مؤن من قبل سلاطين المماليك لمساعدة اهالى الحرمين الشريفين على مواجهة الازمات الاقتصادية فيهما فضلا على استقبال الميناء لمراكب تجار الغلال وقد وفق هؤلاء التجار على ما يبدو فى لفت انظار سلاطين المماليك وامراء مكة الى ميناء جدة (٢).

اما القول بأن النشاط التجارى فى جدة فى القرن الثامن الهجرى كان فى حدود ضيقة وأنه اقتصر على تجارة الحبوب وان تجارتها انحصرت مع مصر حتى اواخر ذلك القرن (٣) فليس لدينا من المصادر التاريخية ما يؤيد هذا الرأى " ذلك أنه منذ أن جعلت جدة مرفأ لمكة المكرمة اخذت تستقبل السلع التجارية الهندية واليمنية والحشية وغيرها القادمة من عدن " مفتاح الهند (٤) أو من قوص وعيذاب وكانت هذه الموانئ من اكبر المراكز والمحطات التجارية فى البحر الاحمر (٥). اصف الى ذلك ان تجار الاندلس والمغرب اذا لم يجدوا سوقا لمتاجرهم فى مدن مصر والشام اتجهوا الى جدة حيث كانوا يجدون سوقا رائحة لتجارتهم (٦) والواقع ان النشاط التجارى او الارتباط التجارى مع مصر

- (١) احمد دراج : المرجع السابق ، ص ١٨٨ .
- (٢) علي بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ١٩٤ ، النشاط التجارى ، ص ١١٠ .
- (٣) علي بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، نفس الصفحة ، النشاط التجارى ، نفس الصفحة .
- (٤) الفاسى : العقد الثمين ج ٢ ، ص ١٣٧ ، ج ٣ ، ص ٣٩٦ ج ٤ ، ص ٩٠ ، ص ٩١ ، ج ٦ ، ص ٦٢ ، ص ٢٠٧/٥٩ .
- (٥) الفلهمشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٤ - ٤٦٨ ، سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ م ، ص ٢٠٨ .
- (٦) حسنين محمد ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ١٣٥ .

كان يمثل جزءاً كبيراً من تجارة جدة فكثيراً ما كانت تقوم سفن التجارة المملوكية بنقل التوابل والعطور والعقاقير والاحجار الكريمة والعنبر والمسك وغير ذلك من السلع التجارية من جدة وعدن الى الموانئ التجارية فى القلزم والسويس والطور (١) .

ومن استعراض الاحداث التاريخية للحجار يبدو أن جدة قد بدأت فى التآلق من الناحية التجارية قبل النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى اذ يلاحظ ازدهار حركة التجارة فيها . غير أن هذه التجارة اصبت هدفاً لامراء مكة المتناحرين على السلطة (٢)

وكان لاهتمام شريف مكة احمد بن عجلان (٧٧٧-٧٨٨ هـ) بالتجارة والتجار أثره البالغ فى توافد التجار على جدة واقامتهم العلاقات الودية معه (٣) ولعل استقبال جدة سنة ٧٩٤ هـ لأكثر من ست وثلاثين جلبة من متاجر اليمن وحدها دليل على بداية ازدهار هذا الميناء (٤) وبسبب تدهور الحالة الامنية فى مكة وجدة بعد وفاة احمد بن عجلان والسياسة التعسفية مع التجار من قبل بعض الامراء (٥) بالاثقال على التجار بالمكوس او بمصادرة بضائعهم تأثرت الحركة التجارية فى جدة فترك التجار ميناء جدة واتجهوا الى ميناء ينبع (٦) ومن ذلك أنه فى سنة ٧٩٨ هـ اعرض تجار اليمن عن جدة وساروا الى ينبع وكان مقدمهم القاضى وجيه الدين عبد الرحمن ابن جميع (٧) .

وهكذا اخذت ينبع تنافس ثغر جدة فى الناحية التجارية وخاصة بعد عناية سلاطين المماليك بها واهتمامهم بأمن وحماية التجار فيها فكان طبيعياً أن

-
- (١) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب او اخر العصور الوسطى القاهرة ١٩٧٣م ، ص ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ .
 - (٢) الفاس : العقد الثمين ، ج ٣ ، ص ٣٩٦ ، ج ٦ ، ص ٥٩ ، ص ٦٢ ، ٦٥ .
 - (٣) الفاس : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٩٥ .
 - (٤) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣١٦ .
 - (٥) ابن حجر : ابناء القمر ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .
 - (٦) الفاس : العقد الثمين ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ، ج ٦ ، ص ٢٠٧ ، ص ٢١٢ .
 - (٧) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٢١ .

تصبح ينبع في العصر المملوكي مركزا هاما للتجارة في الحجاز^(١) والحق انه كان للجهود التي بذلها الشريف حسن بن عجلان (٧٩٨-٨٢٩هـ) أثرها في عودة التجار الى جدة والتردد عليها فعظمت هيبة الشريف حسن وكثر ماله وحصل له على نفع كبير من تجار الكارم واليمن .^(٢)

وبلغت جدة ذروة التآلق سنة ٨٠٦هـ بفضل جهود النائب المفوض الفقيه جابر الحراش^(٣) الذي عمر جدة ليحاكي بها فرضة عدن^(٤) فأصبحت الظروف ملائمة لكي تزدهر الحياة التجارية في جدة .. وبدأت بشائر بداية العصر الذهبي لها .

ولم يقتصر نشاط جدة الاقتصادية علي التجارة الخارجية فقط فبحكم وقوعها على البحر اقيمت فيها صناعة الجلاب وصيد السمك واستخراج الاصداف وبيعها .^(٥)

ومما ساعد علي ارتفاع شأن جدة ما فعله سلاطين اليمن من أساءة معاملة التجار وانتهاج سياسة تعسفية معهم فقد ادى ذلك الى تدهور ميناء عدن - قاعدة تجارة الشرق - وبلغت هذه السياسة اقصى حد لها في عهد الناصر احمد الرسولي (٨٠٣-٨٢٧هـ) فأضطرت التجار الى الفرار من عدن والاتجاه الي المراكز التجارية الاخرى المنافسة يومئذ^(٦) .. ومع ذلكفانه يمكن القول بان تلك الموانئ لم تبلغ في ذلك الحين المركز الرفيع الذي وصلت اليه عدن ومن هذه المراكز جدة .

وقد ادى استياء التجار من السلطان اليمنى الى مقاطعتهم لميناء عدن ومن ذلك ما قام به التاجر الهندي ابراهيم سنة ٨٢٥هـ فقد رسا بسفينته في ميناء جدة متجاوزا ميناء عدن ولكنه عومل في جدة معاملة سيئة واستولى

-
- (١) الفاسي : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ١٣٢ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣١٩ ، السجاوي (علي بن تاج بن تقى الدين ، مئذح الكرم مخطوط بجامعة ام القرى مركز البحث العلمي و احياء التراث الاسلامي ، ص ٣٣٢ .
- (٢) الفاسي نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٩٠ - ٩٩ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٢٤
- (٣) من اهل اليمن تردد الي مكة مرات كثيرة ^{وكان} الشريف حسن بن عجلان ، ففوض اليه امر جدة وغيرها ونهض بما لا ينهض به غيره وكان له حظ في التجارة ، مات مشنوقا سنة ٨١٦هـ ، الفاسي : نفس المصدر ج٣ ، ص ٤٠٠-٤٠٣ .
- (٤) الحضراوي : الجواهر المعدة ، ق ٤٧ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٢٣ .
- (٥) البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص ٦٧ ، ابراهيم ريعت : مرآة الحرمين ، ج١ ، ص ٢٢ ، علي حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ١٩٢ .
- (٦) ابو مخرمة : تاريخ شجر عدن ج١ ، ص ١٢ ، محمد عبدالعال احمد : بنو رسول ، ص ٤٥٤ ، احمد دراج : ايضاحات جديدة ، ص ١٩٣ .

الشريف حسن على بضائعه وطرحها على التجار بمكة (١).

وكانت هذه الخطوة وما ترتب عليها من خطوات من أهم الأسباب التي أدت الى تحول التجارة من عدن واحتلال جدة مكانها لتصبح المركز الرئيسى لتجارة الشرق (٢). ولعل وصول هذا التاجر الى جدة قدنية السلطان المملوكى الى بندر جدة ووجدها فرصة سانحة للتعامل مع تجار الشرق مباشرة (٣) وقد ارسل السلطان المملوكى برسبى خطابا شديد اللهجة الى شريف مكة سنة ٨٢٦ هـ ، يتضمن كثرة العتب عليه لآخذه لفلل التجار القادمين الى جدة من قاليقووط بالهند متجاوزين عدن وأمره برد ذلك اليهم (٤).

وقد بقى التاجر ابراهيم على مقاطعة ميناء عدن ففى سنة ٨٢٦ هـ ، توجه الى ميناء سواكن ثم جزيرة دهلك و لضى فيهما معاملة سيئة وفى سنة ٨٢٧ هـ توجه الى ينبع مارا بجدة الا انه امير الركب المصرى قرقماس الشعبانى - احد امراء الالوف - تمكن من اقناعه بالعودة الى جدة وضمن له تأمين تجارته فتوجه اليها في مركب وطراد فعامله امير مكة معاملة حسنة (٥) كان لها اطيب الاثر فى نفس التاجر فعاد فى العام التالى ٨٢٨ هـ بأربعة عشر مركبا موسقة ببضائع من اصناف المتجر (٦).

فكان ذلك بداية للتعامل المباشر مع تجار الهند دون وساطة عدن وكان لابد من تدخل السلطان المملوكى للمحافظة على المكانة الجديدة التى اكتسبتها جدة وعدم اتاحة الفرصة لسلطين اليمن لاستعادة التجارة الى عدن ولتحقيق ذلك احدث السلطان برسبى وظيفة مستقلة فى جدة يقال لها " نيابة

- (١) ابن فهد: اتحاف الورى، ص ٣٥٥، محمد عبد العال احمد: المرجع السابق ص ٤٥٥ : اضاء على ملاح فاسكودى جاما : مجلة الدراسات الافريقية العدد الخامس ١٩٧٦، ص ١٦٤ ، احمد دراج : ايضاحات جديدة، ص ١٨٧ .
- (٢) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٣٢٢-٣٢٣، احمد دراج: نفس المرجع، ص ١٨٦ .
- (٣) محمد عبد العال : بنو رسول، ص ٤٥٦ .
- (٤) الفاسى: العقد الثمين، ج ٤، ص ١٤٥، ابن فهد: نفس المرجع، ص ٣٥٦ .
- (٥) الفانى: العقد الثمين، ج ٤، ص ١٤٨، ابن فهد : اتحاف الورى، ص ٣٥٨، محمد عبد العال : بنو رسول، ص ٤٥٦ .
- (٦) ابن فهد : نفس المصدر، ص ٣٦٠، محمد عبد العال احمد: نفس المرجع ، ص ٤٥٦ ، علمى بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية، ص ١٩٦ .

جدة (١) وذلك تفاديا لتكرار ما فعله شريف مكة مع السفن الهندية سنة ٨٢٥هـ
٨٢٨هـ نفى سنة ٨٢٨هـ السلطان برسباى سعد الدين بن المرة مع قوة مملوكية لتأمين السفن
والبضائع القادمة الرجدة وتحصيل المكس من مراكب الهند وقد قدر ما حمل
الى الخزنة في مصر بأكثر من سبعين ألف دينار (٢) .

وكان هذا اول مكس اخذ لمصر من جدة فقد كانت جدة طوال العصر المملوكى
وحتى ذلك التاريخ تابعة لامير مكة وكان بها عامل من قبله يقبض مكوسها
وضرائبها التى تؤخذ من التجار والحجاج (٣) .

وقد اختلفت الروايات فى الشخص الذى اوعز الى السلطان برسباى بأمر جدة
ونزع يد امير مكة عنها فيذكر صاحب النجوم الزاهرة " ان ذلك كان
بتدبير من الامير يشبك الساقى الاعرج وكان قد نفى الى مكة واقام بها سنين
فعلم احوال اشراف مكة وما هم عليه وحسن للسلطان الاستيلاء على بندر جدة
ومازال به حتى صار امر جدة على ما هو عليه (٤) اما ابن اياس فيذكر ان
الامير قرقماس الشعبانى كان اول من تحدث فى امر جدة ونزع يد شريف مكة
عنها (٥) .

ومنذ ذلك التاريخ ارتبطت جدة بمصر من الساحتين السياسية والاقتصادية
وصار نظر جدة وظيفة سلطانية يخلع على متوليها ويتوجه كل سنة الى مكة
فى اوان ورود مراكب الهند الى جدة ويأخذ ما على التجار من العشور ويحضر
الى القاهرة به (٦) .

واصبحت جدة القاعدة الرئيسية لتجارة البحر الاحمر والشرق ووصل اليها
فى سنة ٨٢٩ هـ أربعون سفينة من الهند وهرمز (٧) " ووجد التجار راحة بجدة

- (١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ١٠٣ .
- (٢) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٣٢٣ ، ابن اياس : نفس المصدر ص ١٠٣ .
- (٣) التجيبى السبتي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٩ .
- (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .
- (٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ١٠٣ .
- (٦) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٦٠ .
- (٧) المقرئى : السلوك ، ج٤ ، ص ٧٠٧ - ٧٠٨ ، محمد عبد العال احمد : المرجع
السابق ، ص ٤٥٧ ، على بن حسين السليمانى : العلاقات الحجازية المصرية
ص ١٩٦ ، النشاط التجارى ، ص ١١٣ .

بخلاف عدن فتركوا بندر عدن واستجدوا بندرجدة عوضه ، فاستمر بندر جدة عظيما وتلاشى أمر عدن من اجل هذا وضعف حال ممتلك اليمن . (١)

ولم يقتصر اثر هذه السياسة المملوكية على الحركة التجارية فى جدة بل لقد كانت من الاسباب التى اسهمت فى تنمية جدة من الناحية الاجتماعية فقد ادى تدفق المتاجر على جدة الى اغراء التجار وغيرهم على الاقامة فيها فاتسع الميناء وزادت عمارته حتى ان سعد الدين بن المرة قام سنة ٨٣١هـ بعمارة جامع بها وفرضه واصبحت بندرا عظيما (٢) ، وأخذت تستقبل السفن الكبيرة التى تسع اكثر من ثمانمائة راكب (٣) . ويقول ابن شاهين : " وربما يرد بها فى كل سنة نيف عن مائة مركب من جملة ذلك مركب بسبعة قلوب " . (٤)

ولا ريب ان التجارة فى جدة قد ادت الى شراء اهلها الذين اقتنسوا المراكب وتفاخروا فى اظهار مبلغ شرائهم فكان التجار منهم اذا بلغ كسبه مائة ألف دينار بنى على داره قبة لتكون اشارة واضحة على غناه . (٥)

وقد سجلت تجارة جدة تطورا كبيرا مع الهند وأخذت سفن التجارة الهندية تصل الى جدة مرتين فى العام ويقوم التجار فيها بنقل السلع الى ميناء الطور التجارى على البحر الاحمر وتنقل منه على القوافل الى القاهرة (٦) .

وتعد سنة ٨٣٥ بداية التعامل المباشر لميناء جدة مع الصين ففيها وصلت سفن الصين لأول مرة الى البحر الاحمر (٧) فقد قدمت عدة جنوك من الميناء ورسا منها اثنان بميناء عدن وكان قد بلغ من الضعف حدا لم يمكن معه انفاق

-
- (١) ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٣٦٠ .
 - (٢) ابن حجر : ابناء الفجر ، ج ٣ ، ص ٤٠٤ .
 - (٣) المقرئى : السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٣٦ .
 - (٤) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ج ١ ، ص ١٣ .
 - (٥) على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ، ص ١١٤ .
 - (٦) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ، ص ١٣٥ .
 - (٧) ابن حجر : ابناء الفجر ، ج ٣ ، ص ٤٧٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٤ ، ص ٣٦٢ ، محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٥٨ ، أضواء جديدة ص ١٦٥ .

بضائعها من الصينى والحريز والمسك وغيره فأستأذن أصحابها صاحب مكة الشريف بركات بن حسن بن عجلان وناظر جدة سعد الدين ابن المرة فى القدوم الى جدة فكان لهم ما أرادوا (١) ونفقت سلعمهم فى جدة وحمل الى مكة من التحشيش ما لا يوصف فبيع بأسواقها (٢) ومن هنا كان الحفاظ على جدة باعتبارها اكبر محطة تجارية فى الطريق البحرى الرئيسى الذى يربط الشرق بالغرب من أهم أعمال سلاطين المماليك ولتحقيق ذلك قام السلطان برسباى بفرض حصار اقتصادى على عدن وذلك بعدم التعامل التجارى معها فأصدر سنة ٨٣٨هـ مرسوما يقضى بأخذ العشر فقط من التجار الهنود الواردين الى جدة .

ومضاعفة العشور على التجار الشاميين والمصريين القادمين عن طريق اليمن ومصادرة بضاعة التجار اليمنيين كلها . (٣)

وقد ترتب على هذا الحصار التجارى للمتاجر المارة بعدن والدقة فى تنفيذها ان زاد تحول التجار بمرور الوقت عن ميناء عدن الى جدة هربا من الرسوم العالية التى فرضها المماليك على السفن المارة بعدن . ورغبة فى التسهيلات الكبيرة التى يجدها التجار القادمون الرجدة رأساً (٤) .

وهكذا نجد أن سياسة المماليك القائمة على تحطيم المركز التجارى لعدن قد أدت الى تمتع جدة بالمركز الرئيسى وجعلها المستودع العظيم لمتاجر الهند والشرق الاقصى (٥) فكان لهذا كله الاثر الفعال فى الازدهار الاقتصادى بمكة المكرمة التى اصبحت المحطة الرئيسية لحركة القوافل فى شبه الجزيرة العربية .

فلما صار أمر اليمن إلى بنى طاهر بذلوا قصارى جهدهم من اجل استعادة

- (١) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
- (٢) ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة .
- (٣) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص ٩٢٩ ، ابن حجر : انباء الغمر ، ج٣ ، ص ٣٩٠-٤٠٥
- (٤) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٧٨ ، محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٥٩ .
- (٥) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة : ص ١٣٩ .
- (٥) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٥٩ ، على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ، ص ١١٣ . نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ١٣٩ .

عدن لمكانتها التجارية ^(١) وقاموا باعتراض السفن الهندية من دخول البحر الأحمر وإذا كانوا تمكنوا من إغراء بعضهم للتعامل مع عدن ^(٢) فإن معظم التجار كانوا يتوجهون بسفنهم إلى موانئ شرق أفريقية ثم إلى جدة متجاوزين عدن ^(٣).

غير أن آل طاهر أدركوا أنه لا سبيل لهم إلى استخدام القوة، فأتجه نشاطهم إلى تشجيع التجار والنواخذ وأقامة العلاقات الودية معهم لترغيبهم في العودة إلى عدن، كما عملوا على عودة التبادل التجاري بين عدن وجدة ^(٤) وذلك للارتباط التجاري الوثيق بينهما فجدة هي مرفأ مكة المكرمة التي تعد جسرا يصل بين بلاد الشام وحوض البحر المتوسط واليمن والمحيط الهندي .

والجدير بالذكر أن تجارة جدة قد راجت رواجاً كبيراً وجنى كل من أمير مكة والسلطان المملوكي من ضريبة العشور المفروضة على المراكب في جدة أرباحاً طائلة ويشير ابن شاهين إلى ذلك بقوله : " والرسوم تحمل إلى صاحب مكة وكان الملك الأشرف أبو النصر برسباي شاركه في أخذ نصيب من ذلك ، ويقال ان متحصل الجهة المذكورة مائتا ألف دينار في كل سنة ، وربما يزيد أو ... ينقص " . ^(٥)

وأياً ما كان الأمر فقد قام ميناء جدة بدور كبير في مجال التجارة البحرية وأسهم في ازدهار النشاط التجاري في مكة المكرمة .

-
- (١) أبو مخرمة : تاريخ ثغر عدن ، ج١ ، ص ١٢ .
 - (٢) محمد عبد العال أحمد : بنو رسول ، ص ٤٦٣ - ٤٦٤ .
 - (٣) علي بن حسين السليمان : المرجع السابق ، ص ١١٦ ، تعميم زكي فهمي : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .
 - (٤) محمد عبد العال أحمد : نفس المرجع ز ص ٤٦٤ .
 - (٥) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ج١ ، ص ١٤ .

الفصل الثاني

دور سلاطين المماليك وأمراء مكة في استنباب
الأمن وتأمين الطرق

- إمارة مكة والصراع بين بني قتادة على توليها.
- الجهود الخاصة بإقرار الأمن وضاع في مكة المكرمة.
- توفير الحراسة وإقرار الأمن وإصلاح الطرق البرية.
- تأمين طريق البحر الأحمر وتنشيط الحركة التجارية.

كانت السيادة الشرعية فى مكة المكرمة للخلافة العباسية ببغداد ولكن ضعفها فى عصرها الثانى أدى الى ظهور حركات استقلالية كان لها أثرها فى تفتيت وحدة الدولة الاسلامية ، فقد بدأت مرحلة من مراحل التفكك والتمزق السياسى فى جسد الأمة الاسلامية وانفراط عقد الوحدة الاسلامية وكان لمكة المكرمة حظ من الاستقلال يكاد يكون تاما ... فمنذ النصف الاول من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) لم يكن للخلافة العباسية أى سيادة على مكة ... اللهم الا السيادة الاسمية المتمثلة فى الخطبة والدعاء .

وقد أدى الفراغ السياسى الذى حدث فى الحجاز ابان انشغال مصر فى حروبها مع الصليبيين بعد وفاة الملك السعود ، الى اغراء الدولة الرسولية الناشئة فى اليمن لتحقيق سيطرتها على مكة سنة ٦٣٩هـ (١) وكانت الحملة التى قادها نور الدين على بن رسول بنفسه خاتمة الحملات المتبادلة بين بنى رسول والايوبيين لفرض سيطرتهم على مكة ، وقد استمر ذلك أكثر من عشر سنوات (٢) .

وقد ساعدتهم على ذلك ما كانت تتمتع به بلادهم من مكانة اقتصادية عالية ، فقد كانت عدن قاعدة التجارة الرئيسية بين المشرق والغرب ، وقبلية الوافدين وملتقى السفارات التجارية وبها ترسو سفن الهند والصين والحبشة والخليج وشرق افريقية (٣) " ومما يذكر أن متحلات شجر عدن التى تسلمها المظفر يوسف من واليها بلغت خمسمائة ألف دينار " (٤) .

- (١) الخرجى : العقود اللوئية ، ق ٢ ، ص ١١ - ١٢ .
- (٢) محمد عبد المال احمد : بنو رسول ص ٣٢٨ - ٣٤٢ ، ٣٤٦ - ٣٥٥ .
- (٣) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ، ص ١٣٧ ، محمد عبد المال احمد : بنو رسول ، ص ٣٨٣ ، ٤٣٤ .
- (٤) محمد عبد المال احمد : نفس المرجع ، ص ٣٩٠ .

وبسقوط الخلافة العباسية على أيدي المغول سنة ٦٥٦ و قتل الخليفة المستعصم بالله (١) ظهرت زعامة العالم الاسلامى الروحية شاعرة ثلاث سنين ونصف سنة (٢) ولقد جاء اعلان الخلافة الحفصية السنية فى تونس (سنة ٦٥٧ هـ) فى ظروف سياسية مناسبة فأرسل الأمير ادريس شريف مكة وأهل الحجاز بيعتهم بالخلافة للخليفة ابي عبد الله محمد الحفصى وعدوه وريثا للخلافة العباسية المنهارة (٣) .

ولقد أثار هذا التصرف الغريب السلطان الطموح الظاهر بيبرس الذى كان يتطلع لقيادة العالم الاسلامى وخاصة بعد النصر الساحق الذى حققه على التتار فى معركة عين جالوت ٦٥٨ هـ (٤) فقام بعمل جريء تمثل فى احياء الخلافة العباسية فى مصر سنة ٦٥٩ هـ (٥) وكان يرمى من ورائه الى اضعاف الصفقة الشرعية على سلطنته استنادا الى التقليد الذى حصل عليه من الخليفة والى مد ملكه وتوسيع سلطانه بمساعدته باعتباره حامى الحرمين فقد جاء فى تقليد الخليفة للسلطان بيبرس ما يؤوله لذلك حيث قال : " وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع وقد قللك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنيين والغراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا وفوض أمر جندها ورعاياها اليك حينه اصبحت بالمكارم فردا ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى ولا جهة من الجهات تعد فى الاعلى ولا فى الادنى " (٦) .

(١) ابو الفدا : المختصر ، ج٣ ، ص ١٩٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الامانى ق ١ ، ص ٥٢ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٥٢ .

(٣) الخزرجى : المصدر السابق ج١ ، ص ١٧٨ - احمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك فى مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٩٥ .

(٤) ابو الفدا : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٥ .

(٥) السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، يذكر ابن اساس : انها سنة ٦٦٠ هـ .

(٦) السيوطى : المصدر السابق ج٢ ، ص ٥٥ .

وبهذا التفويض حقق المماليك لانفسهم مكانا ساميا بين ملوك العالم الاسلامى وصاروا ينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان لانهم احق به شرعا^(١) وصار يخطب لهم على منابر مكة باللقاب (سلطان البحرين وحامى الحرمين)^(٢)

ويظهر جليا ان المماليك قد حققوا بمد سلطانهم على مكة مكاسب دينية كما اسلفنا وسياسية بابعاد الحفصيين وبنى رسول وتأكيد سيطرتهم على الحرمين فارسل الى الخليفة الحفصى يقول : " مثلك لا يملح ان يلى امور المسلمين " .^(٣) كما ارسل خطابا قاس اللهجة لصاحب اليمن يقول فيه : " والملك هو الذى يجاهد فى الله حق جهاده ويبدل نفسه فى الذب عن حوزة الدين فان كنت ملكا التفت التتار " .^(٤)

أما المكسب الاقتصادى الذى حققه المماليك فكان نتيجة لاحتلال مكة المكرمة مركزا بارزا وفريدا فى ميدان التجارة البرية^(٥) وليادتها على موانئ^{٦٦} تجارية هامة فى البحر الاحمر^(٦) مثل جدة وينبع ولا يغرب عن الذهن ان الدولة المملوكية قد أولت التجارة ومرافقها جل اهتمامها واقام سلاطين المماليك المعاهدات والسفارات التجارية مع الشرق والغرب لهذا الغرض ولهذا حرص المماليك على اليادة على الحجاز .. والعمل على استقرار الاحوال فيه .

" امـــــــــــــــــــــرة مكة والصراع بين بنى قتادة على توليها "

ساعدت الظروف التى كانت تمر بها مصر واليمن على تركيز اهتمام

- (١) احمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ١٩٠ .
- (٢) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ، ص ١٧ .
- (٣) المقرئى : السلوك ج ١ ، ص ٦٠١ ، على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٢٢ .
- (٤) المقرئى : نفس المصدر الجزء ٦ ، ص ٥٨١-٥٨٢ ، محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٣٧٣ .
- (٥) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ، ص ١٣٨ ، على بن حسين السليمان : نفس المرجع ، ص ٢٣ .
- (٦) احمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ١٩٥ ، على بن حسين السليمان : نفس المرجع والصحة .

الإشراف من بنى قتادة على الاستقلال بمكة (١) وخاصة بعد انتصارهم على ابن المسيب وإخراجه من مكة سنة ٦٤٨ هـ (٢) ثم هزيمة ابن برطاس سنة ٦٥٣ هـ (٣) ، وكلاهما كان من قبل صاحب اليمن الملك المظفر يوسف .

غير أن التنافس على السلطة بين بنى قتادة والنزاع بين الأشراف الحاكمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة قد أديا إلى خلق جو غير مستقر كان له أثره في حدوث الفوضى والاضطرابات في مكة وخاصة في موسم الحج (٤) وبطبيعة الحال لم تسلم تجارة مكة في هذه الأوقات من هجمات الأشراف ونهبهم كما ارتفعت الأسعار نتيجة للصراع بين الأشراف (٥) .

وخلال المراحل المضطربة استعان كل طرف من الأطراف المتنازعة بالقوى الخارجية المتمثلة في اليمن ومصر والعراق (٦) .

ويلاحظ أن أبا ندى (٦٥٤ - ٧٠١ هـ) وهو أول من دعا للمماليك في مكة كان أول من خرج عن طاعتهم فقد انتهز فرصة انشغال المماليك بمواجهة الاضطرابات التي سادت البلاد عقب وفاة السلطان بيبرس (٦٥٩ - ٦٧٦ هـ) ، فأعلن ولاءه لليمن واستقلاله بمكة (٧) .

وعلى الرغم من نجاح السلطان الملك المنصور تولاون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) في

- (١) محمد عبد العال أحمد : نفس المرجع ، ص ٣٦٢ .
Burkhardt: Travels in Arabia, Vol.II. P. 277.
- (٢) الخزرجي: العقود اللؤلؤية ج١، ص ٧٨، الفاسي: العقد الثمين ج٤، ص ١٠٦، السنجاري منائح الكرم ج١، ص ٢٩٧ .
- (٣) الخزرجي: نفس المصدر والجزء ٦، ص ١٢٠، الفاسي: نفس المصدر ج١، ص ٤٥٨، ابن الديبع: نفس المصدر "قرة العيون" ق ٢، ص ٣٢، يحيى بن الحسين: غاية الأمان ق ١، ص ٤٤١ .
- (٤) الفاسي : نفس المصدر ج١، ص ٤٦٦، السنجاري : منائح الكرم ج١، ص ٣٠٣ ، محمد عبد العال أحمد : بنو رول ، ص ٣٦٩ .
- (٥) الفاسي : شفاء الفرام ج٢، ص ٢٧٢ .
- (٦) الفاسي : العقد الثمين ج١، ص ١٩١ - ١٩٣ .
- (٧) المقرئزي: السلوك ج١، ص ٨٠٦، علي بن حسين السليمان: العلاقات الحجازية المصرية ص ٣٠ .

السيطرة على الحجاز وتحقيق الاعتراف بسيادة المماليك وحدهم طوال فترة حكمه فان مكة مرت بطور من الاضطراب والنزاع على الامارة تدخلت فيه اليمن عسكريا لمساعدة احد الاطراف المتنازعة وذلك فى سنة ٦٨٣هـ غير أن أبا نمى تمكن من اخراجهم بالقوة من مكة . وعمل على معاقبة اليمنيين بزيادة المكوس التى تؤخذ منهم (١) .

وردا على ذلك وتأكيذا لسيادة المماليك على مكة وصدا لعدوان آل رسول ارسل السلطان قلاوون فى العام نفسه نائبا من قبله (٢) مع قسوة عسكرية قوامها ثلاثمائة فارس لاقرار الاوضاع فى الحجاز وتوجهوا الى مكة بصحبة الحاج فلم يخرج أبو نمى للقائهم وبعث قواده (٣) وصد الحاج عن دخول مكة وأغلق أبوابها ولكنهم تمكنوا من دخولها عنوة بعد محاصرتها واحراق احد ابواب السور من جهة المعابدة وأدى ذلك إلى فرار ابى نمى من مكة زمن الحج (٤) . وقد صادف بعد ذلك ان بعض العسكر خرج الى منى فتعرض لهم أبو نمى ونهبهم وقتل أميرهم ثم دخل مكة وهزم من بها من جند المماليك وساء هذا الفعل السلطان قلاوون وقرر الانتقام من شريف مكة أبى نمى فسارع هذا بالاعتذار اليه والتودد له بالهدايا حتى رضى السلطان قلاوون عنه . (٥)

(١) المقرئى : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٢٤ ، السنجارى : مناقح الكرم ج ١ ، ص ٣٠٢ .

(٢) السنجارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) المقرئى : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٢٤ - ٧٢٦ .

(٤) الفاسى : العقد الثمين ، ج ١ ، ص ١٩٢ ، السنجارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٢٤ - ٧٢٥ ، السنجارى

مناح الكرم ، ج ١ ، ص ٣٠٣ .

ورغبة من المماليك فى أن تستمر سيادتهم على مكة رداً على ما فعله أبونمى من اخلال بشروط اليمين التى اقسمها للسلطان قلاوون ٠٠٠ سىـــــر السلطان فى سنة ٦٨٧هـ (١) - أو سنة ٦٨٨هـ (٢) جيشاً لمساعدة جمان بن شيحة صاحب المدينة واعانه على أخذ مكة وإخراج أبى نمى منها فخطب لجمان هذه السنة وضربت السكة باسمه وبقي مدة قصيرة فى مكة ثم رحل عنها وهو عليل خوفاً من أبى نمى فعاد إليها أبو نمى وتفرّد بحكمها حتى توفى سنة ٧٠١هـ ، وقد تخلل هذه الفترة من حكمه فتنة مشهورة حدثت سنة ٦٨٩ بينه وبين الحاج شهرت فيها السيوف وكثر القتل وتعرضت الاموال والمتاجر للنهب (٣) .

ولم يلبث أبو نمى بعد وفاة السلطان قلاوون أن خطب للملك المظفر صاحب اليمن وقطعت خطبة خليل بن المنصور قلاوون ٠٠٠ وكان قد خطب له فى أول سنة ٦٩١هـ وبهذا العمل استطاع بنو رسول أن ينجحوا بالخطبة لهم على منابر مكة (٤) ومع نمو العلاقات بين مكة واليمن خرج المحمل اليمنى سنة ٦٩٦هـ بعد انقطاع دام مدة ٠ وكسا صاحب اليمن الكعبة ورفرفت رايته على جبل عرفات ودعى له فى موسم الحج . (٥)

ويرجع الفاسى تقديم أبى نمى لصاحب اليمن على صاحب مصر الى الاموال العظيمة التى يعثها الملك الموئيد وكانت من العين الذهب والفضة والكساوى والطيب من المسك والعود والصندل والعنبر والثياب الملونة والخلع النفيسة وقد قدر مبلغ العين بثمانين ألف درهم ومبلغ الفضة بأربعمئة مد أى ما يعادل ألفاً ومائة غرارة مكية (٦) وقدر الجهيـع بما يوازى ثلاثة أمثال

-
- (١) الفاسى : العقد الثمين ، ج١ ، ص ٤٦٢ .
 - (٢) السنجارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
 - (٣) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦٦ ، السنجارى : نفس المصدر والجزء والصفحة
 - (٤) الفاسى : العقد الثمين : ج١ ، ص ٤٦٣ ، المقرئى : السلوك ، ج١ ، ص ٧٨٦ .
 - (٥) المقرئى : نفس المصدر والجزء ، ص ٨٧٢ ، احمد دراج : ايضاحات جديدة ، ص ٢٠١ .
 - (٦) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦٤ .

ما ترسله مصر سنويا (١) وعلى الرغم من ذلك أطلق الشريف أبونمى يديه فى فرض المكوس على اليمنيين (٢).

وعندما توفى أبو نمى دب النزاع على السلطة بين أبنائه وترتب على ذلك الاضرار بالتجارة والتجار فى مكة ٠٠٠ الا أن سلاطين المماليك تمكنوا من احكام قبضتهم على شئون الحكم والسياسة فى مكة وصاروا يعزلون ويولون من أرادوا بل اتبعوا سياسة تولية الحكم لأكثر من واحد ليضمنوا بقاء سيادتهم واستقرار الأوضاع وقد استوجب ذلك ارسال التجاريد العسكرية الى مكة كلما تواترت الانباء بظهور التمرد بين الاشقاء (٣).

وتعرضت مكة لازمة اقتصادية سنة ٧٠٧هـ سببها قطع صاحب اليمن الملك الموءيد الميرة عن مكة لما كان بينه وبين حميصة ورميثة فأرتفعت أسعار الحنطة والذرة ارتفاعا كبيرا وأصبح الناس فى شدة الا أن وصول الركـبـ الرجـبـى قد حد من ذلك الغلاء ثم انتعشت الأحوال بوصول الميرة من اليمن بعد عودة العلاقات الودية بين امراء مكة وصاحب اليمن (٤) وقد كان يعمل على استفزاز المماليك بقطع الهدايا التى اعتادت اليمن ارسالها الى مصرر والاساءة لتجار مصر (٥) ومنع تجار الكارم تلك السنة (٦)، واستنكر السلطان الناصر محمد بن قلاوون هذا العمل وهدد بالانتقام من صاحب اليمن وعزم على ذلك سنة ٧٠٧هـ الا أن العلماء والمشايخ أشاروا عليه بالعدول عن الغـسـزو فرجع (٧).

-
- (١) احمد السباعى : تواريخ مكة ، ج١ ، ص ٢٣٦ .
 - (٢) الجزيرى : درر الفوائد . ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .
 - (٣) الفاسى : المصدر السابق ، ج٩ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٧ .
 - (٤) الفاسى : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .
 - (٥) المقرئى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣٢ - ٣٣ .
 - (٦) الخزرجى : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٧٤ .
 - (٧) ابن الربيع : قرة العيون ق ٢ ، ص ٦٢ ، محمد عبد العال احمد : بنو رسول ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

وقد تأثر النشاط التجارى فى مكة منذ سنة ٧٠٧هـ حتى سنة ٧١٢هـ بسبب المعاملة السيئة التى لقيها الحجاج والتجار من رميثة وحميضة وعبيد مكة ونهبهم لاموال التجار والطمع فيهم (١) فقل ورود التجار الى مكة وشكا المجاورون والحجاج سنة ٧١٣هـ سوء الاحوال فيها للسلطان الناصر فأرسل جيشا وأمراء من مصر ودمشق لاقرار الامور بمكة وتولية أبى الغيث (٢) وبقي العسكر معه حتى مهدت له الامور وأخذ الضرائب من التجار (٣) وبقي أبى الغيث فى اماره مكة حتى قتل سنة ٧١٤هـ ... قتله اخوة حميضة ومثل به (٤) .

واستطاع حميضة أن يستقل بامره مكة دون رميثة وتعهده بالآلا يتعرض للمجاورين والتجار لكنه لم يف بوعده فاستعان رميثة بالسلطان المملوكى فولاه اماره مكة واعانه بعسكر لاتمام الامر له فيها فهرب حميضة الى جهة الخليف (٥) واخذ معه الاموال والبر وبلغ من جوره وكثرة ظلمه أنه أحرق ما لم يتمكن من حمله الى حصنه الجديد وقطع ألفى نخلة (٦) الا أن العساكر المملوكية تبعته وحارمته وغنمت منه امواله وكانت شيئا كثيرا من ضمنها العنبر الخام (٧) .

وانتقاما من صاحب مصر لجأ حميضة الى العراق وزين لايلخانات التتار السيادة على مكة فأعانوه بالاموال والرجال (٨) وبذلك دخل فى التشافسس على تحقيق السيادة على مكة طرف ثالث يتمثل فى ايلخانات المغول بعد

(١) الخرزجى : المصدر السابق ج١ ، ص ٣٨٤ ، الفاسى : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٤٠٦ الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٣) ابو الفدا : المختصر ، ج٤ ، ص ٧٣ - ٧٤ .

(٤) السنجارى : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٧ .

(٥) حصن بينه وبين مكة ستة ايام ، الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٣٨ .

(٦) الفاسى : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٢٣٨ ، الجزيرى : المصدر السابق ، ص ٢٩٥ .

(٧) ابو الفدا : المختصر ، ج٤ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٨) ابو الفدا : نفس المصدر والجزء ، ص ٨٠ ، الفاسى : نفس المصدر والجزء ،

ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، السنجارى : منائح الكرم ، ج١ ، ص ٣٠٧ .

اسلامهم (١).

ونجح حميفة سنة ٧١٨هـ فى قطع الخطبة لسلطان مصر وخطب لملك العراقيين
أبى سعيد بن خرنبدا (٢) وأساء الى التجار وأخذ أموالهم (٣) وبلغ الامر
بایلخانات المغول أنهم ارسلوا كسوة الكعبة مع المحمل العراقى فى السنة
المذكورة نفسها (٤).

وتشير المصادر التاريخية الى الفتنة الكبيرة التى حدثت سنة ٧٣٠ هـ
وفيهما نهبت اسواق مكة وقتل بعض الحجاج وغيرهم وشهت فيها السيوف فى المسجد
الحرام ولم يذكر ابن ايبك سببها واكتفى بالاشارة الى هولها (٥) لكســن
صاحب النجوم الزاهرة يذكر ان بعض عبيد مكة عبثوا بالامن وطمعوا فى حجاج
العراق واخذوا اموالهم فاستنجد الناس بالامير المملوكى عز الدين أيدمر
وكان مع الشريف عطيفة فهب لمنعهم من الفساد ومعه ابنه ومملوكه ابن التاجى
" امير عشرة " فقتل الثلاثة وقتل ابناء بعض كبار التجار (٦) ويذكر السنجارى
شيئا قريبا من ذلك (٧).

اما ابن فهد فيذكر ان الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ - ٦٩٤ هـ) ثم
(٦٩٨ - ٧٠٨ هـ) ثم (٧٠٩ - ٧٤١ هـ) اوعز الى الشريف مكة عطيفة بقتل امير الركـب
العراقى ويعرف بمحمد الحجيج وكان مقربا عند ابى سعيد وقد ارسله غير مرة
سفيرا الى مصر وقد اعجب به السلطان الناصر لكنه بلغه انه يتحدث عنه بما
يكره فلما علم بمسيرة الى مكة كتب الى الشريف عطيفة أن يحتال فى قتله
فكانت الخطة أنيقوم العبيد باشارة الفتنة وان يبدهوا بنهب حاج العراق

(١) احمد دراج : ايضاحات جديدة ، ص ٢٠٠ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤١ ، المقريزى : السلوك ج ٢ ، ص ١٧٦ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٩٠ .

(٥) ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٧) السنجارى : منائح الكرم ، ج ١ ، ص ٣١٢ .

فاستصرح الناس بالامير أيدير - ولم يكن يعلم بالامر - ونهض لاطفاء الفتنة فحاول الشريف عطيفة أن يمنعه ولكنه أبى الا القضاء على الشر وعندما قصد مبارك بن عطيفة امير الركب العراقي لقتله منعه خليل ابن ايدير فضربه مبارك بحربة مات منها كما استشهد والده وجماعة آخرون ثم كانت الحرب بين أهل مكة وأمير الركب المصري وتعرضت الاموال والمتاجر للنهب امسا الشريف عطيفة فمازال يداوى الأمر حتى اخرج الحجاج وأمرهم بالرحيل من مكة بعد أن أخذت أموالهم ونهب الحاج بعضهم بعضا ... أما أمير الركب العراقي فقد نجا وتمكن من الفرار (١).

ويبين ابن بطوطة وكان مجاورا بمكة تلك السنة سبب هذه الفتنة فيقول " سبب ذلك أن تجارا من أهل اليمن سرقوا فتشكوا الى أيدير بذلك فقال أيدير لمبارك بن عطيفة أعت بهوءلاء السراق ... فقال : لا أعرفهم فكيف نأتى بهم ؟ وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم عليهم لك ، ان سرق لاهل مصر والشام شيء فأطلبني به فشتمه أيدير " بكلام ناب " وضربه على صدره فسقط ووقعت عمامته عن رأسه وغضب له عبيده وركب أيدير يريد عسكره فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ووقعت الفتنة بالحرم وكان به الأمير أحمد ابن عم الملك الناصر ورمى الشرك بالنشاب فقتلوا امرأة قيل أنها كانت تحرض أهل مكة على القتال وركب ركب من الاتراك وأميرهم " خاص ترك " فخرج اليهم القاضى والائمة والمجاورون وفوق رؤوسهم المصاحف وحاولوا الصلح ودخل الحجاج مكة فأخذوا مالهم بها وانصرفوا الى مصر (٢).

وربما يكون ما أشار اليه ابن بطوطة هو الصحيح نظرا الي معاصرتيه للحدث ... ثم أنه لو كانت الفتنة بايعاز من السلطان المملوكى لكان الامير المملوكى أول من يساعد على قتل أمير الركب العراقي ... بدلا من بذل الجهود

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٨٨ .

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٢٣٥ .

للقضاء على الفتنة وتخليص أمير الركب العراقي ثم انه ليس لدينا — من المعلومات التاريخية ما يويد ما ذهب اليه ابن فهد لانفراده بهذا الرأي ومخالفة أكثر المؤرخين له ولكونه متأخرا في الزمن عن الفترة التي حدثت فيها الفتنة .

وعاد النزاع على إمرة مكة من جديد يوءر على الناحية التجارية ففي سنة ٧٣٦هـ هدد مبارك بن عطيفة أمن المجاورين وأخذ اموال التجار فحاربهم الشريف رميثة ولكنه لم يستطع الصمود ففر الى الجذيد (١) وبقي عطيفة في مكة ولم يحج هذه السنة ، ثم اصطلحا واستدعى الملك الناصر الشريفين رميثة وعطيفة الى مصر وعندما حضرا احتجز عطيفة وقلد رميثة امرة مكة (٢) أما مبارك بن عطيفة فقد استمر في غيه واستباح اموال التجار ونهبها وظل كذلك حتى اعتقله الناصر سنة ٧٣٩هـ وحبسه بالقلعة مع والده عطيفة (٣) .

ورغبة من الملك المجاهد صاحب اليمن في كسب الموقف المضطرب في مصر لصالحه بعد وفاة السلطان الناصر محمد سنة ٧٤١هـ حج في سنة ٧٤٢هـ (٤) فاستقبله الشريف رميثة استقبالا حافلا وأجزل المجاهد العطاء لاهل مكة وكسا امير الركب الثامن والمصري (٥) واعطى الشريف رميثة من النقد أربعين ألف درهم جـدا مجاهدية وأعطاه من الكسوة وانواع الطيب والعنبر والعود ما يحمله أربعة من الحماليين وأعطاه عدة من الخيل والبغال كوامل العدد والآلات وخلق عليه وعلى من معه من الأشراف (٦) وبرغم بذله وتوسعه في العطاء لم يمكن من تحقيق غرضه في كسوة الكعبة وتركيب بابها فخرج وهو حانق على بني حن (٧) .

(١) المقرئزي : السلوك ج٢ ، ص ٤٠٨ ، ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٢١٩ .
" الجذيد " موضع قرب مكة يقول ياقوت كانه فعيل من الجذ وهو القطع بمعنى مفعول . المعجم ، (معجم البلدان) ، مادة جذيد ، ج٢ ، ص ١١٦ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ١٠١ .

(٣) الشجاعى : (شمس الدين ، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده ، حققته وترجمته الالمانية " بربارة شيفر فيسبادن ١٣٩٢هـ / ١٩٧٨م ق ١ ، ص ٤٦ ، ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٢٩٥ .

(٤) الشجاعى : نفس المصدر والقسم ، ص ٢٣٢ .

(٥) ابن الديبع : المصدر السابق ق ٢ ، ص ٨٥ .

(٦) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٢٩٦ .

(٧) الشجاعى : نفس المصدر والقسم ، ص ٢٣٢ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٢٩٧ .

وبقى رميثة في إمارة مكة حتى عجز عن إدارة شئونها والحفاظ على الأمن فيها وعجز عن اولاده لأنه ضعف وكبر ولم يكن له سبيل لحل الموقف الا التنازل عن الإمارة سنة ٧٤٤هـ لولديه عجلان وثقبة مقابل ستين ألف درهم (١) هذا ولم تشر المصادر الى كون هذا المبلغ سنويا أو نهائيا ويغلب الظن أنه سنوي.

وبطبيعة الحال لم يرض هذا الوضع السلطنة في مصر لان معناه اشارة ظاهرة خطيرة في صفوف الاشراف ذلك أن توليه الإمارة في مكة أو العزل أو قبول التنازل وهو من صميم سلطات سلاطين المماليك ولا يتم ذلك الا بموافقتهم كما أن ظهور مثل هذه الحالة من شأنه أن يهدد الأمن في مكة وهو ما لم يكن سلاطين المماليك ليرضوا به فأرسل السلطان الصالح اسماعيل ابن الناصر محمد (٧٤٣- ٧٤٦هـ) مرسوماً ببرد البلاد على رميثة واستد عن ثقبه الى مصر وهناك اعتقله بعد أن شك في أمره فقد سبق أن طلب توليته إمارة مكة دون أخيه - أما عجلان فقد خرج إلى جهة اليمن ومنع وصول الجلاب والمتاجر الى مكة فأدى ذلك إلى الغلاء العظيم وخاصة في أيام الموسم فقد كان حجاج مصر والشام كثيرين جداً (٢).

ويبدو أن امتناع وصول المتاجر من هذه الجهة أحدث أزمة اقتصادية كبيرة في مكة بعد أن كانت شحنات الغلال والسلع اليمشية تتدفق عليها بالإضافة إلى متاجر الشرق .

وبعد رحيل الحاج رجع عجلان الى مكة واصطلح مع والده غير أن التجارة المحلية في مكة لم تسلم منه ... فقد أخذ من التجار مالا عظيماً (٣).

وفي سنة ٧٥١هـ حج المجاهد صاحب اليمن (٤) في سبعمائة فارس وثمانمائة

-
- (١) القاسي : العقد الثمين ج٤، ص ٤١٦، ابن فهد : اتحاف الوري، ص ٢٩٧ ، السنجاري : منائح الكرم ج١، ص ٣١٥، الطبري : اتحاف فضلاء الزمن، ص ٣٤ .
 - (٢) القاسي : نفس المصدر، ج٦، ص ٥٩، ابن فهد : نفس المصدر والصفحة السنجاري نفس المصدر والجزء والصفحة ، الطبري : نفس المصدر والصفحة .
 - (٣) القاسي : المصدر السابق ج٦، ص ٥٩، ابن فهد : اتحاف الوري، ص ٢٩٧ ، السنجاري : منائح الكرم ج١، ص ٣١٥، الطبري : اتحاف فضلاء الزمن، ص ٣٤ .
 - (٤) ابن الديبع : قرة العيون، ق٢، ص ٧٦، يحيى بن الحسين : غاية الأمان، ق٢، ص ٥١٦ .

رام وعدد من مقاتلة اليمن وصنعاء، وكان يروم تعليق كسوة الكعبة وفي صحبته الشريف ثقبه الذى لجأ إليه بعد انفراد أخيه عجلان بإمارة مكة وأغراه باقامة الخطبة له وتعليق كسوته على الكعبة (١) فخشى عجلان ان يتمكن المجاهد بعد رحيل الحاج من تحقيق ما نقل اليه وما أشيع فى مكة عن نية المجاهد تقليد أخيه ثقبه إمارة مكة ورفع كسوة المصريين عن الكعبة وتعليق كسوته (٢) فأسرع بإبلاغ أمير الركب المصرى بذلك فكانت النتيجة هى القبض على الملك المجاهد وأخذه إلى القاهرة أسيرا (٣).

وأصاب تجارة مكة عقب هذه الحادثة تطور خطير فبعد رجوع المجاهد الى اليمن اتبع سياسة اقتصادية جديدة بتأثير عامل الرغبة فى الانتقام من أشرف مكة وسلاطين المماليك (٤) وقد ارتبط هذا العامل زمنيا واقتصاديا بعدن إذ تبوأ فى ذلك الوقت مكانة تجارية عالية وصارت القاعدة الرئيسية لمتاجر الشرق .

وبسبب قوة المماليك لم يستطع المجاهرة بعدائه لهم بل لجأ الى مداراتهم فى الظاهر ويبدو أن الضغط الاقتصادى الذى مارسه ضد اشرف مكة كان موجها أيضا إلى المماليك باعتبار مكة جسرا تنقل عن طريقه معظم متاجر مصر . . ولذلك منع تجار اليمن من السفر إلى مكة (٥) كما منع جلابهم من الرسو

(١) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٢٩٩ .

(٢) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٠٠ ، ابن الديبع : نفس المصدر والقسم ، ص ٧٧

يحيى بن الحسين : نفس المصدر ق ١ ، ص ٥١٦ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر ج ٦ ، ص ٦٢ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٠٩ . السنجارى

نفس المصدر ج ١ ، ص ٣١٧-٣١٨ ، محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٢٣-٤٢٤ .

(٤) احمد دراج : ايضاحات جديدة ، ص ٢٠٢ .

(٥) الفاسى : تحصيل المرام ، ق ٩١ ، المقرئى : السلوك و جز ٢ ، ص ٨٨٨ ،

ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٠٣ .

فى فرضتها جدة (١).

أما العامل الآخر الذى أثر فى الحياة التجارية فى مكة فهو استمرار التنافس على إمارة مكة بين الاخوين عجلان وثقبة فقد أدى الصراع بينهما إلى عرقلة النشاط التجارى وطمع كل منهما فى أخذ الضرائب من التجار لنفسه (٢) وتعسفا فى جبايتها (٣) ووصل بهما الامر الى حد منع التجار بعد اخذ الجباة منهم من دخول مكة (٤).

وليس هناك من شك مطلقا فى أن المقاطعة الاقتصادية من قبل اليمنى كان لها أثرها السيئ على الحركة التجارية فى اسواق مكة وجدة والأوضاع الأمنية المضطربة فارتفعت أسعار القلال والسلع وعم الغلاء (٥) وانعكس أثر ذلك أيضا على الأشراف أنفسهم فقل ما بيدهم فاضطروا إلى التوجه ناحية اليمن وتتبع الجلاب اليمنى والاستيلاء على ما بها من أموال ومتاجر (٦) وقد ظهر بوضوح احتياجهم إلى المال عندما قام عجلان سنة ٧٥٥هـ بفرض الضرائب على نخيل وادى مر " وادى فاطمة " وحصل له من ذلك مال عظيم (٧).

من كل ما سبق يتبين لنا أن ما حدث إنما كان لمطامع شخصية أو دوافع سياسية وقد عجزت القوى المملوكية عن إقرار الأمن فى كثير من الأحيان فتدهورت الأحوال الاقتصادية والأمنية، فصار البلد الأمين مسرحا للطامعين الذين كثر فسادهم وجورهم حتى خلت مكة من التجار والناس وتفرقوا فى سائر الأمصار (٨).

- (١) المقرئى : نفس المصدر والجزء ، ص ٨٦٧ ، محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٢٧ .
- (٢) الفاسى : العقد الثمين ج ٣ ، ص ٣٩٧ ، المقرئى : نفس المصدر والجزء ، ص ٨٨٧ .
- (٣) الفاسى : العقد الثمين ج ٦ ، ص ٦٢ .
- (٤) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٠٢ .
- (٥) الفاسى : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٠٤ .
- (٦) الفاسى : العقد الثمين ج ٦ ، ص ٦٣ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٠٢ .
- (٧) الفاسى : العقد الثمين ج ٦ ، ص ٦٤ - ٦٥ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٠٤ .
- (٨) الفاسى : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

وفى سنة ٥٧٦١ هـ كانت الفتنة العظيمة بين بنى حسن وعسكر المماليك^(١). وقبض فيها على أمير الركب المصرى وجماعة من المماليك وعرضوا للبييع بأبخس الأثمان^(٢) فغضب السلطان الناصر حسن وأمر بتجهيز عسكر للحجـاز وأصرهم بأن يستأصلوا الأشراف وقال "لا حاجة لنا بهم"^(٣) ولكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك بسبب الثورة عليه وخلعه^(٤).

غير أن الصلة بين أشراف مكة وسلاطين المماليك كانت فيما يبسـدو ضعيفة فقد أدى الصراع الداخلى إلى افتقار استمرار الدعاء للمماليك فى مكة فظهر فى الأفق نجم الجلائريين الذين استتب لهم الأمر فى العراق بعـد ايلخانات المغول وتطلعوا إلى مد نفوذهم وسيادتهم على مكة ونجح أويـس بن حسن^(٥) فى أن يكون الدعاء له وحده على منابر مكة ومن فوق جبل عرفات منذ عام ٥٧٦١ هـ حتى ٥٧٧١ هـ بفضل المساعدات المالية التى كان يرسلها إلى الأشراف^(٦).

وإذا كان عجلان بن رميثة قد استطاع ضبط الأمور فى اثناء فترة استقلاله ومهد لاتاع الحركة التجارية فى مكة فان الفترة لم تنعم كلها بالهدوء فقد كان يتخللها بعض التوتر نتيجة للطمع فى الإمارة ومن ذلك ما حدث سنة ٧٦٢ هـ عندما تمكن سند بن رميثة - شقيق عجلان - من الاستيلاء على جلبة وصلت وفيها مال عظيم لتاجر مكى^(٧).

-
- (١) الفاسى : العقد الثمين ، ج٢ ، ص ١٤٢ - ١٤٤ .
 - (٢) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٠٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج١٠ ص ٣١٦ .
 - (٣) السنجارى : منائح الكرم ، ج١ ، ص ٣٢٢ .
 - (٤) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٠٩ .
 - (٥) هو أويـس بن حسن المغلى التبريزى سلطان العراقين ببيع بالسلطنة سنة ٥٧٦٠ هـ واشتهر بالعدل والشجاعة وحب الخير توفى سنة ٧٧٦ هـ ، ابن حجر : ابناء الغمر ، ج١ ، ص ٨٣ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٦ ، ص ٢٤١-٢٤٢ .
 - (٦) الفاسى : نفس المصدر ج١ ، ص ١٩٦ ، احمد دراج : ايضاحات جديدة ، ص ٢١٠ .
 - (٧) الفاسى : المصدر السابق ، ج٦ ، ص ٦٨-٦٩ .

وفى سنة ٧٨٤هـ تعكرت العلاقات الحجازية اليمنية بسبب المحمل اليمنى ونظرا الى تفوق اليمن التجارى فى هذه الفترة لجأ الاشرف الى منع التجار من التوجه الى جدة وأمرهم بالمضى الى سواكن وتأثر النشاط الاقتصادى فى الحجاز بتلك المقاطعة ثم عادت الامور الى طبيعتها بعد عودة العلاقات بين الطرفين (١).

ويذكر الحافظ ابن حجر انه فى سنة ٧٨٧هـ تعرضت اموال التجار وبضائعهم للسلب والنهب بسبب فتنة شارت بين عبيد شريف مكة احمد بن عجلان وبين التجار (٢) الا ان المصادر التاريخية المكية لم تشر الى ذلك ولعل هذا حدث على اثر النزاع بين الشريف احمد بن عجلان وابنى عمه حسن بن ثقيفة وعنان بن مفاص (٣).

وخلف أحمد بن عجلان عنان بن مفاص سنة ٧٨٨هـ لكنه لم يكن فى حزم وقوة سلفه أحمد ... فقد عجز عن نشر الامن فى البلاد ولم يستطع السيطرة على آل عجلان وعلى الرغم من تعيينه محمد بن عجلان نائبا له فى جدة فقد كان يخشى غدره فعهد لمحمد بن بركتى - ابن موالى والده - بمراقبته سرا واعلامه بما يريب من أحواله فحدثت بين الشريفين وحشة بسبب ذلك (٤) وانتهى الأمر بالشريف محمد الى جمع آل عجلان وعلى رأسهم كبيش بن عجلان والاستيلاء على اموال تجار اليمن وتجار الكارم وكانت اموالا عظيمة قدرت بستمائة ألف متقال ذهب كما نهبوا مستودع الفلال الخاص بالاميرين جركى الخليلي وايتمش (٥) وعاث آل عجلان وعبيدهم فسادا فى جدة ووادى مر وهددوا الطرقات (٦)

ثم أن عنانا لم يحسن التصرف فعلى الرغم من عدم خروجه للقضاء على تمرد آل عجلان يبدو انه لم يكن لديه مال أو شروة يقوى بها سلطانه واضطره

-
- (١) ابن حجر : ابناء الغمر، ج١، ص ٢٦٣ .
 - (٢) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٠٣ .
 - (٣) ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٣١٨ .
 - (٤) الفساسى : العقد الثمين ج٦، ص ٤٣٥، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣١٣ .
 - (٥) الفساسى : نفس المصدر ج٧، ص ٨٧-٨٨، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣١٣ .
 - (٦) السنجارى : فرائح الكرم ، ج١ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .
 - (٦) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٢٠ .

ما هو فيه من وضع سيء الى وضع يده على ما فى بيت شمس الدين ابن جـنـ البئر - وكيل الامير جركس الخليلي^(١) وكان شيئا كثيرا من الغلال والقماش والسكر ولكسب ولاء بنى حسن فرق عليهم جانبا من ذلك واشرك معه ثلاثة من الاشراف فى إمرة مكة وصار يدعى للاربعة فى مكة^(٢) وساءت بذلك احوال البلاد

ولذلك عزل السلطان المملوكى برقوق (٧٨٤ - ٧٩٠ هـ) ثم (٧٩٠ - ٨٠١ هـ) ، عنانا وولى على بن عجلان إمارة مكة غير أن عنانا امتنع عن تسليم البلاد لعلى وقامت بينه وبين أنصار على فتنة انتهت بانتصاره وقتل كبش بن عجلان وجماعة من عبيد آل عجلان^(٣) .

ثم توجه على بن عجلان إلى مصر فى رمضان من السنة نفسها وعاد مع الركب المصرى شريكا لعنان فى الإمارة ففر عنان الى الزيمة بوادى نخلية اليمانية وهناك صادف وصول قافلة بجيلة فمنعها من دخول مكة^(٤) .

وقد كان لقوافل بجيلة أثر كبير فى الحياة الاقتصادية فى مكة فقد كانت تساهم فى توفير الكثير من المواد الغذائية ولهذا تأثرت الأسواق بمكة بمنع وصول هذا الجلب فوقع الغلاء فى السلع وعانى الناس من شدة عظيمة ولم ترخص الأسعار الا بعد دخول تلك القافلة المحصورة فى مكة بعد ان هرب عنان ظنا منه أن العساكر قد داهمته^(٥) .

وبعد رحيل الحاج من مكة أضرب عنان والأشراف باقتصاديات الحجاز فررا بالفا واستولوا على وادى مر وعلى جدة ونهبوا أموال بعض تجار اليمـ وأفسدوا فى الطرقات^(٦) .

-
- (١) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج١ ، ص ٤٦٣ .
 - (٢) الفاسى : العقد الثمين ج٦ ، ص ٤٣٥ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ .
 - (٣) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٢١ .
 - (٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٣٦ .
 - (٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٨ ، ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٠ .
 - (٦) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج١ ، ص ٣٣٢ .
 - (٧) الفاسى : العقد الثمين ، ج٦ ، ص ٢٠٧ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣١٥ .

وفى سنة ٧٩٢ هـ جدد السلطان برقوق إمارة عنان لأنه كان ممن بشـره بعودة السلطنة اليه فجعله شريكا لعلـى واتفقا على أن يقيم كل منهما خارج مكة ويكون لهما نواب فى مكة لإدارة شئونها وأخذ الضرائب وعانى التجار كثيرا من قلة الامن وارتفاع المكوس وسرقة الأموال (١) ونهب الحجاج فى طريق منى ومكة (٢).

ثم تولى على الإمارة منفردا من سنة ٧٩٤ هـ حتى قتل سنة ٧٩٧ هـ ورغم أنه سار فى ولايته سيرة حسنة (٣) لم تنعم البلاد بالاستقرار بسبب تمرد بعض الاشراف وكان على قد اتبع كل الوسائل معهم فاسترضاهم حيناً وشدد عليهم حيناً آخر واضطر الى سجنهم أحيانا، لكنهم تمادوا فى عصيانهم ومناوأتهم فكثرت الفتن والقتال وكان لضعف حالة الأمن بمكة وجدة نتائجها المباشرة على الحركة التجارية فقد خلت البلاد من التجار بعد أن فروا بأموالهم كما أعرض عنها التجار الذين اعتادوا القدوم اليها واتجهوا إلى ينبع (٤).

وسادت الأوضاع القلقة بعد مقتل على وتضاعفت فى موسم الحج فقد تعرض أهل مكة للحجاج بالقتل والنهب فى المسجد الحرام وفى طريق عرفه واشتدت وطأة السراق فأسرع الحجاج جميعهم بالخروج من مكة فى أول أيام النفر (٥). وقد اسفر رحيل الحاج فى هذا الوقت المبكر عن ارتفاع شديد فى الأسعار بمكة (٦) ذلك أن موسم الحج يعد من أزهى المواسم التجارية ويعتمد عليه المكيون اعتمادا كبيرا وطالما أدر ثروات طائلة على أشرف مكة وتجارها وأهلها والمجاورين فيها ٠٠٠٠ فلما كانت ولاية الشريف حسن بن عجلان (٧٩٨ - ٨٢٨ هـ) اتبع مع التجار سياسة غير ثابتة بين تشجيعهم على القدوم الى

-
- (١) القاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٣٨-٤٣٩ .
 - (٢) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣١٨ .
 - (٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ ، ابن حجر : نفس المصدر ج ١ ، ص ٥٠١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٦ ، ص ٣٥٠ .
 - (٤) القاسى : العقد الثمين ج ٦ ، ص ٢١٢ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣١٨ - ٣١٩ .
 - (٥) السنجارى : منائح الكرم ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .
 - (٦) القاسى : نفس المصدر ج ١ ، ص ١٩٧ .
 - (٧) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣١٩ .
 - (٧) تخلل هذه السنوات ، عزل للشريف حسن سنة ٨١٨ ، وسنة ٨٢٧ ، ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ج ١ ، ص ٣٦٢ .

مكة وجدة وتقديم التسهيلات لهم والطمع فيهم والاستيلاء على أموالهم كلما سحت الفرصة غير أنه كان يستخدم دهاءه وحسن تصرفه في هذه الناحية فيعتذر حيناً ويماطل حيناً آخر لكسب الموقف الى جانبه ومن ذلك .. أنه استولى سنة ٨٠٤هـ على أكثر من خمسة وستين ألف مثقال من التاجر شهاب الدين أحمد بن القاضي برهان الدين المحلى وجماعة من تجار الكارم وبرر ذلك بأنه فى مقابل الربح الذى يأخذه ولاية البلاد وكان مركبهم قد انصلح بالقرب من مكة (١) وقد اغضب عمله هذا القاضي برهان الدين المحلى (٢).... فطالبه برد ما أخذه من ابنه فاعتذر ووعد برده الا أن موت القاضي قد أراحه من إعادة المبلغ الذى استولى عليه بل انه صادف ان مات ابنه شهاب الدين المذكور فى مكة فى نفس السنة فاستولى على تركته وكانت تقدر بألف وأربعمائة زكبية (٣).

وشهدت سنة ٨١٢هـ توتر العلاقات بين أمير مكة وصاحب اليمن فقد أخذ الشريف حسن خمسة آلاف مثقال من سفيره عبد الله الهبى فى مقابل بيعت شعر بعثه لصاحب اليمن فمنع صاحب اليمن التجار من القدوم الى مكة ... (٤) وتأثرت الحركة التجارية كثيرا حتى ان الشريف حسن حاول غزو اليمن (٥) . ليمنع تهديدها المستمر للتجارة كلما ساءت العلاقات بينهما .

وتفكير الشريف حسن فى هذا الامر لابد أن يكون الدافع اليه سعة النفوذ والغنى الذى بلغه وبناء على ما سبق خشيت السلطات المملوكية من نزعتة الاستقلالية واتساع سلطانه فرسم بعزله وعزل ولديه وكان قد طلب اشراكهما فى الحكم معه .. وهنا استخدم الشريف حسن المال ليبقى على

-
- (١) الفاس : العقد الثمين ج٤ ، ص ٩٩ .
 - (٢) من كبار تجار الكارمية فى مصر توفى سنة ٨٠٦هـ .
 - (٣) الفاس : نفس المصدر ج٤ ، ص ٩٩ - ١٠١ .
 - (٤) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٢٩ .
 - (٥) الفاس : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ١٠٧ .

امارته فأرسل ألف ركيبة للسلطان فرج بن برقوق بيعت في مصر بخمسين ألف مثقال^(١) ومنذ هذا التاريخ زادت اطماع المماليك^(٢) واصبح ارسـال الاموال والهدايا عادة يتبعها امراء مكة وشرطا من شروط التولية^(٣).

ويبدو ان المتاجر اليمنية قد عادت الى مكة فإن ابن فهد يذكر أنه في آخر سنة ٨١٣هـ استولى الشريف حسن على الأموال التي كانت مع سفراء التاجر اليمنى القاضى وجيه الدين عبد الرحمن بن جميع^(٤) وكانت تساوى ثمانين ألف مثقال فغضب صاحب اليمن مرة اخرى ومنع الجلاب من التوجه الى مكة وانقطع الواصل من اليمن حتى سنة ٨١٥هـ حين عاد الجلاب بعد اعتذار الشريف الى صاحب اليمن وتعهد به بأن يعوضه عما اخذه واستعان بالحراشي نائبه على جدة في تخليص المبلغ من التجار . (٥) .

وإذا كانت فترة ولاية حسن بن عجلان قد اتسمت بالاستقرار النسبي وتوقف الصراعات الداخلية على السلطة فإن الأمر لم يخل من حدوث اضطرابات في بعض السنوات منها أنه في سنة ٨١٦هـ هجم بعض الاشراف على مكة ولكنهم خرجوا منها خوفاً من حسن وأقاموا باليمن مدة ثم عادوا إلى جدة واستولوا عليها ونهبوها ونهبوا بيت مسعود المصحى نائب حسن الجديد في جدة (٦) وكانت هذه السنة ثديدة على تجار اليمن فقد وردوا بمتاجر عظيمة غير أنهم تكبدوا خسائر جمة من غلمان الشريف حسن الذين تعسفوا معهم في أخذ الضرائب^(٧) وامام هذه الاساءات المتكررة للتجارة والتجار من قبل الشريف حسن وغلمانه لم يلجأ صاحب اليمن هذه المرة الى المقاطعة الاقتصادية لمكة وجدة فحسب بل لقد لجأ إلى إحياء المراع على مكة

-
- (١) ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٣٣٠ .
 (٢) الفاسي : نفس المصدر والجزء ، ص ١١١ .
 (٣) الفاسي : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٢ - ١٥٣ . المقرئزي : السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٠٧-٧٠٨ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ١٦٠ . ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .
 (٤) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٣٣ .
 (٥) الفاسي : العقد الشمين : ج ٤ ، ص ١١٣ - ١١٤ .
 (٦) ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٣٣٧ .
 (٧) الفاسي : نفس المصدر والجزء ، ص ١١٧ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٣٨ .

للاضرار بالشريف حسن من الناحية السياسية وانتزاع الامارة منه (١) .

وفى سنة ٨١٧هـ حدثت فتنة عظيمة فى مكة انتهكت فيها حرمة المسجد الحرام وضعف الأمن وانتهبت الأسواق كما تعرض الحجاج للنهب والسلب ، يقول الطبرى : " ولا يعلم فتنة أعظم منها بعد السقرامعة " (٢) .

وفى سنة ٨١٨هـ صادر الشريف حسن بعض كبار التجار المقيمين بمكة (٣) وكان مقدار ما أخذه من القاضى كمال الدين موسى بن جميع سبعة آلاف مثقال ومن الخواجا بدر الدين المزلق ثلاثة وثلاثين ألف افرنتى كما اخذ من الشهاب احمد العينى ما ظهر من مال موكله الخواجا برهان الدين بن مبارك شاه (٤)

وهكذا نجد أن سياسة حسن بن عجلان قد تحولت حين استقرت له الامور بمكة من جذب التجار وحماية تجارتهم وللمحافظة علي مصالحهم الى مصادرة اموالهم ونهبها والمبالغة فى جباية الضرائب ونحوها وبذلك اختلت سياسته الاقتصادية إذ اصبح السعى الى جمع المال هدفه وغايته وكانت التجارة أهم العناصر الموءدية الى غرضه فكان السعى عن طريقها والضغط على التجار هو السبيل المألوف لزيادة ثروته فهو يمسك بزمام الحركة التجارية بسيطرته على الحجاز .

وكان من الطبيعى الا ترضى هذه الأعمال المماليك فكانت النتيجة عزل الشريف حسن وتولية ابن أخيه رميثة بن محمد بن عجلان ومع ذلك لم تسلم التجارة من تعرض الشريف حسن لمراكب التجار ونهبها (٥) ولم يكتف بذلك بل أمرها بالمضى الى ينبع حتى لا تجوز على جدة أو تدخل مكة (٦) وعندما سمع التجار بما حدث من السيد حسن آثروا العودة بمتاجرهم الى اليمن (٧)

- (١) الفاسى : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ١١٧-١١٨ .
- (٢) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٥٢ - ٥٣ .
- (٣) ابن حجر : ابناء الفجر ، ج٣ ، ص ٥٦ .
- (٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٢٠ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٤٢ .
- (٥) ابن حجر : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٥٦ .
- (٦) الطبرى : المصدر السابق ، ص ٥٣ ، السنجارى : المصدر السابق ج ١ ، ص ٣٤٤ .
- (٧) الفاسى : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ١٢٢ .

وفى سنة ٨١٩هـ استولى الشريف حسن على غلال واموال اصحاب رميثة كما اخذ ثلاثة عشر ألف مثقال ومئتي مثقال من اموال تجار الكارم فى نظيران يحمى تجارتهم ويمكنهم من السقيا من جدة (١) ومع ذلك ارسل الى السلطان المؤيد شيخ (٨١٣هـ - ٨٢٤هـ) يسترضيه ويستعطفه لى يعود الى مكة والتزم للسلطان بمبلغ ثلاثين ألف مثقال ولم يجد السلطان بدا من الاستجابة له لانه وجد فيه الشخصية القوية التى تستطيع ان تمسك بزمام الامور فى البلد الحرام فارسل اليه الـ تخليد فى سنة ٨١٩هـ فدخل مكة واخرج رميثة واعوانه بالقوة (٣).

الا ان الاشراف من بنى ثقبه لم يلبثوا ان نازعوا الشريف حسن واستولوا على جدة سنة ٨٢٠هـ واعلنوا الامارة لثقبه بن احمد وميلب بن على وجعلوا لهما نوابا فيها ٠٠٠ واستولوا على كثير من الطعام فيها واخذوا الضرائب من الجلاب الواصلة اليها فاسرع اليهم الشريف حسن واستعاد جدة (٤) فما لبث الاشراف ان عرجوا على مكة وحاربوا نائبيه فيها مفتاح الزفتاوى وقتلوه مع جماعة من عسكر حسن (٥) فاضطر حسن الى مهادنتهم بالملح على الا يتعرضوا للحجاج والتجار فى الطرق الموصلة الى مكة ٠٠٠ مقابل مبلغ من المال يدفعه لهم (٦).

وفى سنة ٨٢٤هـ اعلن كثير من الاشراف والقواد التمرد على الشريف حسن والخروج عن طاعته ولعل ذلك كان بسبب ابطاله للرسوم التى كان يدفعها لهم كل عام (٧) وانضم الخارجون الى ابن اخيه رميثة بن محمد بن عجلان واستولوا على جدة ونشروا الرعب فى الطرقات وأدت هذه الاحوال الامنية المضطربة الى تخوف تجار اليمن القادمين الى مكة بعد ان نجل اكثرهم خارج جدة (٨) واستمر

-
- (١) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٤٣ .
 - (٢) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٣٣ - ١٣٤ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٥٣ .
 - (٣) السنجارى : منائح الكرم ، ج ١ ، ص ٣٤٤ .
 - (٤) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٤٦ .
 - (٥) السنجارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٤٦ .
 - (٦) الفاسى : العقد الثمين ، ج ٤ ، ص ١٢٨ .
 - (٧) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤١ - ١٤٢ .
 - (٨) الفاسى : العقد الثمين ج ٤ ، ص ١٤٢ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٥٣ .

النزاع فترات متقطعة حتى سنة ٨٢٦هـ كما تخللها نزاع بين ابراهيم وبركات ابني الشريف حسن وجماعتهما^(١)... ويبدو ان العلاقات بين الشريف حسن والسلطان المملوكي برسباي لم تكن على مايرام فقد ترك الشريف حسن مكة في اوائل ذي القعدة من موسم سنة ٨٢٦هـ ولم يباشر خدمة المحمل المصري وكان فيه عدد من امراء الالوف والطبلخانات لارتياب الشريف وتخوفه من ان يحدثوا في مكة امرا يكون في غير صالحه^(٢) فقد اشيع ان السلطان يريد القبض عليه^(٣) ويذكر الفاسي " ان الامراء راسلوا الشريف حسن وطلبوا منه المجيء الى مكة فاعتذر وبلغ الامر انهم استدعوا الشريف رميثة سرا واطمعوه بولاية مكة الا انه لم يستطع الوصول لوجوده مع عمه الشريف حسن^(٤) .

غير ان الاوضاع في مكة سارت بصورة حسنة واستطاع الامراء حراسة الحاج والمحافظة على اموالهم واموال التجار حتى انتهاء الموسم وخرجوا من مكة والاحوال بها مستقرة ولم يحدثوا فيها ما يريب^(٥) بيد ان الدعاء لصاحب اليمن قد ترك بمكة^(٦) .

وقد ادى نزوح الشريف عن مكة وعدم لقائه لامراء الحاج الى تفاقم العلاقات بين الشريف حسن والسلطان برسباي فجهز برسباي تجريدة لقتال اشراف مكة^(٧) وتقليد الشريف على بن عنان ولاية مكة ودخل على مكة بدون قتال نظرا

- (١) الفاسي : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ١٤١ - ١٤٢ .
" كان الشريف حسن قد سأل السلطان المملوكي اشراك ابنه ابراهيم مع ابنه بركات وان يكون الاشراف مع ابراهيم والقواد مع بركات وان يكون لكل منهما ثلث الحاقول لامير مكة وله ان يصرف منه على جماعته بالصورة التي يراهسا ،
الفاسي : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤١ .
- (٢) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٥٦ .
- (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ٢٦٠ .
- (٤) الفاسي : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٦ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ١٥٦ .
- (٥) يذكر الطبرى ان الشريف عنان بن مقامس قد وصل الى مكة البها من قبل السلطان برسباي وان الشريف حسن اخرج من مكة وتوجه اليه^(١) العسكر الي مصر فاحسن اليه السلطان وانعم عليه برد ولاية مكة له ... الا انه توفي في مصر اثر مرض اصابه في جمادى الآخر سنة ٨٢٧هـ ، اتحاف فضلاء الزمن ص ٥٦ .
- (٦) ابن فهد : اتحاف النوري ، ص ٣٥٧ ، في اطار تحسين العلاقات مع اليمن وتوثيق الصلات الاقتصادية كان يدعى لصاحب اليمن على زمزم وبعد المقرب بموافقة السلطان المملوكي وبامر منه ، انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٩٧ .
- (٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ٢٦٠ .

لخروج السيد حسن منها واعاد على الدعاء لصاحب اليمن (١) وبقي معه العسكر القادم من مصر لحفظ مكة من السيد حسن (٢) ، ثم عزل على في جمادى الآخر سنة ٨٢٨ هـ وتم استدعاء السيد حسن الى الابواب الشريفة في مصر واستقبله السلطان وأرباب دولته استقبالا حافلا واعاده السلطان الى اماراة مكة بعد أن الشوم بثلاثين ألف دينار للسلطان المملوكي (٣) واضطر السيد حسن الى الاقتراض من تجار القاهرة لتسديد المال الذي التزم به غير انه توفي في القاهرة سنة ٨٢٩ هـ بعد ان دفع خمسة آلاف (٤) وفي القاهرة قلد السلطان اماراة مكة للشريف بركات والزمه بان يقوم بما تأخر عنه والده وهو مبلغ خمسة وعشرين ألفا (٥) بالاضافة الى عشرة آلاف يحملها له بركات كل سنة والا يتعرض لشيء من عشور التجارة في جدة (٦) .

ومما سبق يتضح ان حمل الاموال للسلطين قد صار عاملا هاما من عوامل التولية بل ان ذلك قد امتد فيما بعد فشمّل زوجة السلطان واولاده وأرباب دولته وكان لكل هؤلاء نصيب وافر مع السلطان من كل ما يقدم اليه (٧) وهذا بطبيعة الحال لابد ان يوءثر تأثيرا سيئا في احوال مكة وخاصة من الناحية الاقتصادية فمكة بطبيعتها الجغرافية ليس لها موارد اقتصادية تعتمد عليها سوى التجارة التي تزدهر ايام الموسم فكان اشراف مكة يقترضون من التجار للقيام بالخدمة السلطانية ولا يطمع احد من التجار منهم بالوفاء (٨)

ويذكر ابن فهد " ان سفر الشريفين بركات وابراهيم الى مصر بعد استدعاء السلطان لهما سنة ٨٢٩ هـ قد اطمع الاشراف من آل ندى فتوجهوا من اليمن الى مكة للتشويش على اهلها ونهبوا بعض اعمال مكة فخرج السيد ابو القاسم

- (١) الفاسي : نفس المصدر ج ٤ ، ص ١٤٨ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٥٨ .
- (٢) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ .
- (٣) الفاسي : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٢ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٦٢ ، السنجاري : نفس المصدر ج ٢ ، ص ١ .
- (٤) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ .
- (٥) الفاسي : المصدر السابق ج ٤ ، ص ١٥٣ ، المقرئ : السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٢٣ ، ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٣٦٣ .
- (٦) المقرئ : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٦٣ .
- (٧) ابن تغري بردي : المصدر السابق ج ١٦ ، ص ٩٢ - ٩٣ .
- (٨) الفاسي : المصدر السابق ج ٤ ، ص ١٣٩ ، ابن حجر : المصدر السابق ج ٣ ، ص ٢٥٣ .

بن حسن بن عجلان ومعه القواد من آل عمر وآل حميضة والاشراف آل عجلان وآل حسن ونازلهم خارج مكة وانتصر عليهم وتمكن السيد ابو القاسم من حفظ البلاد حتى عودة اخوية (١) .

وفى سنة ٨٣١هـ وصلت تجريدة عسكرية الى مكة المكرمة لنصرة السيد بركات على اخويه أبى القاسم وابراهيم (٢) وكان هدفها حفظ المال بجدة (٣) .

غير ان ابا القاسم اتجه بعد سفر الحاج سنة ٨٣٢هـ الى جدة وتعرض لبعض التجار واخذ منهم بعض الغلال واتجه الى ينبع وتبعه أخوه ابراهيم وساءت العلاقات بينهما وبين اخيهما بركات ووصل الامر الى قيام النزاع بينهما واستعان بركات بالمعسكر المملوكى لمنع اخويه من دخول مكة وتهديدهما للامن وسارت الرسل بين الاخوة بالصلح وطلب السيد ابو القاسم أن يجعل لـه أخوه ريوما جيدة بمكة فوافق السيد بركات على ان يتوجه ابو القاسم معه الى مكة فرفض ابو القاسم واتجه الى اليمن واخذ يتعرض للجلاب والمراكب القادمة الى مكة فاضطر السيد بركات الى ان يدفع له ألفين ومائة مقابل عدم التعرض للتجارة الصادرة والواردة من الى مكة وقد وافق السلطان المملوكى على اعطاء السيد ابى القاسم هذا المبلغ كل سنة حتى سنة ٨٣٦هـ ثم اصطلحا صلحا شافيا فى العام التالى سنة ٨٣٧هـ (٤) .

وفى سنة ٨٣٩هـ قامت فتنة كبيرة فى جدة غير ان الشريف بركات استطاع اخمادها وساس الامر بحزم وحنكة (٥) .

ويبدو ان الاحوال الامنية فى الحجاز فى سنة ٨٤٤هـ كانت على غير مايرام فقد ورد كتاب من السلطان المملوكى يدعوه فيه الشريف بركات للقدوم الى مصر فعزم على السفر فخشى التجار والمجاورون على انفسهم واموالهم

(١) ابن الفهد: اتحاف الورى، ص ٣٦٣ .

(٢) المقرئى: السلوك، ج ٤، ص ٧٨١-٧٨٠، ابن فهد: نفس المصدر، ص ٣٦٦ .

(٣) المقرئى: نفس المصدر والجزء ٧٨١ .

(٤) ابن فهد: اتحاف الورى، ص ٣٦٧ - ٣٧٣ .

(٥) ابن فهد: نفس المصدر، ص ٣٧٧ .

واجتمعوا بالشريف بركات وسألوه ورغبوه فى البقاء وعدم السفر وان يعلمهم السلطان بذلك ويشير بان المصلحة تقتضى اقامته بمكة^(١) فكتب بذلك محضر اشار فيه السيد بركات بانه يحمل الى الخزانة الشريفة فى صلب ماله عشرة آلاف دينار عن نفسه وخمسة آلاف عن آل شكر وشميلة فاذن له السلطان بالبقاء واعفاه من الحضور الى مصر كما اذن لآل شكر بدخول مكة وجدة وكان قد طلب اخراجهم منها وبعدوصول هذا الخبر جهز الشريف ما التزم به فلفلا بخمسة عشر ألف دينار وأرسلها من جدة عن طريق البحر الاحمر الى الطور فى مصر^(٢)

وفى سنة ٨٤٥هـ عزل الشريف بركات وقلدت امارة مكة للشريف على بن حسن فجمع الشريف بركات جموعه سنة ٨٤٦هـ ودخل جدة وهدد التجار والنواحيـذ الهنود وطلب من كل مركب أربعة آلاف دينار فكانت مصيبة كبيرة على التجار ذلك ان المراكب منها الصغير والكبير ومنها ما لا تاوى شحنته خمسمائة دينار واتفق التجار على أن يعطوه العشر اسوة بامير مكة السيد على وقدر ذلك بنحو أربعين ألف دينار فرفض واستطاع التجار ان يسلموا من قبضته بعد أن فاجاه على بالعسكر وكانت وقعة كبيرة بين الطرفين انتهت بنصر صاحب مكة ومع ذلك ظلت الاوضاع غير مستقرة فى مكة وجدة وخاصة بعد ان قبض على المماليك على صاحب مكة السيد على وعلى اخيه ابراهيم ووضعت الاغلال فى اعناقهما وارسلا الى مصر فحصل بمكة امر عظيم استهالة كل فرد ووصل الامر الى انه لم توجد راوية ماء تباع فى مكة المكرمة ودعى للشريف ابى القاسم بن حسن بن عجلان على زمزم وقلد خلعة الامارة^(٣).

وفى سنة ٨٤٧هـ حدثت وحشة بين امير مكة ابى القاسم وابنه زاهر فاستولى زاهر على بعض املك ابيه وهدد الطرقات وقبض على احد تجار جسدة ويدعى ابراهيم بن مشط وطلب منه أن يعطيه خمسة آلاف فصالحه التاجر على

(١) المقرئى: المصدر السابق ج٤، ص ١٢١١، ابن فهد: نفس المصدر، ص ٣٨٧ .

(٢) ابن فهد : المصدر السابق، ص ٣٨٧ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٨٨ - ٣٩٣ .

سبعمائة افلورى ثم تمكن زاهر وبعض اعوانه من دخول مكة سرا واخذوا احد سكانها رهينة وطلبوا فيه فدية مقدارها أربعون ألف افلورى وتدخل الاشرف وغيرهم بالصلح بين الشريف وابنه فامتنع السيد زاهر. (١)

وفى نفس الوقت عاث الشريف بركات - امير مكة المعزول - فى الارض ... فسادا ، واخذ يهدد الامن والاملاك فى مكة وما حولها ويغير على القبائل ويسلبها ما تملكه وعجز صاحب مكة عنه واخيرا اتفق معه على ان يعطيه امير مكة الف افلورى مقدما وألفا اخرى على قسطين وثمانية آلاف من ثلث المتحصل من مكوس جدة وان يعطى عبيد السيد بركات الرسوم التى كانت لهم وكان هذا سنة ٨٤٨هـ . (٢)

وفى سنة ٨٤٩هـ تمكن الشريف ابو القاسم من القبض على ابنه الخارج عليه وسلمه للمماليك ثم سعى الاعيان فى مكة للصلح بينهما فتم ذلك بعد ان تعهد زاهر بعدم التشويش واثارة الفوضى فى البلاد وكما تم القضاء على مشيرى الشغب فى مكة الذين كثيرا ما هددوا الامن فيها وحصل للناس سرور بذلك. (٣)

وفى هذه السنة عزل الشريف ابو القاسم بسبب احداثه لبعض المكوس والمظالم على التجار وقلدت امارة مكة للشريف بركات اميرها السابق (٤) .

وكان للتاجر الخـــــــــــــــــــــواجا شرف الدين موسى التتاشى الانصارى
دور كبير فى الوساطة لدى السلطان الظاهر جقمق وكبار رجال دولته فــــــى
اعادة الشريف بركات الى اماره مكة .(٥)

وفى موسم سنة ٨٥١هـ توقفت الحركة التجارية وكثر النهب والسلب بسبب تعدى بعض المماليك على غنم بنى سعد وحصل بينهم قتال انتهى بعد وصول

- (١) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .
- (٢) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٩٩ .
- (٣) ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ .
- (٤) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٠٤ ، الطبري : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٦٩ .
- (٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٥ ، ص ٣٧٩ .

الشريف بركات فسكن الامر ونادى بالامان والبيع والشراء (١).

وفى سنة ٨٧٣هـ امر السيد محمد بن بركات صاحب مكة بقتل القائد محمد بن بديد بن شكر الحسنى (٢) وخاله احمد بن قفيف لتواطئهما مع اخيه على ضده واستولى على اكثر اموال القائد ابن شكر كما نفى جماعة بديد وآل عمر من مكة فباعوا جميع اموالهم وخرجوا منها (٣).

وفى سنة ٨٧٥هـ اخرج الشريف محمد آل عجلان من مكة لمخالفتهم له وتعرضهم للتجار (٤).

وفى سنة ٨٨٢هـ توجه الشريف محمد بعسكر كثيف الى جازان لتأديب صاحبها لانه اكرم اخيه عليا المناهض له : فرمى عسكره النار فى البيوت وقتلوا الرجال والنساء والولدان واسرو الكثير من الاشراف ونهبوها واخذوا ما بخزانة اميرها من متاع وشباب وكتب نفيسة واكثروا من الفساد (٥) يقول المؤرخ ابن فهد " كانت نازلة شنيعة عاد وبالسها على اهل مكة فانها اقحطت سنين عديدة " ولم يكتف امير مكة بذلك بل فرض على صاحب جازان قطعة يوءديها كل سنة لشريف مكة (٦).

وفى سنة ٩٠٦هـ اشار قانصوه المحمدي نائب السلطان فى الشام على السلطان الفورى بخلع بركات بن محمد وتعيين اخيه هزاع مكانه فى ولاية مكة - وذلك لحقده على الشريف بركات لانه لم يلتفت اليه فى اثناء اقامته فى مكة منفيا وعندما وصل الركب المصرى الى مكة ألبس هزاع الخلعة التى كانت لاخية بركات وتوجه مع الركب المصرى ومعه مائة فارس من بنى ابراهيم فخرج بركات لمحاربته والتقى الجمعان فى وادى مر (وادى فاطمة) وهزم بركات هزيمة منكرة واستولى الركب المصرى على خزانته واملاله ونسائه (٧) واضطربت احوال الناس وكثر

-
- (١) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٠٧ .
 - (٢) هو ابن الشهاب بديد بن شكر وزير الشريف محمد بن بركات المتوفى سنة ٨٦٩هـ ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، ج ١٦ ، ص ٣٢٨-٣٢٩ .
 - (٣) ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٤٣٧ .
 - (٤) ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٤٤٥ .
 - (٥) ابن الديبع : المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .
 - (٦) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .
 - (٧) ابن الديبع : المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٢٠٢ ، يحيى بن الحسين : غاية الامانى ، ص ٦٢٦-٦٢٧ .

الخوف والنهب فى الطرقات وانقطعت السبل ورجع حجاج البحر الى جدة ثم سعى الشريف ابراهيم عم الشريفين بينهما بالهدنة لتسكين الفتنة وتأمين الناس والحجاج على ان يدفع هزاع لبركات مبلغا وقدره ثلاثة آلاف اشرفى قبل يوم النحر..... فكان له ما طلبه..... غير ان الشريف هزاع عرف انه لا طاقة له لمقاومة اخيه بركات فتوجه الى ينبع مع الركب المصرى ورجع بركات الى مكة فآمن الناس وذهب عنهم اليأس والخوف (١) .

ولم يلبث الشريف هزاع أن هجم على اخيه بركات سنة ٩٠٧ هـ وهزمه وقتل بعض الاشراف والمماليك ووصل الى جدة ونادى بالامان على الناس وجعل محمد بن راجح بن شميلة نائبا له بجدة وارسل اخاه احمد الجازانى الى مكة ليقرر احوالها ثم لحقه اليها ووصلته الخلع والمراسيم من مصر على طريق البحر الى جدة ولكن المنية عاجلته فمات فى العام نفسه وتولى بعده اخوه الجازانى بمساعدة من القاضى ابى السعود ابراهيم بن ظهيرة (٢) وعندما وصل خبر وفاته الى بركات دخل مكة ففر منها اخوه الجازانى اما القاضى ابو السعود فقد صدره الشريف بركات واخذ امواله ثم حبس فى جزيرة فى البحر الاحمر وانتهى امره بموته غرقا (٣) .

(٤) اما الجازانى فقد هدد الامن فى مكة والطرقات ونهب الحجاج والتجار والتف حوله يحيى بن سبيع أمير ينبع ومالك بن روى أمير خليص وطائفة من عرب الحجاز (٥) وجرت بينه وبين اخيه الشريف بركات وقائع كثيرة (٦) .

وكان السلطان الغورى قد أمر بأن يأخذ المكس على السكر دراهم — لاجل ضرر العرب بأرض الحجاز ورسم بان تخرج تجريدة من دمشق الى مكة للقضاء

-
- (١) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ، ق ٢ ، ص ٦٢٢-٦٢٨ .
 - (٢) ابن السبيع : المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٢٠٤-٢٠٥ ، يحيى بن الحسين : المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٦٢٨ ، الطبرى : المصدر السابق ، ص ٨٩-٩٠ ، ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٧ - ٤٨ .
 - (٣) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ، ق ٢ ، ص ٦٢٨ ، الطبرى : نفس المصدر ، ص ٩٠ .
 - (٤) ابن طولون : المصدر السابق ، ق ١ ، ص ٢٦١ ، ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٣٥ .
 - (٥) ابن اياس : نفس المصدر والجزء والصفحة .
 - (٦) ابن السبيع : نفس المصدر والقسم ، ص ٢٠٦ ، يحيى بن الحسين : نفس المصدر والقسم ، ص ٦٣٢ .

على الفتنة وتهدة الاحوال^(١) وعندما وصلت العساكر الى مكة قبضت على الشريف واخوته ووزيره واخوه ووضعوهم فى زناجير حديد وارسلوا الى القاهرة^(٢) .
اما الجازانى فقد عجزت عن تحصيله وكان فى شهر ربيع الاول من سنة ٩٠٩ هـ وفى رجب من هذه السنة تمكن جماعة من المماليك من قتل الجازانى فى الحرم عند باب الكعبة ولولوا اخيه حميفة اماره مكة .^(٣)

وتعد فتنة الجازانى من اعظم فتن الحجاز التى نشبت بسبب النزاع حول الامارة والطمع فيها يقول ابن اياس : (وقد كانت مكة أن تخرب فى هذه الواقعة عن آخرها وتقرب واقعة الجازانى من واقعة ابى ظاهر القرمطيسى وما فعله بمكة من النهب وقتل الناس .)^(٤)

وفى سنة ٩٠٩ هـ هرب الشريف بركات الى مصر وقدم مكة بجيش كبير —
جمعه من بنى لام ومن اهل المشرق وسائر المفسدين ومنع الناس من الوقوف بعرفة حتى صالحه امراء الحج على اربعة آلاف اشرفى يسلمونها اليه واستولى اصحابه على قافلة واصلة من جدة على باب مكة معظمها لاهل زبيد .^(٥)

وفى سنة ٩١٠ هـ توجه الشريف حميفة ومعه جماعة من بنى ابراهيم الى جدة وأرادوا نهب بعض التجار فيها فلم يحصل لهم ذلك فدخلوا مكة غيبر أن العساكر المقيمة فيها تمكنت من القبض عليهم ولكنهم سرعان ما شاروا عليهم وانهزموا الى جدة مرة اخرى ونهبوها واستولوا على ما فيها من اموال .^(٦)

ووصل التفويض بامارة مكة للشريف بركات بن محمد سنة ٩١٠ هـ وكان قد دخل مكة بالسيف واخرج حميفة منها واستطاع بركات ان يشيع الامن ويؤمِّن الحجاج فاطمأنت به البلاد ثم ان الشريف بركات طلب من السلطان الغورى

(١) ابن طولون : نفس المصدر والقسم ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(٣) ابن الديبع : المصدر السابق ق ٢ ، ص ٢٠٧ ، يحيى بن الحسين : المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٦٣ ، ابن اياس : ج ٤ ، ص ٦٢ .

(٤) ابن اياس : نفس المصدر ج ٤ ، ص ٤٨ .

(٥) ابن الديبع : نفس المصدر والقسم ، ص ٢٠٧ .

(٦) ابن الديبع : المصدر السابق ، ق ٢ ، ص ٢٠٨ .

ان يشرك ابنه عليا معه فى امارة مكة فكان له ما اراده . (١)

وفى سنة ٩١١ هـ خرج الشريف بركات الى مالك بن رومى امير خليص الذى كان سببا فى نهب مكة زمن اخيه الجازانى وتمكن من قتل مالك وأولاده واخيه وظائفهم وارسل بروءسهم الى السلطان الفورى فنصبت على ابواب مصر وفرح الناس بالقضاء على روءوس الفتنة (٢) .

وهكذا كان النزاع على السلطة بين امراء البيت الحاكم فى مكة سببا مباشرا فى التأثير على الحركة التجارية وتهديد مصالح التجار وأموالهم علاوة على القضاء على الارواح والمرافق الاخرى فى مكة المشرفة .

" الجهود الخاصة باقرار الاوضاع فى مكة "

ليس هناك شك مطلقا فى ان اقرار الامن فى مكة المكرمة يأتى تحقيقا لقول الله تعالى : " فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا " (٣) وعملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا بنى عبد مناف ان وليتسم من هذا الامر فلا تمنعوا احد طاف او صلى اى ساعة من ليل او نهار " (٤) وقوله عليه افضل الصلاة والسلام فى حجة الوداع " يا أيها الناس اى يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام قال " أى بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام قال فإى شهر هذا قالوا : شهر حرام قال ان اموالكم ودماءكم واعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ثم اعادها مرارا .. ثم رفع رأسه الى السماء فقال : اللهم هل بلغت مرارا " (٥) .

- (١) الطبرى : المصدر السابق ، ١٠٤ .
- (٢) الطبرى : نفس المصدر ، ص ١٠٥ .
- (٣) سورة آل عمران : آية رقم ٩٧ .
- (٤) الدارمى : الامام ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن ، السنن ، بيروت ، بدون تاريخ ج ٢ ، ص ٧٠ ، العاقولى : (محمد بن محمد) ، عرف الطيب فى اخبار مكة ومدينة الحبيب مخطوط بدار الكتب المصرية القاهرة ، رقم ٧٤ تاريخ ، ق ١١٠ .
- (٥) ابن حنبل : (الامام الحافظ احمد بن حنبل ، المسند وبهامشه منتخب كنز العمال فى سنن الاقوال - الافعال ، بيروت ، بدون تاريخ ج ١ ، ص ٢٣٠ ، البخارى صحيح البخارى ، ج ١ ، ص ٢٤ .

غير ان ما كان سائدا في بداية العصر المملوكي من اضطرابات ومخاطر وانعدام الامن وانتهاك حرمة مكة كل ذلك كان من اهم الدوافع التي حركت السلطان الظاهر بيبرس للعمل من اجل اقرار الاوضاع في البلد الحرام ، ففي سنة ٦٦٧هـ لم يوافق السلطان المملوكي على طلب الشريف ابي نمى في ان ينفرد بولاية مكة^(١) الا بعد ان اشترط عليه شروطا قبلها يذكرها الفاسي وهي تسبيل بيت الله للعاكف والبادي والايوءخذ عنه حق ولا يمنع زائر في ليل او نهار والا يتعرض لتاجر ولا حاج بظلم وان تكون الخطبة والسكة للسلطان بيبرس ولا يلى نمى على ذلك عشرون ألف درهم كل سنة (٢) .

ومن اجل ضمان تحقيق الامن في البلد الحرام قام السلطان في حجتـــــــــــــــــه سنة ٦٦٧هـ باصلاح ذات البين بين الشريفين ابي نمى وعمه ادريس واشرك ادريس في امرة مكة واكد في وصيته لاميرى مكة على اقامة العدل والامن وعدم ظلم التجار^(٣) كما أقام الامير شمس الدين مروان الظاهري شائبا عنه بمكة بناء على طلب شريفى مكة^(٤) .

٦٨١هـ
ونجح السلطان قلاوون سنة ٦٨١هـ في اجبار شريف مكة على الاعتراف بسيادة مصر وحدها على الحرمين^(٥) وظهر قدرة على التنظيم الادارى فاستطاع ان يقيم نوعا من الولاء له ولابنائه في مكة بصياغة يمين ولاء حلف فيها ابو نمى على لزوم الطاعة لهم واقامة العدل والامن وان يمثل لمراسيم السلطان " امتثال النائب المستتيب " (٦)

ولعل ابلغ دليل على رعاية الممالك لتجارة مكة ... استجابتهم لاقامة

(١) كان ابو نمى شريكا لعمه ادريس غير انه كثيرا ما وقع الخلاف بينهما فكان اخدهما ينفرد بالامارة وفي هذه السنة وقبل ان يحج الظاهر بيبرس انفرد ابو نمى بالحكم واخرج عمه من مكة وخطب لصاحب مصر وكتب اليه انه شاهد في عمه ميلا الى صاحب اليمن وتحاملا على دولته فأخرجه من مكة وباله مرسومه بذلك ، الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ٤٥٩ .

(٢) الفاسي : نفس المصدر والجزء والصفحة ، السنجاري : منائح الكرم ، ج١ ، ص ٣٠١ .

(٣) السنجاري : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) الفاسي : نفس المصدر ج١ ، ص ١٧٧ ، السنجاري : السلوك ، ج١ ، ص ٥٨١ .

(٥) الفاسي : نفس المصدر ج١ ، ص ٤٦٢-٤٦٣ ، احمد دراج : ايضاحات جديدة ، ص ٢٠٠ .

(٦) الفاسي : المصدر السابق ج١ ، ص ٤٦٢-٤٦٣ ، المقرئ : المصدر السابق ج١ ، ص ٧٠٦-٧٠٧ .

العلاقات الودية مع سلاطين بنى رسول الدين حرصوا على تبادل السفارات والهدايا بينهما منذ ايام الظاهر بيبرس (١) حتى ايام السلطان الغورى (٢) ومن ذلك ان المظفر صاحب اليمن ارسل الى السلطان قلاوون هدية تشمل على طرائف اليمن مثل العود والعنبر والصينى ورماح القناء وغير ذلك كما طلب ان يكتب لسه امانا فكتب له السلطان الامان وارسل له هدية من اسلاب التتسر وخيلهم (٣) .

بيد أن هذه العلاقة قد استندت الى قوة مصر اما طلب الامان المشار اليه فريما يكون نوعا من الاسترضاء او التقدير الادبى يكسب صاحبه قوة معنوية وخاصة بعد قيام المماليك بدورهم البطولى فى صد غارات المغول ثم الصليبيين والحاق الهزائم الساحقة بهم .

وقد كان سلاطين المماليك يشجعون مثل هذا التودد السياسى لكسب صداقات اخرى تجاوزت حدود البلدين كما حدث مع ملك الحبشة يكونو (٤) .

ولا شك ان سياسة القوة التى انتهجها السلطان قلاوون مع الاشراف فى مكة وآل رسول فى اليمن قد اوقت الرعب فى قلوبهم وكانت نذيرا بنهاية التدخل الحربى فى مكة من قبل سلاطين آل رسول فى اليمن فاستعاضوا عنه بزراعة السيادة المملوكية عن طريق زرع الدساس والموءمرات ليبقوا لانفسهم نوعا من السيادة الاسمية على مكة تتمثل فى النفوذ الدينى (٥) .

على انه من الانصاف ان نذكر ان سلاطين المماليك كانوا حريصين على استتباب الامن بمكة وما استهدفت القوة التى كانوا يرسلونها الا تهدئة الاحوال فى بيت الله الحرام واقرار الامن والعدل فى ربوعه (٦) وتأمين طرق

-
- (١) الخزرجى: العقود اللؤلؤية ق ٢، ص ١٦٩، يحيى بن الحسين : غاية الاصابة ، ق ٢، ص ٤٥٤، محمد عبد العال احمد : بنو رسول وبنو طاهر: ص ٢٦٨ .
 - (٢) ابن الديبع : قررة العين ، ق ٢، ص ٢٢٠، يحيى بن الحسين : نفس المصدر، ق ٢، ص ٦٣٧ - ٦٤١ .
 - (٣) ابوالفدا : المختصر، ج ٤، ص ١٥، وانظر محمد عبد العال احمد : نفس المرجع، ص ٣٩٨ .
 - (٤) محمد عبد العال احمد : المرجع السابق ، ص ٣٧٦ .
 - (٥) احمد دراج : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .
 - (٦) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٢٩ .

الحج والتجارة التي كانت بوعرتها مكة كما اسهموا كثيرا في انقاذ مكة من الازمات الاقتصادية التي تعرضت البلاد اليها فأنفقوا الاموال الطائلة وارسلوا الغلال والارزاق والهبات لاهل مكة والمجاورين .

والواقع ان الشريفين حميضة ورميثة في عامي (٧٠٣ - ٧٠٤ هـ) قد اقاما العدل وابطلا بعض المكوس (١) وترتب على ذلك عودة الاسواق في مكة وتبدلت المنافع العامة من بيع وشراء وانتعشت الحركة التجارية من جديد .

ولم يسكت المماليك امام التدخل المغولي السافر فأرسلوا في سنة ٧١٨ هـ تجريدة الى مكة للقبض على الشريفين حميضة ورميثة (٢) وقبض على رميثة وفر حميضة وبقي قائد الحملة الامير بدر الدين التركماني حاكما ونائبا للسلطان في مكة (٣) وعمل على قمع المفسدين ونشر العدل والامن بمكة (٤) .

وبناء على ما حدث من الشريفين قلد الناصر محمد سنة ٧١٩ هـ ولاية مكة لعطيفة وكان مقيما بمصر (٥) وتاكيدا لسيادة المماليك حج الشاصر في هذه السنة ودخل مكة في غاية التواضع .

وقد اسفرت حجة السلطان هذه عن نتيجتين هامتين :-

الاولى :

تثبيت سلطة المماليك وسيادتهم على مكة .

الثانية :

(٦)
اقامة عسكر دائم في مكة يتغير كل عام وذلك لتوفير الامن والراحة

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص ٤٠٦، الجزيري: درر الفوائد، ص ٢٩٢، الطبري: المصدر السابق ص ٢٩٠ .

(٢) ابوالفدا: المختصر، ج٤، ص ٨٤، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص ٤٢٢، " كان رميثة مواليا للسلطان المملوك وفر حميضة خوفا منه الى العراق ثم عاد ووشب على اخيه واخرجه من مكة . ودعى لملك العراقيين ابو سعيد خرنبدا ثم تواطأ رميثة مع حميضة فغضب المماليك لذلك . الفاسي: نفس المصدر والجزء ، ص ٤٢١ - ٤٢٣ .

(٣) ابوالفدا: نفس المصدر ج٤، ص ٨٤ .

(٤) المقريري: السلوك ج٢، ص ١٩٠ .

(٥) ابوالفدا: نفس المصدر والجزء والصفحة ، المقريري: نفس الجزء والصفحة ،

السنجاري: المصدر السابق ج١، ص ٣٠٩ .

(٦) الفاسي: العقد الثمين ج٦، ص ٩٦ .

للتجار والمجاورين ^(١) وقد أمنت اقطار مكة فى ايام عطيفة وازدهرت التجارة ورخصت الاسعار وكثر الخير ^(٢) . وقد نالت مكة فى هذه الفترة قسطا كبيرا من التقدم المادى والازدهار التجارى وابرز مثل على ذلك ان تجار اليمن والكارم أخذوا بتوافدون على مكة باعداد كبيرة ^(٣) وهذا يؤكد ان مكة حظت بنوع من الاستقرار والامن والعدل حتى ان الناس بمكة تألموا عند مجيء رميثة من مصر شريكا لعطيفة ^(٤) فقد كان عطيفة مشكور السيرة فيهم وكانوا يحبونه لعدله . ^(٥) .

ويرى المؤرخون ان امتناع السلطان الناصر سنة ٧٢٤هـ عن ارسال القوة العسكرية التى طلبها منه صاحب اليمن الملك المجاهد لمساعدته فى اقوار الاوضاع الداخلية المضطربة فى اليمن ربما يرجع الى رغبة الناصر فى استمرار تلك الاوضاع وذلك لاضعاف نفوذ اليمن التجارى الذى ظالمه من سلاطين بنى رسول التدخل فى شئون الحجاز وتأليب الاشراف على سلطنة المماليك ولعله اراد باضعافه المكانة التجارية لعدن ^(٦) ابراز اهمية مكة من الناحية التجارية باعتبارها اكبر موزع لمتاجر الشرق او لعلسه اراد بذلك لفت النظر الى فرضتها جدة التى استطاعت انتزاع مكانة عسدن بعد قرن من هذا التاريخ . غير ان السلطان المملوكى لم يلبث فى سنة ٧٢٥هـ وبعد الحاج من صاحب اليمن ان ارسل حملة عسكرية ^(٧) اراد بها اظهار قوة المماليك ووقوفهم بحزم ضد كل من تحدثه نفسه من سلاطين ^{اليمن} المماليك او غيرهم بالخروج عن طاعة المماليك والولاء لهم . ^(٨)

(١) الفاسى : نفس المصدر ج٤ ، ص ٢٤٣ ، ابن حجر : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٩٣ ، ٥٠٨ ، الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٩٨ ، السنجارى : مناقح الكرم ج١ ، ص ٣٠٩ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر ج٦ ، ص ٩٦ ، الطبرى : المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٩٧ ، الجزيرى : نفس المصدر ، ص ٢٩٩ .

(٤) الفاسى : نفس المصدر ج٤ ، ص ٤١١ .

(٥) الفاسى : نفس المصدر ج٦ ، ص ٩٧ .

(٦) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(٧) ابن الربيع : قرة العيون ، ق ٢ ، ص ٧٥ - ٧٧ .

(٨) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع ، ص ٤٠٩ .

وعلى اثر الفتنة التى قامت بمكة فى سنة ٧٣٠هـ ومقتل ايدمر وخروج عطيفة ورميثة عن الطاعة واثارة الفوضى فى مكة تأثرت العلاقات بين الملك الناصر محمد وامراء مكة حتى انه جهز عسكريا كثيفا فى سنة ٧٣١هـ ليرسله الى مكة وعزم على استئصال الاشراف والقضاء عليهم قضاء نهائيا فقام فى وجهة قاضى القضاة القزوينى ووعظه وذكره بحرمة مكة وشرفها وان من دخلها كان آمنا ومازال به حتى رده عن عزمه (١).

ولهذا اقتضت مهمة العسكر الذى وجهه الى مكة على اقرار الامن وكان وصول تلك القوة بعد ان هرب الاشراف وعبيدهم جميعا وكتب امير العسكر للشريف رميثة يعلمه بامان السلطان له وتقليده ولاية مكة واخذ له المشايخ والاعيان بمكة الايمان المؤكدة من العسكر بعدم التعرض له بسوء اذا حضر وعندما جاء بذل لهم الطاعة وولوه امرة مكة ولم يسفك بمكة دم ولم يحدث أى اذى (٢) ولكن صاحب النجوم الزاهرة يذكر غير ذلك ويشير الى ان العسكر المبعوث قد اخذ بشار الدمر وانهم اسرفوا فى قتل العبيد وشتتوا اشراف مكة وان المماليك حكموا مكة من تلك السنة وانهم ازالوا سطوة الاشراف الرافضة .. والعبيد (٣) بيد ان هذا الكلام مبالغ فيه ومجانب للحقيقة ويمكننا الاعتماد هنا على المصادر المكية وهى تؤكد ان هذه القوة لم تحصل منها الا كل خير. وانه لم يسفك بمكة دم وانها قلدت الشريف رميثة ولاية مكة من قبل السلطان وعندما عادت تلك القوة الى مصر شكر لها السلطان حسن فعالها واشنى القاضى جلال الدين على اميرها بقوله " ان ما فعله

(١) ابن كثير : (عماد الدين ابو الفدا اسماعيل ، البداية والنهاية بيروت ، ١٩٦٦ ، ج٤ ، ص ١٤٩-١٥٢ ، ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٢٩١ ، السنجاري : المصدر السابق ج١ ، ص ٣١٢ - ٣١٣ ، محمد عبد العال احمد بنو رسول ، ص ٣٧٠ هـ .

(٢) الفاسى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤١٣ - ٤١٤ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ٢٨٣ .

" كان الاشراف شيعة زيدية والمماليك سنيين وقد ادى الاختلاف المذهبي الى اثارة العديد من المتاعب والصعوبات فى وجه السيطرة المملوكية على الحجاز .

على بن حسين السليمانى : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٢٨-٢٩ .

هو الاسلام (١) .

واتسمت الفترة من (٧٣٢ - ٧٣٥ هـ) بشيء من الهدوء النسبي^(٢) والاستقرار التجارى ووجود السلع والمتاجر ورخاء الاسعار^(٣) حتى ان المجاورين مع كثرتهم^(٤) كانوا فى اطيب عيش وأهناء^(٥) ، وعندما استقل الشريف عجلان بن رميثة بامارة مكة سنة ٧٤٦ - ٧٤٧ هـ احتلت تجارتها مكانة بارزة واليه يرجع الفضل فى تشجيع التجار على ورودها فتوافدوا من الهند واليمن^(٦) بعد ان اسقط ربع الضرائب واقام العدل ونشر الامن فى ربوع مكة ورفع الجور عمن التجار والمجاورين وبالجمله فقد وضع حدا للمتعاب الناجمة عن النزاع والتنافس وكان لهذه السياسة الحكيمة اثرها الحسن عليه فحصل على الارباح الطائلة والاموال العظيمة من التجار^(٧) .

وقد شارك رجال السلطنة فى مصر فى هذا التطور التجارى فقد كانت لهم متاجر خاصة بهم تباع لحسابهم الخاص فى مكة^(٨) .

وليس ادل على رعاية السلاطين للتجارة من اكرام السلطان المملوكى حسن (٧٤٨ - ٧٥٢ هـ) لصاحب اليمن الملك المجاهد وكان قد جىء به الى القاهرة مقيدا فأمر بشزع قيوده ورسم له بالعودة الى بلاده بعد ان تعهد للمماليك بالولاء وقدم فدية تشتمل على مبلغ من المال وعدد من الجوارى والعبيد والازر والقماش والعود واللبان وغيرها من التحف^(٩) ولكنه ما لبث ان عاد

- (١) الفاسى : العقد الثمين ج٤ ، ص ٤١٣ - ٤١٤ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٢٩١ ، السنجارى : منائح الكرم ، ج١ ، ص ٣١٣ .
- (٢) يلاحظ ان النزاع بين الشريفين عطيفة ورميثة على امرة مكة كان مستمرا
- (٣) المقريزى : المصدر السابق ج٢ ، ص ٣٤١ .
- (٤) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٢٩٣ .
- (٥) ابن ايبك : كنز الدرر ، ج٩ ، ص ٣٩٣ .
- (٦) ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٢٩٧ .
- (٧) الفاسى : نفس المصدر ، ج٦ ، ص ٦١ ، ابن فهد : نفس المصدر ص ٢٩٨ ، الجزيرى المصدر السابق ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، احمد السباعى : تاريخ مكة ج١ ، ص ٢٥٦ .
- (٨) المقريزى : السلوك ، ج٢ ، ص ٧٠١ ، ٠٠٠٠ من امثلة ذلك انه فى سنة ٧٤٦ هـ بيعت بمكة غلة لنائب السلطنة فى مصر آل ملك وكانت نحو مائة وثلاثين ألف أردب وعشرين ألف جلد من صنع الحبشة ، المقريزى : نفس المصدر ، والجزء والصفحة .
- (٩) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ص ٥٣٧ .

الى الاسر وبقي مسجوناً قرابة العام (١) ونظراً لقوة المماليك فانه لم يستطع بعد عودته الى بلاده اظهار عدائه لهم بل تظاهر بالولاء بارسلال الهدايا لهم (٢) وتقديم التسهيلات للمراكب التجارية (٣) ... غير انه اضر بتجارة مكة بمقاطعتها مقاطعة اقتصادية .

وتنصت المصادر التاريخية عن الاشارة الى رد الفعل الذى احدثته المقاطعة اليمنية لمكة لدى سلاطين المماليك أو عن الوقت الذى انتهت فيه المقاطعة اليمنية لمكة وجدة لكن ابن فهد يذكر انه فى سنة ٧٦١هـ وقع الوباء فى قافلة اليمنيين بعد خروجهم من مكة وانه مات الكثير منهم فى الطريق وان ثقبه جباهم فى الواديين بطريق الظلم (٤) .

واستوجب الوضع المضطرب فى مكة القيام بعمل حازم من قبل السلطان المملوكى لاعادة الهدوء والاستقرار فعزل الشريفان ثقبه وعجلان سنة ٧٦٠هـ واستدعيا الى مصر وقلدت ولاية مكة لمحمد بن عطيفة وسند بن رميثة (٥) ، وارسل السلطان المملوكى جيشاً كبيراً الى مكة لاعادة الامن واقرار الاوضاع وقمع المفسدين (٦) واستطاع الواليان الجديدان تحقيق قسط من الازدهار التجارى بنشر العدل واسقاط الضرائب على الماكول فعم الرخاء وجلبت السلع ورخصت الاسعار (٧) .

وقد وافق استقلال عجلان بامارة مكة بعد وفاة شريكة ثقبه سنة ٧٦٢هـ (٨) ، تدعيم هذا الاستقلال بمد سلطانه الى حلى ابن يعقوب فقد استولى عليها سنة ٧٦٣هـ وغنم اموالا جزيلة وارتفع شأنه بهذا النصر ومدحه الشعراء ذلك انه لم يحدث ان استولى عليها احد من امراء مكة قبله سوى أبى الفتوح

- (١) ابن الربيع: قرة العيون، ق٢، ص ٨٨، يحيى بن الحسين: غاية الاماني، ق٢، ص ١٥٦، محمد عبد العال احمد: المرجع السابق ، ص ٤٢٤-٤٢٧ .
- (٢) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج٢، ص ٩٣، ابن الربيع: نفس المصدر ق٢، ص ٨٩ .
- (٣) المقرئى: نفس المصدر والجزء ، ص ٨٦٧ .
- (٤) ابن فهد: اتحاف الورى ، ص ٣٠٦ .
- (٥) الفاسي: العقدالشمين، ص ٣٠٦ - ابن فهد: نفس المصدر والصفحة .
- (٦) ابن حجر: الدرر الكامنة ج١ ، ص ٥٣٤ - ٥٣٥ .
- (٧) الفاسي: نفس المصدر ج٢، ص ١٤٢، ابن فهد: نفس المصدر ، ص ٣٠٦، السنجاري، المصدر السابق، ص ٣٢٠-٣٢١، الطبرى: اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٣٧ .
- (٨) ابن حجر: نفس المصدر ج١، ص ٥٣١-٥٣٠ .
- (٩) ابن فهد: نفس المصدر، ص ٣١٠ .

الحسن بن جعفر (١) ولم يتفق لاحد بعده سوى الحسن بن عجلان (٢).

وسجلت التجارة فى عهد احمد بن عجلان معدلات مرتفعة جدا من النمو والتطور فقد عمل على رعاية التجار والسهر على مصالحهم فى مكة وجدة وامن لهم الطرق ونشر العدل وتسامح معهم واجتهد فى حل مشاكلهم وازالة العراقيل من طريقهم وتأمين حياتهم ولا عجب ان نراه فى سنة ٧٧٧هـ يعرض عن قصده لينبع وقيل لوادى الصفراء (٤) ويهب لنجدة التاجر سليمان بن راشد احد تجار مكة وابنه حسب الله عندما علم باختطاف ابناء عمه ثقبه لهما ولم يرجع الى مكة الا بعد ان امنهم واعادهم اليها . (٥)

ولعل اهم قضايا التجار التى عرضت عليه وظهر فيها عدله انه بعد موت احد تجار مكة ارسل اليه ولد هذا التاجر مائتى ألف درهم فردها فظن ابن التاجر انه ربما استقلها فضاغفها ولكنه عاد وردھا ووضع للرسول موقفه وقال : لم اردہ استقلالا وانما رددته لانه لا وجه لاختذى له (٦) ولعل مثل هذا الاجراء كان سائدا بمكة وابطله احمد بن عجلان بدليل ما حدث بينه وبين ابن التاجر .

وقد حرص الشريف احمد بن عجلان على الاحتفاظ بسود التجار وطيب شنائهم عليه فكثير تردد تجار الكارم واليمن والعراق والهند على مكة (٧) وشهد ميناء جدة حركة دائبة فى استقبال البضائع وشحنها (٨) كما عمل على تحسين علاقته بصاحب اليمن (٩).

- (١) امير مكة تولى الامارة سنة ٣٨٤هـ ودامت امارته ستا واربعين سنة وتوفى سنة ٤٣٠هـ الفاسى : العقد الثمين ج١، ص ٦٩-٧٩ .
- (٢) الفاسى: نفس المصدر، ج٣، ص ٧٠-٧١ .
- (٣) الفاسى : نفس المصدر، ج٣، ص ٩٥ .
- (٤) كان احمد قد عزم على السفر الى جهة ينبع لحرب اميرها وقيل لازالة امر بوادى الصفراء حصل منه الضرر للحجاج ، الفاسى: نفس المصدر ج٣، ص ٩٠ .
- (٥) ابن فهد : نفس المصدر، ص ٣٠٧ .
- (٦) الفاسى : العقد الثمين ج٣، ص ٩٦ .
- (٧) الفاسى: نفس المصدر ج٣، ص ٩٦، ابن فهد : المصدر السابق، ص ٣٠٦ .
- (٨) الفاسى : نفس المصدر والجزء ٩٥ .
- (٩) الخزرجى: المصدر السابق ج٢، ص ١٦٩، ابن حجر: ابشاء القمر ج١، ص ٢٦٣، ابن الديبع المصدر السابق ق٢، ص ١٠٦ .

(١) وفى الحقيقة يعد قيام دولة المماليك الجراكسة سنة ٧٨٤هـ بدايئة عهد جديد فى تاريخ التطور التجارى والعلاقات بين مصر والحجاز التى غلب عليها الطابع الاقتصادى التجارى البحث (٢) وكان لذلك اعظم الاثر فى التقدم الاقتصادى والازدهار التجارى اللذين احرزتهما مكة . . وفرضتها جدة فى هذا العهد .

وقد صادف قيام دولة الجراكسة فى مصر ان اماره مكة كانت فى ييد الشريف احمد بن عجلان (٧٧٤ - ٧٨٨ هـ) (٣) الذى احبه التجار وذاع فى الآفاق صيت عدله وحسن معاملته للتجار يقول الفاسى : " وكان اعيان البلاد الشاسعة فى العراق والهند يحبونه لطيب الشناء عليه وبها دوله (٤) .

ولم يستطع عنان بن مغبامس ضبط الامور فى مكة بعد وفاة احمد بن عجلان وكان من الطبيعى الا يرضى الوضع المضطرب فى مكة وجدة سلاطيين المماليك فعزل السلطان برقوق عنانا وولى اماره مكة لعلى بن عجلان سنة ٧٨٩هـ واعانه بعسكر جيد لاقرار الاوضاع فى الحجاز (٥) .

ويبدو ان التجار تجار مكة وتجار اليمن المقيمين فى مكة كان لهم مركز اجتماعى ومالى مرموقا وقد تجلى ذلك فى دورهم فى حل الازمات الاقتصادية التى تتعرض لها البلاد فقد استعان بهم على بن عجلان عندما احتاج الى مال لازالة الفرر الذى احدثه عنان فى جدة ولكن المصادر لم توضح هل كان هذا المال قرفا او كان مساهمة من التجار فى التغلب على المشاكل وان كنا نرجح كونه مساهمة لان الموءمن لابد ان يكون عوناً لآخيه الموءمن فى كل وقت

-
- (١) ابن العماد : شذرات الذهب ج٦ ، ص ٢٨٢ .
 (٢) على بن الحسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ص ٤٢ .
 (٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج١ ، ص ٢٠١-٢٠٢ ، ابناء الغمر ج١ ص ٣٢٠ .
 (٤) الفاسى : العقد الثمين ج٣ ، ص ٩٦ .
 (٥) الخرجى : المصدر السابق ج٢ ، ص ١٩٤ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٢١ .
 (٦) الفاسى : نفس المصدر ج٦ ، ص ٢٠٧ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣١٥ .

وخاصة فى وقت الازمات وعندما اشترك عنان مع على سنة ٧٩٢هـ فى اماره مكة عانى التجار كثيرا من نوابهما وقل الامن بمكة وكثر النهب وسرقة الاموال واقتضى الامر تدخل السلطان المملوكى فاستدعى عنانا وعليا الى مصر فلما حضرا قرب السلطان عليا وأنعم عليه بالمال والغلال والخيول (٢) كما احسن اليه كبار رجال الدولة فى مصر وعاد سنة ٧٩٤هـ ومعه تقليد بامارة مكة منفردا ومئة من الخيل ومئة من المماليك للمساعدة فى اعادة الهدوء والاستقرار فى مكة (٤).

وبعد مقتل على وتصاد الاضطرابات فى مكة وجد السلطان برقوق ان حسن بن عجلان هو الرجل القوى الذى يمكن الاعتماد عليه فى اعادة الامور الى نصابها وكان مسجوناً بمصر (٥) فاطلق سراحه وقلده الامارة سنة ٧٩٨هـ واشترط عليه المحافظة على الامن ورعاية التجار والحجاج وتسهيل كل ما يتصل بشئونهم (٦) والواقع ان هذا اجراء دأب عليه سلاطين المماليك منذ ايام الظاهر بيبرس حرمة للمكان وتأمينا للتجارة وكانت نسبة كبيرة منها تحمل بطريق البحر الى مكة وهى المركز الرئيس ومنها تتشعب طرق ودروب تجارية تغطى شبه الجزيرة العربية بكاملها .

اما حسن بن عجلان فكان شخصية فذة قوية استطاع من الناحية السياسية ان يمسك بزمام الامور وان يضرب قوى التمرد من الاشراف وغيرهم بيد من حديد واشاع الامن والعدل .

ومن الناحية الاقتصادية أثرت تلك الخصائص فى حركة التجارة فأصبحت البلاد اكثر ملائمة للانتعاش التجارى طوال العام فعاد التجار الذين فروا

-
- (١) انظر (امرة مكة والصراع بين بنى قتاده على توليها) ص ٨٦ .
 - (٢) ابن حجر : ابناء الفجر ج ١، ص ٥٠١ .
 - (٣) المقرئى : السلوك، ج ٣، ص ٧٧٤ .
 - (٤) الفاسى : العقد الشمين، ج ٦، ص ٢١٠ .
 - (٥) كان حسن قد اختلف مع اخيه على وطمع فى اماره مكة وتوجه الى مصر لياخذ تقليدا من السلطان برقوق بولايته لها، لكن السلطان ابقاه فى مصر وسجنه فيها، الفاسى : نفس المصدر، ج ٦، ص ٢١٢ - ٢١٣ .
 - (٦) الفاسى : نفس المصدر، ج ٤، ص ٨٧-٨٨، على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية، ص ٤٤ .
 - (٧) المقرئى : المصدر السابق ج ٣، ص ٨٢-٩٠، ابن فهد : المصدر السابق، ص ٣١٩-٣٢٠ .

بأموالهم الى متاجرهم فى مكة (١) .

وارضت سياة حسن بن عجلان الحكيمة السلطان المملوكى برقوق فأرسل له بذهب وخلعتين اعجابا منه بمهارته وقدرته على ضبط الامور فى مكة (٢) ، وهذا يوءكد حرص سلاطين المماليك على تحقيق الامن والعدل فى البلد الحرام ، وبهذا التقدير ضمن الشريف حسن تفوقه على الاشراف واعترافهم له بالسيادة فعظمت هيئته وقوى مركزه فى الحجاز وخاصة بعد استيلائه على حلى بنى يعقوب (٣) ولم يكن لاحد من امراء مكة بعد احمد بن عجلان من الحشمة مثل ما للسياسد حسن بن عجلان وله من العقار بمكة اكثر مما كان لآخيه احمد وملك من العقار بوادى مر قريبا مما ملك اخوه وملك من العبيد نحو خمسمائة فيما قيل ولم يكن لآخيه على من العقار ولا من العبيد مثل ما له ولا قاربه فى ذلك ولا فى السلاح وقد رزق حسن منه اشياء حسنة (٤) .

وامتازت علاقاته بالمماليك ببروز شخصيته فاستطاع بماله وراثته ان يهادى سلاطين المماليك ويستميلهم اليه ووجد سلاطين المماليك انه الرجل الذى يمكن الاعتماد على حنكته وقوته فى تأمين التجارة والعمل على ازدهارها فأرسل اليه السلطان المملوكى سنة ٨٠٤هـ مبرومين :
الاول اقراره على ما قام به من الدعاء لصاحب اليمن (٦) وذلك تمكينا للروابط الاقتصادية والمصالح المشتركة وكانت العلاقات الودية بين المماليك واليمن قد تحسنت وتبدلت الهدايا بين الطرفين كما تبدلت (٧) الخيرات والمنافع (٨) .

- (١) الفاسى: العقد الثمين ج٤، ص ٩٠-٩١، احمد السباعى: تاريخ مكة ص ٣٣٤ .
- (٢) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٩١ .
- (٣) الفاسى: العقد الثمين ج٤، ص ٩٤-٩٥، ابن فهد : اتحاف الورى، ص ٣٢١-٣٢٢ .
- (٤) الفاسى: نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٤ .
- (٥) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٢٢ .
- (٦) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٩٧ .
- (٧) الخزرجى : العقود اللوئية ، ص ٢٨٣-٢٩٤-٣٠٠ .
- (٨) من ذلك ان السلطان المملوكى ارسل سنة ٨٠٠هـ طبيباً ماهراً من يهود مصر الى اليمن ، الخزرجى : نفس المصدر ، ص ٢٩٤ .

اما المرسوم الثانى٠٠٠٠٠٠٠٠

فقد كان فيه تدعيم لسلطان الشريف وتقوية لنفوذه ويذكر الفاسى انه جاء فيه " ليس لاحد من الامراء الواصلين من مصر من اوساط السنة على صاحب مكة السيد حسن يد ولا حكم بل يعضدونه ويقوون كلمته ويعلون شأنه وان لم يسمع الامير وخالف وطلبكم القتال قاتلوه . (١)

(٢) وابتداء من سنة ٨١١هـ تولى الشريف حسن نيابة السلطنة فى الحجاز كله وقد أدى ازدياد النشاط المالى فى مكة الى استدثار الشريف حسن بالامارة وبالمنفعة العائدة عليه من المرائب التجارية ... فضلا عن الفنى العريض الذى وصل اليه .. غير انه لم يلبث ان شارك التجار تجارتهم فغضب السلطان المؤيد شيخ سنة ٨٢٣هـ فكتب اليه يعنفه فى ذلك ويعتب عليه لتأخره فى ارسال ما تبقى من المبلغ الذى التزم به نظير اعادته للامارة - وكان قد عزل منها - ومما جاء فى الكتاب " ولا تظن ان اهمالنا لك عجز عن حصولك فى قبضتنا الشريفة وانما لما احسنت منك السيرة فى بعض الامور قلنا لعل الله أن يحسن فى الباقي . (٣)

لقد كان لهذا الانذار أثره البالغ فى نفس السيد حسن فأثر التخللى عن اماره مكة وسأل تفويضها لابنيه بركات وابراهيم على ان يقوموا للخزانة المملوكية بالعشرة آلاف مثقال المطلوبة عند ولايتهما (٤) ولكى يظهر للسلطان المملوكى حسن نواياه والتزامه الطاعة .. بالغ فى خدمة امراء المحمل المصرى واعتنى برعاية مصالح الحجاج الا انه تجدد الاشارة الى ان الشريف حسن لم يدفع فى خدمتهم من ماله الخاص بل أخذ مالا من التجار والمتسببين فى مكة

-
- (١) الفاسى : العقد الثمين ج٤، ص ٩٧ .
 (٢) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٢٢٢ ، السنجارى : منائح الكرم ج ١ ، ص ٣٣٨ .
 (٣) الفاسى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٥١ - ٣٥٢ .
 (٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٥٢ .

على سبيل القرض . (١)

وفى ربيع الاول من سنة ٨٢٤هـ وصل الى الشريف حسن كتاب من مصر يتضمن الاخبار بسلطنة المظفر احمد بن الملك الموءيد وتفويضه امرة مكة للسيد حسن وابنه بركات وحشهما على النظر فى مصالح الرعية والتجار (٢) وفيه امر للشريف حسن برد ما اخذه من التجار واسقاط ما تجدد من المكوس كما جاء فيه اعفاؤه من تقديم اى شىء لامراء المحمل (٣) يقول ابن حجر : " فخفف عنهم بسبب ذلك ظلم كان يعم الناس لانهم كانوا يقتضون ذلك من التجار ولا يطمع احد منهم فى الوفاء (٤) " .

وقد كان منفذ هذه الامور التى خدمت النشاط الاقتصادى فى مكة مدبر الدولة ططر (٥) الذى اشتهر بحرصه على مصالح الناس ومعرفته بأحوالهم لكثرة اجتماعاته بالعلماء والفقراء والتجار من مشارق البلاد ومغاريها . (٦)

ولهذا ليس غريبا على الظاهر ططر عندما تولى السلطنة فى شعبان من هذه السنة ان يهتم بتفقد احوال التجار ويعمل على ازالة العوائق والاعباء التى تثقل كاهلهم فى مكة فأرسل الى الشريف حسن ألف افلورى تعويضا له عن المبالغ التى تكلف بها لامراء الحج (٧) وشرط عليه الا يتعرض للتجار بظلم (٨) او اقتراض وتأكيذا على اهمية هذا الامر بنقشه على اعمدة المسجد الحرام غير ان هذه السياسة العادلة لم يكتب لها الدوام لان المنية عاجلته .

وعموما كان للظاهر ططر مآثر عظيمة وتميزت فترة نيابته وسلطنته بالعدل بوجه عام يقول العلامة البدر العيني " وشاهد ذلك ما صدر منه فى

- (١) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٣٩ .
- (٢) الفاسى : شفاء الفرام ، ج ٢ ، ص ٢١١ ، الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٥٤ .
- (٣) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٥٣ ، الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٣٢١ .
- (٤) ابن حجر : ابناء الفجر ، ج ٣ ، ص ٢٥٣ .
- (٥) الفاسى : العقد الثمين ، ج ٤ ، ص ١٤٠ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٥٣ .
- (٦) العيني : (بدر الدين ابى محمد محمود بن احمد) الروضى الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر ، الجمهورية العربية المتحدة ، ١٩٦٢ ، ص ٢٠ .
- (٧) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٥٣ ، الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٣٢١ ، الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٥٥ .
- (٨) ابن حجر : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٥٣ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٥٣ ، الطبرى : نفس المصدر ، ص ٥٥ .

احكامه منذ مات الملك الموئيد فانه لم يصدر منه الا كل حكم يضرب به المثل بين العباد فى البلاد وهو ظاهر لكل احد يحتاج اليه بيانه ويدل على ذلك ما صدر منه من احكامه فى ايام امرته فى نيابته عن السلطنة وفى ايام حكمه على الممالك وغيرهم فانه لم يشتهر عنه مد كفى الى اخذ شيء ولا ميل الى ظلم وكان يحزر القضايا اذا وقعت عنده احسن من كثير من القضاة ويفصلها على الوجه الشرعى من غير ميل الى احد من ذلك وغير التفات الى الدنيا ولو كانت شيئا كثيرا ولقد شاهدت ذلك مرارا عديدة فانه كان يهرب من باب الرشوة والسرطيل كما يهرب احد من النار " (١) .

وفيما يتعلق بسياسة مكة الخارجية سعى الشريف حسن الى تمكين علاقته بالمغول فقد بعث عقب الحج من سنة ٨٢٣هـ رسولا وهدية الى صاحب الشرق الملك شاه رخ بن تيمور لنك وكان مع الوفد العلامة شمس الدين ابن الجزيرى الذى قدم مكة فى تلك السنة وأدى مناسك الحج وانتفع بعلمه طلاب المعرفة فى الحرمين الشريفين (٢) .

ولقد كانت كسوة الكعبة ذات الطابع الدينى هى الوسيلة التى طرق بها شاه رخ بن تيمور لنك باب الاتصال بمكة لمد نفوذه على الحجاز . . اذا سعى سنة ٨٣٣هـ سنة ٨٣٦هـ للحصول على اذن من السلطان برسباى للسماح له بكسوة الكعبة (٣) غير ان طلبه قوبل بالتجاهل من قبل السلطان المملوكى فى كلتا المراتين ذلك ان التفكير فى كسوة الكعبة كان فى نظر سلاطين المماليك تحديا لسلطانهم .

وعلى الرغم من اخفاقه فى المراتين فقد عقد العزم على اعادة طلبه فى سنة ٨٣٨هـ وارسل بكتاب وهدية الى السلطان وعمد فى كتابه الى التلويح بان رفض طلبه سيؤدى الى حدوث ما لا يحمد وذكر انه نذر ان يكسو الكعبة

(١) البدر العينى : الروض الزاهر ، ص ٢٠ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر السابق ج ٤ ، ص ١٣٩ .

(٣) المقرئى : الملوك ، ج ٤ ، ص ٩٢٧ .

البيت الحرام وطلب ان يبعث له من يتسلمها ويعلقها فى داخل البيت (١) ،
 وادرك السلطان برسباى خطورة الموقف فاتخذ جانب الحذر واحاط رده هذه المرة
 بفتوى شرعية افتاها القاضى بدر الدين العيني (٢) جاء فيها ان نذر شاه
 رخ لا ينعقد ولا يتحتم اجابته (٣) .

ولم تكذ رسل السلطان المملوكى تصل الى شاه رخ باشباء الفتوى حتى
 شارت شاعرتة ونشأت تطورات خطيرة فى الموقف السياسى وظهر النذر بحادث
 ازمة حادة بين الطرفين فقد ارسل شاه رخ سنة ٨٣٩هـ بخلعة للسلطان المملوكى
 وعده من ضمن ولاته وامره بالدعاء له على منابر مصر والحرمين وان يضرب
 السكة باسمه وقد كان اندلاع الحرب بين الطرفين وشيكا لولا أن الله سلم (٤)
 واخيرا اسفر عهد الظاهر جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ) عن تحقيق مطلب شاه
 رخ وعد مطلبه قربة الى الله ووصلت رسل الشاه الى مكة مع الركب المصرى
 وكسيت الكعبة وتصدق على اهل مكة وكان ذلك سنة ٨٤٨هـ (٥) .

وتشير المصادر التاريخية الى الاهتمام الكبير الذى اولاه المماليك
 لشئون الامن والمحافظة على اقرار الاوضاع فى مكة ففى سنة ٨٦٦هـ علم السلطان
 ان العساكر التى يبعثها الى مكة للسهر على شئون الامن ورعاية مصالح التجار
 قد شاركوا التجار تجارتهم واخذوا يتعاطون البيع والشراء فارسل الى امير
 مكة بامر بمنعهم وبنفيتهم من مكة اذا لم يمثلوا (٦) .

-
- (١) المقرئى : السلوك ج٤ ، ص ٩٢٧ .
 (٢) قاضى القضاة بدر الدين محمود بن احمد تولى الحسبة مرارا وقضاء الحنفية
 وله تصانيف عديدة توفى سنة ٨٥٥هـ . السيوطى : حسن المحاضرة ، ج١ ، ص
 ٤٧٤ - ٤٧٣ .
 (٣) المقرئى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
 (٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٥ ، ص ٧٢ .
 (٥) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٤٠١ ، السنجارى : مناقح الكرم ، ج٢ ، ص ٦ .
 (٦) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٢٨ .
 وليس ادل على رغبة المماليك فى استتباب الامن من مطالبتهم لامراء مكة
 بعدم التفرقة والشراخ فيما بينهم وتذكيرهم لهم بان المسلم لابد ان
 يشد من عضد اخيه وخاصة اذا كان فى موضع المسئولية
 انظر ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٣٦ .

وتجدر الإشارة هنا الى التطور الهائل الذى احرزته مكة منذ ايام السلطان برسباى حتى ايام الغورى فقد ساهم سلاطين تلك الفترة فى تحقيق الازدهار التجارى الذى تربعت فيه مكة وفرضتها جدة على عرش التجارة حتى ان العائدات التجارية التى كانت تؤخذ فى جدة ومكة أصبحت موردا هاما من موارد الدولة ومعينا لها على مواصلة جهادها البطولى فى خدمة الاسلام .

" توفير الحراسة وقرار الامن واصلاح الطرق البرية "

من الثابت ان ازدهار التجارة فى مكة المكرمة طيلة العصر المملوكى لم يخضع لعامل المصادفة فمكة بحكم كونها بلد الله الحرام وفيها البيت المقدس واليهما يتوجه المسلمون للحج والعمرة والمجاورة والتجارة وطلب العلم ارتبطت بشبكة من طرق القوافل البرية لا مع انحاء شبه الجزيرة العربية وحدها بل ببقية انحاء العالم الاسلامى كلها وفى هذا الاطار سارت التجارة فكانت مكة من اكبر مناطق التبادل والتوزيع لتجارة الشرق والغرب .

وكان اهتمام سلاطين المماليك بمكة كبيرا نظرا الى مكانتها الدينية فتركز جهدهم على اقرار الامن والعناية بالطرق وتأمينها تحقيقا لراحة الحجاج فعاد ذلك على التجارة بالازدهار .

بيد ان تأمين وصول التجارة وتفادى ما قد يعترض طريقها من مخاطر كان يحتاج الى قوة ودعم مالى كبير وقد قام المماليك بدور هام فى هذا المجال وانتهجوا سياسة تجارية حكيمة اذ تفادوا خطر القبائل بتوكيل حراسة قوافل الحج والتجارة لاقوامهم ممن تقع مضاربهم على الطريق من مصر الى مكة ^(١) وكان لتلك السياسة اعظم الاثر فى حفظ الطرق وتأمينها وانتظام حركة النشاط التجارى البرى .

(١) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٤٤٩ - ٤٥١ ، على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٧٣ - ٧٦ .

ولم يقتصر الامر على السلطات المملوكية بل تعداه الى غيرهم فقد حرم السلطان المغولى احمد اغا هلاوون على تأمين السبل وتنشيط الاتصال التجارى ويتضح ذلك من رسالة بعثها الى السلطان قلاوون سنة ٦٨١هـ وكانت العلاقات بينهما حسنة وقد جاء فيها " وامرنا بتعظيم امر الحجاج وتأمين سبلها فى سائر الفجاج وتجهيز وفدها واطلاق سبلها وتسيير قوافلها وتسهيل فعلها واطلقنا ايضا سبيل التجار الذين هم عمارة سائر الامصار وكذلك المترددين الى البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم تظمينا للعباد آمنين على انفسهم من حوادث الفساد وحرمانا على العساكر والقراول والشحاتى فى الاطراف التعرض لهم فى مصادرههم ومواردهم وان يمشوا حيث شاءوا على احسن ما كانت عادتهم فى قواعدهم " (١).

وكان سلاطين المماليك يهتمون ايضا بتأمين طريق الحج العراقى برغم انه لا يخضع لسلطانهم لان تأمينه كان من واجب ايلخانات المغول المسلمين الذين كانوا يحكمون العراق فى ذلك الوقت ففى سنة ٧٢٠هـ خيف على الركـب العراقى من بعض عرب مهنا الذين كثر فسادهم وقطعهم الطريق على التجارة ويبدو ان الملك الناصر كانت له حرمة عند العرب وكانت له ارتباطات قوية مع القبائل الضاربة على طول الطرق التجارية يقول المقرئى : " فاقترضسى رأى السلطان ان استدعى سيف ابن فضل اخى مهنا من البلاد وقرر معه ان اباه فضلا يمنع مهنا حتى كف عنهم ولم يتعرض لاحد منهم وبعث مهنا سابنه موسى الى السلطان بانه لم يتعرض للركب فأكرمه السلطان وخلع عليه وعلى من معه (٢).

وليس ادل على تلك الحرمة التى للسلطان الناصر من ان عرب البحرىسن خرجوا فى تلك السنة على الركب العراقى وكان معه محمل بالغ السلطان ابو سعيد فى تزيينه بحلى من الجواهر واللؤلؤ والذهب قومت بمائتين وخمسين ألف دينار من الذهب المصرى (٣) وقد طمع العرب فى الركب فأرادوا أخذه واخيرا

(١) ابن ابيك : كنز الدرر ، ٨٤ ، ص ٢٥٢ .
(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ، ص ٢١١ - ٢١٢ .
(٣) الفاسى : العقد الثمين ج ١ ، ص ١٩٤ .

وبعد مفاوضات بينهم وبين امير الركب استقر رأيهم على اخذ ثلاثة آلاف دينار
الا انهم ما لبثوا ان اعادوا المال بعد ان علموا بان الركب جاء بامر الملك
الناصر وقالوا " لاجل الملك الناصر نخفركم بغير شيء " (١) ثم ان كتاب
الناصر لتجار العراق واهلها للسير الى الحجاز فى موسم الحج وتسهيل امورهم
وارساله الهدايا والخلع لامراء المغل واعيانهم دليل واضح على اهتمامه بجذب
التجار واغرائهم بالمسير الى مكة التى اسهمت بنشاط وافر فى مضمار التجارة
المملوكية

وبسبب اضطرابات الاحوال فى مصر بعد وفاة الناصر سنة ٧٤١هـ لم يحج
من مصر فى العام التالى الا القليل (٢) وتعرض عرب مهنا للتجار وقطعوا
عليهم الطريق بعد ان بلغهم القبض على اميرهم فى مصر الا انه فى العام التالى
أنعم على اميرهم بعد ان التزم الطاعة وعدم التعرض لاموال التجار . (٤)

ولمعالجة موضوع حماية قوافل الحجيج والتجار لم يكتف السلطان بقرقوق
بالاجراءات التى اتخذها المماليك منذ قيام دولتهم وكانت تتلخص فى تقديم
مبالغ من المال او ضريبة سنوية الى القبائل القوية المسيطرة على طول الطريق
لضمان حمايتها للقوافل وتأمين سلبها وامدادها بالجمال لنقل الحبوب والازواد
فانه اعد سحابة (٦) تسير مع قوافل الحجيج فى كل سنة لحمايتها والمحافظة
عليها والجدير بالملاحظة انه اوقف عليها اوقافا بناحية بهت (٧) تتويجا
لصنيعه مع اهل الحجاز فقد باهم فى توفير الارزاق ورخص الاسعار وحل الازمات

- (١) المقرئى : السلوك ، ج٢ ، ص ٢١٤ .
- (٢) المقرئى : نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .
- (٣) الشجاعى : تاريخ الملك الناصر ، ق ١ ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .
- (٤) المقرئى : السلوك ، ج٢ ، ص ٦٩٢ .
- (٥) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٤٩٧ - ٥٠٩ - ٥١٢ ، على بن حسين السليمان :
المرجع السابق ، ص ٦٤ .
- (٦) طائفة ممن يرافقون الحاج للمحافظة عليه .
- (٧) وهى بذاتها ناحية بهتيم واصلها من المدن المصرية القديمة اسمها المصرى
حبت حيم - والقبطى بهت - تقع شمال القاهرة على بعد ٧ كم ومساحة اراضيها
٢٦٣٢ فدان ، النجوم الزاهرة ، ج٢ ، ص ١٠٨ ، هـ .

الاقتصادية التى تحتاج البلد الطاهر^(١) ولا ريب ان فعل الخير فيه وفى الطريق اليه من اعظم القربات التى يتقرب بها الى الله .^(٢)

وقد تميزت جهود الشريف حسن بن عجلان فى هذا المجال باجتذاب التجار والاحسان اليهم^(٣) فقد اغرى تجار اليمن بالقدوم الى جدة واسقط ثلث الضرائب المأخوذة منهم وقدم التسهيلات الكبيرة لهم واعتنى بحفظهم وحراستهم فى الطريق الى مكة وفى العودة الى جدة وغيرها^(٤) فكان لذلك اثر عظيم فى ازدياد الحركة التجارية .

وليس ادل على ذلك من ان التجار القادمين من اليمن بطريق جدة وحدها كان خروجهم من مكة سنة ٧٩٩هـ فى قافلتين كل قافلة ازيد من ألف جمل محملة بالبضائع والسلع المختلفة^(٥) .

ولما كان الاحتفاظ بولاء الاشراف والقواد فى الحجاز امرا يحتاج الى حنكة ودراية فان الشريف حسن كان يعمل على مهادنتهم ويلتزم لهم بمبلغ من المال على الا يتعرضوا للتجارة والتجار كما احسن الى القبائل الضاربة على الطريق التجارى بشىء من المال وطلب منهم الا يمكنوا الاشراف من الاقامة عندهم او التعرض للتجار فاذا لم تنفع هذه السياسة الصبورة استعمل القوة لبتتر الفساد^(٦) .

ورغبة فى زيادة النمو التجارى فى مكة حرص الشريف حسن على توثيق علاقاته باليمن فعاد المحمل اليمنى الى الظهور شافية فى مكة

-
- (١) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، ج١٢ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .
 - (٢) ابن الجوزى : مشير الغرام ، ق ١٤٩ .
 - (٣) السنجارى : منائح الكرم ، ج١ ، ص ٣٣٤ .
 - (٤) الفاسى : العقد الثمين ج٤ ، ص ٩٠ - ٩١ .
 - (٥) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .
 - (٦) الفاسى : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٩١ - ٩٣ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

سنة ٨٠١هـ (١) بعد انقطاع دام ثمانين سنة وعاد من اليمن فى صحبة المحمل الشريف محمد بن عجلان اخو حسن وهو فى غاية الاكرام (٢) ولعله كان سفيراً لتقوية الصلات بين اخيه حسن صاحب مكة وصاحب اليمن ولتعزيز هذه الصلة امر الشريف حسن بالدعاء لصاحب اليمن فى المسجد الحرام وبعد الدعاء للسلطان المملوكى . (٣)

وقد اثرت هذه العلاقات بوضوح فى النشاط التجارى فصار اكثر كثافة واوسع انتشاراً كما ان تحركات التجار اتسمت بالانتظام النسبى طوال العام وعاد ذلك على الشريف حسن بفائدة جمة (٤) وقدم التجار من اليمن من غير توقف فى الدخول الى جدة ومكة لاذن السلطان لهم فى ذلك (٥).

وعندما هدد الاشراف طريق التجارة الى مكة سنة ٨٢٠هـ اضطر الى مهادنتهم بالصلح على الا يتعرضوا للحجاج والتجار فى الطرق الموصلة الى مكة لقاء مبلغ من المال يدفعه لهم (٦) وقد اتاح هذا الصلح الفرصة لتأمين التجارة وتشبيت دعائمها وتوسيع دائرة التعامل التجارى .

ويلاحظ ان جهود سلاطين المماليك قد تركزت بصفة خاصة على الطريق الذى يربط مصر بمكة لانه الطريق الذى تسلكه اكبر قوافل الحج والتجارة فحجاج المغرب وافريقية كانوا يأتون الى مصر ومنها يسافرون الى مكة مع الركب المصرى (٧) ولهذا زاد اهتمام السلاطين والامراء باصلاحه وانشاء المخازن والمحطات والخانات والابراج المزودة بالجنود للحراسة وتقديم الخدمات

- (١) الخزرجى : العقود اللوئية ج٢ ، ص ٢٩٨ ، الفاسى : نفس المصدر ج١ ، ص ١٩٦ .
- (٢) الخزرجى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، " يذكر ابن فهد ان انقطاع المحمل اليمنى دام عشرين سنة ويعد هذا المحمل آخر محمل ارسلته اليمن .
- (٣) الفاسى : نفس المصدر ج٤ ، ص ٩٣ .
- (٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٩٤ - ٩٥ ، ابن فهد نفس المصدر ص ٣٢٢-٣٢١ .
- (٥) الفاسى : نفس المصدر ج٤ ، ص ١٢٨ .
- (٦) الفاسى : العقد الثمين ج٤ ، ص ١٢٨ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٤٥-٣٤٦ ، السنجارى : منائح الكرم ، ج١ ، ص ٣٤٦ .
- (٧) القلتشندى : صبح الاعشى ، ج٥ ، ص ٢٩٣ ، المقرئى : الذهب المسبوك ص ١١٣ ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣١٥ .

للقوافل كما حفروا المناهل واقاموا المصانع واحواض المياه على طول الدرب وقد جرت العادة ان يخرج البنائون والفعلة والحجارون لاصلاح الطريق وتمهيده وحفر ما اندثر من آبار فى الاماكن التى تحط فيها القوافل رحالها (١) ، وقد تم اكتشاف بعض الآثار فى هذا الطريق وفيها ذكر الاعمال الخالدة التى قام بها سلاطين المماليك (٢) .

ولما توترت العلاقات بين المماليك والمغول فى العراق وفارس بسبب تهديد المغول لسلطان المماليك فى الشام والحجاز ، ثم ما نشب من الحروب والصراعات الداخلية فى العراقيين واستمر اكثر من ثلاثين عاما كان لذلك اثره فى تخريب بغداد وتوقف مسير الحج من العراق مدة من الزمن (٣) وانتهى الامر بقدم صبعوث اسكندر ابن قرايوسف صاحب عراق العجم للخدمة السلطانية فى القاهرة وابدى حسن النية فى اقامة العلاقات الطيبة مع المماليك فقد اخبر بان بلاده وقعت الصلح مع قرابك على الا يتعرض لشيء من طرق المطكة وان يسهل طرق الحجاج والتجار ونحوهم من المسافرين وان يضرب السكة ويقيم الخطبة للسلطان بديار بكر وان يمثل لما يرد عليه من مراسيم السلطان (٤) والذى يهمننا هنا ما يرتبط بعودة الطريق وعودة الاتصال التجارى بين مكة وبلاد العراق وفارس .

وعلى الرغم من شدة الاهتمام بالطرق وحراستها لم يسلم الامر من وقوع بعض الحوادث تعرض فيها التجار وقوافل الحجيج للخطر وهجوم الاعراب فمع وجود القوة المملوكية فى الججاز سنة ٨٢٨هـ لم تستطع ان تحقق الامن فى مكة وفى الاطراف اذ تعرض الركب العقيلي للنهب واخذت اموالهم وجمالهم

-
- (١) المقرئى : السلوك ج٤ ، ص ٨٦٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ٦٠ ، ج١١ ، ص ٧٤ ، ج١٤ ، ص ٣٥٥ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٦٧ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠١ ، ٤٠٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٥٢ ، ابن اياس ج٤ ، ص ١٢٩ ، ١٥٢ .
 (٢) سيد بكر عبد المجيد : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ١١٥ .
 (٣) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ج٥ ، ص ٧٢ - ٧٣ ، احمد دراج : ايضاحات جديدة ، ص ٢١١ .
 (٤) المقرئى : السلوك ج٤ ، ص ٨٩٧ .

ونهب قاضى مكة سراج الدين الحنبلى وعمر بن عبد الحميد فى اثناء وصولهما من بلاد العجم كما خرج قطاع الطرق من الاعراب على الحجاج فى منى ليلسة التاسع من ذى الحجة واخذوا احمالهم وجمالهم وعاقوا بعض الحجاج عن الحج^(١) كما تعرض الركب العقيلي ايضا للنهب فى سنة ٨٣٠هـ وكان مع الركب الشريفان احمد وعلى ولدا الشريف جسن بن عجلان وكانا قد انتجعا المشرق وعادا بمال وفير نهب جميعه^(٢) ونهب للتجار العراقيين اموال عظيمة كثيرة جدا^(٣). منها لتاجر واحد مائة جمل محملة بضائع ما بين شاشات وأزر وبهار وغير ذلك^(٤).

وفى سنة ٨٣٤هـ قدم سعد الدين بن المرة مباشر جدة ومعه ألف نفس بقصد المجاورة فى مكة^(٥) وكانت عدة احمالهم نحو ألف وخمسمائة جمل^(٦) وقد تعرض قطاع الطريق للركب مرتين الاولى حين عارضهم عرب زبيد وكادت ان تقوم فتنة بينهم لولا حسن سياسة سعد الدين بن المرة فقد صالحهم على مبلغ مائة دينار^(٧) وقيل ألف دينار^(٨) دفعها ابن المرة من ماله الخاص ولم يكلف الركب شيئا غير انه لم يلبث ان خرج عليه فى رابغ الشريف زهير الحسنى ومعه مائة فارس وحاولوا الاستيلاء على الركب ونهبه فقاتلهم ابن المرة حتى صالحوه على مال^(٩) مقداره ألف ومائة افلورى وعلى ثياب صوف وخرج وغيرها تقدر بأربعمائة دينار^(١٠).

ولا نعلم السبب الذى منع السلطان المملوكى من القيام بأى عمل لتأديب عرب الحجاز الذين كثر تعرضهم للطرق المؤدية الى مكة وتهديدهم الامسن

-
- (١) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٦١ .
 - (٢) المقرئى : السلوك ج ٤ ، ص ٧٥٦ ، ابن حجر : ابناء الغمر ج ٣ ، ص ٣٨٣ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٦٥ .
 - (٣) ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة .
 - (٤) المقرئى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
 - (٥) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٥٦ .
 - (٦) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٧١ .
 - (٧) ابن فهد : نفس المصدر والصفحة .
 - (٨) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٥٦ .
 - (٩) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج ٣ ، ص ٤٥٦ .
 - (١٠) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٧٢ .

والسلامة فيها فقد اكتفى بالهف الحلول وهو منع الناس من السفر بصحبة ابن المرة في عام ٨٣٦هـ ولكن لحرض الناس على السفر الى الحجاز سنة ٨٣٩هـ اضطر السلطان المملوكى الى ارسال خمسين مملوكا مع الرجبية (١) ليقوموا بتقرير الاوضاع في الحجاز بدلا ممن كانوا بها من المماليك وتقرر عودتهم الى القاهرة (٢) ولعل السبب في هذا التهاون يرجع الى انشغال الدولة بالفتوحات العظيمة في جزر البحر المتوسط .

وفي السنة نفسها اراد السيد بركات صاحب مكة ان يضع حدا لعنت بعض القبائل النازلة حول عسقا بعد ان تزايد خطرهم واخذهم السابلة فأعد بعضا بقيادة اخيه السيد على بن حسن بن عجلان وعدد من وجوه مكة والامير المملوكى ارتبغا - امير الخمسين المذكورين بمكة من المماليك السلطانية وبصحبه عشرون من عسكره غير انهم هزموا وعادوا يجرون اذيال الخبيثة بعد ان قتل منهم اكثر من اربعين رجلا وغنم الخارجون فرسانهم واسلحتهم بقول ابن فهد : " فقامت عند ذلك بمكة صرخة من جميع نواحيها لم ير مثيها شاعة " (٣) .

وفي سنة ٨٤١هـ تعرض عريسان بلى لركب الغزاوى ومن معه من اهل الرملة والقدس وبلاد الساحل واهل ينبع وحصل من العريان بلاء عظيم للركب فطلبوا من الركب صالا فدفع اليتابعة مبلغا من الذهب وخلصوا انفسهم منهم اما الغزاويون فقد واجهوهم واقتتلوا معهم فقتلوا من الاعراب ثلاثة فحملوا على الركب حملة منكرة واخذوا يقتلون ويأرون وينهبون حتى قدر ما أخذوه ، بثلاثة آلاف جمل باحمالها وعليها من المال ما بين ذهب وفضة وبضائع وزاد صالا يقدر من كثرته ووصل من خلص من الركب الى ديارهم وهم في أسوأ حال

(١) يلاحظ ان الناس اعتادوا القدوم الى مكة قبل موسم الحج بوقت طويل ... وذلك للمجاورة والاستفادة من الحركة التجارية النشطة في مكة المكرمة وخاصة بالنسبة للتجار .

(٢) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٧٣ - ٣٨٠ .

(٣) ابن الفهد : اتحاف الورى ، ص ٣٧٧ .

وتعد هذه الحادثة من اشنع حوادث الطريق . (١)

" تأمين طريق البحر الاحمر وتنشيط الحركة التجارية فيه "

يبلغ طول البحر الاحمر من السويس الى باب المندب ٢٢٤٠ كم وعرضه في اوسع جهاته ٣٥٠ كم اما تسميته فهي تسمية اغريقية بسبب لون الشعب المرجانية التي تكثر فيه وقد اطلق عليه المسلمون اسماء متعددة هي اسماء المدن والبلاد المطلة عليه مثل بحر القلزم وبحر جسدة وبحر اليمن وبحر الجبار وبحر فرعون (٢)

ويعد طريق البحر الاحمر من اهم الطرق البحرية التي ربطت بين الشرق والغرب منذ اقدم العصور وقد جعله الاسكندر المقدوني احد الطرق التجارية الرئيسية التي تربط بلاده بالهند وزاد الاهتمام بتجارة البحر الاحمر في مصر في عهد البطالمة ولذلك شرعوا في حفر قناة بين البحر الاحمر والبحر المتوسط ووصلت عمليات الحفر حتى البحيرات المرة الا انهم عدلوا عن المشروع اذ ظنوا ان مستوى الارض دون مستوى البحر الاحمر بثلاث اذرع (٣) وتحول المشروع الى الربط بين البحرين الاحمر والمتوسط عن طريق النيل وذلك بحفر قناة تربط النيل بالبحر الاحمر وكانت هذه القناة تهمل احيانا ثم يجدد حفرها احيانا اخرى من جديد لربط مصر بالحجاز ولما فتح عمرو بن العاص مصر اعاد حفرها من جديد لربط مصر بالحجاز واطلق عليها اسم خليج امير المؤمنين نسبة الى الخليفة عمر بن الخطاب الذي اشار بحفرها وصار هذا الخليج مسلكا لسفن التجار والحجاج تمضي فيه الى البحر الاحمر لتتجه الى الحجاز واليمن والهند . (٤)

(١) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٨١ .
(٢) احمد مختار العبادي ، والسيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ، سمي بحر فرعون لان فرعون مصر غرق فيه اثناء مطاردته لنبي الله موسى عليه السلام .

احمد مختار العبادي نفس المرجع ، ص ٢٥٤ .

(٣) سونيا هاو : في طلب التساويل ترجمة محمد عزيز رفعت مراجعة الدكتور / محمود النحاس القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٣١ - ٣٢ .

(٤) احمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .

ويرى المؤرخون ان التغيير الكبير الذى طرأ على طرق التجارة وقع فى مستهل القرن السابع الميلادى بظهور الاسلام .

فقد كان لانتشار الاسلام اعظم الاثر فى تجارة الشرق لان الكثير من العرب المسلمين الذين كانوا يدعون الى الاسلام استقروا بشاطئ الهند يعملون تجارا للتوابل والعطور او سماسة لها (١) حتى صار البنغال مجالا مشتركا للعرب والصينيين فمنذ القرن الثامن الميلادى كان العرب المسلمين يستخدمون المراكب الصينية التى تحمل مئة وخمسين او مئتين رجل واستولفت تجارة الافاوية نحو السويس والغرب منذ القرن الثامن تحت الرقابة العربية (٢) ذلك ان السفن الهندية والصينية لم يكن يسمح لها بسان تمخر عباب البحر الاحمر وكانت عدن آخر نقطة تصلها هذه السفن (٣).

غير ان ازدهار هذا الطريق صاحب قيام الدولة الفاطمية التى عملت على تنشيط تجارته وحمايتها فكان لذلك اعظم الاثر فى تقدمها الاقتصادى وازدهارها الحضارى (٤).

ثم كان الاهتمام الشديد بتأمين التجارة والعمل على اجتذاب السفن التجارية الى البحر الاحمر دافعا للايوبيين الى القيام بارسال الشوانى لحراسة السفن التجارية فى المحيط الهندى وحمايتها من غارات القراصنة (٥).

وابدى سلاطين المماليك اهتماما كبيرا بالتجارة البحرية فعملوا على تأمين الملاحة فى شمال البحر الاحمر وجنوبه وعلى جذب التجار من الصين والهند باصدار المنشورات التى تشجع هؤلاء التجار وتفريهم بالقدوم وغشيان

(١) سوتياهاو: نفس المرجع ، ص ٣٩ ، ك. م. بانكيار اسيا والسيطرة الغربية

ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد مراجعة احمد خاكي ز ص ٣٢ - ٣٣ .

(٢) جورج لوثران: تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث ، ترجمة

هاشم الحسينى ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٦٤ .

(٣) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ، ص ١٣٦ .

(٤) احمد مختار العبادى : نفس المرجع ، ص ١٥٣ .

(٥) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٣٨٧ - ٣٨٩ .

الموانئ الحجازية والمصرية وقد جاء فى مرسوم السلطان قلاوون للتجار سنة ٦٨٢ قوله " ومن يوءثر الورود الى بلادنا الفسيحة ارجاؤها الظليلة أفياءها وأفناؤها فليعزم عزم من قدر الله له فى ذلك الخير والخيرة ويحضر الى بلاد لا يحتاج ساكنها الى ميرة ولا ذخيرة لانها فى الدنيا جنة عدن لمن فطن ومسللة لمن تغرب عن الوطن ويكفيها ان من بعض اوصافها انها شامة الله فى أرضه فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم فليأخذ الالهة فى الارتحال إليها والقدوم عليها ليجد الفعال من المقال اكبر ويرى احساسا يقابل فى الوفاء بهذه العهد بالاكثر ويحل منها فى بلدة طيبة وفى سلامة فى النفس والمال وسعادة تمول الامال ولهم منا كل ما يوءثرونه " . (١)

كما أن استقرار الأوضاع والأمن بين ربوع البحر الاحمر وموانيه والعمل على رعاية التجار كان من اهم اعمال ولاية الاقاليم التابعة للسلطان المملوكي^(٢)

ومن أبرز التنظيمات التى خدمت التجارة فى مكة تحديد الشريف حسن بن عجلان للوقت الذى يسمح فيه باستقبال التجار والبضائع التجارية القادمة من البحر الاحمر فمنع تنجيل الجلاب خارج جدة طوال العام عدا أيام الموسم . فكان هلال ذى الحجة وما قرب منه بايام يسيرة هو الوقت الرسمى الذى اذن فيه بالتنجيل خارج جدة وقد نفذ هذا النظام بدقة وصرامة . (٣)

ولعله اراد بذلك تخفيف الضغط على جدة كما أنه كان مطمئناً أن جميع المتاجر سوف تقصد مكة فلا تفوته الفائدة التى يحصل عليها من التجسسار وربما كان يرسل من طرفه من يقوم بقبض الضرائب من التجار والحجاج ولا سيما ان الفترة قصيرة ومحدودة وهذا يسهل أحكام الرقابة على التجار والى الشريف

(١) القلقشندي : صح الاعشى ١٣٠١ ، ص ٣٤٠ - ٣٤٢ ، احمد مختار العبادى ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية ، ص ٢٦٤ .

(٢) القلقشندي : نفس المصدر ج ١١ ، ص ٤٢٨ ، الفاسى : العقد الشمين ج ١ ، ص ٤٥٩ ، ج ٤ ، ص ٨٧ - ٨٨ ، ١٤٦ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٥٦ - ٣٦٠ ، السنجارى : تاريخ الكرم ، ج ١ ، ص ٣٠١ .

(٣) الفاسى : العقد الشمين ، ج ٤ ، ٩٢ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٢٠ .

حسن يرجع الفضل فى تفويض امر جدة للفقير التاجر جابر بن عبد الله الحراشي سنة ٨٠٦هـ وكان شغوفا بالعمارة والبناء (١) مخلصا فى خدمة الشريف حسن فنظم الضرائب التى تؤخذ من التجار . (٢)

وعموما فقد قطعت جدة شوطا فى التوسع والازدهار فى ظل سياسته الرشيدة التى اوضحت الجوانب المفيدة لهذه الفرضة فى اطار التوسع التجارى وهياتها لخطواتها الكبيرة فيما بعد فى مجال التجارة .

ومن الطبيعى ان استخدام هذا الطريق واتساع النشاط التجارى فيه كان يتوقف الى حد كبير على امكانيات المحطات النهائية له وعلى ازدهارها وتوفر الامن فيها .

والواقع ان هجر التجار الشرقيين او الهنود لميناء عدن واتجاههم الى البحر الاحمر يمثل حركة اقتصادية بارزة لها ابعادها وخصائصها فقد ظهرت نشائج المعاملة السيئة والتعسفية التى اتبعها سلاطين بنى رسلول وقرضهم الضرائب الباهظة على التجار فعدل التجار عن الرسو بسفنهم فى ثغر عدن ولجئوا الى موانئ اخرى مثل جدة والهند والمليبار . (٣)

وادى ذلك كله الى اهمال ثغر عدن وتدهور اقتصادياته بسبب انقطاع المراكب التجارية الواصلة اليه من الهند والشرق الاقصى . (٤)

وفى الحقيقة بذل سلاطين المماليك جهودا جبارة لتأمين الحركة التجارية فى البحر الاحمر كما قاموا بتوثيق علاقاتهم التجارية مع الشرق والغرب حتى استطاعت الدولة المملوكية فى عهد الجراكسة ان تبني لنفسها قوة بحرية عظيمة مكنتها من المحافظة على ازدهار النشاط التجارى فى البحر الاحمر ولذلك كان من الطبيعى ان يهتم السلطان برسبى باستغلال الظروف التى يواجهها

(١) " بنى فرضة جدة ليحاكى بها فرضة عدن كما بنى حصنا لحسن بن عجلان فى حلى وحفر حوله خندقا ، الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) الحضراوى : الجواهر المعدة ، ص ٤٧ .

(٣) ابو مخرمة : تاريخ ثغر عدن ، ج ١ ، ص ١٢ .

(٤) يحيى بن حسين : غاية الامانى : ق ١ ، ص ٥٦١ .

التجار فى اليمن لصالح تدعيم الحركة التجارية فى الموانئ التابعة للممالك فى البحر الاحمر عن طريق جذب هؤلاء التجار للتعامل المباشر مع الممالك (١).

وليس هناك شك فى ان السلطان برسباى قد اسهم فى جعل جدة فى هذه الفترة مدينة تجارية من الطراز الاول واهتم بتمكين علاقاتها التجارية مع الهند والصين منذ ان تحول النشاط التجارى اليها وفى الوقت الذى أساء فيه شريف مكة معاملة التاجر الهندى الذى تجاوز عدن وتوجه رأسا فى البحر الاحمر الى جدة سنة ٨٢٥هـ وتعرض فى جدة لمصادرة بضائعه وبيعها الشريف على التجار فى مكة بالسعر الذى حدده (٢).

وقد اغضب هذا التصرف السوء السلطان برسباى لان ذلك كان يتعارض مع السياسة الاقتصادية الحكيمة التى تقوم بها الدولة المملوكية .

وتشير المصادر التاريخية الى ان السلطان برسباى ارسل الى الشريف حسن بختابين سنة ٨٢٦هـ الاول يعنفه فيه على اخذه لفلل التجار الهندود ويطلب منه رده اليهم والثانى يبين فيه مدى ثقة الممالك به وتعظيمهم لسياسته ولسياسته التى ضمننت للحجاز فترة طويلة من الاستقرار والرخاء وقد جاء فى الخطاب : " وانه بلغنا عنك انا نريدك الاستبدال ولا يعقل لمكانتك عندنا وان غبت عن عيننا فأنت فى القلب وما كنا نولى فى حرم الله تعالى احدا من الشرك فان ينبع دون ذلك ولم نول فيها الا شريفا ووصلنا كتابك يتضمن طلبك منا خاتم الامان ومنديل الرضا وقد جهزنا لك ذلك فطب نفسا وقر عيننا . وسألتنا فى استنابة ابنك الشريف بركات فى امرة مكة وما نشق فى ذلك لابنك وفى ذلك سبب للشحناء بين الاخوة فان اردت ذلك فاستنبه وياشر خدمة المحمل

(١) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٥٥ .

(٢) ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٣٥٥ .

الشريف والامراء " (١) .

ويبدو ان السلطان برسبای لم يكن مطمئنا الى الشريف حسن فما لبث ان عزله في تلك السنة التي ارسل اليه فيها الخطابين وقلد اماره مكة للشريف على بن عنان وزوده بقوة مملوكية كبيرة ولعله اراد ان يكون مطمئنا على الا يتكرر ما حدث مع التجار الهنود ولذلك فان التاجر عندما عاد في هذه السنة رفق به صاحب مكة وعامله احسن معاملة حتى قويت رغبته ومضى شاكرا (٣) .

والواقع ان عودة هذا التاجر في سنة ٨٢٨ هـ ومعه جماعة من التجار الهنود تبين ان الظروف صارت ملائمة لكي تزدهر الحركة التجارية في البحر الاحمر وخاصة جدة مرفأ مكة قلب العالم الاسلامي ومركزه الثقافي وجسر الاقتصاد والتبادل التجاري بين اقطاره ونتيجة ذلك ان أدرك السلطان برسبای ما يمكن ان تستفيده الدولة من تحصيل الرسوم المستحقة على السفن التجارية في جدة ومنذ هذا التاريخ صار نظر جدة " وظيفة سلطانية " (٤) وغدت " بندرا عظيما الى النهاية " (٥) ومن الملاحظ ان سلاطين المماليك قد قاموا باتخاذ اجراءات من شأنها المحافظة على ازدهار الحركة التجارية في البحر الاحمر منها تشجيع السفن الهندية والصينية على الرسو بميناء جدة وتدعيم مصالحهم التجارية عن طريق تحسين علاقتهم ومعاملتهم للتجار الهنود والصينيين في الوقت الذي كاسوا يصادرون السفن اليمنية التي ترسو بعدن (٦) بغية السيطرة على طريق التجارة الذي كانت تحتكره عدن وبفضل الجهاز الاداري والتوجيه الاقتصادي المنظم اضحت جدة القاعدة التجارية في البحر الاحمر تصلها السفن من مختلف الاقطار للتبادل التجاري وقد ادى ذلك الى فقدان عدن السيطرة على البحر الاحمر وسواحل افريقية بعد ان انتقلت التجار البحرية

- (١) الفاسي: العقد الثمين ج٤، ص ١٤٦، ابن فهد: اتحاف الوري، ص ٣٥٦ .
- (٢) الفاسي: شفاء الغرام ج٢، ص ١١، العقد الثمين ج٤، ص ١٤٨، ابن حجر: ابناء الفمر ج٣، ص ٣٢٦ .
- (٣) المقریزی: السلوك ج٤، ص ٦٨١، ابن فهد: نفس المصدر، ص ٣٥٨ .
- (٤) ابن فهد: اتحاف الوري، ص ٣٦٠، ابن اياس: بدائع الزهور ج٢، ص ١٠٣ .
- (٥) المقریزی: السلوك ج٤، ص ٦٨١ .
- (٦) المقریزی: نفس المصدر والجزء، ص ٩٢٩، ابن حجر: ابناء الفمر ج٣، ص ٥٣٩، ابن فهد ص ٣٧٨ .

من ايديهم الى المماليك .

واكبر الظن ان المماليك كانوا يتعجلون هذا الوضع ويتوقون للوصول
اليه وآية ذلك ان السلطان المملوكى حاول اخذ اليمن سنة ٨٢٨هـ^(٢) ولعله
أراد بذلك تهديد الرسول السلطان الرسول حتى لا يقوم باى عمل من شأنه ان يفقد
جدة تلك المكانة التى اكتسبتها وفى الوقت نفسه اولى السلطان المملوكى
اهتماما كبيرا للتجارة الخارجية وعمل على زيادة ازدهارها وادى ذلك الى
ترك^{البحر} لبندر عدن وتلاشى امر عدن من اجل هذا وضعف حال مملكة اليمن^(٣) ولم
يستطع السلطان الرسول الظاهر يحيى ان يغفر للتجار الهنود ما حل بعدن
فشرع بتجهيز السفن وشحنها بالمقاتلة والسلاح عند باب المندب لرصد السفن
القادمة من الهند ومعها من التقدم الى جدة وارغامها على التوجه الى عدن
ومصادرة بعض السفن بعد اجبارها على دخول عدن .^(٤)

وعندما علم السلطان برسباى بالتهديد الرسولى لامن وسلامة التجارة فى البحر
الاحمر بادر بتجهيز قواته وهدد باحتلال اليمن لانه عد ما قام به السلطان
الرسولى تحديا سافرا لشخصه ولم يتخل السلطان المملوكى عن تهديده الا بعد ان
تعهد صاحب اليمن بعدم التعرض للسفن التجارية وان يترك لها الحرية فى
اختيار الموانئ التى تريد الرسو بها .^(٥)

وعلى الرغم من ان ما قام به السلطان برسباى يعد جزءا من سياسة
المماليك الدفاعية وتأمين سلامة الملاحة التجارية فى البحر الاحمر فان ذلك
جعل المماليك يدركون انهم قد اصبحوا قوة بحرية تجارية لها وزنها وان الموقف
الجديد صار يحتم عليهم الفصل فى سيادة هذا البحر وانتزاعه نهائيا

- (١) انظر القلقشندي: صبح الاعشى ج٨، ص ٧٧ - ٧٨ ، ج١١، ص ٤٣٧، ص ٤٢٠-٤٢١، ج١٣، ص ٣٤٠ - ٣٤٢ .
- (٢) ابن فهد : اتخاف الورى ، ص ٣٦٠ .
- (٣) المقرئى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٧٠٧ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٦٠ .
- (٤) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٥٨-٤٥٩ .
- (٥) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ، ص ١٣٧ ، محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٥٩ .
- (٦) المقرئى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٩٢٩ ، محمد عبد العال احمد : نفس المرجع والصفحة .

من قبضة عدن .

وكان لتلك الجهود الرائعة اثرها فى ازدهار تجارة الممالك فى جدة واصبحت تمثل المركز الاقتصادى الاساسى فى البحر الاحمر غير ان ميزان القوة الاقتصادية اخذ يسجل تراجعاً لصالح طريق آخر عن طريق البحر الاحمر فقد كان وصول فاسكو ديجاما الى الهند سنة (٨٩٨ - ١٤٩٨ م) بعد اكتشافه لرأس العواصف (١) او رأس الاعاصير (٢) رأس الرجاء الصالح حالياً بداية لعصر جديد خفت فيه حدة النشاط التجارى فى جدة وعبر البحر الاحمر واضمحلت الامور منذرة بتدهور اقتصادى كبير للممالك ما لبث ان تطور الى كارثة وانهار اقتصادى (٣) .

ولعل البحث فى تاريخ الكشوف البرتغالية يوضح لنا ارتباطها الوثيق بالحروب الصليبية ذلك ان السبب الحقيقى لهذه الكشوف هو محاربة الاسلام (٤) . يقول جورج لوفران " وبعض الشخصيات البارزة كهنرى الملاح دفعها فضولها العلمى الى تشجيع الاسفار الا ان هذه الرحلات لم تبلغ الاهمية التى بلغتها الرغبة فى محاربة الاسلام فى افريقيا تلك الرغبة التى قامت عليها شبه الجزيرة الالهبرية اذ ان بعض المتحمسين كانوا يسعون لايجاد نفوس جديدة لدفعها الى الايمان ولم تتضاعف اهمية رأس الرجاء الصالح بسبب التجارة بل بسبب الرغبة فى البحث عن مسيحيين ملونين . (٥)

غير ان جورج يعود فيذكر عاملاً اوسبباً آخر اقتصادياً فيقول : " والسبب ايضا يمكن ان ينسب الى مناهضة المجاعة النقدية اذ ان حدة المبادلات ... التجارية التى اصبحت خاضعة لمراقبة الدولة اخذت تستوجب الكثير من الآلات .. النقدية وفى كل مكان خاصة فى اوربا نشأت الرغبة فى استغلال المناجم التى اُهملت منذ العصور القديمة لكن النتائج خيبت الآمال وبقيت القوة

-
- (١) محمد عبد العال احمد : اضاءة جديدة ، ص ١٥٥-١٥٧ ، بنو رسول ، ص ٤٧١ ، جورج لوفران : تاريخ التجارة ، ص ٦٧ .
 - (٢) احمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية ، ص ٢٦٦ .
 - (٣) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٩٢ .
 - (٤) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع ، ص ٤٧٢ .
 - (٥) جورج لوفران : تاريخ التجارة ، ص ٦٦ .

الشراعية لكل من الذهب والفضة مرتفعة . (١)

وقد تمكن البرتغاليون بعد سلسلة من الهجمات المدمرة على المراكز التجارية فى المحيط الهندى والخليج ان يخضعوا المياه الشرقية لسيطرتهم ويحققوا هدفهم من هذه السيطرة المتمثل فى احتكار التجارة والسيطرة عليها وخاصة تجارة التوابل (٢) واستنادا على ذلك كان للاكتشافات البرتغالية اثر فى الاعلان عن احتكار تجارى جديد . (٣)

وبرزت رغبة البرتغاليين فى تحطيم الاقتصاد الاسلامى واضعاف القسوة الاسلامية فى تزايد اعمال القرصنة على السفن التجارية العربية (٤) والهندية (٥) المتجهة الى جدة والبحر الاحمر ووصل بهم الامر الى تخصيص قطع من اسطولهم الحربى للمرابطة بالقرب من باب المندب والقيام باغلاق البحر الاحمر وتشديد الحصار عليه (٦) .

ونظرا لخطورة الوضع فى المياه الهندية والبحر الاحمر تعلق الامال بالقوة المملوكية وبعث كل من صاحب قاليقوت وسلطان كجرات وسلطات اليمن يستنجد بالسلطان المملوكى الاشرف قانصوه الغورى ويحثه على تشكيل قسوة سريعة لحصاية التجارة الشرقية وممراتها البحرية . (٧)

غير ان الاستغاثة بالسلطان المملوكى لم تسفر عن نتيجة ايجابية سريعة لانها جاءت فى ظروف استثنائية صعبة فالدولة المملوكية فى تلك الفترة كانت فى حالة ضعف بعكس ما كانت عليه من قبل فقد كانت تعاني من سوء الاحوال

- (١) جورج لوفران : تاريخ التجارة ، ص ٦٦ .
- (٢) ابن الرينج : قرة العيون ق ٢ ، ص ٢١١ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٨ ، ص ٦٠ ، يحيى بن الحسين : غاية الامانى ق ٢ ص ٦٢٣ ، محمد عبد العال احمد بنو رسول ، ص ٤٨٣ .
- (٣) زين الدين : تحفة المجاهدين ، ص ٣٧ ، ٤٦ .
- (٤) جورج لوفران : نفس المرجع ، ص ٦٨ .
- (٥) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٨٣ .
- (٦) احمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .
- (٧) زين الدين : المصدر السابقة ، ص ١٣٢ ، محمد عبد العال احمد البحر الاحمر والمجاهلات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه - الاسكندرية ١٩٨٠ ، ص ٧٩ .
- (٨) محمد عبد العال احمد : البحر الاحمر ص ٨١ - ٨٢ .

الداخلية والخارجية يضاف الى ذلك انها لم تكن تملك اسطولا حربيا قويا^(١) يكون ندا للاساطيل البرتغالية

ومع انفجار الازمة تضاعف الضغط البرتغالى على التجارة العربية الإسلامية والتجارة الشرقية ولم يجد السلطان الغورى امامه الا الحل العسكرى ومواجهة البرتغاليين لاحباط خططهم فى ضرب الاسلام والقوة الاقتصادية الإسلامية ولذلك وجه جهوده لاعداد اسطول كبير^(٢) جهزه بالمدافع والاسلحة النارية واحتكر خشب السفن فى مصر وعمل على استيراده من آسيا الصغرى ومن جمهورية البندقية التى أضر بتجارتها هى ايضا هذا الطريق^(٣).

وفى سنة ٩١١هـ وصل الامير حسين الكردى قائد الاسطول المملوكى الى جدة فى ثلاث برشات وثلاثة اعرية^(٤) هذا وقد شرع القائد الكردى فى بناء سور عظيم حول جدة لتحسينها وحماية الاماكن المقدسة التى توءدى اليها^(٥) وعلى الرغم من فجاج المماليك فى جهادهم ضد البرتغاليين فان تصدع الدولة قد حال دون اكمال مسيرتها فى مواصلة الكفاح فقد تضافرت عدة اعتبارات عجلت بنهاية دولة المماليك واسهمت بشكل غير مباشر فى تشييت الوجود البرتغالى فى المياه الشرقية^(٦).

ويشير جورج لوفران الى تمكن البرتغاليين فى الهند بقوله " كانت محاولة العرب واهل البندقية غير مجدية فى ردهم لانهم غلبوا على امرهم وانتهت بذلك سيطرة البحرية العربية على المحيط الهندى^(٧) غير انه تجدر الاشارة هنا الى ان الوجود العربى لم يكن يهدف الى اى سيطرة فى المياه الشرقية بل كان هناك تنافس تجارى شريف يصفه مؤرخ منصف بقوله:

- (١) محمد عبد العال احمد : البحر الاحمر ، ص ٨١ - ٨٢ .
- (٢) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع ، ص ٨٩ - ٩١ .
- (٣) احمد مختار العبادى ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية ، ص ٢٦٦ .
- (٤) ابن الربيع : قرّة العيون ، ق ٢ ، ص ٢١١ .
- (٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ، ص ٩٥ - ٩٦ ، ١٠٩ ، الحضراوى : الجواهر المفدة ، ص ٤٨ - ٥٠ ، محمد عبد العال احمد : نفس المرجع ، ص ٩٢ .
- (٦) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع ، ص ٩٢ - ٩٣ .
- (٧) تاريخ التجارة ، ص ٦٩ .

" لم يحدث قط ان شابت نشاط العرب التجارى اية شائعة سياسية وكان العرب يتجرون بمنتهى الحرية مع الموانئ الهندية وينطلقون بسفنهم الى المحيط الهادى بل يبلغون ساحل الصين ويلوح انهم بعد القرن التاسع دخلوا حلبة منافسة فعالة الاثر مع التجار الجواجراتيين على تجسار الافاوية المستجلبه من الجزر الاندونيسية وذلك ان أفونسو البوكرع عندما وصل الى ساحل الملايو لاحظ أن التجار العرب والهنود والصينيين كانوا يتنافسون فى اسواق تلك المنطقة تنافسا صريحا لا لبس فيه " (١) .

وهكذا كان للوجود البرتغالى فى المياه الهندية وتحويل طريقه التجارة اثره الكبير فى اضعاف طريق البحر الاحمر وفى التأثير على ازدهار جدة لقلة المتاجر التى كانت تصل اليها بعد ذلك .

(١) بانىكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ٣٢ - ٣٣ .

الفصل الثالث

أنواع السلع الصّادرة والواردة

- التوابل .
- العقاقير الطّبية .
- العطور والبخور .
- الأحجار الكريمة .
- المنسوجات .
- المواد الغذائية .
- المواشي والخيول والجمال
- أسباب الغلاء .

لا شك انه كان لمكة المكرمة دور كبير فى ازدهار حركة التجارة فى العصور الوسطى فمكانتها الدينية وموقعها الجغرافى قد اسهما فى نشأة كيانهما الاقتصادى وترسيخه فانصرف اهليها الى التجارة فعملوا تجارا او وسطاء لاهم السلع التجارية بين الشرق والغرب وفى مقدمتها التوابل والعقاقير الطبية والاحجار الكريمة التى كان الطلب عليها كبيرا وخاصة بالنسبة لاوروبا .

ولقد اسهمت مكة بطريقها البرى بدور هام فى هذا المجال
كما كان لازدهار فرضتها جدة على حساب ميناء عدن اثره الكبير فى زيادة النشاط التجارى وتصرّكه فى ميناء جدة ثم فى مكة منذ بداية الربع الثانى من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) وهكذا اصبحت جدة من اكبر مراكز التجارة العالمية اثر تحول تلك التجارة اليها وقد ادى هذا السى اقبال تجار مكة على استغلال الفرصة لزيادة حجم تجارتهم الواردة وايجاد سوق كبيرة لما تنتجه شبه الجزيرة العربية وتحقيق الاتصال المباشر بين تجار مكة ومراكز التجارة العالمية وخاصة فى الشرق

*** التوابل

كانت توابل الشرق وتحفة وكنوزه ترد الى جدة ثم الى مكة حيث يتم تنظيم حركة نقلها الى كل من مصر والشام تمهيدا لاعادة تمديرها من موانئ البحر المتوسط الى اوربا فقد كان اقبال الاوربيين على تلك السلع كبيرا لما كان يشاع عنها من انها كانت تأتيمهم من الفردوس الارضى (١) وكانت تحقق ارباحا خيالية للمتاجرين فيها والعاميلن على نقلها .

(١) " ساد الاعتقاد بوجه عام ابان القرون الوسطى بان التوابل والاحجار الكريمة تأتى من جنة عدن ، تحملها الى الدنيا انهار تنبعث منها وكان الجغرافيون يوضحون موقعها على خرائطهم برسم دائرة او نصف دائرة يكتبون الى جانبها فى ثقة تامة " هنا موضع الجنة . وكانوا يعتقدون انها تقع بئرهم فى اقصى شماله عالية مرتفعة حتى انها تلامس القمر، تحيط بها اسوار شامخة تكسوها اوراق الاشجار الخضراء وتقوم من حولها الحصون " ، سونيا هاو: فى طلب التوابل ، ص ١٣ .

ولا شك ان الارباح التى كان يجنيها التجار الاوربيون من تلك السلع جعلتهم يعيشون عيشة الملوك (١) بل لقد كانت تلك التوابل من عوامل دفع الاوربيين الى الانطلاق بسفنهم عبر المحيطات لاكتشاف مصادرها والعمل على استعمار مناطق انتاجها واغتصاب ثرواتها (٢) واحتكار تلك التجارة وانتزاعها من ايدى المسلمين ، وقد جاء فى كتاب (فى طلب التوابل) " أنه لا يوجد فى العالم تجارة اوفر ربحا ولا اكثر اهمية من التجارة التى تتصل اسبابها بتلك البلاد الشرقية . فمن تلك الجزائر الخصبة التى تشرف عليها الشمس من مسافة اقرب من المسافة التى بيننا وبينها تستورد اثنى السلع التى تساعد على رغد العيش ورفاهيته وفخامة المظهر وروعته فمن جزائر الهند تستورد الجواهر والاحجار الكريمة الى جانب الحرير الثمين والقرفة والفلفل والقرنفل وجوزة الطيب " . (٣)

والواقع ان سيطرة البرتغاليين فيما بعد على المياه الشرقية واحتكارهم لتجارة التوابل كان وسيلة لتحقيق هدفهم الرئيسى وهو اضعاف القوة الاسلامية والقضاء على الاسلام (٤) يقول المؤرخ زين الدين : " وسبب وصولهم الى مليبار على ما يحكى عنهم طلب بلاد الفلفل لتختص تجارته بهم (٥) ثم يعقب على ذلك بقوله : " ثم ان بغيتهم العظمى وهمتهم الكبرى قديما وحديثا تغيير دين المسلمين وادخالهم فى النصرانية نعوذ بالله من ذلك " . (٦)

(١) عبد العزيز محمد الشناوى : اوربا فى مطلع العصور الحديثة ، ط٣ ، مصر

الجديدة ١٩٧٧م . ج١ ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) سونيا هاو : فى طلب التوابل ، ص ٩ .

(٣) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ٣٥٦ .

(٤) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ١٠ .

(٥) زين الدين : تحفة المجاهدين فى بعض احوال البرتغاليين ، لشبونة ١٨٩٨هـ . ص ٣٧ .

(٦) زين الدين : نفس المصدر ، ص ٤٦ .

ويؤكد هذا القول خطبة البوكر التي القاها في رجالة بعد هجومه على ملقا والتي جاء فيها " الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وباطفائنا شملة شيعة محمد بحيث لا يندلع لها بعد ذلك لهيب وذلك لاني على يقين اننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من ايديهم (يعنى المسلمين) لاصبحت كل من القاهرة ومكة أثرا بعد عين ولا تمتعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها الى البرتغال لثرائها من هناك " . (١)

والحق ان تجارة التوابل كانت عنصرا هاما في القطاع التجارى في العصور الوسطى وكانت تمثل المركز الاول في التجارة العالمية وكانت مصرا كبر مركز لتصريف تلك التجارة وخاصة بالنسبة لاسواق اوربا ونظرا لازدياد الطلب الاوربي عليها اخذت اوربا تستهلك كميات ضخمة منها واصبحت من الضروريات وغدت جزءا لا يتجزأ من حياة الاوربيين . (٢)

وليس من شك في انه كان لتجارة التوابل اثر كبير في اقامة العلاقات والاحتكاك بين الشعوب في ذلك الحين وفي ايجاد اتصال دائم ومستمر بين الشرق والغرب وكان لكل من عدن ومكة وجدة وسواكن وعيذاب والقاهرة والاسكندرية اهمية عظيمة لا بوصفها من المراكز التجارية ببلاد الشرق فحسب بل باعتبارها همزة الوصل ايضا بين الهند والصين وغيرهما وبين اوربا سواء كان هذا الاتصال عن طريق التعامل المباشر أو عن طريق الوساطة في النقل .

ومما يستحق الذكر ان سلاطين المماليك قاموا بتنشيط هذه التجارة وتوسيع

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٤٨ .

(٢) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ، ص ١٩٢ .

الصلات البحرية التجارية بين مراكز تصديرها فى المحيط الهندى وبين موانئ البحر الاحمر الى مراكز تصريفها فى دولتهم ^(١) ويؤيد ذلك ويؤكد تلك التنظيمات الرائعة لعمليات النقل التجارى البرى ^(٢) ولحركة الملاحة فى البحر الاحمر واصدار المنشورات لافراء التجار اينما كانوا فى اليمن والهند والصين والسند وغيرها وتشجيعهم على القدوم بمتاجرهم الى البلاد الخاضعة لسلطان المماليك ^(٣) تلك الجهود والمنشورات ارسدت قواعد التجارة فى البحر الاحمر وشبهها المؤرخون بالدعاية السياحية فى وقتنا الحاضر . ^(٤)

وفى اطار العلاقة التجارية مع الغرب قدم المماليك التسهيلات الكاملة والميزات الكبيرة لتجارة الاوربيين وكانت الاسكنـــــــدرية ودمياط الوجهة التجارية التى تعكس ازدياد حركة التعامل التجارى مع الغرب واطراد نموه ^(٥)

ومن اهم الاسباب التى اادت الى ازدهار تجارة التوابل شدة الاقبال الاوربى على هذا النوع من المتاجر لاقتناعهم بفوايدها للصحة والجسم بعد ان تأكد لهم اثرها الفعال فى المساعدة على تسهيل الهضم ^(٦) وشفقة الجسم خاصة فى ايام الشتاء القارص وايام الميام التى تمتد الى ساعات طويلة من النهار بالاضافة الى تجميلها للطعام وتحسينها نكهته واستعمالها فى حفظ الاطعمة والمشروبات من العفن والتلف بسبب رطوبة الجو كما دخلت التوابل فى صناعة

(١) بيبس الدوادار : زبدة الفكر ، ج٩ ، ص ٢٤٣ ، المقريزى السلوك ج١ ، ص ٥٨١ ،

٧٠٢ ، ابو الفدا : المختصر ج٤ ، ص ١٥ ، محمد عبدالعال احمد : بنو رسول ص ٣٩٨

(٢) الجزيرى : درر الفوائد المنظمة ، ص ٤٩٧ ، ٥٠٨ .

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج١٣ ، ص ٣٤٠-٣٤٢ ، محمد عبدالعال احمد : بنو رسول ص ٤٤٧

(٤) احمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية ، ص ٢٦٤ .

(٥) سعيد عاشور : العصر الممالىكى فى مصر والشام ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٣٠٠ ،

عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

(٦) سونيا هاو : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

الكثير من العقاقير الطبية (١) ٠٠٠٠ واستهلكت الكنيسة كميات هائلة منها فى الطقوس الكنيسية وغيرها وتقاضى رؤساؤها العصور توابل كما كان العبيد والاتباع يشترون حريتهم ببضعة ارطال من التوابل كما فرض رجال الكنيسة على الجاليات اليهودية المقيمة فى اوربا جزية ضرائبية قوامها الفلفل والجنزبيل والشمع مقابل السماح لهم بحق حيازة مدافن لموتاهم ومدارس ٠٠٠٠ لابنائهم (٢) وقامت التوابل مقام المعادن الثمينة فى البيع والشراء وقد قدمت مهورا للمعراش (٣) ولدفعت ايجارا للاراضى الزراعية . (٤)

ويضاف الى اسباب ازدهار هذه التجارة عامل آخر هو تلك الهيئة الاسلامية التجارية - الكارمية - التى سيطرت على تجارة التوابل وبلغ الشرق وانجبت عددا من الاسر التى توارثت هذا النوع من النشاط التجارى واشتهرت بحذقها فى ادارة الاعمال التجارية والمصرفية وضخامة رؤوس الاموال .

ومن اشهر هذه البيدات التجارية آل الخروبى والكويك (٥) . . وحسبنا ان نشير فى علو مكانتهم وتفوقهم التجارى ، الى ان سلاطين المماليك كانوا يقتربون المال منهم اذا واجهتهم ازمات مالية واضطرتهم الظروف الى ذلك . (٦)

واذا كانت هذه الهيئة التجارية قد نجحت فى الهيمنة على تجارة البهار والفلفل والاحتفاظ بها طوال العصرين الفاطمى والايوبى وفى خلال عصر دولته

(١) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ، ص ١٩٢ ، على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ، ص ٢٢٨ .

(٢) سونيا هاو : المرجع السابق ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، نعيم زكى : نفس المرجع ، ص ١٩٩ .

(٣) عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٤) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ٢٣ .

(٥) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، ص ٣١ .

(٦) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

المماليك الاولى فلا جدال فى ان دولة المماليك الثانية كانت سببا فى تفكك
 عرى هذه الهيئة فقد احتكرت هذه التجارة واقتصت التجار الكارمية عنها وانزلت
 الضرر بالتجار الاوربيين بسبب رفعها للاسعار بشكل فاحش مع اجبار هؤلاء التجار
 على الشراء من التوابل السلطانية وبالاسعار التى تحددها الدولة وقد اتعبت
 هذه السياسة القوى التجارية فى غرب اوربا وازعجت العالم الاوربى فوسعت
 الى مضاعفة الجهود للوصول الى الهند والشرق الاقصى وكان نتيجة ذلك تحول فى
 طرق التجارة العالمية صاحبه انقلاب خطير فى عالم السياسة والاقتصاد الدولى^(١)

وايا ما كان الامر فانه تجدر الاشارة الى بعض انواع السلع ونبدأها

بالتوابل

الفلفل

يعد الفلفل من اكثر التوابل رواجاً وشهرة فى عالم العصور الوسطى لاستعماله
 فى تحسين نكهة الطعام وصناعة الشراب وحفظ الاطعمة واللحوم^(٢) وهو هاضم
 للطعام مدر للبول^(٣) ... كما ان له فوائد كثيرة اذا استخدم عقاراً طبياً
 " فهو عندما يمزج بورق الغار يكون دواءً ناجحاً فى حالات لدغ الكائنات السامة
 وعندما يمزج بالثرايب يفيد فى النزلات الشعبية والتهاب الرئة وعندما يمزج ..
 بالزيت يكون مرهماً مفعوله بعيد الاثر^(٤) .

وكانت للفلفل قوة شرائية فى اوربا حينذاك فقد كان يقوم مقام المال فى

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ، نعيم زكى فهمى : المرجع

السابق ، ص ١٩٣ .

(٢) حسنين محمد ربيع : البحر الاحمر ، ص ١١٦ ، وشائق الجنييزة ، ص ١٢٨ .

(٣) الدمشقى : جعفر بن على ، الاشارة الى محاسن التجارة ، القاهرة ،

١٣١٨ هـ ، ص ٢٢ .

(٤) سونياهاو : فى طلب التوابل ، ص ٢١ .

كثير من الاحيان نظرا لارتفاع ثمنه حتى أصبح يضرب به المثل فيقال " غزال كالفلل " (١) وفي مكة كانت المتاجرة بهذه السلعة ממدر شراء لصاحبها ويكفى للتدليل على ذلك ان احد التجار بها اشترى قللا بدرهم ونصف للممن وباعه كل من عشرة دراهم حتى بلغ ماله ألف درهم . (٢)

وقد كان اهل مكة والطائف وبقية بلاد الحجاز يقبلون على هذا التابل ويكثرون من استخدامه حتى انهم يضعون في أطمعتهم من الفلفل نوره مبيضه غيرهم نحو عشرة اضعاف أو اكثر . (٣)

وقد كانت العادة المتبعة في بيع الفلفل في تجارة البحر الاحمر خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين بيعه بالحمل وكان ثمن الحمل يتراوح ما بين ١٠ دينارا و ١٢٥ دينارا . (٤)

وفي العصر المملوكي اشتدت الرغبة في الحصول عليه اكثر من أي تابل آخر على الرغم من ارتفاع ثمنه وكان يصل الى مصر من مكة ويقترن رخاء الاسعار فيه بموسم الحج ، ففي سنة ٧٤٧هـ عز وجود الفلفل بالقاهرة وبيع الرطل منه بستة وأربعين درهما في حين انه بيع بعد دخول الحاج وقدم تجار الهند بخمسة دراهم للرطل (٥) وفي عام ٨١٥هـ قل الفلفل في كل من مكة ومصر ووصل سعر الحمل في مصر الى ٢٢٠ دينار بعد ان كان سعره لا يزيد عن ٦٠ دينارا وارسل صاحب مصر يطلب شراءه من مكة وأمر أن يحمل اليه ما قيمته ٥ آلاف دينار واتفق ان صاحب اليمن ارسل الى مكة كميات كبيرة من الفلفل ليبيعهها

(١) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ، ص ١٩٩ ، سونيا هاو : نفس المرجع ص ٢٢ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ ، ص ٤٥٤ .

(٣) ابن قيم الجوزية : شمس الدين محمد بن ابي بكر ، الطب النبوي ، دار الباز للطباعة والنشر ، ص ٧٦ .

(٤) حسنين ربيع : البحر الاحمر ، ص ١٦ .

(٥) المقرئزي : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٧٢٥ ، الجزيري : المصدر السابق ، ص ٣٠٨ .

فيها فحمل منها للسلطان ما طلبه بسعر الحمل ٢٥ ديناراً وبيع الباقي بمكة
بسعر الحمل ٣٥ ديناراً بعد ان كان يباع وقت وفرته بعشرة دنانير (١) ويذكر
ابن حجر انه عرض في ذلك العام والذي يليه على تجار الفرنج في مصر بسعر
٢٤ ديناراً . (٢)

ومنذ عام ٨٣٣هـ صار الفلفل ينقل من جدة الى الطور ثم الى مصر
والزم السلطان المملوكي الفرنج بشراء الحمل من المتاجر السلطانية بسعر
١٣٠ ديناراً في حين كان يباع في القاهرة بمبلغ ٥٠ ديناراً كما منع السلطان
تجار الاسكندرية من بيع ما عندهم للفرنج وكانوا قد عرضوا ثمناً
للحمل ٦٤ ديناراً وذلك رغبة منه في شراء ما عند التجار بعد ان يبور عندهم
بالسعر الذي يحدده . (٣)

ويزرع الفلفل قرب الاشجار واوراق شجره تشبه اوراق العليق ويثمر عناقيد
صفراء تكون خضراء اللون في حالة النضج فتقطف وتفرش على الحصر في الشمس
حتى تجف ويسود لونها ثم يحفظ الفلفل في جرار من الفخار لبيعه (٤) وثمر
الفلفل يكون في حال ابتدائه طويلاً يشبه اللوبيا والسيبان ويعرف بالدار
فلفل ويكون في جوفة حب صغير اذا استحکم ونضج فهو الفلفل الاسود واذا اجتنى
غضاً فهو الفلفل الابيض (٥) واذا طالت المدة بالدار فلفل تآكل ولا يحس الذائق
بلذعة مذاقة الا بعد قليل (٦) ويذكر البحريون ان على كل عنقود من عناقيد
الفلفل ورقة تكتن من المطر فاذا انقطع المطر ارتفعت الورقة فاذا عاد المطر

(١) ابن قهد : اتحاف الوري ، ص ٣٤٠ ، السباعي : تاريخ مكة ج ١ ، ص ٢٦٥-٢٦٦ .

(٢) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ٥٢١ .

(٣) المقرئزي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٢٣-٨٢٤ .

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٤٩ .

(٥) الدمشقي : شمس الدين ابي عبد الله محمد ابي طالب الانصاري ، نخبة الدهر

في عجائب البر والبحر ، ص ٩٩-١٠٠ .

(٦) الدمشقي : الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٢٢ .

عادات . (١)

وأحسن انواع الفلفل الاسود وهو أسود من الخارج باطنه أبيض وهو حار حريق المذاق رائحته طيبة (٢) واجود الاسود ما كان ثقيلًا شديد السواد نظيف خاليا من التراب والحمى سليما من الاحتراق والعفن (٣) ولبعض انواع الفلفل رائحة قوية وبعضها لا رائحة له . (٤)

واهم مصادر الفلفل ساحل المليبار الذى يعرف " ببلاد الفلفل " حيث يزرع الفلفل بكثرة فى مدينة ملبار ومنجور (٥) وده فتن (٦) وكولام التى تعد آخر بلاد الفلفل (٧) .

والواقع ان السفن ظلت زهاء ألفى سنة تقلع منها دون توقف متوجهة الى الخليج العربى والبحر الاحمر وهى محملة بتوابل الهند وجزر المحيط الهادى (٨)

ويذكر ابن بطوطة انه رأى الفلفل بقاليقوط يصب للكيل كالذرة فى بلاد (٩) (١٠) ويزرع بملى الفلفل ما يوسق مراكب التجار اذا اجتمعت فى يوم واحد (١١) كما يوجد الفلفل بجبل برنديب وهو الجبل الذى يقال ان آدم عليه السلام هبط عليه (١٢)

-
- (١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٢ - ٦٣ .
 - (٢) شعيم زكى فهقى : نفس المرجع ، ص ١٩٧ ، سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ٢١ .
 - (٣) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٢٢ .
 - (٤) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ٥٤ .
 - (٥) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ١٧٣ .
 - (٦) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٥٤٩ - ٥٥١ .
 - (٧) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ١٧٣ .
 - (٨) بانيكار : نفس المرجع ، ص ٣٦ .
 - (٩) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٤٩ .
 - (١٠) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٢ - ٦٣ .
 - (١١) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ١٥٩ .
 - (١٢) ابن خرداذبة : نفس المصدر ، ص ٦٤ ، بزرلبن شهريار : عجائب الهند بره وبحره وجزايره ، ص ١٧٩ .

الزيوت الطيارة . (١)

والقرنفل من اعلى الافاوية سعرا وقد بلغ شمنه ضعف شمن الفلفل منذ الحروب الصليبية وحتى اوائل القرن السادس عشر الميلادى وقد استعمله الاغنياء لتطيب نكهة اللحوم وفى حفظ الاطعمة وخاصة الاسماك . (٢)

واشجار القرنفل كبيرة (٣) وهى تشبه الياسمين (٤) وتنتشر اوراقها من منتصف الشجرة مكونة شكلا هرميا واما لحاؤها فهى فى لون الزيتون وثمارها بيضاء تأخذ فى الاحمرار كلما اخذت فى النضج ويسودلونها عندما تجف وتجنى مرتين فى العام ولثمرها رائحة قوية طيبة وللأوراق واللحاء نفس الرائحة مادامت خفراء (٥) وزهره غليظ اسود وهى كباش القرنفل ومنه ذكر ومنه انثى والذكر منه ثمرته كنواة الزيتون واطول وله عليك كعلك البطم وقرفة القرنفل قشر شجرته (٦) والذى يسقط من زهره هو نوار القرنفل . (٧) وتضم الفصيلة القرنفلية ما يقرب من ٨٠ جنسا و٢١٠ نوع غالبيتها عشبية (٨)

ويخلط ابن بطوطة بين التوابل فهو يقول : أن ثمر القرنفل هو جوزبوا المعروف فى بلاده بجوزة الطيب وأن زهرها هو البسباسة (٩) فى حين يشيّر المؤرخون والجغرافيين الى كل نوع من هذه الانواع فى سياق كلامهم عن متاجر وجزر الشرق الاقصى كقولهم وبهذه البسباسة وجوزبوا وجوز الطيب

(١) مصطفى عبد العزيز وآخرون : النبات العام ، ط٤ ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٥٩٦ .

(٢) على بن حسين السليمان : نفس المرجع ، ص ٢٣١ ، نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٣) ابن بطوطة : نفس المرجع ، ص ٦١٢ .

(٤) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ١٦٠ .

(٥) سونيا هاو : فى طلب التوابل ، ص ٢٤١ .

(٦) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ١٦٠ .

(٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦١٢ .

(٨) مصطفى عبد العزيز وآخرون : المرجع السابق ، ص ٥٦٦ .

(٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٦١٢ .

- (١) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ٧٩ ، المسعودى : مروج الذهب ج ١ ، ص ١٥٤ ،
الدمشقى : نفس المصدر ، ص ١٥٤ .
- (٢) جورج لوفران : تاريخ التجارة ، ص ٦٤ .
- (٣) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ٤١ .
- (٤) المسعودى : نفس المصدر ج ١ ، ص ٣٤ ، ١٥٤ .
- (٥) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ١٥٤ .
- (٦) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٦ ، ٧٧ .
- (٧) سونيا هاو : فى طلب التوابل ، ص ١٠٩ .
- (٨) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ٢٠٢ .
- (٩) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٢٣ .
- (١٠) ابن البيطار : الجامع لمفردات الادوية والاغذية ، القاهرة ، ١٢٩١هـ ، ج ١ ، ص ١٠٤ .

أفقيًا ولحاء أغصانها أكثر جودة وأطيب نكهة من لحاء الساق وأوراقها —
وشمرتها تشبه ورق الغار وثمرته غير أنها أكبر حجمًا منها . (١)

وأكثر اشجار القرفة تنبت على شواطئ أنهار الهند وبلاد المالبار وتستعمل
الأغصان وقودًا إذا جردت من لحائها وثمرتها يقول ابن بطوطة " وجميع الأشجار
التي على هذا النهر (٢) اشجار القرفة والبقم وهي حطبهم هناك ومنها كنا نقد
النار لطبخ طعامنا في ذلك الطريق " . (٣)

وأفضل أنواع القرفة ما كان لونه أحمر وحريق المذاق والردىء منه رقيق
وصلب يميل إلى السواد . (٤)

وكانت القرفة تصل إلى مصر من مكة المكرمة بطريق البحر الأحمر (٥) ،
ويقال إن أصل القرفة من الصين لذا عرفت باسم " الدراصيني " كما عرفت في فارس
باسم " خشب الصين " وفي أوروبا باسم " أوراق الهند " . (٦)
وكانت الصين من أهم مصادر القرفة في العصور الوسطى (٧) وتزرع بكثرة في
جزائر الصنف ورامنى والصنجدى (٨) وفي بلاد المالبار (٩) كما كانت تستورد من
جزيرة تبعد ١٦٠ فرسخًا إلى الجنوب من قاليقوت (١٠) والقرفة المزروعة في
سرنديب أجود من المزروع في ساحل المالبار (١١) وأسعارها تعادل أربعة

- (١) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١١٠ .
- (٢) لم يذكر ابن بطوطة اسم النهر ولكنه ذكر ذلك في سياق حديثه عن بلاد المالبار .
- (٣) الرحلة ، ص ٥٥٧ .
- (٤) ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، ج ١ ، ص ١٠٤ .
- (٥) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ، ص ٢٠٢ ، على بن حسين السليمان :
النشاط التجارى ، ص ٢٣٢ .
- (٦) ابن البيطار : نفس المصدر ج ١ ، ص ٨٣ - ٨٤ .
- (٧) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ٧٠ .
- (٨) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .
- (٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٥٧ .
- (١٠) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ٢٠٢ .
- (١١) بزرك بن شهریار : نفس المصدر ، ص ١٨٠ .

اضعاف الاسعار فى قاليقوط وقد كان ذلك سببا فى حملة البرتغاليين الاولى على سرنديب رغبة منهم فى الاستحواذ على هذه السلعة واحتكارها . (١)

وقد زرعت القرفة فى شبه الجزيرة العربية فى اليمن ووصفت هذه المنطقة بانها "تفوق كل ما عداها فى العالم خصبا فى النباتات النادرة والمسواد البلسمية والجزء الواقع فى اقصى جنوب هذه المنطقة تكسوه غابات البخور واشجار المر والقرفة والكاسية واللدن فما ازكى وارق الرائحة العتيقة المنبعثة من هذه الاشجار حتى لكانها لم تكن من اشجار الدنيا وانما هى اشجار قدسية علوية وكأنما الطبيعة قد حشدت فى هذه الرقعة من الارض أروع .. العطور شذى وأعبقها ارجا واكثرها حلاوة واسرعها فى شفاء الناس " (٢)

الزنجبيل.....

ورد ذكره فى القرآن الكريم على انه من شراب جنة الخلد التى وعد الله بها عبادة الصالحين فقال تعالى : " ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا " (٣)

والزنجبيل احد انواع التوابل التى كان لها دور هام فى تجارة مكسة وهو لا يقل اهمية عن الفلفل والبهار وقد شاع استعماله فى حفظ الاطعمة والمشروبات وفى تركيب الادوية فهو يذهب البرد ويعين على هضم الطعام وهو مفيد للكبد والمعدة نافع لظلمة البصر الناتجة عن الرطوبة أكلا واكتحالا كما انه ملين للبطن مهدىء للمعدة مسكن للمغص محلل للرياح الغليظة الحادثة فى الامعاء

(١) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ٢٠٣ .

(٢) سونيا هاو : فى طلب التوابل ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٣) سورة الانان : آية ١٧ .

والمعدة (١) وهو جيد فى علاج امراض القصبة الهوائية (٢) وبالجمله فهو جم الفوائد على انه عقار طبى الى جانب استعماله فى تنبيل الطعام . (٣)

والزنجبيل الذى يطرح فى الاسواق نوعان أخضر أو مخلوط بالسكر (٤) وأجوده الصينى المائل الى الصفرة وهو لاذع المذاق (٥) ويذكر ابن بطوطة ان اهل الهند كانوا يأخذون الزنجبيل الأخضر ويجعلون عليه الملح ويصيرونه كما يصير الليم والليمون ثم يأكلونه مع الطعام يأخذون بأثر كل لقمة شيئاً يسيراً منه (٦)

ويسعى كثير من تجار شبه الجزيرة العربية الى بلاد الهند والمليبار من اجل الحصول على افضل انواع الزنجبيل (٧) وتزرع الصين وسمرقند وبعض المناطق العربية كميات كبيرة منه والذى يصل من هذا التابل هو مايزرع فى بلاد العرب والهند (٨) .

ويمتاز الزنجبيل الهندى باختلاف انواعه فمنه ، الجبلى والبلدى والدلى ويزرع الاول والثانى على الجبال وان كان الاول يفوق الثانى جودة (٩) وما يحمل من بلاد العرب وارض عمان يشبه الفلفل فى طعمه وكان يتم حفظه فى اوان خزفية فى اثناء نقله (١٠) ويستورد الزنجبيل من مدينة كولام ويطرح فى أسواق مكّة

-
- (١) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٢٤٦ .
 - (٢) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٢٣ .
 - (٣) سونيا هاو : فى طلب التوابل ، ص ٢١ .
 - (٤) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ، ص ٢٠٥ .
 - (٥) على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ، ص ٢٣٤ .
 - (٦) الرحلة : ص ٣٩٢ .
 - (٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٥٥٠ ، سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٤٩ .
 - (٨) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، على بن حسين السليمان : نفس المرجع ، ص ٢٣٤ .
 - (٩) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع والصفحة ، على بن حسين السليمان : نفس المرجع والصفحة .
 - (١٠) ابن البيطار : الجامع لمفردات الادوية والاعذية ج ٢ ، ص ٢٦٧ .

رنجبيل مدغشقر ورنجبيلار ، وسعره ضعف سعر الرنجبيل فى كولاى . (١)

الخنجران

وهو من بين العديد من السلع التى تاجرت فيها مدن الحجاز واليمن فى العصور الوسطى (٢) وا ستخدم فى تثبيل الاطعمة واللحوم وتطبيب طعمها وقد كثر استعماله ايضا فى الاغراض الطبية وذلك لفائدته فى علاج امراض الكلى والمعدة والقصة الهوائية والاطباء يفرقون بين نوعيه : الكبير وهو الاحمر القانى والصغير وهو البنى (٣)

واشجاره تعرف باسم " خرودار " وهى ذات عروق متشعبة لها عقد لونها بين السواد والحمرة وكان يتم استيراده من الهند (٤) والصين (٥) .

جوزة الطيب

ومن التوابل التى يصدرها الشرق الى الغرب جوزة الطيب وكان لها دور كبير فى حرب التوابل التى قامت بها بعض الدول الاوربية لاحتكار هذه السلع والسيطرة على مصادر انتاجها . (٦)

وقد استخدمت عقارا طبيا لما لها من تأثير قوى على منع القيء وخفقان القلب (٧) واستعملت فى طهو الاطعمة وصناعة بعض المشروبات . (٨)

-
- (١) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .
 - (٢) حسنين محمد ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ١٣٨ .
 - (٣) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٢٣ ، ابن البيطار : نفس المصدر ج ١ ، ص ٨٩ - ٩٠ .
 - (٤) الدمشقى : نفس المصدر والصفحة ، ابن البيطار : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨٩ - ٩٠ .
 - (٥) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ٧٠ .
 - (٦) سونيا هاو : فى طلب التوابل ، ص ٩ .
 - (٧) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ٢١ .
 - (٨) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ، ص ٢١٨ .

وأشجار جوزة الطيب وأوراقها تشبه أشجار الجوز (١) وثمرتها لها قرون مثل قرون القرنفل (٢) وتشبه جوزة الطيب عندما تقطف ثمرة السفرجل فى الشكل واللون وغطائها الخارجى غير انها اصغر حجما منها وغلافها الخارجى (٣) فى سمك قشرة الجوز الاخضر ويوجد البهار تحت غشائه الرقيق وهو شديد الحمرة

واجود انواعها ما يرد من جاوه وسومطرة وبورينو (٤) وتزرع فى جزيرة الصنجى . (٥)

حب الهال (الحبهان)

ويعتبر الحبهان من اهم التوابل المعروفة فى العصور الوسطى وقد كثر الاقبال عليه فى الحجاز (٦) كما ازداد الطلب عليه من جانب الاوربيين وكان يتم تصدير ما يصل منه الى مصر عن طريق الاسكندرية الى اوربا .

ويكسب هذا التابل الطعام والشراب مذاقا لذيذا للغاية اما فائدته العلاجية فقد عرفتها اوربا عن العرب والفرس واستخدم فى حفظ الاطعمة (٧) وكان التجار يفاضلون بين ثمرة حب الهال الخشبية وبين تلك التى تجلب من الحدائق واماكن تصديره جزر الهند وقاليقوت وما جاورها . (٨)

-
- (١) سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ٢٤١ .
 - (٢) على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ، ص ٢٣٥ .
 - (٣) سونيا هاو : نفس المرجع ص ٢٤١ .
 - (٤) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ٢١٨ ، سونيا هاو : نفس المرجع ، ص ١٤٩ .
 - (٥) الدمشقى : نخبه الدهر ، ص ١٥٤ .
 - (٦) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ١٣٨ .
 - (٧) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ، ص ٢١٨ ، على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
 - (٨) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع والمفحة ، على بن حسين السليمان : نفس المرجع والمفحة .

الزعفران (الورس)

اما الزعفران فهو من السلع التى لها رواج كبير فى مكة (١) ويتميز براائحته العطرية المعروفة ولهذا كان يدخل فى صناعة العطور والتلوين كما استخدم فى الطهو وقد عرفه أطباء العرب وغيرهم منذ القدم واستعملوه فى علاج بعض الامراض (٢).

وقد ورد ذكره فى بعض الاحاديث النبوية فذكر الترمذى من حديث زيد بن ارقم عن النبى صلى الله عليه وسلم : " أنه كان ينعت الزيت والورسمن ذات الجنب ، قال قتادة " يلد به ، ويلد من الجانب الذى يشتكيه " . (٣)

وروى ابن ماجة فى سننه من حديث زيد بن ارقم قال " نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذات الجنب ورسا وقسطا وزينا يلد به " . (٤)

وصح عن ام سلمة رضى الله عنها انها قالت : " كانت النفساء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تقعد بعد نفاسها اربعين يوما أى أربعين ليلة وكنا نطلى على وجوهنا الورس من الكلف " . (٥)

وقد استخدم الورس علاجا شافعا للكلف والحكة والبثور والبهق والسعفة والوضوح كما ان له قوة قابضة صابغة . (٦)

(١) حسنين ربيع : وثائق الجنييزة ، ص ١٣٨ .

(٢) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ٢١٩ ، على بن حسين السليمان : نفس المرجع ، ص ٢٣٥ .

(٣) الترمذى : الجامع الصحيح ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ .

(٤) ابن ماجة : السنن ، ج ٢ ، ص ١١٤٨ .

(٥) ابن حنبل : المسند ، ج ٦ ، ص ٣٠٤ .

(٦) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ، ص ٣١٥ .

وأهم مصادر الزعفران بلاد فارس حيث يزرع بكميات كثيرة فى بواشجر
وقسم وهمذان وشيراز (١) وأجوده ما زرع فى منطقة أصفهان التى يصفها ابن
رسته بقوله " وبها من الزعفران الذى وان كان فى غيرها من البلدان موجودا
فان فضله على كل ما فى سائر المواضع منه ظاهر لانه اذكى رائحة وأبيض
نفعا واشبع صبغا فى كل ما يستعمل ولا يبتاع فى شيء من المواسم التى يجلب
اليها شيء منه ما يوجد فى زعفران أصفهان" (٢) ويجلب الزعفران من بلاد الاندلس
ويعود الفضل الى المسلمين فى نقل بذوره اليها بعد فتحهم لتلك البلاد (٤)

وزعفران اليمـن يعرف " بالورس " وهو اقل ثمنـا ويحمل منها الى الحـجاز لبيعه فيها (٥) واجود الزعفران الاحمر اللين ، القليل النخالة (٦) .

..... العاقبة الطيبة

بلغت تجارة العقاقير الطبية اوج عظمتها في مكة وامتلأت اسواقها بمئات النباتات المتبادلة بين الشرق والغرب فكانت مكة بلدا مصدرا للكثير من النباتات والاعشاب المستخدمة في الطب والتي كثيرا ما نسبت اليها ومن اهم هذه السلع الشرقية والمكية : الكافور ، واللبان ، والمن ، والصبر ، والسنا ، والراوند ، والاهليلج ، والخيارسنبر ، والاراك ، والكباث ، والعسل .

- (١) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٣٢٦، ٣٦٧، ٤٤٢ .
- (٢) الاعــــــــــــــــــــــلاق النفيسة ، ص ١٥٧ .
- (٣) المقدسى : نفس المصدر ، ص ٢٣٥ .
- (٤) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ، ص ٢١٩ .
- (٥) على بن حسين السليمان : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .
- (٦) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ، ص ٣١٥ .

الكافور.....

هو صمغ شجرة بحرية اسفنجية ضخمة وطويلة تنبت فى أطراف الصين والهند (١)
تشبه القصب غير انها أطول وأغلظ (٢) ويتضخم جذعها كثيرا وتحمل أوراقا
بسيطة جلدية رمحية عديمة الاذنيات ذات حافة كاملة. (٣)

ويصور لنا الدمشقى كيفية استخراج الكافور وجمعه بقوله: " انهم
يقصدون شجره فى وقت معلوم من السنة فيحفرون حولها حفرة ويجعلون فيها
اناء كبيراً، إن الرجل منهم يقبل ويده فأس ماض ويكون قد تلثم وسد انفسه
ويمكن الاناء من أصل الشجرة ثم يضرب الشجرة بالفأس بحيث يجرى ما يخرج منها
فى ذلك الاناء وي طرح الفأس من يده ويهرب لئلا يفور فى وجهه ما يخرج من
الكافور فيقتله فاذا برد الماء الذى يخرج من الشجرة فى ذلك الاناء الموضوع
جعلوه فى اوعية وعمدوا الى الشجرة التى استخرجوا ماءها فقطعوها وتركوها
حتى تجف ثم يقطعونها قطعاً صغاراً أو كباراً ويشققونها ويستخرجون ما يجدون بين
لحائها وخشبها مثل الصمغ صغارا وكبارا وقال قوم يجدونه فى قلب العود...
منظما مثل الملح. (٤)

ويبين المسعودى تأثير البيئة فى نمو الكافور بقوله: " فالسنة التى
تكون كثيرة الصواعق والبرق والرجف والقذف والزلازل يكثر فيها الكافور واذا
قل ذلك كان نقصاناً فى وجوده ". (٥)

-
- (١) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ٦٥ ، الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ١٠٣-١٠٤ .
(٢) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٦١١ .
(٣) مصطفى عبد العزيز وآخرون : النبات العام ، ص ٥٩٤ .
(٤) نخبة الدهر ، ص ١٠٤ .
(٥) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

هذا وترجع معرفة العرب المسلمين له الى ايام الفتوحات الاولى فى بلاد فارس (١) وكانت له فى مكة المكرمة سوق رائجة (٢) ويرد اليها من الهند و جزر الصين (٣) وجزيرة جاوه (٤) .

وافضل انواع الكافور الرباحى (٥) واجوده القصورى وهو حسن الجوهر شديد البياض وناعم الفك ذكى الرائحة ولا يوجد الا فى رؤوس الشجر وفروعها وكل انواع الكافور لا تدخل فى صناعة الادوية عدا الرباحى المجلوب من ارض قنصورة فى بلاد الصين (٦) وهو جم الفوائد من الناحية الطبية (٧) فهو مفيد للاعصاب والقلب والكبد ومذهب للرطوبة (٨) .

البيلان (البلسم)

من النباتات الطبية التى نالت شهرة واسعة فى عالم العصور الوسطى ويستورد من البلاد العربية ونظرا لارتفاع اسعاره وتهافت الغرب الاوربي على الحصول عليه قام سلاطين المماليك باحتكار استغلاله والاستفادة من الارباح العظيمة التى تدرها تجارته لدرجة ان السلاطين كانوا يحضرون بأنفسهم عملية استخراج زيت البيلسان الثمين ووضعه فى كئوس من الفضة (٩) وكان السلاطين يهادون به ملوك وامراء اوربا وملك الحبشة وكبار الشخصيات المارة ببلادهم . (١٠)

-
- (١) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ، ص ٢١٢ .
 - (٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٧ ، البلوى : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٣٠٨ .
 - (٣) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، المسعودى : المصدر السابق ج١ ص ١٥٢ ، ١٥٤ .
 - (٤) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٦٠٧ ، ٦١١ .
 - (٥) نسبة الى اول من عرفه وهو ملك يقال له رباح ، الدمشقى: نخبة الدهر، ص ١٠٤ .
 - (٦) الدمشقى: نفس المصدر ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .
 - (٧) يستخدم الزيت المستخرج من تقطير الاوراق مطهرا للوقاية من بعض الامراض مثل الانفلونزا والالتهابات الشعبية ، مصطفى عبد العزيز: المرجع السابق، ص ٥٩٦ .
 - (٨) الجزيرى : تحفة العجائب (مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٤٤ ورقة ٤١٧-٤١٨ .
 - (٩) سونيا هاو : المرجع السابق ، ص ١٧ .
 - (١٠) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

وشجرته تشبه شجرة الآس ويبلغ ارتفاعها نحو ذراع ويستخرج دهنها
من الاغصان والجدوع بعد ان تشرط بمشرط من حجر ويحفظ فى الاصداف والقوارير (١)

وينبت البلسان فى الحجاز (٢) ومصر (٣) والشام وفلسطين واليمن (٤) ..
غير ان افضل ما نبت فى مكة وفى منطقة المطرية فى مصر (٥) ومن عجائب
الدنيا بئر البلسم بمصر يسقى منه نبات البلسان ولا يسقى بغيره لانه لا يأتى
الدهن بغيره (٦) وينمو شجر البلسان الانثى فى مصر وحدها فى حين ينمو فى
مكة الذكر منه ولونه أشهب (٧)

والبلسان نبات برى لا ينبت حيثما يزرع واذا نبت فى غير مكانه لا يخرج دهنه
يقول ابن اياس: " ومن النوادر ان البلسان وهو الذى يسمونه البلسم كان قد
انقطع زريعته من ارض المطرية من اوائل سنة تسعمائة من القرن التاسع وكانت
مصر تفخر بذلك على سائر البلاد وكانت ملوك الفرنج تتغالى فى دهن هذا البلسم
ويشترونه بثقله ذهباً ولا يتم عندهم التنصر حتى يضحوا من دهنه شيئاً فى ماء
المعمودية وينغمسوا فيه وكان يستخرج دهنه فى فصل الربيع فى برمهات فلما
انقطعت زريعته فى ارض المطرية تنكد السلطان لذلك ولازال يفحص عن امره حتى
احضر اليه بلسان برى من بعض اماكن بالحجاز وهو فى طينه فزرعه بالمطرية فى
مكانه المشهور به فنتج وطلع لما سقى من ماء تلك البئر التى هناك (٨)

(١) الجزرى : المصدر السابق ، ورقة ٤٨٤ .

(٢) الجزيرى : درر الفوائد المنظمة ، ص ٥٣٠ .

(٣) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٤) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ، ص ٢١٠ .

(٥) سونيا هاو : المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٦) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ١٢٠ ، ٢٣٤ .

(٧) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ٢١١ .

(٨) بدائىع الزهور : ج ٤ ، ص ١٤٩ .

وكان عدد الشجر المنقول من الحجار ستين شجرة حملت من وادى العقيق
ومن مدرج الامام عثمان رضى الله عنه ومن حول فساقى مكة المشرفة (١) وقد
عرف عند الكيمياءيين والصيدلة فى الاندلس باسم " حب البلسان " . (٢)

ومن جملة فوائده الطبية انه يذيب ويلطف ويغنى ويبيد وعميــــره
جيد للدماغ يلهبه حتى لكأنه يشعل ناراً ويستخدم فى تحنيط جثث الموتى
لحفظها من التعفن . (٣)

المن

الى جانب شهرة مكة المكرمة بالبلسان اشتهرت كذلك بتوفر نبات المن
بجانب كونها مركز تجمع لتجارة هذا النبات الذى يعتبر من حاصلات شبه الجزيرة
العربية (٤) .

وقد جاء فى الاثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله " الكمأة
من المن وماءوها شفاء من العين " . (٥)

يقول ابن قيم الجوزية وقوله صلى الله عليه وسلم " الكمأة من المن "
فـــــــــــــــــيه قولان :

احدهما ان المن الذى نزل على بنى اسرائيل لم يكن هذا الحلو فقط
بل اشياء كثيرة من الله عليهم بها من النبات الذى يوجد عفوا من غير صفة
ولا علاج ولا حرث فان المن مصدر بمعنى مفعول اى ممنون به فكل ما رزقه الله
العبد عفوا بغير كسب منه ولا علاج فهو من الله تعالى لانه لم يشبه كسب

(١) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٥٣٠ .

(٢) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٣) سونيا هاو : المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٤) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ص ٢١٦ .

(٥) الترمذى : السنن ، المجلد الثالث ، ص ٢٧١ .

العبد ولم يكدره ما لا كسب له فيه ولا صنع باسم المن فانه من بسلا
واسطة العبد وجعل سبحانه قوتهم بالتيه الكمة (١) وهي تقوم مقام الخبز
وجعل أدمهم السلوى وهو يقوم مقام اللحم وجعل حلواهم الطل الذى ينزل على
الاشجار وهو يقوم لهم مقام الحلوى فكل عيشهم . وتأمل قوله صلى الله عليه
وسلم " الكمة من المن الذى انزل الله على بنى اسرائيل فجعلها من جملته
وفردا من افراده والترنجمين الطل الذى يسقط على الاشجار نوع من المن ثم
غلب استعمال المن عليه عرفا حادثا .

والقول الثانى انه شبه الكمة بالمن المنزل من السماء لانه يجمع من غير
تعبا ولا كلفة ولا زرع بذر ولا سقى . (٢)

وكان صيادلة واطباء العصور الوسطى فى اوربا يلحون فى طلب المـن
العربى لفضله على جميع الانواع المعروفة وقد اكدت الدراسات الطبية الحديثة
مميزات المن المكى الذى عد اجود انواع المن ونسبت وشائق الغرب الحديثة
تسميته الى مكة فعرف هناك تحت اسم ماكين . (٣)

ومن اهم مصادر هذا النبات الطبى بالاضافة الى مكة وشبه الجزيرة
العربية ، شبه جزيرة سيناء والقسطنطينية وجزيرتا قبرص وصقلية . (٤)

(١) تعرف الان باسم عيش الغراب

(٢) ابن قيم الجوزية : المصداق السابق ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٣) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ، ص ٢١٦ .

(٤) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع والصفحة .

الصبر

وهو صمغ يستخرج من شجرة لها اوراق كورق السوسن الا ان اوراقها تتميز بوجود اشواك صغار على طول اطرافها وورق الصبر اطول من ورق السوسن وعليه رطوبة تلتصق باليد ولورقة عرق واحد . (١)

وكانت كل من الهند وفارس وحضرموت والاحقاف وسقطرة من مناطق انتاج الصبر (٢) ويذكر المسعودى انه كان لنباتات سقطرة شهرة كبيرة وخصائص عجيبة وكانت تستخدم منذ اقدم العصور فى تحضير بعض العقاقير الطبية وقد حدا ذلك الاسكندر الاكبر الى الاستيلاء على تلك الجزيرة (٣) ومنذ ذلك العهد نقل الاغريق زراعة بعض النباتات ومنها الصبر الى بلادهم (٤) الا انه لم يكن فى جودة الصبر السقطرى (٥) ولعل ذلك يرجع الى تأثير البيئة .

ويغلب على صبر سقطره اللون الاحمر فى حين ان صبر فارس لامع (٦) وقد نال الصبر السقطرى شهرة واسعة فى العصور الوسطى واعطى الاولوية فى ميدان التجارة وامتاز برخصه الى جانب جودته وورد ذكره كثيرا فى كتب الرحالة وجغرافى العصور الوسطى وكان يصدر الى اوربا عن طريق مصر . (٧)

ويعد العصير المستخرج من ورق الصبر عنصرا اساسيا فى تجهيز الادوية . (٨)

-
- (١) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٨١ .
 - (٢) الدمشقى : نفس المصدر ، ص ٢١٧ .
 - (٣) مروج الذهب ، المجلد الثانى ، ص ١٩ - ٢٠ .
 - (٤) سونيا هاو : المرجع السابق ، ص ٥٤ .
 - (٥) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ٢١٧ .
 - (٦) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢١٧ .
 - (٧) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ، ص ٢١٧ .
 - (٨) سونيا هاو : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

والصبر الهندى مفيد فى علاج امراض الصدر وسقوط الشعر^(١) وهو ينقى
المنخ واعصاب البصر واذا مزج بماء الورد وطفى على الجبهة والصدع نفع فى
علاج قروح الانف والفم ويستعمل مسهلا فى بعض حالات الامساك .

وصبر فارس يذكى العقل ويشد الفؤاد وهو جيد للمعدة ولكنه مضر اذا ...
استخدم فى البرد . (٢)

وكان النساء يستعملن الضرب ويطلين به وجوههن ففى السنن لابی داود من
حديث ام سلمة انها قالت : " دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين
توفى ابو سلمة وقد جعلت على صبرا فقال " ما هذا يا ام سلمة ؟ فقالت
انما هو صبر يا رسول الله ليس فيه طيب ، قال : انه يشب الوجه فلا تجعليه الا
بالليل وتنزعيه بالنهار . (٣)

السنن " سنامكة " (٤)

يعد سنا مكة من النباتات الطبيعية التى نالت شهرة فى عالم الطب فى العصور
الوسطى وقد اقترن اسمه بمكة لشهرتها به وهو نسبت حجازى افضله المكى . (٥)

وهو من الادوية الشريفة المأمونة الغائلة^(٦) وعن اسماء بنت عميس

- (١) الجزرى : تحفة العجائب ورقة ٤٦٥ ، الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ص ٢٠٠ .
- (٢) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .
- (٣) ابو داود : سنن ابى داود مراجعة محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الفكر ،
ج ٢ ، ص ٢٩٢-٢٩٣ .
- (٤) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٩٨ .
- (٥) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٥٩ .
- (٦) ابن قيم الجوزية نفس المصدر والصفحة .

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سألها بم تستمشين ؟ قالت بالشيرم (١)
قال : " جار جار " قالت : ثم استمشيت بالسنا فقال النبي صلى الله عليه
وسلم لو ان شيئا كان فيه شفاء من الموت لكان في السنا . (٢)

وروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : " عليكم بالسنا والسنوت فان فيهما شفاء من كل داء الا السام " قيل يا رسول الله وما السام ؟ قال الموت . (٣)

وقد استخدمت اوراق السنّا المنقوع ملينا فى حالات الامساك مع مراعاة كمية الشربة وهى تختلف من شخص الى آخر وللسنا تاثير جيد فى تقوية جرم القلب وهذه فضيلة شريفة فيه وخاصيته انه ينفع من الوسواس السوداء ومن الشقاق العارض فى البدن واستخدم فى علاج القمل والصداع المزمن والجرب والبثور والحكة والصرع . (٤)

الـــــراونـــــد *****

كان الراوند من السلع الهامة التي لقيت سوقا رابحة في مكة وقد عرفه العرب منذ اقدم العصور واستخدموه في صناعة العقاقير الطبية ويتكون من معدن النحاس ولونه اخضر كالزبرجد وهو لين الملمس. (٥)

ويرد الراوند من آسيا الصغرى وخراسان والهند والصين واجود انواعه الصينى وكانت له سوق رائجة فى مصر اذ كان الاوربيون يطلبونه ويفضلونه

- (١) من الادوية الشيوعية وقد اوصى الاطباء بترك استعماله لخطره وفطر اسهاله
ابن قيم الخوزية : نفس المصدر ، ص ٥٨ . ٢٥٣
- (٢) الترمذى : المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .
- (٣) ابن ماجة : السنن المجلد الثانى ، ص ١١٤٤ ، "السنن والعسل وقيل الشبث وقيل
الكون ، ابن ماجة : نفس المصدر والصفحة .
- (٤) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ، ص ٥٨ - ٥٩ .
- (٥) الجزيري : تحفة العجائب ، ورقة ٤٦٢ ، الدمشقي : الاشارة الى محاسن التجارة ص ٢١ .

على الانواع الاخرى وكان البحر الاحمر هو طريقة الطبيعى . (١)

وقد استخدم الراوند فى علاج كثير من الامراض وخاصة امراض المعدة ،
والكلى والكبد وللبيئة تاثير كبير على لونه فهو يصفى بصفاء الجو
ويتكدر بكدرته . (٢)

الاهليلج (الهند شعيره)

وهو من السلع الطبية التى كانت معفاة من المكوس فى ثغر عدن وكان
يجلب من الهند . (٣)

والهليلج نبات ذو ثمرة صغيرة ذات شواة من نوع الخوخ والبرقوق
مستطيلة الشكل غير انها اقل حجما من البرقوق وافضل انواعه الشديد الصفرة
الضارب الى الخضرة .

والاطباء يستخدمون هذه الثمرة فى تركيب الادوية التى تفيد فى علاج
المعدة والامعاء والبصر . (٤)

التوت

حجر له الوان عديدة احسنها الابيض ثم الاصفر ثم الفستقى وقد نالت
هذه السلعة شهرة كبيرة ادت الى تزايد الطلب عليها من الشرق والغرب
وقد جلبت بكميات كبيرة لمختلف البلاد الاسلامية وعن العرب عرف الغرب فوائدها
 واصبحت مقرونة بالاسكنـدرية لشدة الطلب عليها هناك . (٥)

-
- (١) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ، ص ٢١٥ .
 - (٢) الجزيرى : نفس المصدر والورقة ، الدمشقى : نفس المصدر والصفحة .
 - (٣) ابو مخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ١ ، ص ٦٢ .
 - (٤) الجزرى : تحفة العجائب ، ورقة ٤١٧ .
 - (٥) الجزرى : نفس المصدر ، ورقة ٣٨٤ .

واشهر مناطق استخراج التوتيا قرى وجبال اصفهان (١) واقليم كرمان بفارس حيث اشهر الانواع معروفة باسم " التوتيا المرازى " وسمى بذلك لانهم يصبونه فى اصابع كبيرة من الخزف فيلتزق بها ويبقى كالمزاريب يقول المقدس " ورأيتهم يجمعونه من الجبال وقد بنوا اكوارا عجيبة طويلة يصفونه كما يصفى الحديد ولم اراه الا بالقرى " (٢)

كما يوجد كذلك فى الهند والصين وتشتهر جزيرة ملقا بوجود هذا الحجر بصورته الطبيعية كما ان بها مصانع لتنقيته واستخلاصه ، ويستخدم الاطباء والصيدلة حجر التوتيا بعد تنقيته فى علاج امراض العيون والقروح السرطانية (٣)

الخير ————— شنبز

من النباتات التى اختصت بها مصر وحجم شجرته قدر شجرة الجوز غير انه اصغر قليلا منها وتستعمل براعمه فى صناعة العقاقير الطبية واجود انواعه البراق الاملس القشرة .

وقد اقتصرت تجارته على الشرق وكان يحمل من مصر الى الاسواق العربية فى بلاد الشام والعراق والحجاز .

وقد استعمله الاطباء العرب علاجاً مدراً للصفراء ومسكناً للألام الاورام ، والمفاصل وضيق التنفس . (٤)

(١) ابن رتبة : المصدر السابق ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) المقدس : المصدر السابق ، ص ٤٧٠ .

(٣) الجزرى : المصدر السابق ورقة ٣٨٤ ، ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ، ص ١٤٣ ، ١٤٥ .

(٤) الجزرى : نفس المصدر ورقة ٤١٦ ، ابن البيطار : نفس المصدر ج ١ ، ص ٨١ .

الاراك

نبات برى ينتشر بكثرة فى اودية مكة المكرمة (١) وهو من اسباب حفظ الصحة والعرب تكثر استعماله فى تطهير الفم وتنظيف الاسنان ولهذا يمكننا اعتباره من صادرات مكة .

وقد ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم احاديث فى الحث على السواك ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم " السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب " . (٢) وقوله صلى الله عليه وسلم " لولا ان اشق على امتى لفرضت عليهم السواك كما فرضت عليهم الوضوء " . (٣)

واجود ما اتخذ السواك من خشب الاراك وينبغى فى هذه الحالة التأكد من شجرته فلا يؤخذ من شجرة مجهولة قد تكون سامة وأفضل استعمالاته اذا بل بماء الورد . (٤)

ومن منافع السواك أنه يطيب الفم ويقوى اللثة ويقطع البلغم ويجلو الاسنان ويمنع حفرها وينقى الدماغ وهو جيد للمعدة معين على هضم الطعام ويطلق الصوت ويصفى الحواس . (٥)

-
- (١) ابن رسته : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ابن بطوطة : المصنوع
السابق ، ص ١٤٣ ، الوريثانى : نزهة الانظار ، ص ٤٤٠ .
- (٢) ابن حنبل : المسند : ج ١ ، ص ١٠ .
- (٣) ابن حنبل : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢١٤ .
- (٤) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٢٤٩ .
- (٥) ابن قيم الجوزية : نفس المصدر ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

الكبيبات

نبات حجازى وهو شمر الاراك وقيل ورقه واحسنه الاسود فقد جاء فى
الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : " كنا مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران نجنى الكبات " فقال عليكم بالاسود
منه فانه اطيبه . " (١)

واستخداماته الطبية كثيرة ومنافعه كمنافع الاراك يقوى المعدة ويسهل
الهضم ويزيل البلغم ويستعمل فى علاج اوجاع الظهر ويمسك الطبيعة
واذا شرب طبيخه ادر البول ونقى المثانة . (٢)

العسل

قال تعالى : " يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس " (٣)
وما يؤخذ من الجبال والشجر له فضل على ما يؤخذ من الخلايا وقد اشار
الله عز وجل الى ذلك بقوله تعالى : " واوحى ربك الى النحل ان اتخذى من الجبال
بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون " . (٤)
ويكفى هذه السلعة فضلا وشرفا انها طعام اهل الجنة قال تعالى : " وانهار
من غسل مصفى " . (٥)

-
- (١) البخارى : الصحيح ، ج٦ ، ص ٢١٣ .
 - (٢) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .
 - (٣) سورة النحل : آية ٦٩ .
 - (٤) سورة النحل : آية ٦٨ .
 - (٥) سورة محمد : آية ١٥ .

لقد بارك الله جل وعلا فى العسل فعظمت قيمته وفوائده يقول ابن قيم الجوزية " وهو غذاء مع الاغذية ودواء مع الادوية وشراب مع الاشربة وحلو مع الحلو وظلاء مع الاطلية ومفرح مع المفرحات فما خلق لنا شئ فى معناه افضل منه ولا مثله ولا قريب منه ولم يكن معول القدماء الا عليه واكثر كتسبب القدماء لا ذكر فيها للسكر البتة ولا يعرفونه فانه حديث العهد ——— قريبا " (١)

وفى سنن ابن ماجة فى الزوائد اسناد صحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " عليكم بالشفاءين العسل والقرآن " . (٢)

ويحمل العسل الى مكة من السراة (٣) ومن وادى نعمان (٤) يقسمون الاصفهاني : " وبنعمان الاصدار وهى صدور الوادى التى يجيء منها العسل الى مكة ولهم أى (لهذيل) ايضا واد يقال له رهجان يصب فى نعمان به عسل كثير (٥) والعسل المسعودى الذى بمكة والذى يذكر ابن جبير انه اطيب من الماذى المضروب به المثل (٦) ولعل تسميته بالمسعودى نسبة الى بنى مسعود من هذيل كانت لهم قلعة على رابية بوادى نخلة تعرف بسولة (٧) .

(١) الطيسب النبوى ، ص ٢٦ .

(٢) المجلد الثانى ، ص ١١٤٢ .

(٣) ابن جبير : المصدر السابق ص ٩٨ . ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٦٠ . " السراة جبال جنوب الطائف كانت تتخذ اسماء القبائل التى سكنتها مثل هذيل وبجيلة والازد والمع ودوس وغيرها " ياقوت : معجم البلدان ، مادة السراة ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

(٤) نعمان وادى عظيم جنوب عرفات كثير المياه والمزارع بين الطائف ومكة على

طريق كراة ، الحسن الاصفهاني : بلاد العرب ، ص ٢٠ .

(٥) الحسن الاصفهاني : بلاد العرب ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٦) ابن جبير المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٧) ياقوت : معجم البلدان ، مادة سولة ، ج ٣ ، ص ٢٨٥ .

ويأتى العسل الى مكة ايضا من مصر وهو من النوع الممتاز الذى يفخر به على غيره ويقال ان النبى صلى الله عليه وسلم بارك فيه لما اهداه اليه المقوقس كما يصل الى مكة ايضا الشمع المتخذ من الشهد وعسل الاسطروس (١)

ويجلب العسل كذلك الى مكة من الموصل وحران ومن اصفهان (٢) وهو العسل المادى الخالص النقى الذهبى الجوهري الذى اذا قطر على الارض منه لم تأخذ منها ولم تعطيها (٣)

وللعسل منافع عظيمة قد وصفه الاطباء للاستشفاء من علل كثيرة ومن جملة فوائده " انه جلاء للآوساخ التى فى العروق وغيرها محلل للزطوبات اكلا وطلاء ، نافع للمشايخ واصحاب البلغم وهو مغذ ملين للطبيعة مذهب لكيفيات الادوية الكريهة منق للكبد والصدر ومدر للبول وموافق للسعال الكائن عن البلغم واذا شرب حارا بدهن الورد نفع من نهش الهوام وشرب الافيون واذا شرب وحده ممزوجا بماء نفع من عضة الكلب الكلب واكل الفطر (٤) واذا جعل فيه اللحم الطرى حفظ طراوته ثلاثة اشهر وكذلك ان جعل فيه القشء والخيار والقرع والبادنجان ويحفظ كثيرا من الفاكهة ستة اشهر ويحفظ جثة الموتى ويسمى الحافظ الامين واذا لطخ به البدن المقلل والشعر قتل قمله وصئبانه وطول الشعر وحسنة ونعمة وان اكتحل به جلا ظلمة البصر وان استن به بيض الاسنان وصقلها وحفظ صحتها وصحة اللثة ويفتح افواه العروق ويدر الطمث ولعقه على الريق يذهب البلغم ويفسل خمل المعدة ويدفع الفضلات عنها ويسخنها تسخينا معتدلا ويفتح سدها ، ويفعل

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٢) الهقدسى : المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٣) ابن رسته : المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(٤) نوع من الكمأة قتال ويعرف الان بعيش الغراب السام .

ذلك بالكبد والكلى والمشانة وهو اقل ضررا لسددالكبد والطحال من كل حلو " (١)
وحقيق بشىء هذه منافعها ان يحمل الى الافاق وان يطلب فى كل مكان وزمان.

العطــــــــــــــــور والبخور

جاء فى الاثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : " حب الى من
دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى الصلاة " . (٢)

والطيب غذاء الروح ولا عجب ان تكون له تجارة رائجة فى مكة فقد كان
اهلها يستعملون الطيب كثيرا وكان نسوةوها يكثرن التطيب ومما قاله ابن بطوطة
فى هذا الصدد ان احداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيبا . (٣)

وكانت اسواق مكة زاخرة باشواع العطور والبخور المختلفة كالمسك والعنبر وخشب
الصندل والكاذى واللبان واللبن ومعظم المتاجر ترد اليها من الهند والصين واليمن .

العــــــــــــــــود

من افخم اشواع العطور والبخور واكثرها شذى وعبيرا ويعرف بالعود الهندى
وهو نوعان :-

احدهما : الكست ويقال له القسط ويستعمل ايضا فى صناعة العقاقير
الطبية ويرد من بلاد السند . (٤)

الثانى يستعمل فى الطيب ويقال له الالوه وعن ابن عمر رضى الله عنهما
" أنه كان يستجمر بالالوة غير مطراة وبكافور يطرح معها ويقول " هكذا كان
يستجمر رسول الله صلى الله عليه وسلم " كما ثبت عنه فى صفة نعيم اهل الجنة (٥)

(١) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) احمد بن حنبل : المسند ، المجلد الثالث ، ص ١٢٨ ، ٢٨٥ .

(٣) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

(٤) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ٦٢ ، ٧١ .

(٥) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٢٦٥ .

وشجرة العود الهندى تشبه شجرة البلوط الا ان قشرها رقيق ولا شمس لها وعروقها طويلة ممتدة تنبعث منها الرائحة العطرة اما عيدانها وورقها فلا رائحة لها . (١)

اما عن كيفية اعداده للاستخدام فيقول القلقشندي : ان الشجرة تقطع وتدفن فى التراب سنين حتى تأكل الارض منه مالا ينفع ويبقى العود لا توءثر فيه الارض (٢)

ومن اشهر انواع العود المندلى ، والقمارى ، والقاقلى ، والصينى واجودها الاسود والازرق الصلب الرزين الرطب كثير الماء والدهن واقله جودة ما خف وطفأ على الماء . (٣)

وللعود تأثير قوى فى ادخال البهجة والفرح على القلوب كما انه يقوى الاحشاء والقلب والحواس وينفع الدماغ وفى التجمير مراعاة جوهر الهواء واصلاحه فانه احد الاشياء الستة الضرورية التى فى صلاحها اصلاح الابدان . (٤)

ومن اهم مصادر انتاجه الهند والصين (٥) وبمل جاوة . (٦)

وعلاوة على استخدام العود من ضمن الروائح العطرية وفى صناعة العقاقير الطبية فهو يدخل فى صناعة الاثاث القخم فى العصور الوسطى . (٧)

-
- (١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦١١ .
 - (٢) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .
 - (٣) ابن قيم الجوزية : نفس المصدر ، ص ٢٦٦ ، القلقشندي : نفس المصدر والجزء ص ١٢٦ - ١٢٧ .
 - (٤) ابن قيم الجوزية : نفس المصدر ، ص ٢٦٦ .
 - (٥) ابن خردادبة : المصدر السابق ، ص ٧٠ ، الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ١٥٤-١٥٥ .
 - (٦) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٦١٠ - ٦١٢ .
 - (٧) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .

(٣) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ، ص ٣٠٨ .

الدم الى السرة فاذا استحکم کون الدم فيها ونضج آذاه ذلك وحكه فيفزع حينئذ الى احد الصخور والاحجار الحارة من حر الشمس فيحتك بها مستلذاً بذلك فينفجر حينئذ ويسيل على تلك الاحجار كانهفجار الخراج والدمل اذا نضج ما فيه عند ... ترادف المواد عليه فيجد لخروجه لذة فاذا فرغ ما في نافجة اندمل حينئذ ثم اندفعت اليه مواد من الدم ويجمع ثانية ككونها بداءة فيخرج رجال التبت يقصدون مراعيها بين تلك الاحجار والجبال فيجدون الدم قد جف على تلك الصخور والاحجار وقد احكمته المواد وانضجته الطبيعة في حيوانه وجففته الشمس وأثر فيه الهواء فيأخذونه فذلك افضل المسك فيودعونه نوافج معهم قد أخذوها من غزلان قد اصطادوها مستعدة معهم فذلك الذي تستعمله ملوكهم و يتهاودونه .. بينهم ويحمله التجار في النادر من بلادهم". (١)

وقد لقيت تجارة المسك رواجاً كبيراً في بلاد العرب وكثر الطلب عليه ، لذا نجد ان كثيراً من التجار العرب كانوا يسافرون الى الجزء الشرقى من الهند بحثاً عن اجود انواع المسك . (٢)

ويفضل مسك التبت مسك الصين من ناحيتين :-

الاولى : ان طباء المسك التبتى ترعى سبل الطيب وانواع الافاوية وطباء الصين ترعى في حشائش اقل غنى من حشائش الطيب التبتية .

الثانية : ان اهل التبت لا يتعرضون لخراج المسك من نوافجه ويتركونه على ما هو عليه في حين يخرجهم اهل الصين من النوافج ويغشونه بالدم وغيره كما ان طول المسافة وكثرة الرطوبة واختلاف الهواء تؤثر في المسك الصينى وتجعله اقل جودة . (٣)

(١) المسعودى : المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ١٥٩ .

(٢) الجزرى : تحفة العجائب ورقة ٢٤١ ، دمشق : الاشارة الى محاسن التجارة

ص ١٩ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ، المجلد الاول ، ص ١٥٨ .

وتختلف أسماء المسك باختلاف مصادره اما باعتبار اصول وجودة فيها او باعتبار مصيره اليها (١) ويذكر تجار الهند ان هناك صنفين آخرين من المسك يوءخذان من نبات يزرع فى الارض غير ان احدهما يفسده حفظه والاخر يفسد لطول المدة (٢) ولضمان الاحتفاظ بالرائحة النفاذة للمسك يشترط ايداعه فى اوان محكمة الاغلاف من الزجاج (٣) او من الرصاص (٤)

ويعد البحر الاحمر الطريق الطبيعى لنقل المسك التبتى حتى بعد وجود .. البرتغاليين فى الهند وكان يصل الى اوربا بواسطة مصر والشام (٥) .

العنبر

من افخر انواع الطيب بعد المسك وهو مادة صلبة ذات الوان مختلفة فمنه الابيض والاشهب والاحمر والاصفر والاخضر والازرق والاسود وذو الالوان واجوده الاشهب ثم الازرق وارداً انواعه الاصفر والاسود (٦)

وقد اختلفت الآراء فى عنبره فقليل انه نوعان خام ومبلوع

فاما الخام فهو الذى يتسرب من عيون فى قاع البحر وهو فى اثناء خروجه شديداً الفوران والحرارة فاذا لاقى برد الماء جمد على الصخور كجمود الشمع وتكور على شكل قطع كبار وصغار (٧) وعند هبوب الاعاصير تقتلعها الامواج وتقذفه الى الشواطىء (٨)

- (١) ابن البيطار: الجامع لمفردات الادوية والاغذية ص ١٥٥، الجزرى: نفس المصدر ورقة ٢٤١.
- (٢) القلقشندى : المصدر السابق، ج٢، ص ١٢١ .
- (٣) المسعودى : نفس المصدر والمجلد والصفحة .
- (٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية، ج١، ص ٣٥٠ .
- (٥) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق، ص ٢٢٨ .
- (٦) ابن البيطار: المصدر السابق ج٢، ص ١٣٤، ابن قيم الجوزية : المصدر السابق، ص ٢٦٤-٢٦٥.
- (٧) الدمشقى : نخبة الدهر، ص ١٣٤ .
- (٨) المسعودى : مروج الذهب، ج١، ص ١٥٠-١٥١، الدمشقى : نفس المصدر والصفحة .

ويذكر البعض ان هذا النوع ينمو فى البحر كالاسفنج قبل ان يلقيه الموج على الساحل . (١)

(٢)
اما المبلوع فهو المستخرج من بطون الاسماك المعروفة بالاولال او العنبر وهو عندما يخرج من بطونها يكون سهكا ويعرف عند العطارين فى العراق وفارس بالند . (٣)

وقيل ان العنبر طل ينزل من السماء فى جزائر البحر فتقذفه الامواج الى الشاطئ وقيل روث دابة بحرية ضخمة وقيل بل هو جفاء من جفاء البحر — " اى الزبد " . (٤)

ويؤكد بعض سكان الجزر ان العنبر هو افراز طائر ضخم وان رائحته تعود الى الاعشاب التى يأكلها . (٥)

ويرى بعض المؤرخين ان العنبر من بطون الاسماك وليس من بطون البحار ولا بد ان اسماكا معينة تلفظه . (٦)

وعلى كل حال فكثيرا ما يعثر على العنبر بين امواج البحر ووسط الصخور وفى احشاء الاسماك . (٧)

-
- (١) القلقشندي : المصدر السابق ج٢ ، ص ١٢٣ .
 - (٢) المسعودي : نفس المصدر والجزء ص ١٥١ ، دمشق نفس المصدر والصفحة .
 - (٣) المسعودي : مروج الذهب ، ج١ ، ص ١٥١ .
 - (٤) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٢٦٥ .
 - (٥) ابن البيطار : الجامع لمفردات الادوية والاعذية ج٣ ، ص ١٣٤ .
 - (٦) على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ، ص ٢٤٧ .
 - (٧) الجزرى : تحفة العجائب ورقة ٣٢٥ ، دمشق الاشارة الى محاسن التجارة ص ١٩ .

وتمتد مناطقه على طول ساحل المحيط الهندي من الساحل الشرقى لافريقيا عند بربرة والزنج حتى بلاد الصين (١) كما يوجد العنبر الجيد بشواطئ الاندلس على المحيط الاطلسى . (٢)

ويعد اقليم صحار على الساحل الجنوبى ل شبه الجزيرة العربية من اغنى مناطق انتاج العنبر الذى يمتاز برائحته الزكية الطيارة ويخرج الاهالى فى الليل لجمع العنبر ويستدلون على مكانه بواسطة النجب المهرية المدربة اذا احست هذه النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه واجود العنبر ما وقع على شاطئ الشجر وما قذفه ساحل بحر الزنج (٣) وما يعثر عليه فى سبب المنذب (٤) .

وللعنبر مزية على انواع العطور الاخرى وهى انه كالذهب لا يدخله التغيير على طول الزمان . (٥)

وقد كانت عدن وجدة من اكبر مراكز تجارته واسواقها لا تزخر به فى صورة عطر فقط بل تصنع منه العقود والسبح وغيرها كما كان يطعم به الخشب المحفور فى بيوت الامراء (٦) وقد استخدم فى صناعة العقاقير الطبية فى العصور الوسطى (٧) غير ان الطب الحديث لم يثبت اى فائدة علاجية له . (٨)

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٦١، المسعودى : نفس المصدر ج ١، ص ١٥٠-١٥١، المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ١٠١، ١٠٢ .

(٢) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٣٣٩، الدمشقى نخبة الدهر ، ص ٢٤٥ .

(٣) المسعودى : المصدر السابق ج ١، ص ١٥٠، ابن البيطار : الجامع لمفردات . . الادوية والاعذية ج ٣، ص ١٣٤ .

(٤) محمد الاكوع الحوالى : اليمن الخضراء مهد الحضارة ، القاهرة ، ١٣٩١/١٩٧١ ص ٩٨-٩٩ .

(٥) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٢٦٤ .

(٦) ابن البيطار : نفس المصدر ج ٣، ص ١٣٤، نعيم زكريههمى : المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

(٧) ابن البيطار : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٨) ابن قيم الجوزية : نفس المصدر ، ص ٢٦٤، ٢٥ .

خشب الصندل

من العطور الشرقية التى حفلت بها الاسواق العربية فى العصور الوسطى وله فيها تجارة مربحة وخاصة بعد ان تزايد الطلب عليه فى اوربا فأصبح على رأس قائمة العطور التى يعاد تصديرها الى الغرب بعد وصوله من مصادر انتاجه فى الشرق الى اماكن تصريفه فى البلاد العربية . (١)

ويذكر القلقشندي سبعة اصناف للصندل اجودها نوع يعرف بالمقاصيرى وهو اصفر اللون وصنف آخر جعد الشعر يستعمل فى البخور . (٢)

ويرد خشب الصندل من جزر الصين (٣) والهند خاصة جزيرة شلاط (٤) وجزر مملكة المهراج (٥) ومن جزائر ملوك سومطرة وبورينو وجاوه . (٦)

الكاذى

الكاذى شجر يشبه النخل الا انه اقصر منه يستخرج منه طلعة دهن ونبت طيب الرائحة ويحسن بالميزان (٧) وخاصيته التبريد والتسكين لحرارة الدم (٨)

-
- (١) نعيم زكى : المرجع السابق ، ص ٢٣١ .
 - (٢) القلقشندي : المصدر السابق ج ٢ ، ص ١٣٠ .
 - (٣) المقدسى : المصدر السابق ص ٩٧ .
 - (٤) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ٦٦ ، ص ٧٠ .
 - (٥) المسعودى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٢ .
 - (٦) سونيا هاو : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .
 - (٧) الحسينى : الجواهر الثمينة فى محاسن المدينة ورقة ٧٨ ب .
 - (٨) الدمشقى : المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

وله تأثير فى ادخال السرور الى النفس وتقوية الحواس وشد البدن وضع الاعياء والخفقان . (١)

اما عن كيفية صناعة الروائح العطرية من شجرة الكاى فيؤخذ طلع الشجرة قبل ان ينشق ويلقى فى الدهن ويترك حتى يأخذ الدهن رائحته العابقة . (٢)

واشهر مناطق انتاجه المدينة المنورة الا ان سلطنته بام القرى (٣) كما يوجد ايضا فى جزيرة الصنف ببحر الصين وجزائر الديبا وهى مقصد التجار فى ممرهم الى كيش والى الهند واليمن ومقديشو . (٤)

وتجد الإشارة هنا الى ان لحاء شجرة الكاى استخدم فى العصور الوسطى فى الكتابة وهو ارق من الورق الصينى وكانت تتكاتب به ملوك الصين والهند . (٥)

البان

يدخل البان فى العطور الفوالى والاطياب وهو شجر يقارب الاثل وهناك نوع منه قصير دون شجر الرمان وهو ذو رائحة عطرية ناعمة . (٦)
والبان
والكسان اختصت به المدينة المنورة حتى نسب اليها " بان يثرب " (٧) وهو ينبت بكثرة فى العقيق بنواحي النقى وبارق والابرق ورامنة . (٨)

- (١) الحسينى: الجواهر الثمينة ورقة ٧٨ب - ٧٩ أ .
- (٢) دمشقى: نخبة الدهر، ص ١٥٣، الحسينى: نفس المصدر ورقة ٧٨ب .
- (٣) الحسينى: نفس المصدر ورقة ٧٩ أ .
- (٤) دمشقى: نفس المصدر، ص ١٥٣، ١٦٠ .
- (٥) المسعودى: المصدر السابق ج ١، ص ٢٦٦ .
- (٦) الحسينى: نفس المصدر، ورقة ٤٧ أ .
- (٧) المقدسى: احسن التقاسيم، ص ٩٨ .
- (٨) الحسينى: نفس المصدر، ق ٤٧ أ .

اللبان المر (الكندر)

نوع من البخور شاع استعماله فى العصور الوسطى كما استخدم فى الادوية الطبية (١)

وشجرة اللبان الجاوى (٢) صمغية وهى بقدر قامة الانسان او اقل اغصانها تشبه الخرشف وهى ذات اوراق رقيقة صغيرة وقد تسقط اوراقها فتبقى الشجرة بدون اوراق أما المادة الصمغية فهى فى اغصان الشجرة . (٣)

وتشتهر بعض مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية بانتاج اللبان فى الشجر (٤) وظفار ومرباط تنمو اشجار الكندر (٥) فى الاودية ومسايل الماء (٦) وليس لها بزر وورقها رقيق واذا شطت الورقة واللحاء قطر ماء يشبه اللبن سرعان ما يتجمد ويصبح صمغا هو " اللبان " . (٧)

وقد تتكون مادة اللبان على جذوع الشجرة وافضل أنواعها الابيض المائل الى الخضرة . (٨)

الاحجار الكريمة

معشوقة النفوس اشار اليها الرحالة فى اثناء حديثهم عن اسواق مكة ما تحفل به من عروض تجارية (٩) ولم يقتصر النشاط التجارى بهذه المتاجر النفيسة على

-
- (١) بزرك بن شهریار : عجائب الهند ، ص ١٧٠ .
 - (٢) نسبة الى جزيرة جاوة التى اشتهرت بانتاج كميات كبيرة منه .
 - (٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦١١ .
 - (٤) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ١٤٧ ، المقدسى : نفس المصدر ، ص ٨٧ .
 - (٥) القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ، ص ١٥ ، الدمشقى الاشارة الى محاسن التجارة ص ٢٢ .
 - (٦) بزرك بن شهریار : نفس المصدر ، ص ١٧٠ .
 - (٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .
 - (٨) القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ، ص ١٧٠ ، الدمشقى المصدر السابق ، ص ٢٢ .
 - (٩) ابن جبیر : المصدر السابق ، ص ٩٧ ، البلوى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٨ .

الاسواق الداخلية بل تطرق الى المجال الخارجى حيث كان لتجار مكة دور الوسيط فى نقلها وهى علائقة قديمة ترجع الى ما قبل الاسلام . (١)

وقد كان سلاطين الحماليك حريصين على جمع الاحجار الثمينة النادرة اذ كانت من اعظم ما يتهدى به الملوك والسلاطين . (٢)

الياقوت

تصدر الياقوت الزخامة فى عالم المجوهرات فى العصور الوسطى وقال عنه العلماء " انه انسان المعدن وسيد الاحجار التى لا تذوب " (٣) .

وللياقوت أربعة ألوان أصلية الاحمر ، والاصفر ، والازرق الاسمانجونية " اى الذى تشوب زرقتة حمرة " والابيض الميائى وتحت كل لون ألوان كثيرة على درجات .

الاحمر المشرق الخالص البهرمانى :

وهو اشرف انواع الياقوت ويتدرج تحته الاحمر الصافى ثم المائل فى اشراقه الى البياض ثم اللون الوردى الشفاف ثم الوردى القريب الى البياض ثم لون بعد آخر الى اللون الابيض الميائى الخالص بياضه وهو أردأ انواع الياقوت .

الازرق الاسمانجونى الشبيه بلون السوسن الازرق :

يأتى فى المرتبة الثانية من الجودة ويأتى بعده اللون الازرق الصافى المائل الى البياض ثم الازرق الصافى الذى تشوب زرقتة حمرة تليه ألوان اخرى حتى يبلغ البياض النقى الميائى .

(١) احمد ابراهيم الشريف : دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة ص ٤٣ ، السيد

احمد ابو الفضل : مكة فى عصر ما قبل الاسلام ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٨٦-٨٨ .

(٣) الدمشقى : نفس المصدر ص ٦١ .

الاصفر الخالص الذهبى ذو البريق والشفافية :

وهو الثالث فى مراتب الجودة وله صبر ومنعة يليه لون اصفى صفرة شم لون اصفى منه حتى يصل الى لون الليمون المائل الى البياض الخالص المهبائى.

الابيض :

وهو أشدها وانقاها شعاعا واكثرها مائية .

وهناك انواع من الياقوت المتسافل وهو اقل قيمة مثل لعل والبلخش والبيجادى والنيلى والكحلى الزيتى وهو أردأها وأقلها قيمة . (١)

وكانت اليواقيت ترد من مصادر حارهاخاما الى مناطق صقلها وتهذيبها فى قاليقوت (٢) وتعتبر الهند اهم مصدر لانتاج الياقوت وجبل سرنديب هو جبل الياقوت وفيه جميع انواعه واشباهه (٤) واجود انواعه ما يرد منه (٥) وكذلك كان الياقوت من صادرات بلاد الاندلس فى العصور الوسطى حيث معادنه هناك (٦) كما يوجد الياقوت فى جبال جزيرة القمر فى شرق افريقية (٧) وفى بلاد اليمن (٨).

والجمشت من توابع الياقوت وهو حجر بنفسجى مشف والقطعة منه تكون قدر الرطلين عليها قشر ابيض اذا كسر ظهر لونه ولهذا الحجر اربعة السوان :

- (١) الدمشقى : نفس المصدر ، ص ٦١ - ٦٢ .
- (٢) الجزرى : تحفة العجائب ، ورقة ٣١٨ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج١ ، ص ٣٤٢-٣٤٣ .
- (٣) بزرك بن شهریار : عجائب الهند : ص ١٧٩ .
- (٤) ابن خرداذبة المسالك والممالك ، ص ٧٠ .
- (٥) الجزرى : نفس المصدر والورقة .
- (٦) يحيى بن الحسين : غاية الامانى ، ق ٢ ، ص ٦٢٥ - ٦٢٦ .
- (٧) الدمشقى : نفس المصدر ، ص ١٦١ .
- (٨) محمد الاكوع الحوالى : اليمن الخضراء ، ص ٩٨ - ٩٩ .

والالماس نوعان :-

البلورى : ويكون فى لون البلور وهو افضله وارقى درجاته الناصع البياض الذى لا لون له تقريبا . ثم اللون القريب اليه ويليه لون آخر اقل شفافية .

الديتى : وهو الذى تخالطه صفرة وهو درجات الاصفر الباهت جدا ثم الاصفر الخفيف - ثم اللون المائل الى الصفار . (١)

ويتم هندمة الماسة بكل دقة حتى تعطى اعلى نسبة من الانعكاسات الضوئية وعادة ما يكون للماسة ٥٨ وجها او سطحا ... وهناك نوع من الماس البلورى يتخذ الملوكة حلية له شعاع يشبه قوس قزح ، والذى يكون مع التجار من هذا النوع ليس له مثل هذه الشعاع . (٢)

ومن خواص الالماس انه يقطع غيره من الجواهر من حين ليس شيء من الاحجار يأكله ولا يكسره ولا يفسده الا الرماص ومن عجيب شأنه أن من أراد كسره جعله فى انبوبة قصب او شمع او قارورة ثم يضرب بأى شيء فيفتت الحجر . (٣)

وقد كان امراء مكة والمشرفون على التجارة فى جدة يهادون بسلاطين المماليك ومن ذلك انه فى سنة ٨٤٢هـ ارسل الشريف بركات بن حسن بسن عجلان الى السلطان جقمق بعد توليه السلطنة قطعة من الماس زنتها تسعة عشر قيراطا . (٤) كما اهداه ناظر جدة صاحب كريم الدين بن كاتب المنساخ

(١) القلقشندى : نفس المصدر ، ج١ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٢) الدمشقى : نفس المصدر ، ص ٦٦ .

(٣) الدمشقى : نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن فهد : نفس المصدر والصفحة .

قطعة اخرى زنتها نحواً من عشرين قيراطاً . (١)

الزمرد

من الجواهر المطلوبة ويقال ان معادنه جبال خضر ترابها شبيهه
بالحناء وحجارتها خضراء موشاة بسواد وبياض ومجزعة كذلك (٢) وقد اشتهر
صعيد مصر منذ القدم بمناجم الزمرد وهو يكثر فى فصول من السنة وللهمواء
والضوء أثر على لونه واشعاعه . (٣)

وللزمرد مناجم بارض خيبر ووادى القرى وبارض هدية من الحجاز (٤) ،
و بارض اليمن (٥) وهناك نوع من الزمرد الهندى يعرف بالمكى لانه يوءتى به
من الهند الى مكة . (٦) ومن الزمرد ما يحمل من مناجم الاندلس . (٧)

والزمرد يتكلس بالنار لرخاوته واجوده الشفاف وانواع الزمرد أربعة :
الذبابى : وهو اغلاها قيمة واعلاها قدرا وهو شديد الخضرة حسن المائية .
الرياحانى : نسبة الى الرياحان الاخضر النضير .
السلقى : نسبة الى نبات السلق .

الصابونى : نسبة الى صابون مصر الاخضر وهو أردأها ولا قيمة له . (٨)

واجود ما يوجد من الزمرد العروق فى الارض وهو المتنافس فيه " اذا سلم

-
- (١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٢١٢ .
 - (٢) دمشقى : نفس المصدر ، ص ٦٧ .
 - (٣) المسعودى : مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٢٣ - ٢٥ .
 - (٤) دمشقى : نفس المصدر ، ص ٦٧ - ٦٨ .
 - (٥) محمد الاكوع الحوالى : اليمن الخضراء ، ص ٩٨ .
 - (٦) المسعودى : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٥ .
 - (٧) يحيى بن الحسين : غاية الامانى ، ق ٢ ، ص ٦٢٥ - ٦٢٦ .
 - (٨) دمشقى : نفس المصدر ، ص ٦٧ ، القلقشندى : نفس المصدر ج٢ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

من الاعوجاج والثقب واستقام سلكه واستطال ما استدار و أردأه ما ينحل
فى منجمة من التراب ويلتقط من الطين". (١)

والقطعة من الزمرد تزن خمسة مثاقيل الى قيراط وأقل وتسمى قصبة (٢)
غير انه من معدن الزمرد فى مصر سنة ٧٠٤ هـ وقبل ٧٠٥ هـ قطعة زنتها مائتان
 وخمسة واربعون مثقالا وقيل مائة وخمسة وسبعون مثقالا وقد اخفاها الضامن
وباعها على تاجر كرمى ثم حملها التاجر الى سلطان اليمن فدفع فيها مائة
وعشرين ألف درهم فطمع التاجر بمبلغ أكبر وأبى بيعها بهذا الثمن ثم ورد
بها الى مصر وشاع خبرها وذكر الضامن انه رهنها عند التاجر على تسعمائة
دينار فطلب التاجر واخذت منه غصبا وحملت الى الخزان المملوكية لان
استغلال انتاج مناجم الزمرد كان ملكا لسلطين المماليك حتى سقوط دولتهم (٣).

ومن توابع الزمرد الزبرجد وهو اقل جودة منه ويستخرج من الدفائن
القديمة بالاسكنـدرية ومنه نوع جيد يمتاز بصفاء لونه وخضرتـه
والصنف الاقل منه هو الاصفر ويوجد فى سيلان (٤) ويوجد الزبرجد ايضا فى
اليمن (٥).

(١) المسعودى : نفس المصدر ج٢ ، ص ٢٤٠ .

(٢) الدمشقى : نفس المصدر ، ص ٦٨٠ .

(٣) ابن ايبك : كنز الدرر ج٩ ، ص ١٣٢-١٣٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج٢ ، ص ٩٩٠-٩٩١ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج١ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ ، ويذكر الدمشقى : " ان
الزبرجد اصله زرد غير ان لين المعدن وضعفه قصر به فتغير لونه "
نخبة الدهر ، ص ٦٧٠ .

(٥) محمد الاكوع : المرجع السابق ، ص ٩٨٠ .

العقيق ق

من الاحجار التى تزداد مضاء وجلاء اذا ألقيت فى الشمس الحارة ثم احييت بالنار والعقيق عندما يستخرج من مناجمه يكون عليه غشاء رقيق ينزع منه فيظهر جوهره . (١)

وقد اختصت ارض صنعاء باليمن بمناجم العقيق وكان فى مقدمة سلعتها التجارية (٢) وقد ورد فى ذلك " من اراد العقيق اشترى قطعة ارض بموضع بصنعاء ثم حفر فربما خرج له شبه صخرة واقل وربما لم يخرج شيء " . (٣) ويوجد ايضا فى بلاد الهند ومنه ما يكون خارج الارض ومنه ما يكون تحتها والمستخرج من الارض اجود من العقيق اليماني .

وللعقيق الهندى عدة الوان اجودها الياقوتى ثم الدموى ثم اللحمى الصافى ثم الرطبى ثم العصرى ثم الاحمر الصافى الموشى بنقط بيضاء .

أما العقيق اليماني فأنواعه خمسة : ازرق وابيض واسود واحمر ورطبى وبينها الوان تقاربها كالخمري والمجزع والحائل والعسلى والدبسى والموشى والقطعة منه عشرون رطلا فى النادر .

ويستعمل العقيق فى تزيين الاوانى والحلى وغيرها . (٤)

المرجان ان

وهو من الاحجار التى يصدرها الغرب للشرق وفى عصر دولة المماليك ...
الثانية احتكر السلاطين تجارة بعض السلع ومن بينها المرجان فقد اشتد ولع

(١) دمشقى : نفس المصدر ، ص ٦٩ .

(٢) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٩٨ ، دمشقى : نفس المصدر والصفحة .

(٣) المقدسى : نفس المصدر ، ص ١٠١ .

(٤) دمشقى : نفس المصدر ، ص ٦٩ .

الهنود به فالزم السلاطين اشراف مكة بالايعاد تصدير البضائع الواردة اليهم
من المرجان الى الهند الا بعد ان ترسو السفن الهندية على ساحل جدة وكانت
قد صارت بندر التجار بعد تحول النشاط التجارى ووصول سفن الهند والصين
اليها. (١)

والمرجان حجر نباتي وهو من خصائص اقليم المغرب والاندلس ومصادره
 فى قعر البحر الرومى " البحر المتوسط فى مرسى الخزر ^(٢) ومرسى سبتة
 وجزيرة صقلية ^(٣) كما يوجد المرجان فى مفاص البحر الاحمر فى اليمن ^(٤) .

والمرجان اذا اخرجته الغواصون من الماء ولاقى الهواء تحجر واحمر
ولا يزال غضا ليشا مادام فى منبته ومن خواصه ان الخل يذيبه والزيت
يودهن الجوز يظهر حسن لونه واشراقه ومن المرجان نوع ازرق وآخر ابيض (٥).

..... اللوء

من اجل الحلى قيمة وندرا ومن المصادر الاساسية فى تجارة شرق شبه الجزيرة العربية وتعد مياه الخليج من اهم مصايده (٦) ويوجد فى مياه جزيرة سرنديب ايضا (٧) وله مغاصات فى عمان والبحر الاحمر وافضله ما يستخرج

- (١) ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٣٧٤ ، السنجاري : منافع الكرم ، ج ٢ ، ص ١٢ .
- (٢) المقدسي : نفس المصدر ، ص ٣٣٩ .
- (٣) الدمشقي : نفس المصدر ، ص ٧٢ - ٧٣ .
- (٤) محمد الاكوع الحوالي : نفس المصدر ، ص ٩٨ .
- (٥) الدمشقي : نفس المصدر ، ص ٧٢ - ٧٣ .
- (٦) المسعودي : نفس المصدر ، ص ١٤٨ .
- (٧) ابن خرداذبة : نفس المصدر ص ٦٤ ، المسعودي : نفس المصدر ،
والجزء والصفحة .

من مياه الخليج، عمان وأرداه الهندي والقلزمى . (١)

واللؤلؤ من اصل حيوانى اجوده النقى المستدير وله نوعان :
كبير وسمى الدر وصغير ويسمى اللؤلؤ واحسن انواع الدر المستدير الصافى
الشفاف الذى يمتاز بالنقاء وكبر الجرم . وهو يتفاوت فى الوزن من نصف
مثقال الى مثقال ونصف .

واللؤلؤ له الوان بحسب ملاصقته لاعضاء الحيوان فمنه الاصفر والاحمر
والاخضر والازرق ويؤخذ من طبقات الصدف اللؤلؤى صفائح شبيهه باللؤلؤ
تسمى عروق اللؤلؤ . (٢)

والغوص على اللؤلؤ يكون فى اوقات معينة من السنة (٣) ويتحتمل
الغواصون مشقة كبيرة للحصول عليه ويتنافس التجار فى الحصول عليه رغبة فى
الارباح الجليلة التى تعود عليهم من تجارته . (٤)

المنسوجات

اشتهرت اسواق مكة وخاصة فى موسم الحج بوجود الانواع المختلفة من
المنسوجات التى يرد بها التجار من الشرق والغرب حيث تلاقى راجا عظيم
وتقام لها الاسواق العامة . (٥)

(١) القلقشندى : نفس المصدر ، ج١ ، ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

(٢) الدمشقى : نفس المصدر ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(٣) المسعودى : نفس المصدر ج١ ، ص ١٤٨ .

(٤) المقدسى : نفس المصدر ، ص ١٠١ .

(٥) الطبرى : القرى القاصد ام القرى ، ص ٥٣٤ ، البلوى : المصدر السابق ،

والحق ان ايام موسم الحج كانت تمثل قمة النشاط التجارى المزدهر فى مكة وكان لذلك اعظم الاثر فى ان تتبوأ المكانة العالية فى الميـدان التجارى . وكان من الطبيعى ان تصدر قائمة المنسوجات الاقمشة الحريرية والكتانية والقطنية والصوفية التى صنعت فى مصر وقد امتازت جميعها بالجودة والدقة وثبات الالوان . (١)

والجدير بالذكر ان صناعة النسيج وتجارته لقيت تشجيعا كبيرا فى الاقطار الاسلامية ففى مصر انتشرت دور الطراز الخاصة والعامة (٢) .

وظهر التأثر بالطراز الصينى فى بعض المنسوجات المملوكية وخاصة فى الاقمشة الحريرية التى تعرف باسم " الكمخة " وصدرتها مصر فيما صدرت الى اوربا وغيرها كما زينت الثياب الكتانية بفرز من الحرير الفايق الدقة (٣)

واشتهرت مصر كذلك بصناعة الفرش والستور والخيام والفسطاط والحيال (٤)

غير ان الاهتمام بالانتاج المحلى اخذ يقل فى العصر المملوكى الثانى نتيجة لشراء الدولة بعد تحول التجارة الى طريق البحر الاحمر اذ فتح باب التعامل المباشر مع الصين ووصلت عن هذا الطريق الانواع المختلفة الفخمة من الثياب والمناديل والقطنيات والحرير والشيلان . (٥)

(١) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٢٠٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ، ص ٣٢٧ ،

سعيد عاشور : العصر المملوكى ، ص ٢١٩ .

(٢) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ، ص ٢٤٥ .

(٣) آرنست كونل : الفن الاسلامى ، ترجمة احمد موسى ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ١١٩-١٢٠ .

(٤) السيوطى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٢٦-٣٢٦ ، سعيد عاشور : نفس المرجع والصفحة

(٥) نعيم زكى : نفس المرجع ، ص ٢٤٥ .

وكانت المنسوجات تصل الى جدة باعتبارها الميناء الرئيس لهذه التجارة فى البحر الاحمر حيث يتم التوزيع الى مكة المكرمة او يعاد تصديرها وتوزيعها لتصل الى مصر والشام وفارس والعراق والمغرب والاندلس (١). وقد اختص كل اقليم من تلك الاقاليم بصناعة نوع أو أكثر من المنسوجات التى ربما نسبت اليها مثل الموسلين نسبة الى الموصل والحريير الدمقس نسبة الى دمشق اما اقليم فارس فقد اشتهر بالثياب الكندكية والقصب والديباج والكتان والاكسيه البركانات والمنيرات ولها قدرة على تحمل الكد مع رقة وحسن وثياب القز والوشى والستور المثلثة والابريسمية والفروش الرفيعة والمناديل الثرابية والمخملية التى تحمل الى الافاق (٢) وثياب الحرير من الفخ والكمخة (٣).

وتاجرت العراق فى الخز والبز والثياب الرفيعة الكتانية والقصب وثياب القز الملونة وثياب الصوف العسلية الحسنة الصنع والصوف التكريتى والازر، والعمائم الفاخرة والمناديل القصرية والبويسية والستور الواسطية (٤) كما اشتهرت ثياب الموسلين المنسوبة الى الموصل (٥).

واشتهر اقليم الديلم بصناعة المناديل البيض الفاخرة من القطن المعلم وحمل منها الى اليمن المقائع القز وثياب الخيش المحمولة الى الافاق ويباع منها بمكة شئ كثير وبها اكسية وطيالس تفضل على الفارسية (٦).

ونقلت المغرب والاندلس متاجرها من الثياب الصوفية والاكسية والثياب الجيدة والبز الكثير (٧).

-
- (١) ابن جبير : نفس المصدر ، ص ٩٧ ، البلوى : نفس المصدر ج ١ ، ص ٣٠٨ .
 - (٢) المقدسى : نفس المصدر ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .
 - (٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٣٧٤ .
 - (٤) المقدسى : نفس المصدر ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .
 - (٥) نعيم زكى : طرق التجارة ، ص ٢٤٥ .
 - (٦) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٣٦٧ .
 - (٧) المقدسى : نفس المصدر ، ص ٣٣٩ .

وينبغى الإشارة الى ان الثياب البيضاء كانت تجد رواجاً كبيراً فاهل مكة اكثر لباسهم البياض (١) وعلاوة على القماش الابيض كان الطلب يتزايد على القماش الازرق والشاش والازر (٢) والانسجة الحريرية الهندية والشامية (٣) وكان اهل مكة يزينون الهودج بقلائد من الحرير والاستار المزركشة التى تسحب الى الارض عند خروجهم الى العمرة . (٤)

المواد الغذائية.....

تغلبت مكة على ظروف البيئة الشحيحة واستثمرت موقعها وعلاقاتها الاقتصادية الخارجية والاقليمية باعتبارها قبلة المسلمين لسد النقص الذى تعاني منه فى الموارد الغذائية فقامت حركة تجارية متواصلة فى مجموعة من الطرق العرضية والطولية . واصبحت اسواق مكة مركزاً لحركة اقتصادية مزدهرة تفشاها القوافل المحملة بمختلف السلع .

ومن اهم السلع الغذائية فى اسواق مكة الحبوب وتأتى فى مقدمتها الحنطة وهى انواع اجودها ما يعرف عندهم بالحنطة القيمية وأردأها المابيه (٥) ثم الذرة والشعير والدخن " الذرة الشامية " وتعود اهميتها الى كونها اساس الطعام لاهل مكة فى ذلك الوقت وكانت شحنات الغلال والدقيق تصل الى مكة من السراة (٦) معدن الحبوب والخيرات . (٧) ومن اليمن وسواكن (٨) وزيلع (٩)

-
- (١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٣ .
 - (٢) ابن طولون : مفاكهة الخلان ج ١ ، ص ١٣٥ ، ٣٥٣ .
 - (٣) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .
 - (٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٠٧ .
 - (٥) الفاسى : تحصيل المرام ، ق ١٩٥ .
 - (٦) ابن جبير : نفس المصدر ، ص ١٠٠ ، ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .
 - (٧) المقدسى : نفس المصدر ، ص ٨٩ .
 - (٨) الفاسى : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ - ٢٧٧ .
 - (٩) الجزيرى : درر القوائد ، ص ٣٣٩ .

ومن مصر وبلاد الشام . (١)

ويتعجب الرحالة من توفر الازراق وانواع الفواكه بمكة على الرغم من جفافها وندرة الامطار بهــــــــــــــــا وكونها في واد غير ذي زرع .

يقول ابن جبير " كنا نظن ان الاندلس اختصت من ذلك بمزية على سائر حطوط البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فالفيهاها تفص بالنعيم والفواكه كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والاترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار الى جميع البقول كلها كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرب ويعقب على ذلك بقوله " واكثر هذه البقول كالباذنجان والبطيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام " . (٢)

ويقول ابن بطوطة " لقد اكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظيره في الدنيا كذلك البطيخ المجلوب اليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة . (٣)

ويصل اكثر هذه الفواكه والخضر الى اسواق مكة من الطائف (٤) ومن بساتين حول مكة يزرع بها مختلف الاشجار حتى التمر هندي (٥) ومن وادي نخلة وبطن مر (٦) ومن المدينة المنورة التي اشتهرت ببساتينها وكرومها . (٧)

-
- (١) المقرئى : السلوك ، ج٤ ، ص ٦٣١ .
 - (٢) ابن جبير : نفس المصدر ، ص ١٧ .
 - (٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٢٦ .
 - (٤) المقدسى : نفس المصدر ، ص ٧٩ ، ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٢٦ .
 - (٥) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٧١ .
 - (٦) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٢٦ ، " بطن مر " وادي فاطمة حاليا " ، حمد الجاسر : مجلة العرب ج١ السنة الثانية رجب ١٣٩٣ آب اغسطس ١٩٧٣ ص ٣٥ .
 - " وادي مخلة واديان نخلة الشامية ونخلة اليمانية يلتقيان فيكونان وادي واحد في بطن مر ياقوت : المعجم ، ج١ ، ص ٤٤٩ .
 - (٧) الحسينى : الجواهر الثمينة ، ق ٦٠ أ .

(١) ومن المواد الهامة السكر وقصب السكر ويحمل اليها من الشام ومصر وخوزستان وكانت الاخيرة تعد اكبر مراكز انتاجه يقول المقدس : والتجارات به مفيدة لان كل سكر تراه ببلدان الاعاجم والعراق واليمن فمن ثم (٢)

وموطن قصب السكر الاصلى الهند والشرق الاقصى (٣) ويرجع للمسلمين الفضل فى نشر صناعة السكر وتطويرها وفى نقل زراعة القصب الى العراق وبلاد الشام ومصر والاندلس وعنهم انتقل الى الشرق والغرب . واكثر السكر واجوده يصل من مصر وخاصة من صعيدها . (٤)

وافضل السكر الابيض الشفاف وعتيقه ألطف من جديده ويدخل السكر وقصب السكر فى تركيب بعض العقاقير الطبية . (٥)

كما كانت اسواق مكة تغطى المنتجات التهامية من السمن والزبيب الاسود ، والاحمر والزيت واللوز وغيرها . (٦)

ويحمل من مصر الطير الى البلدان فى الشرق والغرب والاسماك المملحة (٧)

وشملت قوائم المواد الغذائية التمور على اختلاف اشواعها ومصادرها

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٨ .

(٢) المقدس : احسن التقاسيم ، ص ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢٠٣ ، ٤١٦ .

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٦ .

(٤) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ، ص ٢٤٢ .

(٥) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٢٧٥ .

(٦) ابن جبير : نفس المصدر ، ص ٩٨ ، ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٦٠ ، الورشيلانى :

نزهة الانظار ، ص ٤٤٣ .

(٧) السيوطى : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٣٢٧ .

ولا نظير لثمانية اجناس تمرور صيحاني المدينة وبردى المروة ومسقر ويلة ومصين عمان ومعقلى البصرة وازد الكوفة وانقلى صغر وكرماشانى كرمان . (١)

ولقيت تمرور المدينة سوقا رائحة وعدت من اجل الهدايا التى يحملها الحجاج والمعتمرون يقول الحسينى " ومازال الناس يهدون تمر المدينة المنورة الى الافاق ويتبارك به كل محب مشتاق . (٢)

والتصر من اكثر الثمار تغذية للبدن وهو فاكهة وغذاء ودواء وشراب وحلوى وهو مقوى للكبد وملين للطبع وأكله على الريق يقتل الدود وله فوائد جمّة . (٣)

وشبت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : " من تصبّح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره فى ذلك اليوم سم ولا سحر . " (٤)

وقد استخدم اهل مكة سعف النخيل الذى كان يجلب لهم من المدينة وينبع (٥) وغيرها فى صناعة المراوح والحصير والزناجيل وهى من السلع المتداولة فى مكة

وتشير سجلات تجارة الشرق فى العصور الوسطى الى الحصر باعتباره من السلع المطلوبة فى مدن بحر الحجاز وتمدنا بتفصيلات عن صناعته وصفاته واسعاره . (٦) ولا تزال هذه الصناعات اليدوية البسيطة مستمرة حتى وقتنا الحاضر عند بعض سكان القرى ولكن بشكل ضئيل جدا وذلك لمنافسة السلع الحديثة الراقية .

(١) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٤٧٠ .

(٢) الحسينى : المصدر السابق ، ورقة ١٦١ .

(٣) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

(٤) البخارى : الصحيح ، ج ٦ ، ص ٣١٢ .

(٥) احمد السباعى : تاريخ مكة ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(٦) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ١٣٨ .

البن

وتجدر الإشارة هنا الى البن الذى انتشر فى اوائل القرن العاشر الهجرى ونال شهرة واسعة فى اليمن وكان مبدأ ظهوره فيها ثم مكة وبلاد الحجاز ثم فى الشام ومصر ثم فى سائر البلاد، وكان الاقبال شديدا على احتساء القهوة التى من خصائصها انها تبعث الانتعاش والنشاط فى الاعضاء علاوة على تأثيرها القوى فى تخفيف الدماغ واجتلاب السهر .

ونظرا لشدة تأثيرها فقد اصبحت مثار جدل العلماء فى ذلك الوقت حتى ذهب بعضهم الى تحريمها غير ان أكثر العلماء يميلون الى الاباحة فهى مباحة فى نفسها كما انها معينة على السهر فى العبادة ويستعين بها الطلبة كثيرا فى المطالعة الليلية . (١)

ويذكر ابن العماد الحنبلى ان اول من عرف شرب القهوة هو احد علماء اليمن واسمه ابو بكر بن عبد الله الشاذلى وان اصل اتخاذه لها انه مرفى سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرته فعرف فوائده واتخذه قوتا وطعاما وشرابا وارشد اتباعه اليه ولم يلبث ان اصبح من السلع التجارية المتداولة والتى يكثر الطلب عليها . (٢)

المواشى والخيول والجمال

وتزدهر تجارة المواشى فى مكة وخاصة فى موسم الحج فتذبح اعداد كبيرة منها هديا واضاحى اقتداء بنبى الله ابراهيم عليه السلام وامثالاً لامر الشريعة الفراء وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال فى الاضحية : " لصاحبها بكل شعرة حسنة ويروى بقرونها " كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم انه ضحى بكبشين أقرنين املحين

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب، ج ٨، ص ٣٩-٤٠، الورشيلانى : المصدر

السابق، ص ٢٦٧ - ٢٦٩ .

(٢) ابن العماد الحنبلى : نفس المصدر والجزء، ص ٣٩ .

ذبحهما بيده وسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما". (١)

ويذكر الرحالة ان اللحوم التى فى مكة تفضل غيرها فى جميع الاقطار فى لذة الطعم وأن لبركة مراعيها اثرها على سمن المواشى . (٢)

وبطبيعة الحال يمكننا ان نعد الصوف والوبر والجلود المدبوغة من أهم صادرات مكة نتيجة لازدهار هذه التجارة فيها خاصة بعد الموسم ويبدو انهم كانوا يستفيدون ايضا من الصوف والوبر فى بعض الصناعات اليدوية البسيطة كالسبط والخيام وغيرها .

وقامت مكة بدور الوسيط فى تجارة الخيول والجمال فى شبه الجزيرة العربية وقد اهتم سلاطين المماليك بتربية الخيول واقتناء افضل السلالات منها ودفع المبالغ الباهظة للحصول عليها من آل مهنا فى شمال شبه الجزيرة وتنافس أهل البحرين والحسا والقطيف والحجاز فى جلب كرائم خيولهم الى سلاطين المماليك وقد تراوحت اسعار الخيول التى دفعها السلطان الناصر محمد بين عشرة آلاف وثلثين ألف درهم ، عدا الثياب الفاخرة والمسكن وغير ذلك . (٣)

وكان يتم تصدير الخيول الى الهند عن طريق اليمن وغيرها وكانت المتاجرة فيها تدر ارباحا طائلة . (٤)

ويذكر المقرئى ان شريف مكة رميثة ابن ابي نمى قدم للسلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون عندما حج سنة ٧٣٢هـ مائة فرس وألف رأس من الغنم فرد الجميع واخذ منها فرين لا غير . (٥)

-
- (١) الترمذى : المصدر السابق ج٣ ، ص ٢٦ .
 - (٢) ابن جبير : المصدر السابق ص ٩٨ - ٩٩ ، ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٢٦ .
 - (٣) المقرئى : الخطط ، ج٣ ، ص ٦٩ .
 - (٤) على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ، ص ٢٥١ .
 - (٥) المقرئى : السلوك ، ج٢ ، ص ٣٥٧ .

أما الجمال سفن الصحراء فقد كانت تجارتها واسعة وهي مطلوبة دائماً لنقل البضائع والمسافرين في الطرق البرية التي تربط أرجاء شبه الجزيرة العربية بعضها ببعض وكانت بلاد الشام مركز تصديرها كما نقلت الهجن من بلاد السودان إلى جدة ومنها إلى مكة (١) وأجود الإبل البخاتي ذوات السنامين ومصدرها الأساس بلاد ما وراء النهر وفي مكة كانت الجمال توءج للحجيج والمعتمرين وغيرهم وقد يرتفع كراء الجمال في بعض السنين فيها إلى أربعين ديناراً (٢).

كل هذه المتاجر وكثير غيرها كانت تنقلها مكة وتتاجر فيها فصارت
منتدى التجار ومجمع تجارتهم واتسعت دائرة النشاط التجارى فيها وعم الرخاء
سائر ديار الاسلام .

أسباب الغسل.....

لا يخفى على دارس تاريخ مكة المكرمة ذلك التآرجح الكبير فى اسعار
سلعها فعلى الرغم من كونها ملتقى الصادر والوارد ومجمع المتاجر الشرقية
والغربية وعلى الرغم من تمتعها بالمركز الرئيسى فى تجارة بلاد الحجاز
فانها شأنها شأن اى مدينة تجارية كان لابد ان تتأثر بما يتأثر غيرها مـسـن
ظروف وازمات من شأنها ان تؤدى الى تفاوت اسعار السلع والبضائع زيادة ..
ونقصا غير ان الغالب على اسعارها الغلاء خاصة فيما يتعلق سلاقيات ويمكننا ان

(١) المقريزي : السلوك : ج ٤ ، ص ٧٩٨ .

(٢) المقریزی : السلوك ج٤ ، ص ١١٩٣ .

نوجز اسباب ذلك فى عدة نقاط منها :-

اولا - تعد المجاعات وانتشار القحط والابوثة من اهم العوامل الطبيعية التى كثيرا ما تسببت فى ارتفاع الاسعار ولعل القحط الذى اصاب الحجاز فى سنة ٦٦٣هـ واستمر حتى سنة ٦٦٨هـ لم يسمع بمثله فى ذلك العصر فقد دام خمس سنوات واشتدت وطأته على الناس وعمهم الغلاء والبلاء وهم صابرون محتسبون^(١)

وفى سنة ٧٢٢هـ توقف نزول المطر واشتد جذب مكة وعدمت الاقوات وتزايد الغلاء فبلغت غرارة^(٢) الحنطة خمسة وعشرين دينارا^(٣) والذرة قريبا من ذلك وعم الغلاء سائر المأكولات وارتفع سعر السمن ارتفاعا فاحشا^(٤) ويشير ابن فهد الى قسوة هذا القحط واثره فى تعطيل الصنائع بقوله : "وهللك الفقراء وافتقر الاغنياء وكان الموجود فى الاسواق الفول والحمص والعدس فأكلها الناس وبلغت ويبة^(٥) الفول اربعة عشر افلوريا^(٦) والحمص سبعة عشر افلوريا^(٧) واستسقى الناس ثلاثا فلم يسقموا واضطر شريف مكة عطيفسة الى السفر الى مصر واخبر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بقحط مكة فأمر السلطان بارسال ألف أردب الى مكة فلما وصلت الغلال تصدق بها وانحلست الاسعار ثم اغيىث الناس .^(٨)

وتعد سنة ٧٦٦هـ من سنى الشدة بمكة حتى انها سميت بسنة ام جرب " لان المواشى عمها الجرب واستسقى الناس بالمسجد الحرام فلم يسقوا ثم ادخلت

-
- (١) الفاسى : شفاء الفرام ، ج٢ ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .
 - (٢) الفرارة : = ٤٠ ريبعا مكيا = ١٢٥٠ اردب مصرى .
 - (٣) ابن حجر : ابناء القمر ، ج٣ ، ص ١٠٣ .
 - (٤) الفاسى : تحصيل المرام ، ق ٩٥ أ .
 - (٥) الويبة : مكيال للحبوب ، سعة سدس الاردب .
 - (٦) الافلورى : عملة ذهبية فى ضرب فلورنسا " انظر النقود " .
 - (٧) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٥٥ .
 - (٨) المقرئى : السلوك ج٢ ، ص ٢٣٨ .

المواشى المسجد الحرام للاستسقاء وجعلت فى اتجاه مقام المالكية وما يسر الله لهم سقيا ويقال ان الناس بمكة قد اكلوا لحم بعض الحمير الميتة (١) واشتد الغلاء (٢) وتوقفت حال السوق واقتربت مكة من سكاها بسبب هلاك اكثرهم جوعا ونزوح الكثير عنها (٣) ويذكر ابن فهد " ان غرارة الحنطة بلغت ستمائة وثمانين والذرة اربعمائة وازيد وعدم الحب واقام السوق نحو الشهر لم يوجد به حب ولا تمر الا قليل من اللحم والخضر (٤) عندما وصل خبر هذه الشدة الى السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون سارع فى ارسال القمح الى مكة برا وبحرا فوصل ألفا اردب قسمت على الاهالى ثم توالى ارسال الموءن فى البحر حتى بلغ مجمل ما حمل الى مكة اثنى عشر ألف اردب فعمم النفع وفرج على الناس وانتعشت احوالهم . (٦)

ويذكر الفاسى ان اعظم غلاء شاهده بمكة كان سنة ٧٩٣هـ فقد بيعت غرارة الحنطة بخمسمائة واربعين درهما كاملية (٧) واكل الناس سائر الحبوب واختبزوها (٨) وجاء هذا الغلاء مصحوبا بانتشار الوباء الذى راح ضحيته كثير من الناس حتى انه كان يموت بمكة فى اليوم الواحد اربعون شخصا . (٩)

- (١) الفاسى : تحصيل المرام ، ق ٩٤ ، شفاء الغرام ج ٢ ، ص ٢٧٤ ، العقد الثمين ج ١ ، ص ٢٠٩ .
- (٢) ابن العماد : المصدر السابق ج ٦ ، ص ٢٠٧ .
- (٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ، ص ٩٧ ، ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٣٠٣ .
- (٤) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٠٣ .
- (٥) الفاسى : تحصيل المرام ، ق ٩٤ ، شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ ، العقد الثمين ج ١ ، ص ٢٠٩ .
- (٦) المقرئى : المصدر السابق ج ٣ ، ص ٩٧ ، ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٣٠٣ .
- (٧) نسبة الى السلطان الايوبى المالك الكامل انظر النقود .
- (٨) الفاسى : تحصيل المرام ، ق ٩٤ ، ب ، العقد الثمين ، ج ١ ، ص ٢١٠ ،
- ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٣١٧ .
- (٩) الفاسى : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

وكان عام ٨١٥هـ شديد الجذب على الناس غير انه كان اقل وطأة مما حدث عام ٧٩٣هـ (١) وارتفعت فيه اسعار الموئن حتى وصلت غرارة الحنطة عشرين افلوريا والتمر ثمانية مسعودية (٢) وبيع الدقيق كل وبة مصرية بافلورين عشرة دراهم والارز كل وبة بعشرة افلوريه ورطل البقسماط بعشرة دراهم فضة وعلف الدواب كل وبة بافلورى وبيعت البطيخة بافلورى وبما زاد وحمل الفلفل بمائتين وعشرين مثقالا من الذهب . (٣) والشعير كل وبة بدينارين ونوى التمر - ويسمى العضا - بدينار (٤) .

وقنت الناس وواصل الامام القنوت فى الصلاة شهرا ونحوه (٥) .

وانتشر الوباء فى مكة واوديتها سنة ٨٣٧هـ واشتد حتى بلغ عدد من يموت فيها (اى فى مكة) فى اليوم خمسين ما بين رجل وامرأة (٦) .

ويشير المؤرخون الى المجاعة والوباء الذى انتشر فى مكة سنة ٨٩٩ هـ وما صاحبهما من اشتداد القلاء (٧) الذى وصفه احدهم بالفلاء المهول حتى انسه مات من اهلها نحو من ألفين وخمسائة من شدة الجوع وانهم اكلوا الجيف

- (١) الفاسى : تحصيل المرام ، ق ١٩٥ .
- (٢) نسبة الى الملك المسعود صاحب اليمن - انظر النقود .
- (٣) ابن فهد المصدر السابق ، ص ٣٤٠ .
- (٤) ابن حجر : ابناء الغمر ج ٢ ص ٥٢٠ - ٥٢١ .
- (٥) الفاسى : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .
- (٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٥ ، ص ٤٣ .
- (٧) ابن اياس : المصدر السابق ج ٣ ، ص ٣٠١ ،
- ابن طولون : المصدر السابق ، ق ١ ، ص ١٥٣ .

والميتات. (١)

ثانيا - قد ترتفع الاسعار فى مكة نتيجة لسوء الاحوال الاقتصادية فى البلاد التى تمدها بالسلع والمواد الغذائية وبطبيعة الحال كان لابد ان تتأثر مكة بذلك لانقطاع وصول هذه السلع والمؤن - وفى سنة ١٦٩٤هـ قل فيضان النيل بمصر وترتب على ذلك فساد الزراعة وقلة المحصول فتزايد بها الغلاء واشتد البلاء ولم يكن ذلك قاصرا على مصر انما عم الجذب والقحط ممالك المشرق والمغرب والحجاز (٢) وتكرر ذلك عام ١٦٩٦هـ . (٣)

ومن ذلك ما حدث فى موسم سنة ٨١٦هـ فقد وقع الغلاء فى الخضر والحبوب حتى بلغ سعر البطيخة الكبيرة بافرنتى (٤) وازيد فى عرفة ومنى (٥) ووصلت غرارة الحنطة الى خمسة عشر افلوريا والذرة بنحو ذلك وبلغ المن من التمر الى النصف ثمانية مسعودية (٦) ويرجع القاسى سبب ذلك الى قلّة الغيث وعدم وصول الموءن من بلاد سواكن واليمن فقد كانتا تعانيان من سوء الاحوال الاقتصادية فقد تعرضت زراعة الذرة بسواكن لهجوم الجراد الذى أكل المزروعات فادى ذلك الى ارتفاع سعر الذرة فيها فكل غرارة مكية من الذرة بيعت بثلاثين دينارا وهذا سعر فاحش لم يعهد له هتيل من زمن طويل .

اما بلاد اليمن فبسبب الغلاء فيها يعود الى قلة الزرع بسبب قلة الامطار لان الزراعة فى بلاد اليمن تقوم اصلا على مياه الامطار فصار اهل مكة وسواكن

- (١) ابن اساس : المصدر السابق ج ٣ ، ص ٣٠١ .
- (٢) المقریزی : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨١٠ .
- (٣) ابن ایاس : نفس المصدر ج ١ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١ .
- (٤) الافرنسی : عملة ذهبية من ضرب البندقية - انظر النقود .
- (٥) الفاسی : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .
- (٦) ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

واليمن يجلبون الذرة من قرية صغيرة بقرب حلى . (١)

اما غلاء الاسعار سنة ٨٢٢هـ فقد كان عاما فى سائر المأكولات بمكة فبلغ الفول بأربعة عشر افلوريا والحمص بسبعة عشر (٢) وغرارة الحنطة عشرين افلوريا وأزيد والذرة قريبا من ذلك وفحش فى السمن لان المن فيه بلغ سبعة افرنتيا، ونصفا (٣) ولعل ذلك يعود الى سوء الاحوال فى مصر التى كانت تمتد مكة باكثر الغلال .

فقد حكى ابن حجر العسقلانى عن ذلك بقوله : " وكان سبب ذلك الغلاء بمصر ان النيل نزل بسرعة فزرعوا فى الحر على العادة فى السنين الماضية فأفسدت الدودة البرسيم وتأخر المطر فى الخريف والشتاء فى الوجه البحرى فلم تنجب الزروع وخرج السلطان (المؤيد شيخ المحمودى) الى سرحة البحيرة فأتلف شيئا كثيرا . (٤)

وفى سنة ٨٨٤هـ حدث الغلاء الذى عم اكثر البلاد كاليمن والشحر وحضرموت وزيلع والهند ودام الى سنة ستة وثمانين وثمانمئة . (٥)

ثالثا - ومن اسباب ارتفاع الاسعار الحوادث او الكوارث التى تعتبر من اسوأ الحالات التى تصيب التجار والتى كثيرا ما يتعرضون لها وخاصة فيما يتعلق بالسلع الاتية عن طريق البحر حيث الشعاب المرجانية التى قد تسبب فى اغراق كثير من المراكب العابرة فيه .

(١) الفاسى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٧٦-٢٧٧ .

(٢) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٣٢١ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ، ج١ ، ص ٢٠١ .

(٤) ابن حجر : المصدر السابق ج٣ ، ص ٢٠١ .

(٥) ابن الديبع : قرّة العيون ، ق ٢ ، ص ١٧١ .

ومن أسوأ الحوادث التي تعرض لها التجار القادمون الى مكة ما حدث سنة ٧٩٤هـ إذ انكسر في بندر جدة ستة وثلاثون مركبا كانت تحمل المتاجر من اليمن . (١)

كان لاشتداد الرياح البحرية سنة ٨٩٢هـ اثرها في ايقاف حركة المراكب والحاق الفرر بالكثير منها وقد انكسر بسببها في بندر عدن ثلاثة عشر مركبا وحدث مثل ذلك في الشحر وغيرها . (٢)

كما حدث طوفان كبير سنة ٩٠١هـ بنواحي الهند وادى الى اتلاف الكثير من الاموال والمتاجر وتسبب في اغراق اربعة عشر مركبا في بندر ديو منها اربعة للتجار العرب . (٣)

رابعا - لعل اهم اسباب الغلاء منذ بداية القرن العاشر الهجري وحتى سقوط دولة المماليك هو وصول البرتغاليين الى الهند وقيامهم باعمال القرصنة ضد السفن التجارية العربية يقول بانيكار : " وقد شرع دا جاما وعصبتة حتى قبل وصولهم الى ساحل الهند في ان يطبق بالقوة ادعاء مولاه انه " سيد الملاحة ومولاه " فكان يقطع الطريق دون اي تحذير على اية سفينة يلتقي بها في طريقه ويدمرها تدميرا وهو يصف أعماله بانها من أسوأ امثلة الارهاب والقرصنة فقد كان يتعرض لسفن مكة التجارية غير المسلحة فيلقى القبض عليها ويقوم بتفريغها من البضائع ثم يأمر باشعال النيران فيها فتحترق بمن فيها من بحارة وتجار . (٤)

(١) القاسي : العقد الثمين ج٦ ، ص ٢١٠ .

(٢) ابن الديبع : المصدر السابق ق ٢ ، ص ١٧٧ ، يحيى بن الحسين : المصدر السابق ق ٢ ، ص ٦٢٣ .

(٣) ابن الديبع : نفس المصدر ق ٢ ، ص ١٩٣ .

(٤) بانيكار : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

ونظرا لاعتقاد البرتغاليين ان استقرارهم فى الهند واحتكارهم للتجارة الشرقية لن يتم الا بالقضاء على تجارة المسلمين وتشديد وطأتهم فى ضرب التجارة الاسلامية قاموا بسد منافذ البحر الاحمر والخليج واستولوا على بعض السفن العربية وخصصوا قطعا من الاسطول البرتغالى للمرابطة بالقرب من باب المندب لغرض الحصار على البحر الاحمر والقضاء على تجارته (١) التى كانت جدة مركزا لها .

ويشير ابن اياس الى خطورة الوضع فى البحر الاحمر وتهديد البرتغاليين المباشر لامنه وتجارته بقوله : " تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركبا وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ويقطعون عليهم الطريق فى الاماكن المخيفة ويأخذون ما معهم من البضائع حتى عز وجود الشاشات والارز من مصر وغيرها من البلاد (٢)

خامسا - قد تكون الكثافة البشرية عاملا من عوامل الغلاء وبسبب جاذبية المركز الدينى لمكة المكرمة يظهر هذا العامل وهو يبرز فى اثناء قدوم المعتمرين للعمرة الرجبية - وفى موسم الحج وان كان الاخير يشكل فى معظم الاحيان مواسم الازدهار التجارية فى مكة حتى مع كثرة التجمع البشرى فالعناصر المرتبطة بالخصائص الطبيعية للمكان جعلت من الصعب الاعتماد على اهمية الموقع التجارى وحركة التجارة التى قد تتأثر فى بعض الاحيان بعوامل معينة تؤدى الى نقص الواردات وفى هذه الحالة - لم تكن التجارة - وخاصة فى هذه المنطقة القاسية من الناحية الطبيعية قادرة على كفاية الاعداد المتزايدة علاوة على انعدام التخطيط المسبق لمواجهة مثل هذه الحالة ولعل هذا ما يفسر شدة الغلاء سنة ٦٥١هـ يقول الجزيرى : " وجاء الى الحج عالم كبير من البر والبحر لم يسمع مثله فيما مضى وحمل للناس ايام الموسم عيش شديد . " (٣)

(١) محمد عبد العال : البحر الاحمر ، ص ٧٩ .

(٢) ابن اياس : المصدر السابق ج ٤ ، ص ١٠٩ .

(٣) الجزيرى : المصدر السابق ، ص ٢٧٨ .

فالقاعدة هنا ان الطلب صار اكثر من العرض ووصل الامر الى ان بيعت الشربة من الماء بدرهم والشاه بأربعين درهما . (١)

ويلاحظ ان معتمري العمرة الرجبية فى سنة ٧٨٣هـ كانت اعدادهم كبيرة وكان لذلك اكبر الاثر فى زيادة الاسعار وحدوث الغلاء بمكة فقد ارتفعت اسعار جميع المواد الغذائية ووصلت قيمة الويبة من الدقيق عشرين درهما والشعير من عشرين الى ثلاثين درهما ثم ارتفعت الاسعار بعد قدوم الحاج فى السنة نفسها فبلغت الويبة من الدقيق خمسين درهما وازيد والويبة من الشعير اربعين درهما وعظمت المشقة على الناس من غلاء الاسعار . (٢)

وكان لكثرة المجاورين سنة ٨٤٣هـ اثر كبير فى ارتفاع الاسعار لدرجة ان كراء الجمل على سبيل المثال بلغ اربعين دينارا . (٣)

سادسا - لعل انعدام الامن بسبب الاحوال السياسية المتردية فى بعض الاحيان من اهم العوامل التى كان لها اثر كبير فى ارتفاع الاسعار بل فى فرار التجار من مكة فالتنافس بين الاشراف على الحكم من جهة وسوء العلاقات بين الاشراف وسلطان مصر او صاحب اليمن من جهة اخرى فى بعض الفترات كل ذلك كان له اسوأ الاثر فى الحياة الاقتصادية فى مكة فتنتقطع عنها الاقوات ويقل وجود الموءن ومن ابرزها الغلاء الذى حدث نتيجة لذلك سنة ٧٠٧هـ بمكة وكان سببه ان صاحب اليمن الموءيد قطع الميرة عن مكة لجفوة بينه وبين شريفى مكة رميثة وحميضة . (٤)

(١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ، ص ٣٠ ، الجزيرى : نفس المصدر والمضفة

احمد السباعى : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢١٨ .

(٢) المقرئى : المصدر السابق ج٣ ، ص ٤٦٠

(٣) المقرئى : نفس المصدر ج٤ ، ص ١١٩٣ .

(٤) الفاسى : شفاء الغرام ج٢ ، ص ٢٧١ ، ٢٧٣ .

وقد تأثر النشاط التجارى حتى سنة ٧١٢ هـ وقل ورود التجار الى مكة بسبب سوء معاملة الشريفين لهم وتعرض اموالهم للنهب والسلب فقل الوارد وارتفعت الاسعار . (١)

وفى سنة ٧٣٠ هـ هاجم بعض الاشراف الطامعين فى الامارة مكة واشتبكوا مع الركب العراقى فى قتال شديد ودخل الفرسان بخيلهم الى المسجد الحرام ٠٠٠ ونهبت الاسواق وعم الغلاء وكانت فتنة عظيمة . (٢)

ولعل ارتفاع الاسعار والغلاء الذى استمر منذ عام ٧٥١ هـ حتى عام ٧٦٠ هـ يعد من اقصى الاحوال الاقتصادية التى شهدتها مكة حتى اضطر الناس والتجار فى النهاية الى الخروج منها والفرار بأنفسهم واموالهم وكان سبب ذلك جور الاشراف وظلمهم وكثرة الفتن التى ادت الى تدهور الاوضاع الداخلية وتفاقمها^(٣) يضاف الى ذلك المقاطعة الاقتصادية التى فرضها صاحب اليمن للانتقام من اشراف مكة . (٤)

وبسبب الفتنة التى حدثت سنة ٨٩٨ هـ ارتفعت الاسعار بشكل فاحش حتى بلغ سعر حمل الدقيق ثلاثين اشرفيا ورطل الخبز بمحلق وكذلك البقسماط والفلول كما اشتد الغلاء فى عرفة ومنى . (٥)

وايا ما كان الامر فقد احتلت مكة مكانة تجارية مرموقة وكانت درة عقد الاسواق التجارية وكان تأثير الغلاء عليها موقوتافى معظم الحالات وهذا مما اتاح الفرصة لاستمرار الحفاظ على تلك المكانة التجارية الكبيرة التى كان للعامل الدينى اكبر الاثر فى الابقاء عليها وتوطيدها .

-
- (١) الفاسى: العقد الشمين ج٤، ص ٤٠٦، الجزيرى : نفس المصدر ، ص ٢٩٣-٢٩٤ .
 - (٢) ابن ايبك : كنز الدرر ج٩، ص ٣٥٣، ٣٥٤ ، ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٢٨٨ .
 - (٣) الفاسى شفاء الفرام ج٢ ، ص ٢٧٣-٢٧٤ ، ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٣٠٣ .
 - (٤) المقرئى : السلوك ج٢ ، ص ٨٦٧ .
 - (٥) الجزيرى : المصدر السابق ، ص ٣٤٥ .

الفصل الرابع

المكوس والمعاملات التجارية

- العشور والمكوس التجارية وطرق جبايتها.
- المعاملات التجارية.
- أنواع النقود والقيم النقدية.

العشور والمكوس التجارية وطرق جبايتها "

نظمت الشريعة الإسلامية النظام المالى .. ووضعت من التشريعات ما يصون التوازن الانسانى ويحقق العدالة الاجتماعية والأحوال الاقتصادية وفق تقرير العليم الخبير من منع للاحتكار الى نهى عن الربا ومن تنظيم للمعقود الى تحريم للغش ومن أمر بحسن المعاملة الى حذر على الصدق والامانة والوفاء فى الكيل والميزان ومن نهى عن اكتناز الاموال الى أمر واجب بالزكاة والبذل ، ودعوة الى التكافل ، واشاعة الحب والخير .

وتعد العشور من أهم ما فى النظام المالى الاسلامى وهى تتنوع بتنوع الحاجات الاجتماعية فى الدولة الاسلامية ويتصل منها بالتجارة ما يدفعه التجار المسلمون زكاة وتسمى ايضا الصدقة

والزكاة فى اللغة النمو والبركة وكثرة الخير ، يقال زكا الزرع اذا نما ، وزكا المال اذا كثر . وهى شرعا ايتاء جزء من النصاب الحولى الى فقير (١) ... وتطلق على التطهير ، قال تعالى : " قد أفلح من زكاهها " (٢) أى طهرها . وتطلق على المدح ، قال عز وجل : " فلا تزكوا انفسكم هو أعلم بمن أتقى " (٣) أى تمدحوها .

والزكاة من الموارد الشرعية الثابتة فرضت على الاغنياء والقادرين وهى واجبة بالكتاب والسنة والاجماع . والقرآن يشن على الذين يعطونها بقوله تعالى : " الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم سيم ينفقون " (٤)

(١) العينى : عمدة القارى ، ج٨ ، ص ٢٢٣ .

(٢) سورة الشمس : آية ٩ .

(٣) سورة النجم : آية ٣٢ .

(٤) سورة البقرة : آية ٣ .

وقال عز وجل : " والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم " (١) أى نصيب معين يستوجبونه على أنفسهم تقربا الى الله تعالى واشفاقا على الناس ، من الزكاة المفروضة والصدقات الموظفة للسائل الذى يسأل والمحروم الذى لا يسأل فيظن أنه غنى فيحرم . (٢)

والزكاة تطهير للمال وتزكية له لقوله تعالى : " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم " (٣) ويقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : " ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات " (٤) وهذا تهيج الى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها وأخبر تعالى أن كل من تاب الى الله تاب عليه ومن تمدق بصدقة من كسب حلال فان الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيهها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد كما جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٥) وجاء فى تفسير قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم " (٦) أى من طيبات ما رزقكم من الاموال ، يعنى التجارة فالله سبحانه أمر بالانفاق من أطيب المال واجوده وأنفسه ، ونهى عن رديل المال او خبيثة فان الله طيب لا يقبل الا طيبا (٧) ويختتم الله سبحانه الآية بقوله : " واعلموا أن الله غنى حميد " أى وان يأمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غنى عنها ، وما ذاك الا أن يساوى الغنى الفقير . (٨)

(١) سورة المعارج : آية ٢٤ - ٢٥ .

(٢) ابو السعود : تفسير ابو السعود ، ج٥ ، ص ٣٩٢ .

(٣) سورة التوبة : آية ١٠٣ .

(٤) سورة التوبة : آية ١٠٤ .

(٥) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج٢ ، ص ٣٦٧ .

(٦) سورة البقرة : آية ٢٦٧ .

(٧) ابن كثير : نفس المصدر ، ج١ ، ص ٣٢٠ .

(٨) ابن كثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٢١ .

مقولته : " لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم " (١)
ولقد جاء في الاثر عن سمرة بن جندب قوله : " ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذي نعد للبيع " (٢)
ومقادير الزكاة وتحديداتها جاءت بنص السنة المطهرة فقد قال عليه الصلاة والسلام : " هاتوا ربع العشر من كل اربعين درهما ٠٠٠ درهما " وعن ابن عمر وعائشة رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأخذ من كل عشرين ديناراً ، فصاعداً نصف دينار ٠٠٠ ومن الاربعين دينار ٠٠ ديناراً وعن عائشة رضي الله عنها انها قالت " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول " (٣) وبناءً على ذلك فزكاة المال مقدارها ٢ ٪ وكذلك الذهب والفضة ونصابهما مثلاً درهم من الفضة أى ما يعادل ٥٩٥ جراماً ، أو عشرون مثقالاً من الذهب أى ما يعادل ٨٥ جراماً والزكاة يخرجها التاجر المسلم بدون تذمر ولا ملل لعلمه بانها حق اجتماعي وليست منه واحساناً امثالاً لقوله عز وجل : " يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والاذى كالأذى ينفق ماله رياءً الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثلهم صفوان ^{كثير} عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً " (٤) .

وكان تجار الكارمية يدفعون زكاتهم للدولة تقديراً منهم لرعايتها لهم ولتجارتهم في البر والبحر . (٥)

والتاجر اذا كتم زكاة ماله وأخفاها عن العامل مع عدله أخذها العامل منه اذا ظهر عليها ونظر في سبب اخفائها فان كان ليتولى اخراجها بنفسه لم يعزره وان اخفاها ليعفلها — ويمنع حق الله منها عزه ولم يفرضه

(١) سورة الحج : آية ٣٧ .

(٢) ابو داود : السنن ، المجلد الاول ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

(٣) ابن ماجه : السنن ، المجلد الاول ، ص ٥٧٠ - ٥٧١ .

(٤) سورة البقرة : آية ٢٦٤ .

(٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٣ - ٧٤ .

زيادة عليها ، وقيل يأخذ منه شطر ماله لقوله صلى الله عليه وسلم : " من غل صدقة فأنا آخذها وشر ماله عزمة من عزمات الله ليس لآل محمد فيها نصيب ... " وقوله : " ليس في المال حق سوى الزكاة " . (١)

وتشير المصادر التاريخية الى انه في جمادى الآخرة من سنة ٨٢٧ هـ عقد السلطان برسباى مجلسا بحضور القضاة الاربعة ومشايخ العلم ، وسألهم عن جواز أخذ الزكاة من التجار ، ووقع الجدل في ذلك ، وانفصل الامر على أن التجار يوءدون الى السلطان من المكوس أضعاف مقدار الزكاة ، وهم مأمونون على ما تحت ايديهم من الزكاة . غير ان القاضي الحنفى زين الدين التفهنى قال : " مرجع جميع الاموال في اخراج الزكاة الى اربابها الا زكاة التجارة فللامام أن ينصب رجلا يقيم على الجادة يأخذ من المسلمين ربع العشر ومن اهل الذمة ، نصف العشر ، ولا يوءخذ من المسلم في السنة اكثر من مرة " (٢) وشم انقض المجلس وبطل ما راموه من أخذ أموال الناس (٣) ولعل القاضي الحنفى رجع في فتواه الى ما حدث زمن عمر بن الخطاب عندما كتب اليه أهل منبج ومن وراء بحر عدن يعرضون عليه أن يدخلوا بتجارتهم أرض العرب ولهم العشر منها فشاور عمر في ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فأجمعوا على ذلك فهو أول من أخذ منهم العشر . عن انس قال : بعثنى عمر وكتب لى أن أخذ من أموال المسلمين ربع العشر ومن أموال أهل الذمة اذا اختلفوا بها للتجارة نصف العشر ومن أموال أهل الحرث العشر " . (٤)

أما عن الموارد المالية وما كان مقررا على التجار بجدة ومكة فنذكر
منها ضريبة الربع التى يأخذها شريف مكة من التجار الذين تتعرض

(١) الماوردى : (ابو الحسن على بن محمد بن حبيب) الاحكام السلطانية ..

والولايات الدينية ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ، ص ١٢١ .

(٢) ابن حجر : ابناء الفجر ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ ، ابن اياس : بدايع الزهور ، ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ، ص ٩٣ .

(٤) ابن حنبل : المسند ، المجلد الثانى ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

مراكبهم للخراب ويصلحونها فى جدة ٠٠٠ وبلغ ما جى من تجار الكارم الذين انصلح مركبهم بقرب مكة سنة ٨٠٤هـ اكثر من خمسة وستين ألف دينار . وقد أدى هذا الامر الى تدمير التجار فسعوا فى عزل شريف مكة فى هذه الفترة وهو حسن بن عجلان . (١)

وفى سنة ٨٠٩هـ سأل تجار الكارم الشريف حسن أن ينجلوا بجدة لخراب مراكبهم فأجابهم بعد أن حصل له منهم ومن ولى أمر المكس بجدة نحو أربعين ألف دينار (٢) .

وفى سنة ٨١٣هـ أخذ من رسل صاحب بنجالة السلطان غياث الدين ما يساوى ثلاثين ألف دينار لان مركبهم انصلح فى بعض مراسى الشقات وكان صاحب بنجالة قد ارسلهم بهدية طائلة لاميرى مكة والمدينة وصدقة لاهل الحرمين ولعمارة مدرسة بمكة . (٣)

وحصل بجدة فى أوائل سنة ٨٢٣هـ خلل فى بعض مراكب الكارم عندما عزموا الى ينبع ، فأمرهم الشريف بالتنجيل ، فصالحوه فى ذلك بالفى افرنتسى وتوجه هذا المركب وغيره من مراكب الكارم وجلابهم الى ينبع ونجلوا بها وكان فى المراكب التى أخذت منها الفريسة حصل منسوب الى السلطان المملوكى الملك الموءيد او ما يسمى " بالمتاجر السلطانية " فغضب السلطان وكتب لصاحب مكة يعتب عليه ولوح له بما ازعج خاطره فأثر الشريف التنازل عن الامارة لولديه ابراهيم وبركات . (٤)

(١) الفاسى : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، ابن فهد : اتحاف الورى ص ٣٢٥ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ١٠٣ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٣٠ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

وكان هناك نوع من الجباية أو الضريبة السنوية يأخذه الاشراف في مكة من التجار لقاء حمايتهم يقول الفاسي " ان لكل من بنى حسن أو أكثرهم صاحباً من تجار مكة وغيرهم ، وله على التاجر نفع يأخذه منه في كل سنة فإذا أراد صاحب مكة أو أحد من بنى حسن التعرض للتاجر المذكور بطمع منع صاحبه من ذلك " (١)

ومن الموارد المالية مال من توفي بغير وريث أو ما يعرف بالمواريث الحشرية .. قال عليه الصلاة والسلام: " أنا وارث من لا وارث له ألك عانية وأرث ماله " .
وعنه انه قال : "من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ديناً فعلى وعلى الولاية ، من بعدى من بيت مال المسلمين " . (٢)

وتشير المصاد الى أن ورثة التجار كانوا يقدمون لاشراف مكة مبلغاً من المال عند وفاة مورثيهم وان كان الشريف أحمد بن عجلان قد تورع عن أخذه . (٣) وكانت المراسيم قد وردت منذ سنة ٨٤٣هـ بان جميع من مات بمكة من غير أهلها ليس لصاحب مكة في ميراثه شيء وأن ميراثه لصاحب مصر ١٠٠٠ وان صاحب مكة ليس له ميراث إلا من مات من أهل مكة . (٤) ثم قرر السلطان المملوكي سنة ٨٨١هـ أن يكون نصيب شريف مكة من مال من يموت بها وبجدة إذا لم تتجاوز التركة ألف دينار فإذا بلغت أكثر من ذلك تحول تركته للسلطان ومن مات وله وارث غائب يتحول أمر الحفاظ على تركته الى نائب السلطان في جدة وهو الذي يختتم على أمواله وليس القاضي . (٥) هذا وقد الزم السلطان

(١) العقائد الثمين ، ج٤ ، ص ١٥٤ .

(٢) ابن حنبل : المسند ، المجلد الرابع ، ص ٢٢٦ .

(٣) الفاسي : نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٩٦ .

(٤) ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٣٨٥ ، السنجاري : مناقح الكرم ج٢ ، ص ٥ .

(٥) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٤٧ .

الغورى أبناء أحد كبار التجار ويدعى عيسى القارى بعد وفاته فى مكة سنة ٩١٨هـ بمبلغ مائة ألف دينار فلما أظهروا تظلمهم رفعها الى مائتسى ألف دينار . (١)

وهناك نوع من الجباية " الضرائب " كان شريف مكة يفرضها على البلاد التى تعد من أعمال مكة مثل الطائف ووادى مر وغيرهما وتتراوح الجباية بين الاعتدال والارتفاع تمشيا مع الأحوال الأمنية وظروف العلاقات الخارجية وفى سنة ٧٥٥هـ وبعد تأزم العلاقات اليمنية الحجازية نتيجة لما حدث للملك المجاهد مع صاحب مكة فى موسم الحج ومنعه للتجار من السفر الى مكة قل ما بيد الشريف عجلان فاتجه الى وادى مر وعشر النخيل الذى بها وحصل له من ذلك مال جزيل وكان قد جعل على كل نخلة من درهمين الى أربعة دراهم (٢)

وعندما امتنع أهالى الطائف عن دفع ما قرره الشريف حسن بن عجلان سنة ٨٢١هـ لزيادته على العادة ، فضلا عما هم فيه من ضيق الحال بسبب ما أخذه منهم فى العام السابق ٨٠٠٠ سار اليهم الشريف وضرب املاكهم وحصونهم وتسلم منهم ما أرضاه وأصابهم من العنت والمضايقة وفساد الارباح ما أرقهم وأدى الى كساد أحوالهم . (٣)

ومن الموارد التى ليس لها سند شرعى المكوس ويطلق عليها الجباية أو الزالة أو العرافة ، وهى نوعان : مكس الحاج ٨٠٠٠ والمكس المتصل بالتجارة .

فأما مكس الحاج فهو بدعة ابتدعتها القرامطة سنة ٣٢١هـ عندما جعلوا على الحاج فى كل سنة نحو من خمسين ألف دينار مقابل تمكينهم من الدخول

(١) ابن ابياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٢٨٤ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين ، ج٦ ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ١٣٣ .

الى مكة وهو أول مكس أخذ على الحجاج . (١)

وكانت تتم جبايته من الحجاج بعيذاب فمن يدفعها يعلم اسمه علامة الاداء ومن لم يدفعها بعيذاب دفعها بجدة والا حبس وعذب بشتى انواع العذاب ومنع من الحج والتجارة . (٢) وينفرد بأخذ مكس الحاج أمير مكة ومقداره سبعة دنانير مصرية ونصف عن كل حاج . (٣)

وكان صلاح الدين الايوبي أول من ألغى هذا المكس (٤) وعوض أمير مكة عن ذلك بألف دينار وألف أردب قمح واقطاعات بمعيد مصر وجهة اليمن . (٥) وقيل انه عوضه عن ذلك ثمانية آلاف أردب قمح تحمل اليه كل عام الى ساحل جدة (٦) غير أن الابطاء فى ارسال ذلك لأمير مكة يؤدى الى عودة أمير مكة الى ترويع الحاج والعسف معهم فى اخذ المكس . (٧)

ويبدو أن خلفاء السلطان صلاح الدين الايوبي قد اهتموا فى ارسال ما التزم به لأمير مكة فعاد امراء مكة الى اخذ هذا المكس .. يدل على ذلك أن الملك المنصور صاحب اليمن أبطل فى سنة ٦٣٩هـ جميع المكوس والجبايسات بمكة وكتب بذلك رقعة جعلت قبالة الحجر الاسود واستمرت عدة سنوات الى أن نزعها ابن المسيب . (٨)

-
- (١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٩٠ .
 - (٢) الفاسى : تحصيل المرام ، ق ٨٨ ب ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٠ .
 - (٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨-٢٩ ، الفاسى : نفس المصدر والورقة .
 - (٤) ابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص ٢٣٤ .
 - (٥) ابن جبير : نفس المصدر ، ص ٥٥ ، الفاسى : نفس المصدر والورقة ، العقد الثمين ج ١ ، ص ١٨٩ ، السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
 - (٦) الفاسى : العقد الثمين ، نفس الجزء والصفحة ، تحصيل المرام ، ق ٨٨ ب .
 - (٧) ابن جبير : نفس المصدر ، ص ٥٤ .
 - (٨) الفاسى : تحصيل المرام ، ق ٨٩ ب ، العقد الثمين ، ج ١ ، ص ١٩١ ، المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٢-٣٣٣ ، يحيى بن الحسين : غاية الامانى ، ق ١ ، ص ٤٣١ ، " ابن المسيب عامل صاحب اليمن نور الدين عمر بن رسول على مكة ٥٠٠ ساعة ===

وعندما حج السلطان المملوكى الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ الفى شريف مكة أبو ندى جميع ما كان يأخذه من الحجاج القادمين من البر عن طريق مصر والشام واعمالها اكراما للسلطان واشهد على نفسه أنه ترك أخذ الجبايات من سائر الحجاج المصريين والشاميين تاجرهم وغنيهم وفقيرهم . (١)

ويذكر التجيبى السبتي وقد حج سنة ٦٩٦هـ انه كان بجدة عامل من قبل شريف مكة أبى ندى يتولى جباية المكوس والضرائب مثل ضريبة الطعام وكانت على كل غرارة طعام ربع غرارة وضريبة المتاع وضريبة الجمال التى يكتريها الحاج (٢) .

وقد تعرضت المكوس التى كانت تجبى فى جدة من قبل امير مكة للالغاء وللإعادة اكثر من مرة بناء ١٦ على تدخل سلاطين المماليك مقابل تعويضهم لامير مكة عنها . (٣)

ومن شأن هذه المكوس التى يدفعها الحجاج أن تؤمن طريقهم الى مكة المكرمة وتحقق لهم الحماية فيها وفى جدة .

ودفع الجشع بعض امراء المحمل الى اخذ المكوس من الحجاج .. ففى سنة ٨٠٩هـ فرض أمير المحمل المصرى ويدعى كزل العجمى على كل جمل ديناراً والزم الركب بذلك فلما علم السلطان الملك الناصر فرج بما عمله قبض عليه وصادر امواله . (٤)

واستلزم الوضع الاقتصادى فى مكة .. وما كان يعانيه امراؤها من

(=) سيرته فى مكة حيث أعاد الجبايات والمظالم وقطع الصريرة التى وضعها نور الدين واستولى على الصدقات التى كانت ترسل من اليمن " .

ابن الديبع : قررة العيون ، ق ٢ ، ص ١٥ .

(١) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٨١ .

(٢) النجيبى السبتي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ، ج ١ ، ص ٤٥٩ ، ٤٦٣ ، الجزيرى : نفس المصدر ، ص ٢٩٧ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٣ ، ص ٥٣ .

حاجة الى الاموال فرض المكوس على القوافل التجارية الواردة والمارة بمكة والبضائع القادمة من طريق البحر عبر شغرها جدة .

ولم تكن هذه المكوس التجارية حدثا جديدا في مصر والحجاز فقد عرفت منذ أيام الفاطميين ووزرائهم (١) . وكان السلطان صلاح الدين الايوبي رحمه الله قد أبطلها وأول من أعادها في العصر المملوكى الوزير هبة الله الفاضلى (٢) الذى استحدث الكثير من المكوس والمظالم (٣)

والواقع ان المكوس التجارية غدت موردا هاما وثابتا للدول ... وقد عنى ابن خلدون بتحليلها ولا سيما أثناء حديثه من أبواب عمران الدول وهرمها ومن ذلك قوله : " واعلم ان السلطان لا ينمى ماله ولا يدر موجودة الا الجباية وادرارها انما يكون بالعدل فى أهل الاموال والنظر لهم بذلك وبذلك تنبسط آمالهم وتنشرح صدورهم للاخذ فى تشمير الاموال وتنميتها فتعظم منها جباية السلطان (٤)

وتفيد المصادر التاريخية أنه فى القرن السابع الهجرى كانت الجباية تؤخذ من التجار على كل ما معهم من متاجر ... اما الحاج الذى ليس له متجر فكان لصاحب مكة معلوم على كل جمل يوقفه الركب عند قبر ابي لهب ولا يتعدى هذا المكان جمل الا بعد أخذ المقرر عليه (٥) وكان المقرر على كل جمل من القوافل القادمة من اليمن ثلاثين درهما ويزيد هذا المقرر على القوافل القادمة من مصر فعلى كل جمل خمسين درهما ، ولم يلبث أن تساوى الحاج المصريون باليمنيين منذ سنة ٦٨٣هـ بعد تدخل السلطان الظاهر

-
- (١) من الادلة التاريخية على فرض المكوس فى مرفأ جدة فى القرن الرابع الهجرى انه كانت تؤخذ على سلة الزعفران رسوم قدرها دينار وعلى حمل البر دينار وعلى حمل الصوف ديناران ، الاضطخري: المسالك والممالك، ص ١٤ .
- (٢) هو وزير عز الدين ايبك اول سلاطين المماليك اصله من مسالمة القبط مات مقتولا ، السيوطى: حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .
- (٣) السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
- (٤) ابن خلدون: العبر ، ج١ ، ص ١٣٦ .
- (٥) الجـــــــــــــــــــــري : درر الفوائد ، ص ٢٨١ .

بيبرس . (١)

ومما يلاحظ أن هذه النسبة تزيد تبعا للاحوال الامنية فى مكة وعلاقتها الخارجية (٢) كما يبدو واضحا أن شريف مكة ابا نمى لم يف بما قطع على نفسه من تركه الجيا على الحجاج فعاد الى فرضها على الحجاج والتجار وتعسف فى طريق جبايتها . (٣)

اما فى القرن الثامن الهجرى فقد وافتنا المصادر بقيمة الرسوم ... المقررة على بعض البضائع وكان بعض الرسوم يلغى عن السلع الضرورية التى يكون الناس فى حاجة اليها فى عامى (٧٠٣ - ٧٠٤هـ) أسقط شريف مكة حميفة ورميثة جزءا من المكوس فيها . (٤) وفى سنة ٧٤٦هـ اسقط السيد عجلان بن رميثة ربع الجبايات وقد عرف عنه اظهار العدل والامان للتجار والحجاج والمجاورين . (٥) كما اصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمره فى سنة ٧٢٢هـ بابطال المكس المتعلق بالمأكول فى مكة وعوض أميرها عطيفة ثلثى دمامين (٦) من معيد مصر (٧) وقيل أقطعه اياها (٨) ولكن يبدو أن مكس المأكولات قد عاد مرة اخرى بدليل ابطاله من جديد سنة ٧٦٠هـ . (٩) . ولعل ذلك يعود الى انقطاع المعلوم الذى عوض به امير مكة نظير اسقاطه له .

ويشير الفاسى الى قيمة الضرائب المأخوذة على المأكولات فى تلك الفترة فالمقرر على حمل الجمل من الحنطة الواردة بحرا الى جدة

-
- (١) المقريزى : السلوك ج١ ، ص ٧٢٤ ، الجزيرى : نفس المصدر ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .
 - (٢) السنجارى : منائح الكرم ج١ ، ص ٣٠٢ ، الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٢٧ .
 - (٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، الجزيرى : نفس المصدر والصفحة .
 - (٤) الخرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ، ص ٣٦٢ ، الفاسى : تحصيل المرام ، ق ٩٠ ب الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٩٢ ، الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٢٩ .
 - (٥) الجزيرى : نفس المصدر ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .
 - (٦) " دمامين " من مركز الاقصر بمديرية قنا وموقعها على الشاطئ الغربى للنيل ، المقريزى : السلوك ج٢ ، ص ١٣٦ هـ .
 - (٧) الفاسى : نفس المصدر ، ق ٩٠ ب - ١٩١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج٢ ، ص ٣٠١ ، الجزيرى : نفس المصدر ، ص ٣٠٠ .
 - (٨) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
 - (٩) الفاسى : نفس المصدر ، ق ١٩١ ، شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٢٤٨ ، الطبرى : نفس المصدر ، ص ٣٧ .

مــدــان مكيــان (١) ، واما الحنطة الواصلة من الطائف وبجيلة ، فالمقرر على الحمل منها مد وربع (٢) ويعلق السباعى على ذلك بقوله " وهى نظرية اقتصادية تعمل بها اكثر حكومات اليوم لتحدد من واردات الخارج وتشجع الانتاج المحلى " (٣) .

وربما لان الواردات الاتية عن طريق البحر تكون اكثر ربحا للتجار فمن الطبيعى أنهم يتبادلون التجارة فى الموانىء والشفور التجارية التى يمرون بها . . . فى حين أن التجار من المناطق القريبة انما يقصدون مكة لبيع انتاجهم أو ربما لان الطريق عبر الطائف وبجيلة أقصر فلا يتعرض فيه الانتاج المبيع فى مكة للرطوبة والى رحلة طويلة قد تفسده .

ومن الرسوم المقررة على المأكولات رسم حمل التمر اللبان وكسبان ثمانية دنانير مسعودية وهذا الرسم يؤخذ من جالبة الى مكة وهو غير ما يؤخذ من الباعة والمتسعين حيث يؤخذ منهم على سلة التمر الواحدة دينار مسعودى ، اما ما يباع من السمن والعسل والخضر فرسومها تساوى سدس وثمان سعرها فما يباع بخمسة دنانير مسعودية يؤخذ منها دينار مسعودى . (٤)

-
- (١) المد المكي = $1 \frac{1}{3}$ رطل بغدادى = ١٢ رطل مصرى = ١٧١٤ درهم من القمح = ٢١٧ درهما من الماء (دراهم بغدادية) = ٦٨٨ = ٦٨٨ رلترا .
 محمد ضياء الدين الرئيس = الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، ط٤ ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص ٣١٩ .
- (٢) الفاسى : شفاء الفرام ، ج٢ ، ص ٢٤٩ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٠٣ .
- (٣) السباعى : تاريخ مكة ، ج١ ، ص ٢٥٤ .
- (٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ، ابن فهد : نفس المصدر والصفحة .
 الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٣١١ .

ولاشك ان هذه الرسوم قد اثقلت كاهل التجار في ذلك الحين وأدت الى زيادة اسعار تلك السلع ... فقام الناس من جراء ذلك شدة عظيمة لدرجة أن شخصا جلب شاه فلم تساو المقدار المقرر عليها^(١) ووصل امر هذه الشدة للملك الاشرف شعبان فأمر في سنة ٧٦٦هـ بالفاء مكس الحاج في كل ما يحمل اليها من المتاجر، خلا مكس تجار الكارم ، والهند ، والعراق ، وعوض امير مكة بثمانية وستين ألف درهم من بيت المال وألف اردب قمح سنويا.^(٢) وقد كتبت بذلك ثلاثة محاضر وجعل واحد منها بمكة والآخر في المدينة المنورة والثالث بالقاهرة وقيد ذلك في ديوان الاشرف شعبان رحمه الله^(٣) ويشير الفاسي : الى أن شريف مكة عجلان بن رميشة قد طابت نفسه بذلك وعمل بها هو ومن بعده من امراء مكة .^(٤) ومما يذكر ان التعويض كان اقطاعا بمصر وان ما حمل الى الشريف عجلان كان مبلغ اربعين الف درهم فضة^(٥) .

وقد التزم الشريف احمد بن عجلان بالعهود التي اخذت عليه في اثناء تقلده ولاية الحكم والسلطة بمكة وسائر البلاد الحجازية فحفظ الحاج وترك المظالم والضرائب المترتبة على اهل الاسواق وأرباب الصنائع والمكس الشديد الذي كان يؤخذ في جدة من حجاج البحر وغيرهم الا ما يؤخذ من تجار الكارم والعراق واليمن كما نصت بذلك الصراسيم^(٦) يقول الفاسي : " وكان لاحمد بن عجلان سيرة مشكورة ومحاسن مذكورة لانه كان كثير العدل في الرعية مكرما للتجار وسمح لهم باشياء كثيرة فكثير ترددهم اليه فأشرب وكثر ماله مما كان يحصل له منهم من الموجبات والهدايا السنوية وقرر بينه وبينهم ضرائب معروفة في الزكائب والزواصل فلم يكن يتعدى ذلك وقرر أمورا يسمح لهم بها

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج١ ، ص ١٩٦ ، المقرئى : السلوك ، ج٣ ، ص ٩٨ ،

ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٣٠٣ ، الطبري : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ١٣٩ .

(٣) الجزيري : درر الفوائد ، ص ٣١١ .

(٤) الفاسي : شفاء الضرام ، ج٢ ، ص ٢٥٠ .

(٥) المقرئى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٦) ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٣٠٤ .

فيما لا يريد فيه بيعا من الأزواد والقرطلات وغيرها مما يختص بالتاجر —
 واتباعه فما خالف ذلك وكان نوابه بجده معه في أرغدعش لانهم كانوا
 يكارمون بالاسقاط ويكارمهم بالهدية ويعلم بذلك السيد احمد بن عجلان
 فلا ينالهم منه كبير ضرر وانما يودعهم بغرامة لطيفة^(١).

وفى سنة ٧٩٩هـ قام الشريف حسن بن عجلان باسقاط ثلث الرسوم التى على
 التجار فأدى ذلك الى زيادة نشاط الحركة التجارية فزادت إيراداته^(٢).

وقد نظمت السياسة الضرائبية على المتاجر القادمة من البحر سنسة
 ٨٠٦هـ وشكلت على ثلاث حالات وأبطلت الرسوم السابقة التى كان التجار يدفعونها
 مع المكس وكانت كثيرة العدد الا أن إيراداتها اقل من الرسوم الجديدة
 المنظمة التى كان لحسن السياسة فى استيفائها من التجار وفى أدائها
 لبنى حسن أثرها فى راحة التجار وتنمية وازدهار النشاط التجارى فى
 جدة ومكة . (٣)

وبفضل هذا التنظيم والسياسة بدأ بريق جدة يظهر فى الوقت الذى أخذت
 فيه عدن تخبو من الساحية التجارية منذ هذا التاريخ عندما ضعفت احوالها
 وانقطعت المراكب الواصلة اليها من الهند وغيرها نتيجة لسوء الاحوال
 الداخلية^(٤) والسياسية التعسفية فى جباية المكوس والتى تصل الى تفتيش
 العمامة والشعر والكمين وحرقة السراويل وتحت الابطاط كما وجدت عجوز لتفتيش
 النساء فاذا نزلت التجار البلد نزلوا بدبشهم من القد وبعد ثلاثة أيام
 تنزل الاقمشة والبضائع الى الفرصة تحل شدة ثمة وتعد ثوبا شوبا وان كان

(١) الفاس : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٩٥ .

(٢) الفاس : نفس المصدر ج٤ ، ص ٩٠ - ٩٥ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٢١ -
 ٣٢٢ .

(٣) الفاس : نفس المصدر ج٣ ، ص ٤٠٠ - ٤٠٣ ، ج٤ ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الامانى ، ق ٢ ص ٥٦٠ - ٥٦١ .

من بضائع البهار يوزن بالقبان ويضرب في جميع ما اشكل عليهم السبح لئلا يبقى شيء^(١) وأيا كان فمما لا شك فيه أن عدن ظلت القاعدة الرئيسية لمتاجر الشرق وتجارة البحر الأحمر الى ان حدث التحول الذي طرأ على تجارة البحر الأحمر فيما بعد .

ولكن يبدو أن غلمان الشريف حسن لم يسيروا على سياسة ثابتة ففي سنة ٨١٦هـ أظهروا التعسف مع تجار اليمن الذين قدموا بمتاجر كثيرة ولم يكتفوا بما يفرضونه من الجباية العالية بل استعملوا معهم القسوة حتى ان التجار كانوا يتوسلون في التخفيف عنهم بالقاضي مفلح - وهو من كبار تجار اليمن ولم يفد تدخله في الامر، ولم تذكر المصادر قيمة ما جبي منهم .^(٢)

وعلى الرغم من ذلك استمرت تجارة مكة في تألقها وبلغ قيمة ما أخذه صاحب مكة الشريف حسن سنة ٨١٨هـ من ثلاثة من التجار فقط أكثر من أربعين ألف دينار^(٣) وفي سنة ٨١٩هـ أخذ من تجار الكارم والجلاب الينبعية ثلاثة عشر ألف ومائتا ألف دينار^(٤) ويلاحظ أنه كان قد عزل عن الإمارة في هذه السنة وهذا مما يؤكد الأذى والخسارة الكبيرة التي كانت تلحق بالتجار بسبب النزاع على السلطة في مكة وينتج منه زيادة المكوس^(٥) حتى انها كانت تجبي من التجار مرتين نتيجة الفوضى والاضطراب ورغبة كل من المتنازعين في أخذ المكس لنفسه .^(٦)

(١) ابن مخرمة : تاريخ ثغر عدن ، ج١ ، ص ٥٨ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ، ص ١١٧ ، ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٣٤٢ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ، ص ١٢٠ ، ابن فهد : اتحاف الوري ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٤) الفاسي : نفس المصدر ج٤ ، ص ١٢٢ ، ابن فهد : نفس المصدر ص ٣٤٧ .

(٥) الفاسي : نفس المصدر ج٦ ، ص ٤٣٩ ، ابن فهد : نفس المصدر ص ٣٤١ .

(٦) الفاسي : نفس المصدر ج٤ ، ص ١٢٠-١٢٢ ، ١٤٢-١٤٣ ج٦ ، ص ٦٢-٦٤ ، المقريزي : **سلوك** ج٢ ، ص ٨٨٧-٨٨٨ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٥٠ .

وتشير المصادر الى أن نواب الشريف حسن فى جدة لم يعرضوا لتجار اليمن بسوء سنة ٨٢١هـ بل تساهلوا معهم فى جباية المكس فضلا عن تساهل الشريف نفسه معهم واسقاطه بعض المكس عنهم وعما هو خاص بحمل سلطان اليمن (١).

وفى سنة ٨٢٣هـ أبطل السلطان ططر ما استجد من المكوس فى مكة وقدر لصاحب مكة الشريف حسن ألف دينار كل عام يتم تدبيرها من بيت المال فى مصر لقاء ابطال مكس الخضرة والفواكه وغيرها من المأكولات (٢).

ومنذ عام ٨٢٥هـ قرر التجار الهنود وضع حد للمتاعب الناجمة عن السياسة التعسفية والمبالغة فى المكوس التى فرضها سلاطين اليمن عليهم (٣) وذلك بنقل نشاطهم التجارى الى ميناء آخر سوى عدن وانحصر الخيار بين ينبع وجدة واخيرا وبفضل السياسة الحكيمة من سلاطين المماليك اتجه التجار الهنود الى جدة واصبحت المكوس تؤخذ منهم تحت اشراف الدولة المملوكية (٤) ولعل السلطان برسباي أراد من عقده لمجلس القضاء السالف ذكره سنة ٨٢٧هـ (٥) ... الحصول على فتوى بشرعية أخذ العشور من التجار وبالتحديد فى جدة فقد بدأت تدر الكثير من الواردات المالية وخاصة ان الدولة كانت بحاجة الى الاموال لتجهيز الجيوش للتصدى لاعداء الاسلام والطامعين فى أرضه .

-
- (١) الفاس : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ١٢٨ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٥٢ .
 (٢) الفاس : العقد الشمين ، ج ١ ، ص ٢٠١ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٥٧ ،
 الجزيري : درر الفوائد ، ص ٣٢١ ، الطبرى : اتحاف فضلا الزمن ، ص ٥٤-٥٥ .
 (٣) يذكر ابو مخرمة أنه كان يؤخذ من التجار فى عدن " خمس عشورات فى مرة واحدة ، عشور قديم وهو مال الفضة ، وعشور الشوانى ، ودار الوكالة من الدينار قيراط ، ودار الزكاة والدلالة " ، تاريخ ثغر عدن ، ج ١ ، ص ٦٤ .
 (٤) المقریزی : السلوك ج٤ ، ص ٧٠٧ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٦٠ ، ابن اياس بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .
 (٥) انظر ص ٢١٢ - من هذا الفصل

وتأكيدا للتجار وتشديدا عليهم نودى فى مكة يوم عرفة سنة ٨٣٠هـ أن
 "كافة من اشترى بضاعة وسافر بها الى غير القاهرة حل دمه وماله للسلطان
 فأخر التجار القادمون من الاقطار حتى ساروا مع الركب المصرى ليؤخذ
 منهم مكوس بضائعهم ثم اذا ساروا من القاهرة الى بلادهم من البصرة والكوفة
 والعراق اخذ منهم المكس ببلاد الشام وغيرها^(١) فأصابتهم بذلك بلايا
 عديدة^(٢) .

وفى سنة ٨٣١هـ وصل الى القاهرة من عشور تجار الهند بجدة صنفا ما
 تقدر قيمته بنحو خمسين ألف دينار هذا عدا ما بيع بمكة وجدة وماصرف على
 الحمول ونحوها . (٤)

وفى هذا العام سمح السلطان برسباى لتجار الشام بحمل متاجرهم الى
 بلادهم دون القدوم الى القاهرة بعد ان تشكوا له لكنه رفع قيمة المكس
 المفروض على بهارهم على غير المعهود ١٠٠٠٠ واصبح يؤخذ منهم بمكة عن كل
 حمل قل ثمنه او كثر ٠٠٠٠٠ ثلاثة دنانير ونصف وان يعفوا عن حمل ما يقتضونه
 من جدة الى مصر فاذا حملوا ذلك الى دمشق اخذ منهم مكسها هناك على ما
 جرت به العادة^(٥) .

غير ان السلطان برسباى لم يلبث أن قام سنة ٨٣٢هـ بالزام جميع التجار
 بالمسير الى القاهرة صحبة الركب المصرى وشدت المراقبة عليهم^(٦) بحيث لم

(١) المقرئى : السلوك ، ج٤ ، ص ٧٥٤-٧٥٥ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٦٤ ،
 ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ٣١٠ - ٣١١ ، الجزيرى : درر
 الفوائد ، ص ٣٢٥ .

(٢) المقرئى : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٣٥ .

(٣) المقرئى : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٦٥ .

(٤) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٦٧ .

(٥) المقرئى : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٦٨ ، ابن حجر : ابناء

الغمر ج٣ ، ص ٤٠٠ ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص

٣١٣ - ٣١٤ .

يقدر اقدمهم أن يتأخر بمكة ولا يتوجه الى الشام بل حضروا بأجمعهم و اقيمت عليهم الاعوان فى طول الطريق بتفقدهم وبعد جمالهم حتى قدموا صحبة الحاج فحل بهم من البلاد ما لا يوصف^(١).

اما تجار الهند فقد اخذ منهم مباشروا جدة فى هذه السنة من كل صنف صنفه ومن كل بالة نصف افلورى وكتب ذلك بحجر من الرخام بالفرضه^(٢). ومن الملاحظ تخفيض قيمة الرسم الى درجة كبيرة عما كان مقررا منذ سنة ٨٢٩هـ لاغرا التجار بالاستمرار فى التعامل المباشر والوصول رأسا الى جدة ضمانا لزيادة المكاسب الضخمة التى تدفقت عليها وساعدت السلطات المملوكية على مواجهة مسئولياتها المالية والحربية .

ولكن يبدو أن الدولة لم تلتزم بخطتها وفى سنة ٨٣٧هـ ارسى جماعة من التجار بعدن بعد أن ضاقوا ذرعا بالتصرفات القاسية ضدهم فى جدة من احتكار وتحديد لاسعار البيع الى زيادة فى المكوس حيث يؤخذ منهم عشور بضائعهم بالإضافة الى رسوم اخرى مقررة للمشرفين على الجباية^(٣).

ولتخفيف المركز التجارى بعدن ومعاقبة التجار على ما فعلوه فرض المماليك سنة ٨٢٨هـ رسوما عالية على السفن التى تمر بعدن قبل وصولها الى جدة ورسومها مخفضة على السفن القادمة لجدة رأسا وذلك "بالألا يؤخذ من التجار الواردين الى جدة من الهند سوى العشور ويؤخذ من تجار الشام ومصر اذا وردوا جـدة ببضائع اليمن ضعف العشور اما من قدم الى جدة من التجار اليمنيين ببضاعة فتتم مصادرتها بأجمعها للسلطان من غير ثمن يدفع له عنها[!] غير أن هذا المرسوم لم ينفذ لتدخل صاحب مكة الشريف بركات بن عجلان لدى السلطان برسبى حتى عفا عن التجار وأمر بالتسوية بين الجميع^(٤).

(١) المقرئى: السلوك، ج٤، ص٧٩١، ابن فهد: اتحاف الورى، ص٣٧٠، الجزيرى: درر القوائد ص ٣٢٥ .

(٢) ابن فهد : نفس المصدر والصفحة .

(٣) المقرئى : نفس المصدر والجزء ، ص٩٢٩، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٦٤ .

(٤) المقرئى: السلوك، ج٤ ، ص ٩٢٩-٩٣٠، ابن حجر : ابناء الفجر، ج٣ ، ص ٣٩-٥٤٠ .

ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

هذا وقد كانت سياسة المماليك الضرائبية محل نقد وانكار من بعض معاصريهم من الملوك مثل سلاطين آل عثمان وخاصة السلطان بايزيد " الذى كان ينكر على ملوك عصره تقاعدهم عن الجهاد وأخذهم المكوس^(١) أما القان شاه رخ ملك المشرق فقد وصل الامر به الى ان كتب للسلطان برسباي يرعد ويبوق وينكر عليه أخذ الرشوة من القضاة^(٢) وأخذ المكوس من التجار ببندر جدة وتعاطيه نوع المتجر^(٣) ويبدو أن شاه رخ قصد من وراء ذلك اشارة الشعب والتجار على السلطان برسباي بعد منعه له من كسوة الكعبة .

وفى سنة ٨٣٩هـ طلب السلطان جماعة من أعيان التجار بدمشق الى القاهرة وانكر عليهم حملهم التوابل من الحجاز الى دمشق مباشرة وقد تقدم مرسوم السلطان بالنهى عن ذلك - " وختم على حواصلهم بالقاهرة وغيرها - ثم افرج لهم عنها بعد ما صالحوا ناظر الخاص بمال قاموا به " (٤) .

وأراد السلطان جقمق سنة ٨٤٣هـ أن تكون تصرفاته فى أمر جدة وأخذ عشور التجار بها على مقتضى فتاوى أهل العلم فنمق بعض الفقهاء سوءا على غرض السلطان يتضمن " ان التجار الواردين الى مكة من الهند والصين كانوا يردون الى عدن من بلاد اليمن فيظلمون بأخذ أكثر أموالهم وأنهم رغبوا فى القدوم الى جدة ليحتموا بالسلطان وسألوا أن يدفعوا عشر أموالهم ، فهل يجوز أخذ ذلك منهم؟ فان السلطان يحتاج الى مرف مال كثير فى عسكر يبعثه الى مكة فى كل سنة فكتب القضاة الاربعة بالقاهرة بجواز أخذه وصرفه فى المصالح (٥)

(١) " بايزيد بن عثمان من اكبر ملوك الاسلام وأتمهم يقينا وأكثرهم غزوا فى الكفار قتله تيمورلنك سنة ٨٠٥هـ، ابن حجر : ابناء القمر، ج٢، ص ٢٢٥ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج١، ص ٥٩ .

(٣) المقرئى : السلوك، ج٤، ص ٩٤٦، ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والمفحة .

(٤) المقرئى : السلوك، ج٤، ص ٩٦٥ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج١٥، ص ٣٣٨ - ٣٣٩، ابن فهد : اتحاف الورى، ص ٣٨٥ .

فقرئت الفتوى بالحرم الشريف بحضور القضاة والاعيان على رؤس الاشهاد فانطلقت الالسنة بالوقية في القضاة وانهم اعتادوا اتباع أهواء الملوك خوفا على مناصبهم أن يعزلوا منها وأى فرق بين ما يؤخذ من أموال التجار الواردين الى جدة وبين ما يؤخذ بالاسكندرية ، وما يؤخذ بالقاهرة ومصر ودمشق وسائر بلاد الشام من الناس عند بيعهم العبيد والاماء والخييل والبغال والحمير والجمال وما يؤخذ بقطيا من التجار الواردين من بلاد الشام والعراق (١) فكل احد يعلم أن هذا كله مكس لا يحل تناوله ولا الاكل منه وأن الاكل منه فاسق لا تقبل شهادته لسقوط عدالته ولكن السهوى يعمى ويصم (٢).

وهكذا نجد انه في الوقت الذي أيد فيه قضاة القاهرة السلطان وأفتوا بجواز اخذ المكس تورع قضاة مكة عن بيع دمهم للسلطان وأبدوا تبرمهم من السياسة الضرائبية لسلطين المماليك ... ووقفوا الى جانب التجار الذين ظلموا بأخذ أكثر أموالهم .

وفي السنة نفسها ارسل السلطان الى مكة مرسوما يتضمن أن يؤخذ من التجار الواردين في البحر الى جدة ١٠٪ فقط وان تكون صنفا وان يبطل ما كان يؤخذ من رسوم المباشرين ونحوهم (٣) . " فكان هذا من جميل ما فعل" (٤)

غير أن شريف مكة قد قام على ما يبدو بزيادة الرسوم وعدد وجوهها في سنة ٨٥٠هـ وصل مرسوم الى مكة من السلطان المملوكي يأمر فيه بإزالة المكوس التي احدثها شريف مكة أبو القاسم بن حسن بن عجلان على التجار (٥).

(١) هذه اشارة الى كثرة الضرائب والرسوم التي كانت تجبى من التجار في المراكز المتعددة التي تمر بها تجارتهم .

(٢) المقرئى: السلوك، ج٤ ، ص ١١٨٧-١١٨٨ ، ابن فهد: اتحاف الورى، ص ٣٨٥-٣٨٦ .

(٣) المقرئى: نفس المصدر والجزء، ص ١١٩٣ ، ابن فهد: نفس المصدر ، ص ٣٨٥ ، الجزيرى

درر الفوائد ، ص ٣٢٨ .

(٤) المقرئى: نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن فهد: نفس المصدر والصفحة .

(٥) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٠٣ .

وفى سنة ٨٥٥هـ صدر امر السلطان بابطال مكس بجيلة وان يكتب بذلك ويلصق بباب المعلاة (١) كما ابطلت جميع المكوس بمكة سنة ٨٧٢هـ وكتب ذلك على اسطوانة من اساطين الحرم بباب السلام (٢) وواضح ان هذه المكوس غير التى كانت تجبى فى جدة من التجار القادمين اليها من الهند فهذه الاخيرة ظلت حتى نهاية العصر المملوكى بدليل استمرار وصول المباشرين فى كل عام من مصر واخذهم العشور والعودة بها الى الخزانة المملوكية وقد زادت المكوس التجارية على بعض السلع الى ١٥٪ من اثمانها وفى اواخر العصور الوسطى بلغت حوالى ٣٥٪ من ثمن السلعة (٣).

ويسبدو أن قدوم التجار والحجاج بمتاجرهم من طريق البحر جعل استخلاص المكوس منهم اكثر دقة ٠٠٠٠٠٠ ففى سنة ٩١٥هـ اصدر شريف مكة امرا الى نوابه بمنع حجاج اليمن من السير فى البر لانه بلغه انهم فى العام الماضى دخلوا من ناحية البر بمعشر كثير لم يطلع عليه ففاته الفائدة (٤).

والواقع ان جباية المكوس فى جدة كثيرا ما كان يداخلها الظلم والقسوة وارهاق التجار بالرسوم الاضافية وحملهم على دفع الرشاوى للمشرفين على تحصيل المكوس (٥). " فالفرصة كالمحشر فيه المناقشة والمحاسبة والوزن والعددفان كان رابحا طاب قلبه وان كان خاسرا اغتم (٦) ". ووصلت المظالم الى درجة جعلت التجار يتحولون فى فترة من الفترات الى عدن (٧) وكانوا

-
- (١) ابن فهد: نفس المصدر، ص ٤١٠ .
 (٢) ابن فهد: نفس المصدر، ص ٤٣٦، الطبرى: اتحاف فضلاء الزمن ص ٨١ .
 (٣) ابن اياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٠٣، ج ٤، ص ٢٨٦ - ٢٨٧، نعيم زكى فهمى: طرق التجارة ص .
 (٤) ابن الديبع: قررة العيون، ق ٢ ص ٢١٣ .
 (٥) ابن فهد: اتحاف الورى، ص ٤٠٠ .
 (٦) ابو مخرمة: تاريخ ثغر عدن، ج ١، ص ٤٨ .
 (٧) المقرئى: السلوك، ج ٤، ص ٧٩١ .

أحيانا يتوجهون الى شريف مكة للتدخل لدى السلطات المملوكية في التخفيف (١)
وكان الظلم يبلغ اقصاه اذا اعلن التجار شكواهم وتظلمهم علسى رؤس
الاشهاد فعندئذ كانوا يتعرضون للاهانة ويعذبون بأشد انواع العذاب . (٢)

ويبدو أن الامر وصل الى الحد الذى لا يمكن السكوت عليه فرفع التجار
امرهم الى السلطان بمصر مباشرة فتوالت المراسيم من السلطان آل باى ، ثم
من السلطان ترميغا ثم السلطان خشقدم وكلها تأمر باسقاط المظالم بيندر
جدة ورعاية مصالح التجار . (٣)

وبسبب الظروف المعيبة التى واجهت الدولة فى القرن العاشر جار ناسب
جدة على التجار فى امر العشر وظلم الناس قاطبة حتى ضجوا (٤) واعتقد
ان موقف الدولة فى اخذ المال فى هذا الوقت لا غبار عليه فالعدو قد هدد
سلامة البلاد واستوجب الوضع ان تأخذ الدولة من اموال الناس والاغنياء
ما تدفع به الخطر وهناك قاعدة عند الاصوليين تقول : " انه يجب دفع الضرر
الاعلى بتحمل الضرر الادنى من باب سد الذرائع وليس هناك شك فى ان التجار
المسلمين لا يمكن أن يقفوا مكتوفى الايدى وهم يعلمون الخطر المحدق بالديار
المقدسة فالمسلمون تتكافأ دماؤهم واماوالمهم والمؤمن للمؤمن كالبينان
يشد بعضه بعضا . (٥) والله سبحانه وتعالى وعد المنفقين فى سبيله خيرا فى
آيات عديدة فى كتابه العزيز . ولكن لعل القسوة فى طريقة الجباية
واظهار الفتك والتعالى والعظمة من قبل نائب جدة مع التجار .. بالاضافة
الى هول الموقف ، كل ذلك جعل التجار والناس كافة يفضجون باعلان سخطهم
وتدميرهم . (٦)

(١) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج٣ ، ص ٥٣٩ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٣) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٣٦ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج٤ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٥) ابن حنبل : نفس المصدر ، المجلد الرابع ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٩ .

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٢٨٧ .

والمسألة الجوهرية التى ينبغى بحثها هى اين كانت تذهب هذه المكوس؟ ومن كان المستفيد من تحصيلها؟... وتجدد الإشارة الى انه طيلة العصر المملوكى اذا استثنينا فترة الازدهار التجارى فى جدة ، كان صاحب مكسة ينفرد بأخذ المكوس والاستفادة منها وكان يحصل من الاموال ما لا يحصى ويصرفها فى نفسه وخاصته وما تتطلبه الامارة من نفقات ومحافظة على استقرار الاحوال كما كانت هدفها لامراء مكة المتنازعين على السلعة . (١)

اما الدولة المملوكية فى تلك الحقبة ... فقد كانت فى أوج قوتها وعظمتها ولم تكن بحاجة الى عسور التجار فى الحجاز نظرا لنجاح نظام الاقطاع المعتمد على الزراعة فى سد احتياجات الدولة من الموارد المالية ومن ثم فالدولة كانت حريصة مخلفة فى توكيد النشاط التجارى فى مكسة وحث أمرائها على عدم التعرض للتجار ومساعدة الامراء مساعدة مادية لتحقيق هذا الغرض حتى يزداد أقبال التجار بتجاراتهم للوصول الى مكة فيتحقق بذلك الازدهار الاقتصادى فى هذا البلد الامين . (٢)

وحتى بعد أن اتضح الكيان التجارى لجدة واصبحت تدر اموالا جملة على اماره مكة ظلت الاستفادة من العوائد التجارية قاصرة على امراء مكة حتى عام ٨٢٧هـ (٣) حين رأت الدولة انه من الافضل استثمار هذا المورد الجديد فى تغطية جزء من نفقاتها وخاصة ان مكة وجدة كانتا تابعتين للدولة بل كان الحجاز كله تابعا لها . ثم ان ذلك لم يكن يؤثر على دخل امراء مكة فقد كانوا يجنون أرباحا طائلة من جباية المكوس على القوافل التجارية المارة بمكة وخاصة المتاجر القادمة من اليمن وقد بلغ هو لا

(١) الفاس: العقدالشمين، ج٣، ص ٣٩٦، ٤٠١، ٤٠٤، ص ٩٠-٩١، ١٠١، ١٠٣، ١٠٩، ١٢٠، ١٢٢، ج٦ ص ٦١ .

(٢) الفاس : نفس المصدر، ج٤، ص ٨٧-٨٨، المقرئى : السلوك، ج١، ص ٧٠٦-٧٠٧ ابن حجر: ابناء الفجر، ج١، ص ٣٩٣، ٥٠٨، السنجارى: منائح الكرم، ج١، ص ٣٠١ .

(٣) ابن حجر : ابناء الفجر، ج٣، ص ٣٢٦ .

الامراء من الشراء الى درجة جعلت سلاطين الممالك يلزمونهم بمبالغ من المال تدفع كل عام للمساهمة فى تغطية احتياجات الدولة من الاموال ويلزمونهم ايضا بعدم التعرض لما يوءخذ من عشور بضائع التجار الواصلة من الهند (١)

وبطبيعة الحال لم يرض هذا الوضع اشراف مكة الذين اعتادوا أخذ المكوس والانفراد بها فتوجه بنو عجلان سنة ٨٣٠هـ الى نائب جدة من قبائل سلاطين الممالك وطالبوه بأخذ العشور التى اعتادوا أخذها أيام أبيهم ووصل الامر الى اخراج تجريدة عسكرية لتقوية شاد جدة وحفظ الاموال فيها . (٢)

ثم أن السلطان المملوكى لم يلبث أن أنعم على شريف مكة سنة ٨٣٢هـ ، بثلاث متحصل المراكب القادمة من الهند وحمل الثلثين الباقيين الى الخزانة المملوكية على العادة فحصل لصاحب مكة السرور وزينت الاسواق (٣) ويبدو أنه أراد بعمله هذا كسب شريف مكة الى جانبه حتى يعينه فى تتبع التجار فى مكة فلا يتأخر احد منهم بعد الزامهم بالذهاب مباشرة الى مصر لآخذ المكوس التى تعددت جبايتها . (٤) ولم يلبث أن أنعم عليه سنة ٨٤٠هـ بنصف عشور مراكب التجار الهندود (٥) غير ان المراسيم وردت سنة ٨٤٣هـ وهى تتضمن أن جميع الجلاب الواصلة فى البحر الى جدة من سائر البلاد ليس لصاحب مكة منها الا الربع وان الثلاثة أرباع لصاحب مصر . (٦)

(١) المقرئى : السلوك ج٤ ، ص ٧٠٦ ، ابن فهد : اتخاف الورى ، ص ٣٦٠ - ٣٦١ ،

الجزيرى : درالنفوائد ، ص ٣٢٤ .

يذكر بعض المؤرخين أن التزام اشراف مكة بالمال وللسلطان يقابله عدم تعرض السلطان لما يوءخذ من العشور فى جدة وان هذه العشور لصاحب مكة ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٤ ، ص ٢٩٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج٢ ، ص ١٠٧ .

(٢) المقرئى : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٨٠ - ٧٨١ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٦٤ .

(٣) ابن فهد : اتخاف الورى ، ص ٣٦٨ ، السنجارى : منائح الكرم ، ج٢ ، ص ٣ .

(٤) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٧٠ .

(٥) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ ، السنجارى : نفس المصدر والجزء ، ص

٤ ، الطبرى : اتخاف فضلاء الزمن ، ص ٦٨ .

(٦) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٨٥ .

أما مكوس التجارة الواردة برا الى مكة من اليمن فقد ظلت من نصيب شريف مكة حتى عام ٨٨١هـ حين قرر السلطان مشاركته بالنصف في عشورها^١ ولم يجر بذلك عادة فان ذلك كان مما يختص به الشريف دون غيره^٢ (١) . ثم صدرت المراسيم سنة ٨٨٦هـ بالانعام على صاحب مكة بجميع عشورات المتاجر اليمنية وابطال ما قرر سابقا . (٢)

ومما سبق يتضح أن عشور التجارة في جدة في عصرها الذهبي قد شكلت جزءا ضخما من موارد الدولة وخاصة بعد أن أصبحت التجارة هي المصدر الاساسي للدخل كما استهدفت سياستها رفع الرسوم التجارية على السفن المجوزة بعدن لغرض الضغط السياسي والاقتصادي عليها مع المحافظة على بروز جدة لتستمر في أداء دورها الجديد دعما للاقتصاد المملوكي بعد تطور المصالح التجارية مع الهند والصين .

ألا أن تطورات الامور العسكرية والمشكلات المالية لم تجعلها تتبع خطة ضرائبية ثابتة فأدى ذلك الى تبرم التجار وسخط المعاصرين وتدميرهم من السياسة المملوكية واستمرت هذه المكوس حتى نهاية العصر المملوكي على الرغم من تحريم ذلك شرعا يقول الماوردي : " وأما أعشار الاموال المتنقلة في دار الاسلام من بلد الى بلد فمحرمة لا يبيحها شرع ولا يسوغها اجتهاد ولا هي من سياسات العدل ولا من قضايا النصفة وقلما تكون الا في البلاد الجائرة " (٣)

المعاملات التجارية :-

استمد التجار المسلمون نظم معاملاتهم من احكام الشريعة الاسلامية التي نظمت الجانب الاقتصادي وشجعت ألوان التجارة الخالية من الربا والخداع قال تعالى : " واحل الله البيع وحرم الربا " (٤) وقال عليه الصلاة والسلام

(١) ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٤٤٧ ، الجزيري : درر الفوائد ، ص ٣٣٨ ، السنجاري

نفس المصدر والجـ ، ص ١٢ .

(٢) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٥٤ .

(٣) الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ٢٠٨ .

(٤) سورة البقرة : آية ٢٧٥ .

" البيعان بالخيار ما لم يتفرقا^١ أو قال حتى يتفرقا فان صدقا وبينا بسورك لهما في بيعهما وان كتما وكذبا محقت بركة بيعهما " (١) والتجارة وان كانت ممدوحة باعتبار كونها من المكاسب الحلال قد تدم اذا قدمت على ما يجب تقديمه من الحقوق قال عز وجل : " واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة " (٢) وقال عز وجل : " رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله " (٣) وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على السماحة في المعاملة واستعمال معالي الاخلاق وترك المشاحنة والتضييق على الناس في المطالبة وحض على اخذ العفو منهم فقد روى عنه أنه قال : " رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى " (٤) وقال : " يا معشر التجار ان البيع يحضره اللغو ... والحلف فشوبوه بالمدة " (٥)

والتجارة اسم يقع على البيع والشراء^(٦) وهي في اللغة اعطاء شيء في مقابله شيء آخر وفي الشرع مقابلة مال بمال قابلين للتصرف بايجاب وقبول واركانه ثلاثة عاقد ومعقود عليه وصيغة فالعاقد يشمل البائع والمشتري والمعقود عليه هو المبيع ، والصيغة هي الايجاب والقبول . (٧)

وقد وضع ابن خلدون تحديدا دقيقا للتجارة بقوله : " واعلم ان التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالقلأ أياما كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر النامى يسمى ربحا فالمحاولة لذلك الربح اما ان يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الاسواق مسن

(١) صحيح البخارى : ج ٣ ، ص ١١ .

(٢) سورة الجمعة : آية ١١ .

(٣) سورة النور : آية ٣٧ .

(٤) ابن حنبل : المسند ، المجلد الثانى ، ص ٢٢٠ ، صحيح البخارى ، ج ٣ ، ص ٩ ،

ابن حجر : فتح البارى ج ٤ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٥) ابو داود : السنن ، ج ٣ ، ص ٢٤٢ .

(٦) العينى : عمدة القارى ، ج ١١ ، ص ١٧٤ .

(٧) احمد عيسى عاشور : الحلقة الميسرة في العبادات والمعاملات ، ط٤ ، القاهرة

١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م ، ص ٢٠٩ .

الرخيص والغلاء فيعظم ربحه ، واما بان ينقله الى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة اكثر من بلده الذى اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة انا أعلمها لك فى كلمتين : اشتراء الرخيص وبيع الغالى . (١)

المقايضة :-

المقايضة بمعناها التقليدى هى " مبادلة كمية من السلع بكمية سلع اخرى بحيث تكون الكميتان متساويتين فى القيمة . ولا شك أن طريقة التعامل هذه قديمة قدم التاريخ فقد كانت أول مظهر من مظاهر التجارة قبل اختراع النقود وما تزال مستخدمة حتى وقتنا الحاضر .

وتلجأ الدول فى الوقت الحاضر الى سياسة المقايضة أو ما يعرف بالتبادل التجارى بحكم الضرورة فى الحالات التى تندرج بها العملة او يقل المتاح لها من التسهيلات الائتمانية اذا لم تكن الدولة المستوردة قادرة على سداد ثمن ما تشتريه من سلع بعملة الدولة البائعة . (٢) وهذا ما حدث اواخر القرن التاسع الهجرى - الخامس عشر الميلادى بعد ظهور ازمة الذهب وندرة العملة الذهبية ومع اشتداد الطلب الاوروبى على التوابل والسلع الشرقية لجأت المدن التجارية الايطالية الى عقد المعاهدات مع الدولة المملوكية على اساس ان تكون المقايضة هى طريقة التعامل التجارى بينهم (٣) .

اما فى مكة فقد اتسع نطاق المقايضة مع اهل السراة وبجيلة الديــــن يجلبون الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز (٤) ويأخذون بــــدلا منها الخرق والعباءات والشمل والامتعة والملاحف المتان وما يشابه ذلك مما يلبسه الاعراب . (٥)

(١) ابن خلدون : العقود، ج ١، ص ٣٣٠ .

(٢) محمود عساف ، طلعت اسعد عبد الحميد ، ادارة الاستيراد والتصدير ، ط ٢ ، ١٩٨١ م ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٣) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ، ص ٣٦١ - ٣٦٤ .

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١١٠ - ١١١ .

والمصوبة التي تواجه نظام المقايضة عند تطبيقه تتمثل في تحديد الاثمان بالدقة والعدالة الواجبة فقد يتعرض احد طرفى العملية للخسارة وذلك لعدم تساوى قيمة السلعة المتبادلة فتكون النتيجة فى بعض الاحيان محاولة الرجوع فى المقايضة .

ويعد نظام المقايضة فى التجارة غرما لا غنم فيه وانما يلجأ اليه التجار لقصور العملة الذهبية والفضية عن الوفاء بأثمان السلع وخصوصا البسيطة منها فبدلا من تكديسها لدى التجار تكون المقايضة خير وسيلة للتعامل التجارى فى هذه الحالة . (١)

وقد حرم الاسلام المقايضة فى السلع التى تكون من جنس واحد أو صنف واحد وعدها من البيوع المحرمة وفى حالة التعامل بها قيدها بقيود فقال صلى الله عليه وسلم : " الذهب بالذهب ربا الا هاء وهاء (٢) والبر بالبر ربا الا هاء وهاء والشعير بالشعير ربا الا هاء وهاء ، والتمر بالتمر ربا الا هاء وهاء وثبت عنه قوله عليه الصلاة والسلام : " لا تبيعوا الذهب بالذهب الا سواء بسواء (٣) ولا الفضة بالفضة الا سواء بسواء وبيعوا الذهب بالفضة والفضة بالذهب كيف شئتم (٤) والبيع المرخص به فى هذه الحالة كما جاء فى الحديث هو التقابض فى المجلس قبل التفريق منه وان يكون العوضان متماثلين متساويين فى الوزن . (٥)

(١) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ، ص ٣٦٣ .

(٢) المقصود من قوله هاء ... وهاء - يعنى خد وهات .

(٣) المقصود من قوله سواء .. بسواء - اى مثل بمثل ووزنا بوزن .

(٤) ابن حنبل - المسند ج ٢ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، صحيح

البخارى : ج ٣ ، ص ٣٠ .

(٥) العينى : عمدة القارى ، ج ١١ ، ص ٢٥٢ .

أنواع الشركات :-

كان التوسع التجارى فى العصور الوسطى وازدياد حركة التبادل بين الشرق والغرب اثره فى بروز نظام الشركات التجارية لاستثمار الاموال وتنميتها والشركة فى اللغة : الاختلاط ، وفى الشرع : اجتماع فى استحقاق أو تصرف لشخصين فأكثر على جهة الشيوخ^(١) وهى من العقوبات اللازمة بمعنى أنه يجوز لكل من العاقدين أن يستقل بفسخها ودون توقف على رضا المتعاقد الآخر^(٢) وفى الشركة خير وبركة اذا قامت على الصدق والامانة والاصل فيها ما جاء فى الحديث القدسي " ان الله يقول : انا ثالث الشريكين ما لم يخن احدهما صاحبه فاذا خانته خرجت من بينهما ."^(٣)

ومن انواع الشركات المتعامل بها فى مكة :-

شركة القراض او المضاربة :-

القراض أو المضاربة بمعنى واحد والقراض مشتق من القرض هو القسط لان المالك قطع قطعة من ماله ليتجر فيها و قطعة من ربحه^(٤) . والمضاربة مشتقة من الضرب فى الارض وهو السفر للتجارة^(٥) قال الله تعالى : " وآخرون يضربون فى الارض يبتغون من فضل الله " .^(٦)

والمضاربة فى الفقه الاسلامى : عقد بين مالك رأس المال والمستثمر أو التاجر على القيام بتجارة يكون رأسمالها من الاول والعمل من الآخر ، ويحدد الشريكان حصة كل منهما من الربح كالنصف أو الثلث أو الربع فان ربحت تجارتها تقاسما

- (١) احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ، ص ٢٢٨ .
- (٢) حسين حامد حسان : المدخل لدراسة الفقه الاسلامى ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٩م ، ص ٤٥٢ .
- (٣) ابو داود : السنن ، المجلد الثانى ، ج ٣ ، ص ٢٥٦ .
- (٤) احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ، ص ٢٣٧ .
- (٥) البهوتى : منصور بن يونس ، الروض المربع بشرح زاد المستنقع مختصر المقنع فى فقه امام السنة احمد بن حنبل الشبانى ط ٦ ، " مكان وتاريخ النشر بدون " ج ٢ ، ص ٢١٠ .
- (٦) سورة المزمل : آية ٢٠ .

الربح المنصوص عليه فى العقد وان ظل رأس المال كما هو لم يزد ولم ينقص لم يكن لصاحب المال الا رأس ماله اما التاجر فليس له شيء وان خسرت الشركة وضع جزء من رأس المال أو كله فبالخسارة على صاحب المال (١) ولا يجوز تحميل العامل او التاجر المستثمر وجعله ضامنا لرأس المال الا بان تتحول العملية الى اقراض من صاحب رأس المال للعامل وحينئذ لا يستحق صاحب رأس المال شيئا من الربح (٢) اما اذا كان الربح كله لصاحب المال والخسارة عليه فالشريك بالجهد أجير وهو وكيل لصاحب رأس المال بالاجر ، وفى هذه الحالة لا تعد الشركة مقارضة ولا مضاربة (٣) .

والاصل فى عقد الشركة انه صلى الله عليه وسلم ضارب لخديجة رضى الله عنها بمالها فى تجارة الى بلاد الشام فقد كانت رضى الله عنها من نساء قريش التاجرات اللاتى لهن نشاط فى ارسال القوافل الى الشام وغيرها . (٤)

وهناك شروط لابد منها لصحة عقد هذه الشركة وهى :-

اولا : أن يكون رأس المال من النقديين المضروبين فلا يجوز على حصى ولا على عروض التجارة .

ثانيا : أن لا يضيق على العامل فى البيع والشراء حتى لا يوءدى الى فوات مقصود الشركة فقد يجد شيئا يربح والزامه بمراجعة صاحب المال يوءدى الى فوات المقصود وهو الربح ——— .

ثالثا : ان يكون الربح بينهما مشتركا فيأخذ هذا بعمله وذلك بماله .

(١) الجزيرى : الفقه على المذاهب الاربعة ، القاهرة ، ١٩٣٥م ، ج٣ ، ص ٤٣ ، محمد باقر الصدر : البنك اللاربوى فى الاسلام ، اطروحة للتفويض عن الربا ، دراسة لكافة اوجه نشاطات البنوك فى ضوء الفقه الاسلامى ، ط٧ ، بيروت ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، ص ٢٥ .

(٢) محمد باقر الصدر : البنك اللاربوى ، ص ٢٥ .

(٣) الجزيرى : الفقه على المذاهب الاربعة ، ج٣ ، ص ٤٣ .

(٤) ابو الحسن الندوى : السيرة النبوية ، ص ٧٧ ، ٩٤ ، احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ، ص ٢٣٧ .

رابعاً : ان يكون الربح معلوماً بالجزئية كالنصف والربع والثلث والسادس وخلافة ولا يجوز لاحدهما جزء مجهول او دراهم معينة فلو اشترط العامل قدراً معلوماً كمائة مثلاً فسد العقد لان الربح قد ينحصر فى المئة فيختص العامل به وهو خلاف مقصود العقد .

خامساً : ان لا يقدر العقد بمدة معينة لان الربح ليس له وقت معلوم وربما لا يربح العامل فى هذه المدة كما انه عقد جائز يستطيع احد طرفيه الانسحاب متى شاء .

سادساً : ان لا يحدد الربح بمدة فلا يجوز لاحدهما ربح السفرتين او ربح تجارة فى شهر او عام بعينة لان ذلك يفضى الى الجهالة فقد يربح الاول ويخسر الثانى فيختص احدهما بالربح او الخسارة وهذا مخالف للعقد .

سابعاً : لا يجوز للتاجر المستثمر ان ينفق من رأس المال لان النفقة قد تكون قدر الربح فيفوز به دون صاحب المال ولا سيما ان له جعلاً معلوماً فلا يستحق معه شيئاً وليس له أن يسافر بغير اذن مالك رأس المال . (١)

ويعد عقد القراض أو المضاربة فى أوله وكالة وبعد ظهور الربح شركة وكلاهما عقد جائز ورأس المال أمانة لدى التاجر (٢) فان تلف كله أو بعضه قبل التصرف انفسخ العقد وإن تلف بعد التصرف جبر من الربح لانه دار فى التجارة وشرع فيما قصد بالعقد من الاعمال المؤدية الى الربح " ويقبل قول العامل فيما يدعيه من هلاك وخسران وما يذكر أنه اشتراه لنفسه أو للمضاربة لانه أمين " . (٣)

(١) احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) احمد عيسى عاشور : نفس المرجع ، ص ٢٣٩ .

(٣) البهوى : الروض المربع ، ص ٢١١ .

وتخبرنا وثائق الجنييزة أن هذا التاجر عند وصوله الى بلده أو ميناء كان يقوم بمراجعة حساباته لمعرفة أرباحه وخسائره ونصيب كل شريك شسم يبعث هذه المعلومات الى شريكه ويبادل الرسائل معه ليعرف رضاه من عدمه وفى وثيقة من وثائق الجنييزة خاصة بنقل شحنة من البضائع ارسلت من مصر الى جدة اتفق فى بداية الامر على أن نفقات شحن البضائع يتحملها التاجر لا الشريك الممول وفى نهاية الوثيقة تغير هذا الشرط الى أن يتحمل كل من الطرفين هذه النفقات مناصفة . (١)

شركة العنان

سميت بذلك لتساوى الشريكين فى المال والتصرف والفسخ واستحقاق الربح على قدر المال كاستواء طرفى عنان الدابة (٢) او كالفارسين اذا سوا بين فرسيهما وتساويا فى السير . (٣)

وشركة العنان نظام اسلامى يشترك فيه تاجران أو أكثر فى تمويل التجارة برأس ماليهما ويشتركان فى الادارة والسفر والاقامة بمعنى الاشتراك بالمسار والجهد ويجوز أن يتاجر فى رأس المال أحدهما على أن يكون له من الربح أكثر من ربح ماله فان كان بدونه لم يصح (٤) والاجماع منعقد على صحة هذه الشركة (٥)

أما شروط هذه الشركة فتتلخص فى عدة أمور

-
- (١) حسنين محمد ربيع : وثائق الجنييزة ، ص ١٣٥ .
 - (٢) احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ، ص ٢٢٩ .
 - (٣) البهوتى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢١١ .
 - (٤) البهوتى : نفس المصدر ج ٢ ، ص ٢٠٩ .
 - (٥) احمد عيسى عاشور : نفس المرجع ، ص ٢٢٩ .

أولاً : ان يكون رأس المال من النقددين المضروبين لانهما قيم الامسوال واثمان البياعات^(١) أو يكون على مثلى لان المثللى اذا اختلط بجنسه ارتفع التمييز .. فأشبه النقددين فتصح مثلاً فى القمح والشعير ونحوهما .. ولا تصح فى العروض كالعقارات ونحوها لعدم تصور الخلط النافى للتمييز^(٢).

ثانياً : الاذن منهما فى التصرف وتصرف الشريك كتصرف الوكيل^(٣) ... " فلكل منهما أن يبيع ويشترى ويقبض ويطالب بالدين ويخاصم فيه ويحيل ويحتال ويرد بالعيب ويفعل كل ما هو من مصلحة تجارتهم " .^(٤)

ثالثاً : ان يكون الربح جزءاً معلوماً مشاعاً على قدر المالكين ولو اشترط التساوى فى الربح والخسارة مع تفاضل المالكين فسد العقد .^(٥)

وعقد الشركة بين الشريكين غير ملزم فيستطيع أحدهما الانسحاب من الشركة بعد حصوله على حقوقه ولكل منهما عزل شريكه والموت والجنون يفسخان الشركة ... وكل منهما أمين على ما تحت يديه من تجارة^(٦)

وهذا النوع من الشركات انتفع به التجار فى مكة ومن امثلة ذلك ان احد التجار فى مكة اشترك مع تاجر آخر ... ثم انفصلا والسبب ان الاول سافر فى بعض السنين بمال مشترك بينهما فربحا فيه بحيث صار لكل منهما مائة ألف فما قضى رأى الآخر ترك السفر والقناعة بربح التجارة المحلية واختلف مع شريكه فانفسخ عقد الشركة بينهما .^(٧)

(١) البهوتى : الروض المربع ، ج٢ ، ص ٢٠٩ .

(٢) احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ، ص ٢٢٩ .

(٣) احمد عيسى عاشور : نفس المرجع ، ص ٢٣٠ .

(٤) البهوتى : نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٢١٠ .

(٥) احمد عيسى عاشور : نفس المرجع ، ص ٢٣٠ .

(٦) احمد عيسى عاشور : نفس المرجع والمضفة .

(٧) الفاسى : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

المعاملات الربوية :-

من انواع التجارة التى حرمها الاسلام تحريما قاطعا الربا واصله الزيادة .. قال الله تعالى : " ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا واحل الله البيع وحرم الربا " . (١) وجاء فى تفسير قوله تعالى " يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة " (٢) كان الربا فى الجاهلية أن يكون للرجل على الرجل حق الى أجل فاذا حل قال : " اتقضى أم تبرى ؟ .. فان قضاه أخذ والا زاده حقه وزاده فى الاجل وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرا . (٣)

ومن الموءسف أن نجد فى مكة تجارا يتعاطون الربا سواء أكانوا من اهلها أم من المجاورين فكان هؤلاء التجار يطالبون الفقراء وغيرهم ممن تضطرم الحاجة الى الدين بفائدة كبيرة أثقلت كاهلهم وأرهقتهم وهم قليلون ولله الحمد فالمسلمون حريصون على اتباع شرع الله فى معاملاتهم وبيوعهم غير ان لكل قاعدة شواذ .

ومن هؤلاء الشواذ التاجر المكي محمد بن حسب الله الزعيم المتوفى سنة ٧٨٣هـ كان واسع الثراء ويقال ان تركته بلغت ثلاثمائة ألف ألف وقيـل ثمانمائة ألف ألف ومائتى درهم وقيل ثلاثمائة ألف ألف وستمائة ألف درهم (٤) ويشير مصدر آخر الى ان ما ضبط من ماله بعده اكثر من عشرين ألف دينار سوى ما يخفى . (٥)

(١) سورة البقرة : آية ٢٧٥ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٣٠ .

(٣) ابن كثير : " تفسير القرآن العظيم " ، ج ١ ، ص ٤٠٤ ، ابن حجر : فتح البارى ، ج ٤ ، ص ٣١٣ .

(٤) الفاسى : العقد الثمين ، ج ١ ، ص ٤٥٥ .

(٥) ابن حجر : ابناء الفجر ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

وكان مشهوراً بمعرفة التجارة ولكنه كثير الربا لا يبالي في اعطاء المال على وجه السلف بالفائدة . (١)

ومنهم نزيل مكة محمد بن احمد بن عثمان التونسي المتوفى سنة ٨١٩ هـ ، كانت له دنيا واسعة فأذهبها بتسليفها لمن لا يتيسر منه كثير خلاص لفقره مع معرفته بحاله ولكن يحمله على ذلك ما يلتزم له به المتسلف من الربح الكثير وما حصل له من ذلك الا القليل وحصل منه في طلب ما لا يليق باهل العلم من كثرة التردد على الباعة للمطالبة واعراض بعضهم في حال طلبه

" واتفق له ذلك بالحرمين " . (٢)

الرهنــــــــــــــــــــن :-

الرهن يگفل للداثن دينة على تاجر سافر ولا يعرف عن اخباره شيئاً فهو توشقه دين بعين يمكن استيفاؤه منها ومن بعضها أو من ثمنها . (٣)

ودليله من القرآن الكريم قوله عز وجل : " وان كنتم على سفر ولم تجدوا .. كاتباً فرهان مقبوضه " . (٤)

ويشترط في الرهن أن يكون عيناً ^{بيعاً} يصح لأن الغرض منه حفظ المال لئلا يضيع
حق الدائن فإذا عجز عن الوفاء بيع المرهون واستوفى الحق منه .
وينعقد الرهن بالقول والمعاطاة ويلزم بقبضة المرتهن لقوله تعالى :
" فرهان مقبوضة " وقبضه أن كان منقولاً بنقله وأن كان غير منقول بتخليته
وهو أمانة في يد المرتهن فلا يضمنه إلا بالتعدي كسائر الأمانات أما إذا تلف
من غير تعد فلا شيء عليه ولا يسقط بتلفه شيء من دينه كما لا ينفك الدين

- (١) الفاسى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٥٠ .
- (٢) الفاسى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣١٥ .
- (٣) البهوتى : الروض المربع ، ج ٢ ، ص ١٩١ ، احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ص ٢٢٠ .
- (٤) سورة البقرة : آية ٢٨٣ .

بقضاء بعضه . (١)

وموئنة الرهن واجرة مخزنة ان كان مخزونا او محفوظا على الراهن لقوله عليه الصلاة والسلام: " لا يغلق الرهن من صاحبه الذي رهنه له غنمه وعليه غرمه والمعنى أن الرهن لا يستحقه اذا لم يستفكه صاحبه وأن له فائدته وعليه غرمه اذا تلف ولقوله صلى الله عليه وسلم " الظهر يركب اذا كان مرهونا ولبن الدر يشرب اذا كان مرهونا وعلى الذى يركب ويشرب نفقته " والمقصود أن الرهن لا يهمل ولا يعطل منافعه (٢) .

ونماء الرهن المتصل والمنفصل وكسبه وارث الجناية عليه ملحق به ويباع منه لوفاء الدين اذا بيع فلا يجوز الانتفاع بالمرهون والا كان قرضا جر نفعاً وهو ربا محرم فممنوعة المرهون وثمرته ملك للراهن وليس للمرتهن أن ينتفع بشيء منه الا اذا كان ظهرا يركب او فرعا يشرب (٣) لقوله صلى الله عليه وسلم (الظهر يركب اذا كان مرهونا ولبن الدر يشرب اذا كان مرهونا وعلى الذى يركب ويشرب نفقته) . (٤)

الوديعة ————— :-

عرفت مكة نظام الودائع منذ عهد بعيد بحكم موقعها فى ملتقى الطرق للقوافل التجارية اذ كانت محطة لازمة للتجار ومخزنا لتفريغ وشن المتاجر والسلع .

ولتأمين البضائع التى لا يستطيع التاجر أن يحملها معه او لا يكون آمنا عليها فى مخزنة الخاص كان يلجأ الى ائتماعها عند من يحفظها له وهو التزام جائز لقوله تعالى " ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها " (٥)

(١) البهوتى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٩١ - ١٩٣ ، أحمد عيسى عاشر : نفس المرجع ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) ابن صاجة : السنن ، المجلد الثانى ، ص ٨١٦ .

(٣) أحمد عيسى عاشر : الفقه الميسر ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٤) البخارى : صحيح ج ٣ ، ص ١١٦ ، ابن صاجة : المجلد الثانى ، ص ٨١٦ .

(٥) سورة النساء : آية ٥٨ .

وقوله عز وجل " فليؤد الذى اوئتمن امانته " (١) ولقوله عليه افضل الصلاة والسلام " اد الامانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك " (٢) .

ولان فى هذا النظام قضاء لحاجة المسلم ومعاونته كان حكم قبولها مستحبا لمن يجد فى نفسه الثقة والقدرة على حفظ الامانة (٣) ويفضل أن يكون هناك شهود فى حالة الايداع والرد لقوله تعالى " فاذا دفعتم اليهم اموالهم فاشهدوا عليهم " (٤)

ولا يضمن المستودع الوديعة اذا تلفت من بين ماله او فى حرز ولم يتعد ولم يفرط ولم يخن لانها امانة فى يد المستودع فلا ضمان عليه كسائر الامانات ويذكر الفاسى : أن أحد تجار مكة كان قد أودع أمانة لدى بعض المسافرين فمات غرقا فغم التاجر على ضياع وديعته وتعلل حتى مات هو أيضا " (٥)

وان تعدى فيها او قصر فى حفظها فتلفت ضمن ومن الصور التى يجب فيها الضمان

- ١ - اذا حفظها فى غير حرز مثلها .
- ٢ - اذا سافر ولم يتركها لصاحبها او وكيله .
- ٣ - ان ينتفع لنفسه بغير اذن صاحبها .
- ٤ - اذا اخرجها من حرزها لينفقها ثم يردها .
- ٥ - اذا رفع الختم عن كيسها وكانت مشددة فأزال الشد .
- ٦ - أن يخلطها بما لا تتميزه كدراهم مثلا .
- ٧ - ان يحجدها ثم يقربها .
- ٨ - ان يمتنع عن ردها عند طلبها مع امكانه .

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٣ .

(٢) ابن حنبل : المسند ، المجلد الثانى ، ص ٤١٤ .

(٣) البهوتى : الروض المربع ج ٢ ، ص ٢٢٩ ، احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ص ٢٥٦ .

(٤) سورة النساء : آية ٦ .

(٥) الفاسى : العقد الثمين ج ٦ ، ص ٣٥٥ .

هذا ويقبل قول المستودع في درها الى ربها فالقول بيمينه (١) لقوله تعالى: " فان آمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أوعظن أمانته " (٢)

الحملات والنظام المصرفي :-

مشتقة من التمويل أى الانتقال لأنها تحول الدين وتنقله من ذمة الى ذمة واختلف الفقهاء ... " هل هى بيع دين بدين رخص منه فاستثنى من النهى عن بيع الدين بالدين أو هى استيفاء ؟؟؟؟ وقيل هى عقد ارفاق مستقل^(٣) فالحكمة اذا من مشروعيتها ما فيها من الارفاق وتبادل المصالح بين الناس لقوله صلى الله عليه وسلم " مطل الفنى ظلم واذا اتبع احدكم على ملئء فليتبع " (٤) . أى اذا احيل احدكم على غنى فليقبل .

ويشترط لمحة الحوالة عدة شروط

اولا - رض المحيل ويقصد به المدين لان الحق عليه فلا يلزمه ادائه من جهة الدين على المحال عليه وهو الذى يقوم بقضاء الدين وهذا لا خلاف فيه .

ثانيا - رض المحال وهو الدائن^{عنه} الاكثر لان حقه فى ذمة المحيل فلا ينتقل الى غيره الا برضاه .

ثالثا - ان يكون الدين مستقرا في الذمة .

رابعاً تماثل الدينين - من المحال به والمحال عليه - من الصفات. (٥)

(١) البهوتى : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٢٩، ٢٣١، احمد عيسى عاشور : نفس المرجع ، ص ٢٥٦ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٣ .

(۳) ابن حجر: فتح الباری، ج۴، ص ۴۶۴.

(٤) البخارى : الصحيح ، ج ٣ ، ص ٥٥ .

(٥) ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة ، البهوتى : الروض المربع ، ٢٦

ص ١٩٧-١٩٨ ، احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ، ص ٢٢٦ .

فإذا وقعت الحوالة صحيحة برىء المحيل من دين المحال وبرىء المحال عليه من دين المحيل ويتحول حق المحال الى ذمة المحال عليه لان ذلك فائدة الحوالة . (١)

وإذا احال المدين دائنه على ملىء لزمه أن يحتال للحديث السابق . .
 " اذا اتبع احدكم على ملىء فليتبع ويشبه الوضع هنا الاحالة على البنوك
 الان اذا تعدتبرئة للذمة اذا التزم البنك المحال عليه بالدفع لانه فى حكم
 الاحالة على ملىء اما اذا احواله على مفلس ولم يكن يعلم ذلك رجع بحقه على
 المحيل لان الافلاس عيب وفى هذه المسألة خلاف بين الفقهاء فمن قال ان
 الحوالة عقد لازم فلا يرجع ومن قال انها عقد جائز فله الرجوع . (٢)

ولقد كان نمو المؤسسات المصرفية فى الشرق الاسلامى فى العصور الوسطى
 نتيجة طبيعية لاتساع نطاق التجارة " فكان للتجار وكلاء أو عملاء فى أهم
 المدن التجارية يكتبون اليهم بحال السوق فى الاقاليم التى يكونون فيها " .
 ويقرضونهم المال فيكتب أولئك التجار للمصارفة صكوكا بديونهم بدلا ممن
 أن يدفعوا اليهم نقدا اذا كان التجار نادرا ما يدفعون المبالغ نقدا وكثيرا
 ما كان التجار يلجئون الى تصفية الديون بطريقة التحويل من شخص الى آخر
 فى المدينة نفسها أو بين مدينتين مختلفتين (٣) وسندات هذا النوع قد
 تكون موءجلة الدفع ولكن ترد دفعة واحدة وقد تكون مقسطة ... وردها بهذه
 الصورة يتطلب استخدام السفنجة والسفتجة مصطلح يعنى أن يتسلم شخص مالا لآخر

(١) احمد عيسى عاثور : الفقه الميسر ، ص ٢٢٦ .

(٢) ابن حجر : فتح البارى ، ج ٤ ، ص ٤٦٤ ، العينى : عمدة القارى ، ج ١٢ ، ص

١٠٩ .

(٣) صبحى الصالح : النظم الاسلامية ، نشأتها وتطورها — ج ٤ ، بيروت

١٩٧٨ م ، ص ٣٩٧ .

وللاخر مال فى بلد آخر فيوفيه لصاحب الحق فيها .

وهذه الطريقة المالية ذات الصفة المصرفية تعد اضمن طريقة لحفظ المال من الضياع او المصادرة ويتولى هذه العملية الصيارفة فأصبح بإمكان التجار ايداع اموالهم لدى الصيارف ٠٠٠٠ مقابل الحصول على سندات بقيمتها واجبة الدفع فى المكان القاصدين له . (١)

ويعد النظام المصرفى ابتكارا اسلاميا فالمسلمون هم اول من عرف نظام السندات المالية المحولة للغير وعندهم اخذت اوربا هذا النظام وطورته . (٢)

والواقع ان السوق المالية قد نشطت فى مكة المكرمة طوال العصور الوسطى وازحت مركزا للصيرفة يدفع فيها التجار اثمان السلع التى يطلبونها من مختلف البلاد وبحكم مكانتها الدينية أصبحت مصبا لمختلف العملات النقدية واستطاع التجار ان يحولوا نقودهم منها الى اى مكان يشاءون .

ومن اشهر صرافى مكة فى القرن التاسع الهجرى التاجر احمد بن عبيد الله المكي المعروف بابى مغامس المتوفى سنة ٨١٥هـ وكانت له ثروة واسعة وصار يداين الناس كثيرا وذاع صيته بسبب ذلك . (٣)

(١) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ، ص ٣٤٣ .

(٢) صبحى المالح : النظم الاسلامية ، ص ٣٩٧ ، نعيم زكى فهمى : نفس

المرجع ، ص ٣٤٠ - ٣٤٢ .

(٣) الفاسى : العقود الثمين ج ٣ ، ص ٧٥ .

الاحتكار التجارى :-

الاحتكار فى اللغة : حبس السلعة عن البيع (١) وفى الشرع " امساك الطعام عن البيع وانتظار الغلاء مع الاستغناء عنه وحاجة الناس اليه وهو امر محرم شرعا (٢) وقد وردت الاحاديث الكثيرة فى ذم الاحتكار والترهيب منه كقوله صلى الله عليه وسلم " بئس العبد المحتكر ان ارضى الله تعالى الاسعار حزن وان اغلاها فرح " (٣) وقوله " الجالب مرزوق والمحتكر ملعون " وقوله : " من احتكر على المسلمين طعامهم ضرب الله بالجذام والافلاس " .. وقوله : " من احتكر حكرة يريد ان يغلى بها على المسلمين فهو خاطيء " وقوله : " من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برىء من الله تعالى وبرىء منه " (٤) وقوله " من دخل فى شئ من اسعار المسلمين ليغلى عليهم كان حقا على الله ان يقدفه فى جهنم رأسه اسفله " (٥) .. وان كان النهى عن الاحتكار عاما فقد خست مكة بالنهى الشديد عن ممارسة مثل هذه البيوع فيها فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال " لا تحتكروا الطعام بمكة فان احتكار الطعام بمكة الحاد بظلم " (٦).

كما وردت الاحاديث الصحيحة فى النهى عن التسعير قال عليه الصلاة

-
- (١) ابن حجر : فتح البارى ، ج٤ ، ص ٣٤٨ ، العينى : ج ١١ ، ص ٢٤٩ .
 - (٢) ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة .
 - (٣) ابن حنبل : المسند ، المجلد الثانى ، ص ٢٣٦ .
 - (٤) ابن حنبل : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة ، القول المسدد فى الذب عن المسند للإمام احمد رضى الله عنه ط٤ ، مكة المكرمة ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ص ٦٤ ، العينى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
 - (٥) ابن حنبل : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن حجر : القول المسدد ، نفس الصفحة .
 - (٦) ابن حنبل : المسند ، نفس الجزء والصفحة ، ابن الجوزى : مثير الفرام ، ق ٩٤ ب ، الفاسى : تحصيل المرام ، ق ٢٣ أ .

والسلام " ان الله هو الخالق القابض الباسط المسعر واني لارجو أن ألق الله ولا يطلبني احد بمظلمة^{علم} اياه في دم ولا مال " . . . وعندما سئل أن يسعّر قال عليه الصلاة والسلام " الغلاء والرخص جندان من جنود الله اسم احدهما الرغبة واسم الآخر الرهبة فاذا اراد الله يغليه قذف الرغبة في صدور التجار فرغبوا فيه فحبسوه واذا اراد أن يرخصه قذف الرهبة في صدور التجار فأخرجوه من ايديهم " وقال صلى الله عليه وسلم " ما سخط الله عز وجل على أمة الا غلا سعرها واكسد اسواقها واكثر فسادها واشتد جور سلطانها فعند ذلك لا يزكى اغنياءها ولا يعف سلطانها ولا يملئ فقراؤها " (١)

ومن هذه الاحاديث تتجلى الحكمة الالهية في حرية التسعير من قبل التاجر وانه ليس لولى الامر او الدولة ان تسعر الا انه في حالة الغلاء يمكن ان تدخل الدولة منافسة للتاجر لتعمل على تثبيت الاسعار وذلك عن طريق مقابلة زيادة الطلب بزيادة المعروض من السلع .

والاسلام عندما يحرص على عدم تلقي الركبان في قوله صلى الله عليه وسلم " لا تلقوا الركبان ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ولا تناجشوا ولا يبيع حاضر لباد " (٢) انما يعمل من اجل توفير السلع بيد عدد من التجار يتنافسون بشكل حر على بيع البضاعة وعلى تقديم الاغراءات والتنازلات للمشتري وبذلك يضمن مصلحة المشتري ومصلحة المجتمع على اساس واضح من منع للاحتكار والظلم .

والحقيقة ان هذه القيود انما وجدت لتقويم النفس البشرية على الدوام ضمن اطرار محددة وصهرها في بوتقة العمل لمصلحة المجتمع وطمس الانانية وتقديم الايثار ولكن ينبغي الا نستغرب من منطلق واقعى ان هناك نفوساً جبلت على حب المال والاستغلال فاتجهت نحو احتكار السلع والتحكم في اسعارها وقد شخص الخالق سبحانه هذا في قوله " ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي " (٣) .

(١) ابن حنبل : المسند ، المجلد الثانى ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٢) البخارى : الصحيح ، ٣ ، ص ٢٦ .

(٣) سورة يوسف : آية ٥٣ .

ولكن يبدو ان اخطر الاعمال التى اضرّت بالتجارة والنشاط التجارى فـى العصر المملوكى كان التوسع فى سياسة الاحتكار من قبل رجال الدولة الذين دخلوا منافسين للتجار فعملوا فى التجارة لحسابهم الخاص وانشأوا ما عـرف باسم المتجر السلطانى (١) ثم احتكروا تجارة بعض السلع والبضائع وخاصة القادمة من الشرق فمن " الحقائق التاريخية الواضحة ان السلطان قد اشتغل بالتجارة كما اشتغل بها امرأوه وكبار رجاله وموظفيه وعلى الرغم من أن بعض السلاطين قد ادرك مغيبة هذا العمل على المصلحة العامة للدولة و لطوائف التجار والخرفية فانهم لم يتخلصوا منه لان المتربع على اريكة السلطنة كان فى نفس الوقت التاجر الاول بين امراء دولته " . (٢)

وكان بعض اشراف مكة يمارسون التجارة ويحتكرون بعض الاقوات ويتحكمون فى اسعارها كما فعل الشريف عجلان غير ان ابنه احمد عندما قلد امانة مكة قام بالغاء جميع المظالم فيها ومن بينها ما اشير اليه . (٣)

وفى سنة ٨٢٣هـ عتب صاحب مصر الملك المؤيد على شريف مكة السيد حسن ابن عجلان لاحتكاره الطعام فكتب اليه الشريف قائلا : " انه لم يشتر ما اشتراه من الحب والتمر بقصد احتكاره وانما اشتراه لحاجته اليه لنفقته ولنفقة عسكره فلما رأى اضطراب الناس اليه باعه عليهم فكان فى خزنة لذلك وبيعه نفع للناس " . (٤)

وهذا تبرير ضعيف فمن ظاهـر النصوص التاريخية يتضح حب الشريف حسن للمال وجمعه له بأكثر من طريق كما ان سياسته مع التجار تتسم بعدم الثبات ويغلب عليها الطمع فيهم بل ان اهل القرى ومخاليف مكة كانوا فى ضيق من سياسته المتعنتة معهم . (٥)

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ، ص ٢٦٨-٢٦٩ ، ابن فهد اتحاف الورى ، ص ٣٥٢ .

(٢) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، ص ٤٢ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٠٤ .

(٤) الفاسى : العقد الثمين ، ج ٤ ، ص ١٣٧-١٣٨ ، ابن فهد نفس المصدر ، ص ٣٥٢ .

(٥) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٨٦ - ١٥٥ .

ومنذ عهد برسباى بلغت سياسة السلاطين الاحتكارية اشدها فقام
بداً باحتكار السكر وان لا يتعاطى احد بيعه الا من حواصله .^(١) ثم احتكر
تجارة الخشب والمعادن^(٢) وقد اجتذبت الحركة التجارية النشطة فى جـدة
نظرة فوجه همه الى الاستفادة من تلك الحركة وحمايتها ثم احتكار تجارة
التوابل الواردة من الهند الى جـدة ففى سنة ٨٢٨هـ امر بان ينادى فى مـكة
" الا يباع البهار على تجار مصر والا يكون البهار الا بهارا واحداً^(٣) فلا
يتجزأ توزيعه على التجار وبذلك يحتفظ وحده بحق شراء البهار حتى يبيعه
لحسابه على تجار الفرنج وما يتبقى يبيعه للتجار بالسعر الذى يحدده .

والواقع ان كثرة المكاسب قد اغرته على التوسع فى احتكار التجارة
الشرقية ففى عام ٨٣٢هـ امر بتجهيز مال الى جـدة ليشترى له وحجر على
الفلل ان يشتري لغيره والزم جميع التجار ان لا يتوجه احد ببضاعته الى
الشام ولا غيرها بل الى القاهرة ولا يباع الا بالاسكندرية بعد ان
يكتفى السلطان والزم الفرنج بشراء الفلفل بزيادة خمسين دينارا عن السعر
الواقع فاشترى الفرنج شيئا ورجعوا باكثر بضائعهم وما معهم من النقدا الى
بلادهم فلم يحصل للسلطان مقصوده وحصل على التجار من البلاء ما لا يوصف
وتماذى الامر على ذلك ولا يزداد الامر فى كل سنة الا شدة .^(٤)

وفى سنة ٨٣٣هـ اقام السلطان طائفة تشتري له البضائع وتبيعهها فاذا اخذت
بجدة المكوس من التجار التى ترد من الهند حملت فلفلا وغيره فى بحر القلزم
من جـدة الى الطور ثم حملت من الطور الى القاهرة ومنها فى النيل الى
الاسكندرية والزم الفرنج بشراء الحمل من الفلفل بمائة وثلاثين دينارا

(١) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج٣ ، ص ٣٠٩ - ٣٢٣ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٢٤٣ .

(٣) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج٣ ، ص ٣٥٠ .

(٤) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٢٣ .

وسعره بالقاهرة خمسون دينارا فبلغ السلطان ان بعض التجار سأل الفرنج بالاسكنـدرية أن يبتاعوا منه الحمل بأربعة وستين دينارا فأبوا ان يأخذوه الا بتسعة وخمسين فأحب السلطان عند ذلك الزيادة من الفوائد وان يأخذ ما عند التجار من الفلفل بسعر ما دفع لهم فيه الفرنج ليبيعه هو على الفرنج بما تقدم ذكره فمنعهم من بيعهم على الفرنج ليبور عندهم فيأخذه حينئذ منهم بما يريد . (١)

وتجدد في هذه السنة ثلاث مظالم :-

- ١ - التشديد على الكارمية بمنع توابلهم الا له والا منعوا من ممارسة التجارة .
- ٢ - التشديد على التجار في طرح النطرون .
- ٣ - احتكار القصب والا يزرع الا في بلاد السلطان . (٢)

وفي سنة ٨٣٥ هـ اشتد السلطان على التجار والزمهم بعدم بيع بضائعهم الا بآذنه ثم جمعهم في رمضان وسألهم أن يبيعوا عليه جميع ما عندهم من الفلفل بسعر الحمل خمسين دينارا ففاق بذلك التجار ولكنهم لم يجدوا بدا من الاذعان وكانوا قد باعوه له قبل ذلك بثمانين دينارا . " وذكر لـه بعضهم ذلك فلم يلتفت اليه ثم كتب مراسيم وارسلت الى الشام والحجاز والاسكنـدرية بالا يبيع احد البهار ولا يشتريه الا السلطان " . (٣)

وأمعن برسباي في وضع الخطط التي من شأنها توطيد وتدعيم سياسته الاحتكارية ففي سنة ٨٣٨ هـ قصر الاتجار في التوابل وغيرها من سلع الشرق على جدة ومنع التجار من حملها الى مكة حتى لا تتسرب البضائع اليها دون أخذ

(١) المقریزی : السلوك ج٤ ، ص ٨١٣ - ٨٢٤ .

(٢) ابن حجر : ابناء القمر ، ج٣ ، ص ٤٣٩ .

(٣) ابن حجر : نفـس المصدر والجزء ، ص ٤٧٣ .

المكس عليها وفي العام نفسه حمل الى جدة مرجان ونحاس وغير ذلك ممسما يحمل من السلع الى بلاد الهند فالزم التجار بشراؤها بالسعر الذي حددده وسار رجال دولته على نهجه فشق ذلك على التجار واضطروا الى ترك جدة والتوجه الى عدن . (١)

وتشير المصادر الى احتكار الباعة المصريين المعاش بمكة وجلوسهم بالحوانيت في المسمى وتلقيهم الجالب ومزاحمتهم اهلها فكثرت ضررهم وعجز الحكام عن منعهم لاحتمائهم بالمماليك المجردين الذين تقووا بهم نظيـــــر ما يأخذونه منهم من مال فغلت الاسعار وحدثوا ما لم يعهد بمكة ووصل امرهم الى السلطان جقمق فصدرت المراسيم سنة ٨٤٣هـ بمنعهم واخراجهم من مكة (٢) .

وهكذا ففي حين ينكر السلاطين الاحتكار من قبل التجار والباعة لسم يستطيعوا هم انفسهم التخلي عن السياسة الاحتكارية مدفوعين بحب المصلحة التجارية والربح فتعدى دور الدولة الاشراف على الحركة التجارية وتوفير الامن للتجار والسلع الى ممارسة التجارة بل اصبح الاحتكار نظاما ثابتا فيها منذ ايام برسباي حتى ايام الغوري رغم ما في هذا العمل من مخالفات شرعية وبعد عن المنهج الاقتصادي السليم .

ويشير المؤرخون الى ان هذا النظام الاحتكاري الذي سارت عليه الدولة هو الذي عجل بنهايتها وكان من بين العوامل التي حدت بالغرب الاوربي الى البحث عن طريق آخر للوصول الى الشرق والسيطرة على نقاط التجارة الهامة واحتكارها وما تلا ذلك من تدهور الاقتصاد المملوكي وتقلص مركزهم التجاري الرائد في الربط بين الشرق والغرب . (٣)

-
- (١) المقریزی : السلوك ، ج٤ ، ص ٩٢٩ ، ابن فهد : اتحاف الوری ، ص ٣٧٣ .
 (٢) المقریزی : نفس المصدر والجزء ، ص ١١٩٣ ، ابن فهد : نفس المصدر ص ٣٨٥ ، الجزیری : درر الفوائد ، ص ٣٢٨ .
 (٣) سعيد عاشور : العصر المماليکی ، ص ٣٠٧-٣٠٨ ، صبحی لیب : التجارة الكارمية ص ٤٢ - ٤٣ ، نعیم زکی فهمی : طرق التجارة ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

النقود والقيم النقدية :-

مما لا شك فيه ان استخدام الوحدات النقدية مقياسا لقيمة السلع ثم وسيطا للتبادل يعد ارقى ما وصل اليه النظام التجارى فقد " اكتشف الانسان فيها خصائص هامة من حيث المظهر والندرة والبقاء والتجانس والتجزئة المادية والاقتصادية (١) وقد ذلل ذلك جميع الصعوبات التى تكتنف نظام المقايضة وتشكل قيذا على نطاق المعاملات التجارية .

ويمكن أن تعد النقود بمثابة العمود الفقرى للنظام الاقتصادى ذلك ان قيمتها او قوتها الشرائية قد ساعدت فى اتساع نطاق السوق وزيادة حجم المعاملات التجارية واصبح بامكان الانسان " توجيهها لتحقيق مطالبه فى المجتمع بالطريقة التى تناسبه والتى تحقق اقصى ارباح لرغباته (٢) وان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مواعظ رقاق تعرض بالدينار والدرهم وتدعو الى الزهد فيهما كقوله : " تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ان اعطى رضى وان لم يعط لم يرض " (٣) وقوله عليه الصلاة والسلام : " ان هذا المال خضرة حلوة فمن اخذه بطيب نفس بورك له فيه ، ومن اخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى " (٤) وكانت الوحدات النقدية فى العصر المملوكى تتألف من ثلاثة انماط اساسية هى الديناير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية . (٥)

(١) المقرئى: (تقى الدين احمد بن على) ، اغاثة الامة بكشف الغمة وتاريخ المجاعات بمصر حمص ١٩٥٦م مقدمة المحقق ع .

(٢) سامح عبد الرحمن فهمى : الوحدات النقدية المملوكية جدة ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م ص ٢٧ .

(٣) البخارى : الصحيح ج٧ ، ص ١٧٥ ، ابن هاجة : السنن ، المجلد الثانى ، ص ١٣٨٦ .

(٤) البخارى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٧٦ .

(٥) عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ماضيها وحاضرها القاهرة ١٩٦٤م ، ص ٩١ سامح عبد الرحمن فهمى : نفس المرجع ، ص ٢٧ .

وكان الغالب على المعاملات المالية فى الحجاز الصرف بالنقدين العزيرين^(١) فقد استطاعت مكة بمكانتها الدينية الراسخة ان تصبح معقلا لاوسع الانشطة التجارية وان تنصب فيها جميع العملات المتداولة فى العصور الوسطى سواء تلك التى يجلبها الحجاج والتجار او التى يرسلها سلاطين وأمراء العالم الاسلامى كهبات وصدقات لتوزع فى الحرمين الشريفين وبذلك أصبحت مكة سوقا دولية تستعمل فيها جميع العملات^(٢) وكانت النتيجة الحتمية لاتساع السوق النقدية نشاط حركة الاتجار بالنقود عن طريق مبادلة العملات سواء كانت عملات خارجية ام محلية ٠٠٠٠٠. وبتقدم التجارة وظهور فائض النقود لدى التجار أصبحت مكة تفرض سعر العملات فيها بسعر معدنها الجيد .

ومن العملات النقدية المتعامل بها فى مكة فى هذا العصر ٠٠٠٠٠.

الوحدات النقدية الذهبية:

ويتم تداولها على هيئة مسكوكات معدنية ذهبية وهى ذات قيمة ذاتية اى تتعادل قيمتها على انها نقد مع قيمتها على انها سلعة وكان الذهب قاعدة التعامل المالى ولاهميته كانت تقوم به وحدات النقود الاخرى .

(٣)

واصله فى اللاتينية Denarius ويطلق لفظ مثقال على الدينار

والوزن الشرعى للدينار الاسلامى هو ٧٢ حبة من الشعير^(٤) أو ٤٢٥ جرام^(٥)

-
- (١) ابن خلدون : العبر، ج١، ص ٧٠ .
 - (٢) القلقشندي : صبح الاعشى، ج١، ص ٤٢٥ .
 - (٣) عبد الرحمن فهمى : النقود العربية، ص ٨ .
 - (٤) ابن خلدون : المقدمة، القاهرة ١٣٢٢هـ، ص ٢٢٠ .
 - (٥) محمد ضياء الدين الـريس : الخراج، ص ٣٥٩، عبد الرحمن فهمى : النقود العربية، ص ٩، صبحى الصالح : النظم الاسلامية، ص ٤٢٧ .

وبسبب التبعية السياسية لمصر كانت العملات المتداولة في مكة أكثرها
مصرية وكان الدينار المصري يساوي أربعة دنانير مكية ونصف دينار ويعادل
ثمانية عشر درهما ، كل أربعة دراهم دينار مكي وكل درهم ثلاثة جوز كل
جائز ثمان فلوس وكل فلس أربعة درس . (١)

ومنذ احياء الخلافة العباسية بمصر سنة ٦٥٩هـ كان ينقش على السكة
اسم الخليفة العباسي مصحوبا باسم السلطان المملوكي (٢) غير ان اسم الخليفة
لم يلبث ان اسقط من سكة النقود (٣) واصبح وجه العملة يحمل اسم السلطان
المملوكي فقط وتاريخ ومكان الضرب بالخط النسخي المملوكي ويحمل الوجه
الثاني عبارة نصها " لا اله الا الله محمد رسول الله ، ارسله بالهدى ودين
الحق ليظهره على الدين كله " او عبارة " الله ... وما النصر الا من عند
الله ، لا اله الا الله ، محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق (٤) .

وقد كانت الوحدات الذهبية المملوكية بمثابة غطاء لميزانية الدولة (٥)
وكانت تخضع للتغيير والتعديل في عيارها ووزنها وحجمها وتحدد اسعارها
وفق قانون العرض والطلب وبناء على رغبة السلطان المملوكي وذلك ان ارتفاع
القيمة السوقية للذهب عن قيمته القانونية اغرته بضرب النقود الذهبية
واكتنازها أو بيعها لحسابه الخاص بالسعر السوقى المرتفع وتحقيق الربح
والاثر من هذه العملية وكان سعر صرف الدينار حتى نهاية القرن الثامن
الهجرى يتراوح بين عشرين وثلاثين درهما . (٦)

-
- (١) ابن المجاور : (جمال الدين ابو الفتح يوسف بن يعقوب) صفة بلاد اليمن
ومكة وبعض الحجاز المسمى تاريخ المستبصر ، ليدن ، ١٩٥١م ، ص ٣٣ .
(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٥٢ - ٥٣ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٧ .
(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، السيوطي : نفس المصدر
والجزء ، ص ٦١ .
(٤) عبد الرحمن فهمي : نفس الصرح ، ص ٩١ .
(٥) سامح عبد الرحمن : الوحدات النقدية المملوكية ، ص ٢٧ .
(٦) الشجاعى : تاريخ الملك الناصر ، ق ١ ، ص ٦٦ - ٦٧ ، ابن حجر : ابناء
الغمر ج٢ ، ص ٥١ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣٠٢ .

وان كانت لمكة ظروفها الخاصة التي ربما جعلتها غير مقيدة بتحديد الاسعار من قبل الدولة أو قللت من تأثيرها بالعوامل الخارجية للدولة فابن بطوطة يشير الى انخفاض اسعار الذهب والفضة في مكة ويربط ذلك بموسم الحج وبكثرة ما يحمله الحجاج ويتصدقون به وخاصة حجاج الركب العراقي الذين كان لهم اشركبير في انخفاض سعر الذهب سنة ٧٢٨هـ حتى انتهى صرف المثقال او الدينار الى ثمانية عشر درهما نقرة . (١)

وهناك ظاهرة في الاقتصاد النقدي للعصر المملوكي لابد من الاشارة اليها وهي ان العملات الاجنبية الذهبية من ضرب البندقية وفلورنسا احتلت مكانا بارزا في المعاملات التجارية وصارت من النقد المتداول في مصر والشام والحجاز منذ سنة ٨٠٠هـ (٢) وتمتعت بسعر قانوني واصبحت هي النقد المرغوب فيه في التجارة الدولية بعامة وفي كل بلاد الشرق بخاصة وليس غريبا بعد ذلك اذا تسربت كميات كبيرة من الذهب من أسواق الشرق العربي الى ايطاليا لتزويد دور السك فيها بالمعادن اللازمة لضرب الدوكات والفلورين .

وقد جهدت المدن الايطالية في اجتذاب الذهب باسعار مغرية لتفخر الاسواق التجارية بنقودها الذهبية الرابعة . (٣)

ويمثل هذه العملة الذهبية الفلورين وهو من ضرب فلورنسا وعرف في الاسواق العربية باسم " افلورى " اما الافرنقى فهو من ضرب البندقية ويصفها القلقشندي بانها معلومة الوزن - وكل دينار منها بتسعة عشر قيراطا ونصف قيراط وعلى احد وجهيها صورة الملك وعلى الوجه الاخر صورتا بطرسوبولس

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٠٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ص ٢٨٣ .

(٣) عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ، ص ٩٦ - ٩٧ .

حواريي المسيح عليه السلام (١) ولهذا عرفت في المعاملة بالذهب المشخص (٢)

وتجدر الإشارة الى ان رسوخ التعامل المالى بالعملة البندقية انما يعود الى دقة سكهها ووزنها الثابت (٣٤٥ جرام) وعيارها المرتفع ، وسكهها المحدد (٣) " بينما يقابل ذلك دنانير " مملوكية " معاصرة ليس لها عيار او وزن ثابت او سمك او قطر محدد لذلك كان من السهل على التجار عند التعامل استسلام الدوكات بالعدد بدلا من الدنانير المملوكية التي كان يضطر المتعاملون بها الى وزنها واطافة قطع ذهبية اخرى لاستكمال الوفاء عند الدفع . (٤)

وفي محاولة لاعادة الثقة بالعملة الذهبية المملوكية امر السلطان فرج بن برقوق سنة ٨٠٣هـ بتثبيت قيمة الدينار المملوكى على وزن المثقال اى بما يوازي (٢٥٤ جرام) غير ان هذا الاصلاح النقدي لم يكتب له الدوام وتطرق الفساد اليه وعانى الدينار تناقص جوهري في وزنه حتى صار يعادل نصف مثقال أو ربع مثقال وقد فسر القلقشندي ذلك بقوله " وكأنهم جعلوا نقصها نظير كلفة ضربها . " (٥)

ومع استمرار عمليات التغيير وعدم ثبات اسعار الصرف ونشاط مزيفي النقود توقف حال الدينار المملوكى في اسواق النقد وانحطت قيمته بالنسبة الى العملات الذهبية الاجنبية فاضطرت الدولة الى سحب هذه العملات المنافسة من الاسواق واعادة سكهها ذهباً بالنقص .

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج٣ ، ص ٤٤١ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج٤ ، ص ٧٠٩ ، ابن حجر : ابناء الفجر ، ج٣ ، ص ٣٦٤ ،

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ٢٨٣ .

(٣) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ، ص ٣٥٩ . عبد الرحمن فهمى : النقود

العربية ، ص ٩٧ .

(٤) عبد الرحمن فهمى : نفس المرجع والصفحة .

(٥) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج٣ ، ص ٤٤١ ، عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ص ٩٨ .

واذا كان اقدام الدولة على هذه الخطوة يعد وسيلة لتصحيح الاختلال غير المرغوب فيه من ميزان مدفوعاتها فإنه ألحق الخسائر المادية بالتجار وهز شقتهم بالنظام النقدي المملوكى . (١)

واذا كانت التجارب السابقة قد فشلت فى تثبيت التعامل بالذهب المملوكى فان السلطان برسباى نجح فى اعادة بناء النظام النقدي للعملة الذهبية ف ضرب الدينار الاشرفى بوزن الافرنتى (٣ر٤٥ جرام) فكانت معاملته كما يقول ابن اياس : " من احسن المعاملات ، من اجود الذهب ، من سيمى الاشرفية البرسبيهية فانها من خالص الذهب والى الان يرغب اليها الناس فى المعاملات " (٢)

والواقع ان عجز الدولة فى ميزان مدفوعاتها بعد فساد نظام الاقطاع وممارستها الاحتكارية للتجارة الرئيسية كان لها أسوأ الاثر فى السوق النقدية المملوكية فقد قل تدفق كميات الذهب على هذه السوق وعمد السلاطين الى انقاص معدل العملة مع الاحتفاظ بقيمتها القانونية . (٣)

والجدير بالذكر هنا ان المجاعة النقدية لم تكن قاصرة على الدولة المملوكية بل كانت ازمة عالمية اذ ان حدة المبادلات التجارية التى اضحت خاضعة لمراقبة الدولة اخذت تستوجب الكثير من الالات النقدية .

وفى كل مكان وخاصة أوروبا نشأت الرغبة فى استغلال المناجم التى اُهملت منذ العصور القديمة لكن النتائج خيبت الامال وبقيت القوة الشرائية لكل من الذهب والفضة مرتفعة . (٤)

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج٣ ، ص ٤٤١ - ٤٤٢ ، عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص .

(٣) ابن حجر : ابناء القمر ، ج٢ ، ص ٤٠١ ، ج٣ ، ص ٤٠٦ ، ٤٥٥ ، ٤٦١ ، ابن اياس :

بدائع الزهور ج٢ ، ص ٢٩٤ ، ٣٣٦ ، ٣٤٤ ، ج٣ ، ص ١٢١ .

(٤) جورج لوفران : تاريخ التجارة ، ص ٦٦

ولمعالجة قلعة الذهب لجأ المماليك الى عقد المعاهدات مع البندقية ونصت تلك المعاهدات على تخفيض الضرائب على كميات الذهب والسيائك الذهبية التي يرد بها تجار البندقية الى دار السك في مصر ليتم ضربها فيها — دنانير مملوكية . (١)

وقد كان اسعار صرف الذهب في القرن التاسع الهجري كمايلي :-
الدينار الهرجة (٢) : كانت اسعار صرفه من ثلاثين الى مائتين وثمانين درهما .

الدينار الاشرفى : كانت اسعاره من ٢٢٠ الى ٣٧٠ درهما ووصل التضخم النقدي لسعر الدينار الى ٤٦٠ درهما .

الافرنتى والافلورى كان صرفها من ٢٤ الى ٣٦٠ درهما (٣) . وصرف الافرنتى بمنى سنة ٨١٥هـ بسبعة وخمسين مسعوديا ثم نزل سعره الى خمسين مسعوديا وفى حين كان سعر الدينار الهرجة ستين مسعوديا ونحوها ووصل سعر الافرنتى فى رمضان من عام ٨١٦هـ ستين مسعوديا (٤) وفى عام ٨١٩هـ انتهى صرف الافرنتى بمكة ب ٥٤ مسعوديا وربما زاد (٥) وكان صرفه فى وادى مر ب ١٥ مسعوديا (٦) وكان صرف الافلورى بمكة منذ سنة ٨٤٨هـ من ١٠٠ - ١٢٠ مسعوديا (٧)

وفى القرن العاشر الهجرى بلغ الانهيار بالعملة الذهبية المملوكية

-
- (١) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة، ص ٣٦٠، عبدالرحمن فهمى: النقود العربية ص ١٠١-١٠٢.
 - (٢) الهرجة " دنانيز تستعمل خاصة فى الحلج كالاياور والعقود وغيرها بان يصاغ اطرافها حلقات صغيرة او تجعل فى جوانبها ثقوب ومفردها هرج ، سعيد عاشور: العصر المماليكى، ص ٤٨٣ .
 - (٣) ابن حجر: ابناء الفجر، ج ٢، ٥١، ٢٣٣، ٤٦٣، ج ٣، ٧٢، ٩١، ٤٠٦، ٤٥٥، ٤٦١، ابن اياس بدائع الزهور : ج ٢، ص ٢٨، ١٣٧، ٣٢٢، ٣٣٦، ٣٤٤ .
 - (٤) الفاسى : شفاء الفرام، ج ٢، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
 - (٥) الفاسى : نفس المصدر والجزء، ص ٢٧٧، ابن فهد : اتحاف الورى، ص ٣٤٤ .
 - (٦) الفاسى : نفس المصدر والجزء، ص ٢٧٧ .
 - (٧) ابن فهد : نفس المصدر، ص ٤٠٠ .

نهايته لدرجة أن دار الضرب أصبحت تسك العملات المزيفة " من الذهب والفضة وظهر بها الزغل كالشمس حتى ضج من ذلك سائر الناس والأمراء وصارت معاملته السلطان لا تمشى في غالب البلاد وامتنع الذهب البرسيه والجمقى والاینالى والخشقدمى والقایتبية وصار الذهب الغورى والفضة هي التي عليها العمل مع ما بها من الفس الفاحش^(١)؛

الوحدات النقدية الفضية :-

من الواضح أن الفضة نافست الذهب باعتبارها قاعدة للنقد في العصر المملوكى واصبحت هي النقود الرئيسية بعد ان انتقلت الدولة من نظام المعدن الواحد المتمثل في الدينانير الذهبية الى نظام المعدنين وفيه تحددت قيمة الوحدة النقدية بالنسبة لمعدنين هما الذهب والفضة فكانت قيمة الرواتب والخدمات والاسعار تقدر بالدينانير الذهب ويتم الدفع بالدرهم الفضية .^(٢)

ولفظ درهم ليس عربيا بل اخذه العرب من لفظ Diram في الفارسية وهو يوناني الاصل .^(٣)

والدرهم الشرعى هو الذى وزن العشرة منه سبعة مثاقيل أى $\frac{7}{10}$ الدينار ووزنه خمس وخمسون حبة من الشعير^(٤) أى صا يوازى (٢٩٧٥ جرام)^(٥)

ومن الدراهم الفضية التي كان لها رواج كبير في مكة في العهد المملوكى الدراهم الكاملية نسبة الى الملك الكامل الايوبى^(٦) وهي ثلاثة أشـلاث

- (١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ١٥٣ .
- (٢) المقرئى : اغاثة الامة ، ص ٦٦ ، سامح عبد الرحمن فهمى : الوحدات النقدية : ص ٣٠ .
- (٣) المقرئى : نفس المصدر ، ص ٦٧ هـ .
- (٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٠ ، المقرئى : اغاثة الامة ، ص ٥٧ .
- (٥) محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج ، ص ٢٥٤ .
- (٦) " اتسعت المملكة للملك الكامل حتى قال خطيب مكة مرة عند الدعاء له سلطان مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والشام وصناديدها ، سلطان القبلتين ورب العلامتين ، وخادم الحرمين الشريفين الملك ابو المعالى ناصر السدين محمد خليل امير المؤمنين وكايت وفاته بدمشق سنة ٦٣٥هـ السيوطى : حسن لمحاضرة ، ج٢ ، ص ٣٤ .

ثلثان من الفضة والثلث من النحاس يضاف على المائة من الفضة الخالصة خمسون درهما من النحاس والدرهم ثمانية عشر خروبة والخروبة ثلاث قمحات (١) أى ما يوازى ٣٣٩ جرام على أساس أن وزن الخروبة ١٩٤.٠ جرام . (٢)

وتعرف هذه العملة الفضية بالدرهم النقرة وتسك بدار الضرب بالسكة السلطانية ومنها دراهم صحاح وقرضات (٣) مقصورة .

غير أن الدراهم لم تسلم هى أيضا من الغش فى العصر المملوكى ، وأصبح الدرهم منها تسعة اعشاره نحاس وعشره فقط من الفضة . (٤)

وكانت هناك دراهم أخرى يجرى التعامل فى مكة وهى الدراهم المسعودية نسبة الى الملك المسعود صاحب اليمن (٥) وتمتاز بنوعها الجيد فهى من الفضة الخالصة مربعة الشكل زنتها نحو نصف ثم نقص حتى انخفض الى السدس . (٦)

هذا وقد ظل التعامل بالدراهم الكاملة والمسعودية فى مكة ثابتا وراسخا فى المعاملات التجارية بمكة طوال العهد بين الايوبى والمملوكى وقد أدرك الفاسى الناس يتعاملون فيما بين القرنين الثامن والتوسع الهجرين ويذكرهما كثيرا وهو يتحدث عن اخبار الرخص والغلاء بمكة . (٧)

-
- (١) المقربرى : نفس المصدر والصفحة .
 - (٢) عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ، ص ٧٤ .
 - (٣) ابن بعرة : (منصور الذهبى الكاملى) كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبد الرحمن فهمى ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦ م ، ص ٧٥-٧٦ ، القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣٩ ، ٤٦٢ - ٤٦٣ .
 - (٤) السيوطى : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٠٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ، ص ١١ .
 - (٥) الملك المسعود بن الملك الكامل ناصر الدين ابو المعالى ولى مكة من قبل والده وكان حال الناس بها حسنا لهيبته توفى سنة ٦٢٦هـ ، الفاسى : تحصيل المرام ، ق ١٨٩ ، العقد الثمين ، ج ١ ، ص ١٩٠ .
 - (٦) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
 - (٧) الفاسى : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٧ .

كما يشير ابن فهد . الى انه فى سنة ٨٤٨هـ عقد مجلس ضم القضاة والامراء فى مكة للنظر فى الدراهم المسعودية وان تضرب دراهم عوض عن الدراهم الموجودة فى مكة ولكنه لم يشر الى النتائج التى توصل اليها المجلس بخصوص هذه الدراهم الجديدة او ابطال التعامل بها وان اشار الى تحديد القيمة النقدية لصرف الافلورى والمسعودى بمكة .^(١) والجدير بالذكر أنه منذ بداية القرن التاسع الهجرى بدأت الدراهم تتسرب من الدولة المملوكية الى الخارج واخذ الناس يسبون ما بأيديهم من فضة لاتخاذها زينة وحليا فادى ذلك الى انخفاض العرض النقدى من الفضة فراجت الفلوس وكثرت بايدى الناس وغلبت على غيرها من العملات وانتهى الامر باختفاء المعدن الجيد ذى القيمة السوقية من التداول وعظم رواج المعدن الردى .^(٢)

ومن اشهر الدراهم التى ضربت فى العصر المملوكى الدراهم الظاهرية^(٣) نسبة الى السلطان الظاهر برقوق وكان ضربها بمصر سنة ٧٨٩هـ ويشير المؤرخون الى ان اسم السلطان جعل " فى دائرة فتفاءلوا له من ذلك بالحس فوقع عن قريب " .^(٤)

وفى سنة ٨١٥هـ ضرب الامير نوروز^(٥) الدراهم الخالصة وكانت زنة الواحد نصف درهم والدينار ثلاثين منه . . . ففرح الناس بها وكانت معاملاتهم قد خسرت بالدراهم المفشوشة .^(٦)

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٤٠٠ .

(٢) المقرئى : اغاثة الامة ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٣٥ .

(٤) ابن حجر : ابنا الغمر ج ١ ، ص ٣٣٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ، ص ٣٠٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ٣٠٧ .

(٥) هو نائب دمشق انتهى امره بالقتل فى سلطنة الموءيد شيخ سنة ٨١٧هـ .

(٦) ابن حجر : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٥١٣ ، السيوطى : نفس المصدر ج ٢ ، ص ٣٠٨ .

كما قام السلطان الموءيد شيخ سنة ٨١٦هـ بضرب الدراهم الموءيدية (١) وامر ان تنسب قيم الاعمال واثمان المبيعات اليها (٢) وكثر تداولها سنة ٨١٨هـ وكانت كبارا وصغارا ووزن الصغير منها سبعة قراريط فضة خالصة وسعره تسعة دراهم ووزن الكبير اربعة عشر قيراطا وسعره ثمانية عشر . واستطاعت هذه الدراهم ان تكسب ثقة الناس بما حققت من ثبات فدعم ذلك حرية التجارة وساعد على نمو التبادل النقدي (٣) الا انه فى سنة ٨٢٥هـ كثر الغش فيها حتى نودى عليها بعشرين درهما من الفلوس . (٤)

وقد استمر التعامل بالدراهم الموءيدية حتى ايام الاشرف اينال الذى ضرب الدراهم الاشرفية الجيدة كل اشرفى بخمسة وعشرين نصف عددية من خالص الفضة وابطل سائر المعاملات فى الدراهم الموءيدية المغشوشة وضرب بيد من حديد على مزيفى النقود " الزغلية " ويعد هذا العمل من اكبر المزايا التى حققها اصلاح النقدي فثبات العيار واستقرار اسعار المرفق قلل من المخاطرة فى المبادلات التجارية والمعاملات المالية يقول ابن اياس : وكان ذلك سببا لاصلاح احوال المعاملة وقد انطرح بعد جهد كبير . (٥)

وفى سنة ٨٨١هـ نودى على الدراهم الفضة الا يتعامل بها الا بالميزان لا بالعدد وكانت قد خفت جدا (٦) ثم صار النصف الفضة يصرف باربعة وعشرين درهما من

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ١١ .

(٢) المقرئى : السلوك ج٤ ، ص ٦٢٩ - ٦٣٠ .

(٣) ابن حجر : ابنا الفجر ، ج٣ ، ص ٥٤ .

(٤) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٨ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٤٤ .

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ١٢١ .

ولأن القوة الشرائية للفلوس كانت تعتمد على الوزن نشط الزغليسة في غشها وخلطها بقطع من الحديد والنحاس والرصاص حتى صارت القففة من الفلوس التي وزنها مائة رطل لا يكاد يوجد فيها عشرين رطلا من الفلوس وانفتح للصيارفة ونحوهم من ذلك باب ربح وهو انهم صاروا ينقون الفلوس ويبيعونها لمن يحملها الى الحجاز واليمن وبلاد المغرب كل قنطار بسبعمائة درهم ومعنى هذا ان الفلوس المنتقاة بدأت هي ايضا تتسرب من البلاد وصارت الفلوس صنفين سعرين مختلفين فرطل المنتقاة بسبعة دراهم والمغشوشة بخمسة دراهم (١).

والمتأمل في تاريخ الدولة المملوكية يجد ان الفلوس اكتسحت السوق النقدية القائمة علي نظام المعدنين الذهب والفضة وخاصة في اواخر هذا العهد والقاعدة النقدية تقول : " العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة " اي ان المعدن الذي ترتفع قيمته السوقية عن قيمته القانونية يميل الى الاختفاء من الاسواق ويحل المعدن الرخيص بدلا منه " (٢) فضربت الفلوس بكميات كبيرة وكانت في غاية الخفة وصارت البضائع تباع بسعرين بالفلوس الجدد والفلوس العتيق وخسر اصحاب الاسواق الثلث في معاملاتهم بعد ان شعر الرطل من الفلوس بثمانية عشر درهما نقرة . (٣)

ومن كل ما سبق يتضح ان الاختلال في اسواق النقد المملوكية وزيادة الاسعار بمعدل يزيد عن القيم النقدية كان من اهم عوامل تعطل الاسواق وكسادها وخاصة بعد اضطراب التجارة الدولية في عهد السلطان القوري (٤) . وعلى كل حال فان مكة بموقعها الممتاز وباستقلالها الذاتي كانت تحدد سعر العملة بما يتناسب مع قيمة المعدن وما يقتضيه العرض والطلب وقد ساعد ذلك على نجاح اقتصادها وتنميتها .

- (١) المقريري : السلوك ج٤ ، ص ٦٢٩ - ٦٣٠ .
- (٢) عبد الرحمن فهمي : النقود العربية ، ص ١٠٤ - ١١٠ .
- (٣) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٢٥١ .
- (٤) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠ ، ٢٥١ .

الفصل الخامس

المنشآت التجارية

- الأسواق -

- الوكالات والخانات والقياس وغيرها من
المنشآت التجارية -

- المشرفون على المنشآت التجارية -

تعد المنشآت التجارية أساساً تنظيمياً للحركة التجارية وبقيـدر استكمال ذلك الأساس يتحدد مدى الازدهار التجارى وهذا لا يمنع فى الوقت نفسه أن يكون تدفق السلع على احد المراكز التجارية الرئيسية هو الدافع الى ايجاد تلك التنظيمات أو المنشآت التجارية أو يكون من العوامل المؤدية الى تعديلها أو استكمالها بما يناسب حجم وأهمية تلك الحركة ولكى تقوم تلك المنشآت بتحقيق الهدف من أنشائها وضعت تحت اشراف محكم محدد الاختصاصات بما يتناسب مع القواعد والاصول الشرعية للتجارة فقد كانت الاسواق والوكالات والخانات والقياس من المنشآت التجارية التى قامت على أنها أساس تنظيمى للحركة التجارية وكان الاشراف عليها لتحقيق الرقابة والفرب على ايدى العابثين بها .

الاسواق ————— : —

تعتبر الاسواق بمثابة القواعد الاساسية اللازمة لاستمرار الحياة الاقتصادية وهى أقدم اشكال النظم التجارية وقد نشأت ونمت فى اطار مـسن احتياجات المجتمع واجتذبت طلاب الرزق واصحاب رؤوس الاموال .

وليس من شك فى أن انشاء مثل هذه القواعد التجارية فى مكة قـسد تمخض عن نتائج ايجابية فعالة امتزجت فيها طبيعة المكان الدينية بتحركات اقتصادية دائمة متميزة بقوة اندفاعها وبتطورها المستمر . ورغم قـدم ذلك فيما يتعلق بمكة فان الوضع صار اكثر وضوحاً منذ بداية الاسلام فقـد اخذت قوافل الحجيج تغد على مكة المكرمة من كل حذب وصوب فكان طبيعياً أن تنشط الحركة التجارية فى مكة وأن تزداد مرونة أهلها ومحترفى التجارة فيها بمعاملتهم لتلك الوفود على اختلاف عاداتها واجناسها وفقاً لمبادئ... الاسلام .

فلما كان العصر المملوكى اهتم سلاطين تلك الدولة منذ البداية بالحركة

التجارية . فقصوا على القرصنة فى البحر الاحمر ووفرت التنظيمات المملوكية الامن والحماية للحجيج والتجار ثم اثمرت الجهود المملوكية فأخذت تجارة الشرق تصل الى ميناء جدة مباشرة واحتلت جدة المكانة الممتازة التى كانت تحتلها عدن قبل توقف التجار عن الرسو فى مينائها والامتناع عن التعامل معها وقد أدى ذلك الى ازدهار الاسواق التجارية فى كل من مكة ومينائها جدة .

ويمكن تحديد نوعيات الاسواق فى مكة على سبيل المثال بثلاثة أنواع هى ٠٠٠ الاسواق المحلية ٠٠٠ والاسواق الموسمية ٠٠٠ والاسواق السنوية .

الاسواق المحلية :-

وهى الاسواق الدائمة التى اشتهرت بمكة على مر العصور اذ جرت العادة أن يجتمع اصحاب الحرفة الواحدة وتجار الصنف الواحد فى حى أو عدد من الاحياء الخاصة مؤلفين بذلك سوقا من أشهرها سوق العطارين وكانت بقرب باب بنى شيبه (١) وقد اقتصت ببيع انواع العطاراة والبهار والبخور على اختلاف انواعها وكانت من اكبر الاسواق واكثرها رواجاً فى تلك العصور لاشتداد الطلب على تلك الانواع التى كانت فى مقدمة السلع المطلوبة .

(٢) وهنالك سوق البزازين عند باب بنى شيبه وقد اقتصت هذه السوق ببيع النسيج والقماش وكانت المتاجرة فى البز من الاعمال التى رغب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أن رجلاً سأله فيم تأمرنى أن أتجر ؟ فقال : عليك بالبز ٠٠٠ فان صاحب البز يعجبه أن يكون الناس بخير وفسى خصب وقال : عليه أفضل الصلاة والسلام " لو كان فى الجنة تجارة لامرت بتجارة البز لان أبا بكر كان بزازاً " . (٣)

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٦ ، ابن قفهد : اتحاف الورى ، ص ٣٠٨ ، ابن الضياء : القرشى تاريخ مكة ، ق ١٠٨ ب .

(٢) ابن بطوطة : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن حنبل : المسند ، المجلد الثانى ، ص ٢١٦ .

أما المجوهرات والاحجار الكريمة والحلى الثمينة فكانت تباع فى سوق الشامية وكان السوق الصغير غربى المسجد الحرام أهم سوق للخضروات واللحوم وغيرها من المأكولات . (١)

وكان سوق الليل شرقى المسجد الحرام من أشهر أسواق مكة ويباع به جميع لوازم الحجاج وبه مسجد قديم ينسب للخيزران أم الخليفتين موسى الهادى وهارون الرشيد ويقال أن صفوت الخلق محمدا صلى الله عليه وسلم ولد فى هذا الموضع (٢) وبه مسجد آخر يعرف بالمختبى يقول ابن الضياء القرشى " ولم أر أحدا تعرض لذكره ولا يعرف شيء من أخباره " . (٤) وبهذه الأسواق دار للحدادين وسوق خاصة للفاكهة وأخرى للرطب (٥) ومن المرافق الهامة الموجودة به حمام كان يعد الثانى فى مكة بعد حمام أجياد . (٦) ومطهرتان احدهما تنسب للإشراف والاخرى عمرتها احد النساء سنة ٧٩٦هـ وبه أيضا ربساط (٧) بناه كبير التجار فى مكة ويدعى عطية . بن خليفة أوقفه على النسوة بمكة وأباح لهن كراء مساكنهن فى زمن الموسم لنكسبن بذلك . (٨)

ويحدثنا المؤرخون والرحالة والجغرافيون عن سوق المسعى فى المسجد الحرام مستنكرين قيام مثل هذه الأسواق الحافلة فى بيت الله الحرام ويبدو أن جذور هذه السوق قديمة فقد جاء فى الاثر عن ابن عباس انه دخل

-
- (١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، المجلد الاول ، ص ٢٠٧ .
 - (٢) ابراهيم رفعت : نفس المرجع والصفحة .
 - (٣) ابن الضياء القرشى : تاريخ مكة ، ق ٩١ أ .
 - (٤) نفس المصدر ، ق ٩٣ أ ب .
 - (٥) الازرقى : (ابو الوليد محمد بن عبد الله أحمد ، اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار ، مكة ، ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ .
 - (٦) الفاسى : تحصيل المرام ، ق ٩ أ .
 - (٧) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣١٩ ، ابن الضياء : نفس المصدر ، ق ١٠٨ ب .
 - (٨) الفاسى : العقد الثمين ، ج ٦ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

الحرم فرأى الناس قد أقبلوا على الدنيا يبيعون ويشترون فقال : " لسو علم الوفد بمن حلوا لاستبشروا " . (١) ويقول ابن جبير مستنكرا : " وفى أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام نزهه الله وشرفه ، سوقا عظيمة يباع فيه من الدقيق الى العقيق ومن البراءة الدر الى غير ذلك من السلع ، فكان بيع الدقيق بدار الندوة الى جانب باب بنى شيبة ومعظم السوق فى البلاط الآخذ من الغرب الى الشمال وفى البلاط الآخذ من الشمال الى الشرق وفى ذلك من النهى الشرعى ما هو معلوم والله غالب على أمره ، لا اله سواه " . (٢)

ويقول ابن بطوطة : " وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لزدحام الناس على حوانيت الباعة وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه الا البزازون والعطارون عند باب بنى شيبة " . (٣)

ويكتفى البلوى بالاشارة الى هذه السوق العامة بقوله : " وما بين الصفا والمروة مسيل هو اليوم سوق حافلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب والمبيعات " (٤) ويشير الاصطخرى الى أن ما بين الصفا والمروة وبين المسجد الحرام عرض الوادى الذى هو طريق وسوق " . (٥)

ومما يجدر ذكره هنا أن أحد الامراء المماليك ويدعى بيسق (٦) قد وفق

- (١) ابن الجوزى : مشير الغرام ، ق ١٤٦ ب .
- (٢) الرحلة ، ص ١٦٠ .
- (٣) نفس المصدر ، ص ١٣٦ .
- (٤) تاج المفرق ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .
- (٥) المسالك والممالك ، ص ٢٢ .
- (٦) الامير بيسق كان قد ندب الى مكة لعمارة المسجد الحرام سنة ٨٠٣ هـ بعد احتراق الجانب الغربى وبعض الجانب الشمالى فى العام السابق وكان شريف مكة قد استنابه فى الحكم بها عندما توجه الى حلى ابن يعقوب فقام فى فترة استنياه بأعماله الاصلاحية وكتب شفاعات لنفسه ذكر فيها أنه أزال من مكة المنكر وعندما رجع الشريف حسن نقم عليه وتنافر معه واعاد هذه السوق ، الفاسى : العقد الثمين ، ج ٤ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

فى ازالة بعض المنكرات فى مكة منها أمره فى أول ربيع الآخر سنة ٨٠٤ هـ ،
 بنقل هذه السوق من المسعى الى سوق الليل كما امر بوابى الحرم بملازمة
 أبوابه وتنظيف الطرقات من الاوساخ والقمامات ونقل الكدى " الصخور والحجارة "
 التى كانت بسوق الليل والمعلقة وغير ذلك من الاصلاحات التى كان من شأنها
 تدعيم الامن فى البيت العتيق والمحافظة على طهارته . . . غير أن هذا العمل
 الاصلاحى الكبير لم يكتب له الدوام والاستمرار بسبب اعادة الشريف حسن بن
 عجلان لهذه السوق الى المسعى فى العاشر من جمادى الآخر من السنة نفسها (١)
 ولا يوجد تفسير لما قام به الشريف حسن ولعله كان يستفيد من وجود السوق
 فى هذا المكان واخيرا وبعد طول انتظار وردت المراسيم سنة ٨٣٠ هـ من
 السلطات المملوكية بمنع البيع داخل المسجد الحرام ومنع نصب الصواوين
 داخله (٢) ويبدو أن هذا المنع كان خاصا بموسم الحج فاننا نجد اشارات
 لاستمرار هذه السوق وازدهار الحركة التجارية فيها (٣) .

والى جانب هذه الاسواق التى تمتاز بقربها من الحرم الشريف والمرافق
 العامة كان هناك العديد من الاسواق المنتشرة فى بقية أحياء مكة وكانت
 تلك الاسواق تتميز ايضا بطابعها التخصصى المميز مثل سوق الحطب (٤) وسوق
 العلافه وهما بأسفل مكة (٥) وسوق المسفلة (٦) وسوق اللبن والحشيش (٧) وسوق
 الفنم بأعلى مكة (٨) وسوق الجمال بـمنى (٩) واسواق اخرى بالزاهر (١٠) .

- (١) الفاسى: نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن فهد: اتحاف الورى، ص ٣٢٥-٣٢٦ .
- (٢) المقرئى: السلوك، ج٤، ص ٧٥٤، ابن حجر: ابناء الغمر، ج٣، ص ٣٨٢ .
- (٣) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٠٧ .
- (٤) الازرقى: نفس المصدر ، ج٢، ص ٢٠١، الفاسى: نفس المصدر ج٥، ص ٢٧ .
- (٥) الفاسى : تحصيل المرام، ق ٨ - ب، شفاء الغرام ج٢، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .
- (٦) الطبرى: اتحاف فضلاء الزمن، ص ٧٧ . (٧) الفاسى: تحصيل المرام، نفس الورقة .
- (٨) الازرقى: نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن الضياء القرشى: نفس المصدر ، ق ٩٠ ب .
- (٩) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٠٢ .
- (١٠) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

وكما هو معروف فإن الاسواق المختصة ببيع سلع متجانسة كانت منتشرة خلال ذلك العصر وما قبله وكان لهذا النظام محاسنة التي تتمثل فى اتساع نطاق التنافس الحر الشريف بين تجار السلع المتماثلة فلا يستطيع التاجر أن يشذ عن أقرانه من التجار أو أن يرفع سعر السلع التي يتاجر فيها لان مجال المنافسة مفتوح وقريب منه كما أن المشتري باستطاعته أن يحصل على أفضل سلعة بأقل ثمن بعد أن يتجول فى السوق ويطلع على الاسعار والبضائع المعروضة وإذا كان لهذا النظام محاسنة فله أيضا عيوبه ولعل من أهمها عامل الزمن والجهد فالمشتري الذى يريد شراء عدة أصناف متباينة من البضائع عليه أن يقطع المدينة طولا وعرضا للحصول على كل احتياجاته " لأنه لن يجد فى السوق الواحدة سوى نوع واحد من البضائع " (١)

وعلى كل يمكننا أن نتصور بحق اسواق مكة التقليدية المحلية وهى تموج بجموع من الناس على اختلاف اجناسهم والوانهم من مشتريين ومتجولين وأحباب حرف وتجار وباعة وغيرهم يتبادلون المنافع والمصالح ويتدافعون فرادى وجماعات وسط الشوارع الضيقة والاسواق المسقوفة قريبا من الحرم فى اسواق العطارين والتمارين والبهزازين وسوق الليل والسوق الصغير وغيرها وبطبيعة الحال كان تجار هذا النوع من الاسواق اما تجارا مستقرين لهم حوانيتهم ومستودعاتهم واما باعة متنقلون يبقون فى السوق معظم النهار ثم يبارحونه ليعودوا اليه فى اليوم الثانى .

ومما لا شك فيه أن ربط مكة بريفها أو باديتها بشبكة من الطرق البرية قد اسهم بشكل كبير فى توثيق العلاقات الاقليمية بينهما وفى انتعاش التجارة والاسواق المحلية بشكل دائم ومتواصل .

الاسواق الموسمية :-

ادى نشاط الحركة التجارية بين الشرق والغرب وازدهار تجارة التوابل

(١) سعيد عاشور: العصر المملوكى، ص ٣٠٨-٣٠٩، نعيم زكى فهمى: طرق التجارة، ص ٢٨٢ .

فى العصور الوسطى الى ظهور الاسواق الموسمية التى كانت تعقد فى مواسم ورود التوابل من الهند والصين الى اسواق مكة وجدة وهى خاضعة لمواعيد هبوب الرياح الموسمية ويوقت وصولها فى مواعيد سنوية ثابتة لا تتغير وفى الوقت نفسه تصل السفن الاوروبية من الغرب الى اسواق مصر والشام لحمل هذه البضائع الشرقية فى مواعيد ثابتة . (١)

والحق أن الخريطة التجارية لهذه الاسواق قد اتسعت فى عصر المماليك وخاصة الجراكسة وهى تعكس نتائج التحول الكبير الذى طرأ على المركز التجارى لجدّة وازدهار حركة التجارة المملوكية بصورة رائعة وتعرف هذه الاسواق بمكة والحجاز باسم " موسم الهندى " (٢)

وكانت هناك سوق موسمية أخرى تنعقد عند وصول أهل السراة الذين كانوا يجمعون بين أداء العمرة وميرة البلد ولهؤلاء أثر كبير فى الحياة الاقتصادية فى مكة فوصولهم يعنى الرخاء وخص الاسعار حتى لقد كان يفيض الكثير من الموءن التى يجلبونها فيخزن أهل مكة والمجاورون هذا الفائض ويدخرونه حتى وقت وصول الميرة التالية وتذكر المصادر " أنسبه لولا وصول هذه الميرة لكان اهل مكة فى شظف من العيش " . (٣)

كما أن تأخرهم عن الوصول أو عدم مجيئهم يعنى ارتفاع الاسعار وشدة الغلاء (٤) .

ويشير ابن بطوطة الى حرص أهل السراة على المجيء بميرتهم بقوله :
" ويذكر أنهم متى أقاموا ولم يأتوا بهذه الميرة أجذبت بلادهم ووقع

(١) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ٢٨٣ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٤١٦ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ١١٠ ، ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٠ .

(٤) الفاس : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ ، ابن حجر : ابناء الغمر ، ج ١ ،

ص ٣٢٢ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣١٤ .

الموت فى مواشيهم ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم فهم اذا حان وقت ميرتهم وأدركهم الكسل عنها اجتمعت نساءهم فأخرجتهم وهذا من لطائف صنع الله وعنايته ببلده الامين . (١)

وكانت حركة البيع والشراء تزدهر بسوق الليل اذ كانت السوق الرئيسى لمن يأتون بالميرة من السراة وغيرها . (٢)

الاسواق السنوية :-

هى النوع الثالث من الاسواق ... وكانت تعقد فى مكة المكرمة فى مواسم الحج اذ يفد اليها اعداد هائلة من الحجاج والتجار المسلمين من مشارق الارض ومغاربها وسرعان ما تصبح مكة مركزا حافلا بمظاهر التبادل التجارى " فبعض الحجاج يلتزمون مع أداء فريضة الحج فى هذا الموسم ضروبا من النفع المادى ، فينقلون المتاجر من شتى البلاد الى الحجاز ويبيعونها هناك ويتزودون لبلادهم وأهلهم من طرائف الحجاز ومما يحملونه اليه الناس من سائر البقاع والاصقاع . (٣)

وكانت الاسواق التى تقام فى منى وعرفة من أشهر أسواق هذا الموسم ويعود تاريخ هذه الاسواق الى صدر الاسلام (٤) بعد أن اباح الخالق جل وعلا

(١) الرحلة ، ص ١٦٠ .

(٢) الازرقى : اخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ .

(٣) من مقدمة محقق كتاب محب الدين الطبرى : القرى ، ص ٨ - ٩ .

(٤) كان للعرب اسواقهم فى الجاهلية وصدر الاسلام وتحضرها القبائل العربية وغيرها وهى سوق عكاظ ومجنة وذى المجاز وكانوا يصبحون بعكاظ يوم هلال ذى القعدة فيقيمون به عشرين ليلة - ويدخل بعضهم فى بعض للبيع والشراء ويجتمعون فى بطن السوق ثم ينصرفون الى مجنة فيقيمون بها اسواقهم ثمان ليالى ثم يخرجون لذى المجاز فيقيمون بها الى يوم التروية وهو آخر أيام اسواقهم فقد كان الناس لا يتبايعون فى أيام منى وعرفة ثم تركت سوق عكاظ سنة ١٢٩ هـ وتلتها مجنة وذو المجاز واستغنوا بالاسواق بمكة ومنى وعرفة " ، الفاسى : تحصيل المرام ==

البيع والشراء في هذين المشعرين الحرام بقوله : " ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم " (١) ففي عرفة كانت تقام سوق كبيرة جدا يباع فيها أنواع المأكولات (٢) اما منى فتقام فيها سوق من أعظم الاسواق " يباع فيها من الجواهر النفيس الى أدنى الخرز الى غير ذلك من الامتعة وسائر سلع الدنيا لانها مجمع أهل الآفاق " (٣)

وقد سجلت اسواق منى والمشاعر نشاطا تجاريا عاليا فالتجمع الاسلامي الكبير كان يصاحبه على الدوام حركة دائبة ونشطة في البيع والشراء لدرجة أن الحجاج كانوا يظلون في منى بعد النزول يوما آخر لرغبة التجار في ذلك . (٤)

وجاء في كتاب نزهة الانظار " ومنى في أيام الموسم هي الدنيا بأسرها قصور عالية ، واسواق حافلة ، وجنود مجندة ، وملابس فاخرة وأطعمة شهية ومراكب هنية وبضائع معدودة ، ومتاجر ثمينة الى انواع العبادات من تكبير وتهليل

(=) ص ٩٦ أ ، شفاء الغرام ج ٢ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ، العقد الثمين ج ١ ، ص ٢١٤ . ويشير ابن الجوزي الى عالمية سوق عكاظ بقوله " كان للعرب اسواق فأعظمها وأكثرها جمعا وتجارة سوق عكاظ وكان كسرى في ذلك الزمان يبعث بالسيف القاطع والغراس الرابع والحلة الفاخرة فتعرض في ذلك السوق وينادي مناديه ان هذا بعثه الملك الى سيد العرب فلا يأخذه الا من أذعنت له العرب جميعا بالسوءدد فكان آخر من أخذه بعكاظ حرب بن أمية وكان كسرى يريد بذلك أن يعتمد عليهم في أمور الحرب فيكونون عوناً له على اعزاز طلبة ولحمايته من العرب . مثيرا الغرام ، ق ١٣٩ ب ، ١٤٠ أ .

(١) سورة البقرة ، آية ١٩٨ .

(٢) ابراهيم رفعت : نفس المرجع ، المجلد الاول ، ص ٣٣٧ .

(٣) ابن جبير : نفس المصدر ، ص ١٥٧ .

(٤) الفاسي : تحصيل المرام ، ٩١ ب ، العقد الثمين ، ج ١ ، ص ١٩٩ ،

ابن حنبل : ابن خزيمة ، ج ٣ ، ص ٣٤١ ، ابن

فهد : اتحاف الوري ، ص ٣٣٧ .

وصلاة وقراءة، ونحر وذبح واطعام طعام ورمى جمار، وما الدنيا محمودها—
ومذمومها الا ما ذكرنا ولا تمر على ذلك كله ثلاثة أيام حتى لا تحصى منهم
أحدا ولا تسمع لهم ركزا فلا ترى في منازلهم الا عظاما نخرة وخرقا باليسة
وفضلات منتنة وغشاء احوى وقشاما أغير تسفيه الرياح وتذروه وهذا هو المثل
الحقيقى للدنيا فليعتبر أولو الابصار من سكان البادية والامصار (١).

ويتأسف الجزيرى على ما يحصل من أمراء الحاج فى زمانه وشحنهم
المراكب بالاحمال للمتاجرة ومنع الباعة والمتسبة عن الحاج حتى ينتهى
ما عندهم مع العلم بان ما يتاجرون به انما تعود منافعه للسلطان وليس
لهم الا ما يعتد به من الكلفة ضريبة سلطانية . (٢)

ولا يقتصر النشاط التجارى فى موسم الحج على اسواق منى وعرفة فقط
فجميع اسواق مكة تكون فى حركة وتبادل تجارى مزدهر ومستمر فقد كان الحجاج
يرتادون هذه الاسواق فى النهار اذ يظل المد التجارى قويا فيها ولعل من
أبرز الدلائل على ازدهار التجارة فى هذا الموسم أن الاسواق كانت تقام فى
المسجد الحرام وكثيرا ما يحدث بها التعطيل للساعين بين الصفا والمروة
نتيجة ازدحام الناس على الباعة . (٣) . وقد اختلف اهل العلم فى المبيت
ليالى منى فى مكة لحاجة مثل حفظ الاموال والمتاجر ونحوها فروى عن
ابن عباس قال : " لا بأس اذا كان للرجل متاع بمكة يخشى عليه أن يبيت بها
ليالى منى " أما ابن عمر فورد فى كلامه ما يدل على المنع وللشافعى
القولان (٤) ولعل الرخصة للتجار ولمن يضطر لحفظ ماله جاءت قياسا على رخصة
رسول الله صلى الله عليه وسلم لرعاة الابل فى البيتوتة فى مكة لانهم يضطرون

(١) الورشيلانى : ص ٤٤٣ .

(٢) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٦ ، النبلى : تاج المفرق ج ١ ، ص ٣٠٧ ، الفاسى : شفاء الغرام
ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٤) محب الدين الطبرى : المصدر السابق ، ص ٥٤٢ .

الى حفظ اموالهم ولو أخذوا بالمبيت لضاعت اموالهم . (١)

ومما سبق يتضح أن موسم الحج ترسم لنا أصدق صورة لاسواق مكة المكرمة والمشاعر فى ذلك الوقت وتوضح لنا طبيعة الحركة التجارية الهائلة فيها فأسواق العطاراة والبخور تنعج بأنواع التوابل والعقاقير الشرقية والعمود الثمين التى تملأ الجو عبيراً وشذى واسواق الصاغة تزخر بأجود الحلى واثمن الاحجار الكريمة والجواهر النفيسة واللالى الحرة . (٢)

واسواق النسيج والبز تمتلئ بمختلف المعروضات من الاقمشة الحريرية والكتانية والقطنية والمطرزة والساجيد الفارسية الفاخرة الى غير ذلك من السلع والبضائع ولا غرو ففيتها مجتمع المشرق والمغرب واليهما ترد المتاجر فى قوافل عظيمة من مصر والشام وحلب وبغداد والحسا ونجد واليمن وبحر الهند والحبشة والشحر وحضرموت وعربان جزيرة العرب وطوائف لا يحصىهم الا الله تعالى . (٣)

والواقع أن تجار أوروبا وقتوا مواسم ورودهم الى شرق البحر المتوسط بمواعيد هذه الاسواق السنوية . . . فكانوا يطلون الى مصر وبلاد الشام فى الوقت الذى كانت تأتى فيه سفن التجارة الشرقية الى جدة وعلى ذلك فإن الاسواق السنوية فى الاعياد الاسلامية كانت تختلف تبعا لمدار السنين وحسب نظام المدة . (٤)

ويلتقى فى هذه الاسواق الموسمية والسنوية عدد غفير من التجار والوكلاء وغيرهم وتعقد فيها صفقات البيع والشراء والمبادلة بالنقد والمقايضة والحساب الجارى والبيع المؤجل الدفع . . . وتخضع حركة المتاجرة لنظام ضبط دقيق لتفادى ما قد ينجم من مشكلات من التعامل المالى ولحساب ما تحصله الدولة من العوائد والمكوس على تجارة العبور . (٥)

- (١) محب الدين الطبرى : نفس المصدر ، ص ٥٤٤ - ٥٤٥ .
- (٢) ابن جبیر: نفس المصدر، ص ٩٧، البلوى: نفس المصدر ج ١، ص ٣٠٨ إبراهيم رفعت مرآة الحرمين ، المجلد الاول ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .
- (٣) القطبى : تاريخ البلد الحرام ، ص ٢٠ .
- (٤) نعيم زكى : طرق التجارة ، ص ٢٨٤ .
- (٥) نعيم زكى : نفس المرجع والصفحة .

على أن الاسواق السنوية قد تطورت لتصبح نصف سنوية وخاصة بعد تواتر الركب الرجبي من مصر والشام في العهد المملوكي وكانت قوافل هذا الركب تصل الى مكة باعداد كبيرة قد تزيد على ألفي جمل وراحلة ولا ريب أن وصولهم يعني زيادة النشاط التجاري وازدهار حركة البيع والشراء وتشير الشواهد التاريخية الى حرص كثير من المسلمين على مصاحبة هذا الركب لان السفر في هذه الايام يحصل لهم به صيام رمضان بمكة والعمرة والمجاورة وفي غضون ذلك يحصل لكثير منهم المكاسب . (٢)

الوكلاء والخانات والقياسر وغيرها من المنشآت التجارية

وبسبب الاتساع الكبير فى قطاع التجارة وفى ظل العلاقات التجارية النشطة فى العصر المملوكى التى كانت مكة من أهم مراكزها أنشئت القياسر والخانات والوكالات والرباع التى فوقها وتنوعت خدمة هذه المنشآت فالى جانب قيامها بمهمة الاسواق من بيع وشراء فهى تقوم بمهمة النزل ودور الاقامة للتجار الوافدين وتحتوى على مخازن لحفظ متاجرهم واموالهم وتؤدى خدماتها للتجارة العابرة من تفريغ وتحميل وتخزين وغير ذلك ومن مزاياها . أنها تقوم بمهمة البيع بالجملة الى جانب البيع بالتجزئة وعادة يبني فوق هذه الموءسسات التجارية عدة مساكن تؤجر للتجار ويلاحظ أن الموءرخين المسلمين فى العصور الوسطى لم يفرقوا بين الوكالة والخان والقياسرية والفندق فجميعها موءسسات تجارية تتشابه فى خدماتها وفى نظامها المعمارى . (٣)

فالوكالة مركز للبيع والشراء والتخزين والحجرات فوقها هي الرباع وتعود أهميتها في التنظيم التجارى الذى كان سائدا فى العصور الوسطى الى طبيعة عمل المقيمين فيها سواء فى التجارة المحلية او الدولية ومعظمهم من الشباب الذين هجروا بلادهم بحثا عن الشراء من وراء التجارة واكتساب

- (١) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص ٢٧٢-٢٧٣، ابن فهد: اتحاف الوري، ص ٢٧١-٢٧٢، ابن
 اياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ١٣٧، ٢٥١.
 (٢) ابن حجر: ابناء الفمر، ج٣، ص ٥٣٩.
 (٣) نعيم زكي فهمي: طرق التجارة، ص ٢٨٦-٢٨٧.

الخبرات كما هو الحال مع التجار الكلمية الذين كانوا يلحقون أبناءهم بتجارتهن المتنقلة والمستقرة ويذكر الدكتور نعيم زكى فهمي أن بعض الأوربيين " يفضل وضع كلمة لوكاندة هنا لاسم الريح كما اعتبره فندقاً مفروشا وان لم يكن هناك مجال للمقارنة بين فنادقنا الحالية ومثيلاتها في العصور الوسطى . (١)

وقد جرت العادة أن التجار القادمين من بلد واحد كانوا ينزلون في وكالة معينة حيث يألف بعضهم بعضا وكان التاجر يأمن على أمواله وبضائعه . . . فمن أبرز مظاهر الاهتمام بهذا النمط من المنشآت التجارية حرص سلاطين المماليك على توفير الحراسة والامن فيها لحفظها من عبث العابثين بالإضافة الى توفير وسائل السلامة واتخاذ الاحتياطات اللازمة لتجنب خطر الحرائق وغيرها . (٢)

وقد انتشرت في مكة الريح التي تتكون من عدة مساكن علوية تجتهد حوانيت ووكالات للتجارة ولكل ريع باب يتصل مباشرة بسلم داخل واجهة البناء المشرفة على الطريق العام بواسطة يصعد السكان الى مساكن الريح التي توءجر بأجور شهرية زهيدة (٣)

ويبدو أن المهتمين بإنشاء هذه الموءسات في مكة كانوا سلاطين وأمراء المماليك وتجدر الإشارة الى أن ريع هذه المشروعات التجارية الهامة كان يوقف على بناء المرافق العامة التي تقيمها الدولة في مكة والإشراف عليها مثل الأريطة والمدارس ومكاتب الأيتام وغير ذلك من جهات البر ففى سنة ٧٧٦ هـ أمر الملك الأشرف شعبان بعمارة مطهرة في المسعى مقابل باب على أحد أبواب المسجد الحرام وبناء حوانيت ملاصقة لها وفوقها ريع لتأجيرها للتجار على أن يكون ريعها وقفا للإشراف على الميضاء المنسوبة اليه كما أوقف عليها

(١) نعيم زكى فهمي : نفس المرجع والصفحة .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٣٠٩ .

(٣) سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٤٤٠ .

اوقافا اخرى بضواحي القاهرة وقد اعيدت عمارتها سنة ٨١٧هـ بعد ان تخربت^(١)
ومن الرباع المحلية فى المسعى ربع يعرف بربع التوزيرى شاد بندر جودة
نسب اليه لتوليه أمر عمارته . (٢)

والواقع أن التوسع فى استحداث الزيادة أمام المباني التجارية وغيرها
فى المسعى قد تسبب فى تضيق الممر الرئيسى الذى يعد مشعرا من مشاعر الحج
وأدى ذلك الى استنكار القضاة ورجال العلم من أهل مكة والمجاورين ومما
يذكر أن الزيادة المحدثه فى المنشأة المنسوبة الى الملك الاشرف شعبان
كانت سببا فى عقد مجلس القضاة فى المسجد الحرام سنة ٨٧٥هـ وقد ضم هـذا
المجلس القضاة الاربعة وبعض العلماء المجاورين من أهل الشام وأشار القاضى
برهان الدين بن ظهيرة فى المجلس الى أن الساجر ابن الزمن^(٣) استأجر
لنفسه ميضأة الاشرف والربع عليها وأربعة دكاكين ملاصقة لها من وقف رباط
العباسى رضى الله عنه وأنه شرع فى عمارتها وأراد أن يعمل سبيلا على بعض
المطاب^(٤) التى كانت أمام بعض الدكاكين فمنعه القاضى برهان الدين فلم
يتمكن وأوضح أن عرض المسعى كان قبل عمارة ابن الزمن خمسة وثلاثين ذراعا
فصار عرضه من المسجد الحرام الى جدار عمارته سبعة وعشرين ذراعا
وسألهم القاضى برهان الدين ٠٠٠٠ هل يجوز البناء فى المشعر الحرام ؟ ٠٠٠٠
فأنكروا ذلك وأفتوا بحرمته وكان ابن الزمن حاضرا وانتهى المجلس بالحكم
بهدم جميع ما فى المسعى ومن بينه عمارة ابن الزمن وكتب محضر بذلك وسلم
لامير المماليك المقيمين بمكة ليتولى أمر الهدم غير أن الحكم لم ينفذ

-
- (١) ابن الضياء القرشى : تاريخ مكة ، ق ١٠٨ ب .
(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٧٢ .
(٣) هو الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن ، من مشاهير التجار ، كان فى سعة
من المال وله بر ومعروف وهو صاحب المدرسة التى ببولاق بمصر وكان ذا دين
وخير ٠٠٠٠ توفى بمكة سنة ٨٩٧هـ .
ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٩٣ .
(٤) " المصطبة بناء من الحجر أو الحجر يقيم بجانب واجهة الدكان ويبلغ
ارتفاعها نحو المتر وسطها فى مستوى أرضية الدكان ويجلس عليها
صاحب الدكان مع زبائنه وقد ظلت شائعة الاستعمال فى العصور الوسطى
وما بعدها .
الشيرزى : نهاية الرتبة ، ص ١١ .

بل استمر ابن الزمن في عمارته بعد أن أخذ ادنا من السلطان وقيـل أن جماعة أفتوا للتاجر بأنه على حق .

ومن الزيادات التي أحدثها ابن الزمن أنه جعل بسوق الليل درجاً يصعد فيه إلى الميضاة ودكة بطول الميضاة من أمامها ودرجة تصعد منها إلى علو الربع فأدى ذلك إلى ضيق الطريق التي كانت تسع قطارين فأصبحت لا تسع إلا قطارا واحداً . (١)

ويشير ابن فهد وهو مؤرخ معاصر أن المساطب التي كانت أمام الدكاكين لم يكن لها وجود قبل سنة ٨٤٠هـ وأن الدكاكين كان يستأجرها فسالون يغسلون على أبوابها الثياب ويخيطونها على أحجار يفصونها تحت أبوابها إلى جانب الحائط ثم استأجر الدكاكين جماعة يبيعون الفخار فأحدثوا مساطب صفاراً ثم صاروا يوسعونها شيئاً فشيئاً حتى أصبح عرضها قريباً من ثلاثة أذرع وأخيراً كانت الزيادة التي عملها ابن الزمن والتي انعقد المجلس بسببها . (٢)

وكان من ضمن الأعمال الجليلة التي عملها الأمير بركة (٣) في مكة سنة ٧٨١هـ بناء ربع وحوانيت جديدة وبناء مطهرة في سوق العطارين بقرب باب بنى شيبة على يمار الباب وأوقف عليها الربع والحوانيت التي فوقها . (٤)

ويشير الطبري في معرض حديثه عن حجة السلطان قايتباي إلى آثارة العظيمة بمكة ووجوه البر والاحسان التي تنسب إليه فيها ومن بينها عمارته لعدد من الربوع والدور والمسقفات التي تغل في كل عام نحو ألفي دينار وكان قد أوقف ريعها على الفقراء وأعمال البر التي أنشأها بمكة كما أوقف على منشأته

(١) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٤٣ .

(٣) هو الأمير بركة بن عبد الله العثماني من ممالك الأمير يلبغا الخاصكي تولى عدداً من المناصب القيادية في الدولة المملوكية حتى أصبح مدير المملكة وعظم أمره حتى صار رأس نوبة النوب - يعد من أصحاب المآثر الطيبة في مكة وله العديد من الإصلاحات في المسجد الحرام .
الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

(٤) المقرئزي : السلوم ج ٢ ، ص ٣٧٢ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٠٨ ، ابن الضياء القرشي : نفس المصدر ، ق ١٠٨ ب .

الخيرية قرى وضياعا كثيرة بمصر تحمل غلاتها من حبوب وغيرها كل عام الى مكة (١) .

ومن الموءسات التجارية فى العصر المملوكى القياس ومفردها قيسارية وهى السوق المسقوفة وتحتوى على غرف ومخازن التجار ويعملوها بناء بارتفاع دورين أو ثلاثة لسكن التجار والصناع . (٢)

ويعد بناء القياس من أهم المنشآت لاستثمار الاموال وتحقيق الربح الوفير وقد اهتم الامراء بانشاء القيساريات فى ذلك العهد . (٣)

وان كانت هناك قياس خاصة بكبار التجار . . . وقد جرت العادة أن تنتشر بعض انواع الصناعات الصغيرة فيها كما كان لكل فئة من التجار أو الصناع مكان معين (٤) ومن اشهر القياس فى مكة القيسارية المعروفة بدار الامارة عند باب بنى شيبه وكان شريف مكة حسن بن عجلان قد استأجرها سنة ٨١٥هـ من القاضي الشافعى بمكة مع البيمارستان المستنصرى الواقع فى الجانب الشامى من المسجد الحرام لمدة مائة سنة هلالية بأجرة معلومة لم يحدد مقدارها على أن تصرف هذه الاجرة فى عمارتها نظرا لخرابهما فعمر القيسارية وزاد فى عمارة البيمارستان ثم أوقف ما زاده وما يعود عليه من منفعة المكانين سنة ٨١٦هـ لصالح الضعفاء والمرضى من نزلاء البيمارستان فى باقى المدة المذكورة على الوجه السابق . (٥)

اما الفنادق فهى تمثل قمة ما وصلت اليه طاقة المشروعات التجارية فى العصور الوسطى وتعتبر ذروة ما وصل اليه اجتهاد القوامين على التجارة حكومة وتجارا . (٦)

-
- (١) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٨٢ - ٨٣ .
 - (٢) سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٤٦٣ .
 - (٣) الطبرى : نفس المصدر ، ص ٧١ ، ٨٢ .
 - (٤) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .
 - (٥) الفاسى : العقد الثمين ، ج ٤ ، ص ١١٥ .
 - (٦) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، ص ١٢ ، نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ص ٢٨٨ .

واصل كلمة فندق مأخوذ من الكلمة اليونانية Pando Keion وفنادق العصر المملوكى مباني فخمة مربعة الشكل ولبعضها أكثر من طابق ولها فناء داخلى مكشوف أى غير مسقوف تحيط به الحوانيت فى الطابق الارضى حيث توجد المخازن وفوقها مساكن للتجار ويحيط بالفندق حديقة غناء ربما يزرع بها التجار أشجارا من أوطانهم وبالفندق قاعة عامة تستخدم مجلسا لعقد الصفقات التجارية وكانت هذه المنشأة التجارية تعرف فى مصر المملوكية باسم فندق واحيانا وكالة وعرفت فى الشام وتركيا باسم الخان^(١) ويبدو أن اسم الخان كان الغالب والمعروف فى الحجاز على انه يمكن القول بأن الخان وان اشترك مع الفندق واشبهه فى بعض النواحي باعتبارهما من المؤسسات التجارية الهامة فهو مبنى ضخم معد لاستقبال التجار وبضائعهم ودوابهم وغيرهم من المسافرين والحجاج ويحتوى على مجموعة من المستودعات والحوانيت الكبيرة والصغيرة ويتوسطه فناء واسع على هيئة رواق مغطى لحفظ بضائع التجار وبه اصطبل للدواب وفى أعلاه عدة أدوار ومساكن ويؤدى الخان وظيفة حى قائم بذاته تتوفر فيه المرافق الهامة فهو يشمل مسجدا صغيرا وبئر ماء وميضاة وخزينة عامة وتقام فى حاراته وطرقاته الضيقة المزادات التجارية فتزدحم بالتجار وغيرهم . (٢)

ومع تقدم النشاط التجارى فى العصر المملوكى واتساعه ازداد اتجاه الامراء ورجال المال والاعمال من التجار وغيرهم الى التسابق فى بناء العمائر والقصور الفخمة الكبيرة وتحويلها الى خانات وفنادق ووكالات وقياسر وتأجيرها للهيئات والتجار بالحجرة وبأسعار باهظة . (٣)

ولا شك أن اقامة مثل هذه المشروعات قد ساعد الدولة فى تنظيم الحركة التجارية وازدهارها كما ساعد على توفير الفرص فى مجال الاستثمار والتوظيف وتنشيط التجارة ورفع مستوى المهارة فى التعامل والمعاملات التجارية فأدى كل

- (١) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ٢٨٨ - ٢٩٣ .
- (٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى، ص ٤٣٣، نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ص ٢٩٣ .
- (٣) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ٢٩٣ .

ذلك الى تحقيق المصلحة للاقتصاد المملوكى وللتاجر المستثمر .

وبعد أن كانت الخانات تعمل اول الامر فى التخزين وتنشيط التجارة العابرة تطورت فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) فأصبحت بمثابة أسواق للجملة فكانت الصفقات الكبيرة تتم فيها بين رجال الاعمال المحليين والتجار القادمين واصبحت من اهم حقول الاستيراد والتصدير فكان يجرى فيها التعاقدات وعمليات التخزين والتصرف والنقل والعمليات المصرفية التى تتمثل فى ايداع التجار لما يملكونه من ذهب وفضة لدى أمين الخان . (١)

واشتهرت مكة بخاناتها ذات الطابع الخاص المميز فان كل خان منها اختص بنزول فئة من التجار المختصين ببيع نوع معين من البضائع ومن اشهرها خان البزازين بالمسعى وقد أدخلت عليه بعض التحسينات فى عهد السلطان قايتباى فقد أمر سنة ٨٨٤هـ ببناء سبيل على يمين الداخل اليه كما أشار تاجره ووكيلة الخواجه شمس الدين بن الزمن والمهندسون بهدم السبيل القديم الذى كان امام الخان حتى تظهر عمارة السلطان وسبيله وعندما هدم استحسن السلطان ذلك لان المسعى صار مكشوفاً وعمارة الخان والسبيل ظاهرة (٢)

ومن اشهر الخانات المنسوبة الى التجار فى مكة خان التاجر المكي حسب الله بن سليمان بن راشد وكان الشريف حسن بن عجلان أمر بهدمه سنة ٨٠٨هـ لان شخصاً شكاً اليه من ابن راشد وبعد ايام قتل هذا الشخص غيلة فأتهم بعض اصحاب ابن راشد فخشى التاجر من شريف مكة ولم يستطع الظهور بالبلد حتى أذن له الشريف بعد سنتين من الحادثة . (٣)

ولم يشر المصدر المأهية هذه الشكوى وان كان قد اشار الى ان الهدم قد شمل جميع العقار المنسوب الى هذا التاجر على اننا نرى ان التعرض للمنشآت

(١) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٢) الطبرى اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٨٦ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ، ج ٤ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

التجارية وغيرها يجب ألا يكون عقوبة وفى رأينا أن المصادرة أهون وأضمن لبقاء مثل هذه الموءسة التى كان من الممكن أن تستفيد منها الدولة وان كنا نظن أن الهدم ربما كان لسبب آخر لم يشر اليه المصدر .

وأيا ما كان الأمر فمن الأسباب التي تغري التجار بالاقامة في الحجاز وفي مكة بوجه خاص وجود المستودعات ومناطق التخزين بجانب الأرباح التي كان التجار يحصلون عليها من عمليات التبادل النقدي والتجاري .

المشرفون على المنشآت التجارية:

لم تترك لأل المنشآت بغير اشراف ، بل خصص لها المشرفون للقيام بالاشراف والمراقبة وتحقيق الضبط والربط لتلك الاسواق والمؤسسات التجارية باعتبارها مركز لتجمع السلع والمتاجر وآخر مكان تستقر فيه البضائع وفى بداية الامر وجدت وظيفة المحتسب ومن واجباته الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والاشراف على الاسواق والطواف بها ليلا ونهارا لمنع الغش والتلاعب فى الاسعار والاوزان أو أنواع البضائع " واذا عثر بمن نقص المكيال أو بخس الميزان أو غش بفاعة أو صناعة استتابه عن معصيته ووعظه وخوفه وأندره العقوبة والتعزير فان عاد الى فعله عزره على حسب ما يليق به من التعزير بقدر الجناية ولا يبلغ به الحد " .

ويسير نظام الحسبة والقائمين عليها في الاسواق وفق النظام الاسلامي مع العمل على توفير الاشراف بما يضمن عدم المخالفة .

(ويتخذ المحتسب له غلماناً وأعداءً يلزمون الأسواق والدروب في أوقات الغفلة عنه ويتخذ له فيها عيوناً يوصلون إليه الأخبار وأحوال السوق) . (٢)

(١) الشيرزى : نهاية الرئمة : ص ٩ .

(٢) الشيرزى : نفس المصدر ، ص ١٠ .

وفضلا على اشرافهم على عمليات البيع والشراء كانوا يقومون بجمع ضريبة "المشاهرة والمجاعة" من الاسواق وهى ضريبة غير ثابتة وقد لوحظ فى حالة جبايتها أن يترك المحتسب البيع حرا فيتغالى التجار فى الاسعار بحجة توفية ما عليهم من هذه الضريبة . وكثيرا ما تعرض المحتسب للايذاء من جانب العامة والمماليك الجلبان بصفة خاصة بسبب التسعير الجبسى وكذلك من جانب السلطان اذا حدث ارتفاع فى الاسعار فيضرب المحتسب لانه لم ينظر فى احوال المسلمين . (١)

وفى اطار الامر بالمعروف تدخل مسائل كثيرة قد تكون متشعبة ولما كان من المتعذر فى بعض الاحيان أن يكون المحتسب على علم كامل بما يدور فى السوق فانه كان يعين عريفا لاهل كل صنعة ومن صالح أهلها خبيرا بصناعتهم بصيرا بغشوشهم وتدليساتهم ويظالعه بأخبارهم وما يجلب الى سوقهم من السلع والبضائع وما تستقر عليه من الاسعار وغير ذلك من الاسباب التى تلزم المحتسب معرفتها فقد روى أن النبی صلی اللہ علیہ وسلم قال : (استعينوا على كل صنعة بمالحي أهلها) . (٢)

وتبلغ رقابة المحتسب أشدها على الاطعمة فيتفقد اللحوم والمأكول والمطبوخات والمشروبات التى تباع فى الاسواق والطرق لتأكد من سلامتها ونظافتها حرصا على الصحة العامة للناس فاذا وجد بعضها فاسدا أخذ البائع بالشدة . (٣)

وتمتد سلطة المحتسب فى الاشراف على الاسواق الى ازالة ما يبرز من الحوانيت مما يعوق المارة وأصراهل الاسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ وغيرها مما يضر بالناس لان النبی صلی اللہ علیہ وسلم قال : " لا ضرر ولا ضرار " ولا يجوز للمحتسب تسعير البضائع لان المسعر هو الله ولكنه يراعى

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٥٠، ١٦٠، نعيم زكى فهمى : نفس المرجع، ص ٣٨٣ .

(٢) الشيزرى : نفس المصدر، ص ١٢ .

(٣) سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٣١٠ .

التسعير الاجبارى والاسعار التى تختص بالسلع التى لا يحق التفاضل فيها
فاذا رأى أحد التجار قد احتكر الطعام مثلاً ألزمه ببيعها اجباراً لورود الامر
الصريح فى منع الاحتكار وتحريمه. (١)

ويقوم المحتسب بالكشف على موازين الباعة ومكاييلهم ويتفقد عيار
الصنع والحيات وغير ذلك على حين غفلة من أصحابها فان وجد فيها خلا
صادرها وألزم صاحبها بشراء غيرها أو اصلاحها وله الحكم فى الدعاوى
المتعلقة بالغش والتدليس بالإضافة الى العديد من الوظائف الاخرى . (٢)

ويشترط فى المحتسب أن يكون من المشهود لهم بالعلم والرأى والفتنة
كما يختار من بين القضاة لان عمله مرتبط بالقضاء .

وقد اشار ابن بطوطة الى ان محتسب مكة تقى الدين المعرى قد قطع
يد صبي سرق بعض الحجاج (٣) ، وهذه الحادثة توحى بأن المحتسب كان له حق
القضاء والحكم وتنفيذ الاحكام .

ومن ظاهر النصوص يلاحظ أن وظيفة الحسبة فى مكة فى العصور
المملوكى كانت تدور بين بيتين من بيوتها اشتهرا بالعلم والقضاء والرياسة
والحديث وهما "بيت بنى ظهيرة وبيت بنى النويرى" وان كان يتولاها وينوب فيها
فى بعض الاحيان رجال من خارج هذين البيتين ويلاحظ أن الرشوة صارت عاملاً
من عوامل العزل والتولية لمثل هذا المنصب الجليل فى عهد المماليك
الجراكسة . (٤) فقد ذلك من المنكرات التى لم تدرك مثلها من قبل هذه
الدولة . (٥)

-
- (١) الشيرزى : نفس المرجع ، ص ٣١٠ .
 - (٢) الشيرزى : نفس المصدر ، ص ١١ - ١٤ .
 - (٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٦ .
 - (٤) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج ٣ ، ص ١٠٢ .
 - (٥) المقرئى : السلوك ، ج ٤ ، ص ١٠٢٠ .

ومن اشهر من باشر الحسبة أو ناب فيها في مكة القاضي الحنبلى
 محمد بن عثمان المتوفى سنة ٧٣١هـ والقاضى محمد بن أحمد العقيلي النويرى
 المتوفى سنة ٧٨٦هـ (٢) والقاضى شهاب الدين أحمد بن ظهيرة المتوفى سنة
 ٧٩٢هـ (٣) والقاضى أحمد بن محمد النويرى المتوفى سنة ٧٩٩هـ (٤) ويوسف
 بن حسين بن يوسف المتوفى سنة ٨١٦هـ (٥) والقاضى جمال الدين محمد بن عبد
 الله بن ظهيرة المتوفى سنة ٨١٧هـ (٦) وأبو البركات محمد بن ابى السعود
 بن ظهيرة المتوفى سنة ٨١٩هـ (٧) وعز الدين محمد بن احمد النويرى المتوفى
 سنة ٨٢٠هـ (٨) وكمال الدين محمد بن محمد بن ظهيرة المتوفى سنة ٨٢٠هـ (٩)
 والقاضى جلال الدين ابو السعادات ابن ظهيرة المتوفى سنة ٨٦١هـ (١٠) .

ومما ينبغى ذكره أن وظيفة المحتسب لم يكن يليها فى العصر المملوكى الا
 واحد من رجال العلم كما سبق الا أنه فى عصر المماليك الجراكسة وبالتحديد
 منذ أيام السلطان الملك المؤيد شيخ أصبح هذا المنصب يتولاه الامراء
 المماليك من رجال السيف . (١١)

-
- (١) ابن بطوطة : نفس المصدر والصفحة ، الفاس : العقد الثمين ج٢ ، ص
 ١٣٤ - ١٣٦ .
- (٢) الفاس : نفس المصدر ج١ ، ص ٣٠٠-٣٠١ ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر ج١١ ، ص ٣٠٣ .
- (٣) ابن حجر : ابناء الفجر ، ج١ ، ص ٤٠٣ ، الدرر الكامنة ج١ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ ، ابن
 فهد : اتحاف الورى ، ص ٣١٣ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج٦ ، ص ٣٢٢-٣٢٣ .
- (٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ج١ ، ص ٢٤٤ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٢٢ ،
 ابن العماد : نفس المصدر ج٦ ، ص ٣٥٧-٣٥٨ .
- (٥) الفاس : نفس المصدر ج٧ ، ص ٤٨٥ .
- (٦) الفاس : نفس المصدر ج٢ ، ص ٧٩ - ٨٠ ، ج٧ ، ص ٤٨٥ ، ابن العماد : نفس المصدر
 ج٧ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .
- (٧) ابن حجر : ابناء الفجر ، ج٣ ، ص ١٢٠ .
- (٨) الفاس : نفس المصدر ، ج١ ، ص ٣٧٦-٣٧٧ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٢٥ ، ابن
 العماد : نفس المصدر ج٧ ، ص ١٤٧ .
- (٩) الفاس : نفس المصدر ج٢ ، ص ٢٩٠ ، ابن العماد : نفس المصدر ، ج٧ ، ص ١٤٨ .
- (١٠) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ج١٦ ، ص ١٨٦ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٦٨ ، ٣٨٤ ،
 ٤٠٣ ، ٣٠١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٣٣٨ .
- (١١) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ج٥ ، ص ٦٠ هـ .

وتشير المصادر الى أن الملك الموءيد شيخ قد ارسل أبا المحاسن تغرى برمش التركمانى الى مكة بمراسيم تتضمن النظر فى احوال مكة المكرمة والاذن له فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فيها وكان قد عنى بفنسون شتى من العلم ويميل الى دين وخير توفى سنة ٨٢٣هـ (١) .

والواقع ان الحسبة فى العصر المملوكى الثانى كانت مضافة لباشية مكة فكان مقدم المصاليك السلطانية المجازرين بمكة - للمحافظة على الامن فيها - يجمع بين باشية أو امارة أو مشيخة المجاورين ووظيفة المحتسب حتى أيام السلطان الغورى وبالتحديد الى ربيع الآخر سنة ٩٢١هـ حين فصلت الحسبة عن الباشية، باشية مكة فأصبح السلطان يعين اميرا من المماليك ليتولى الباشية، كما كان يقرر اميرا آخر من ارباب السيوف ايضا للنظر فى الحسبة بمكة . (٢)

ومن اشهر أمراء المماليك الذين تولوا الحسبة فى مكة الباشى سودون المسمى (٣) المتوفى سنة ٨٥٠هـ (٤) والامير آقبردى المظفرى المتوفى سنة ٨٤٧هـ (٥) والامير برسباى الاينالى المتوفى سنة ٨٦٤هـ (٦) والباشى طوغان الاشرف الذى تولى الباشية سنة ٨٦٤هـ (٧) والامير جانبك النوروزى

-
- (١) الفاس : العقد الثمين ج٢ ، ص ٣٨٨ - ٣٩٢ ، السخاوى : الضميمة واللامع ج٣ ، ص ٣١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج٧ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .
- (٢) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٤٥٥ .
- (٣) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٢٠٥ .
- (٤) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، ج٥ ، ص ٥١٦ - ٥١٧ .
- (٥) ابن اياس : نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٢٣٩ .
- (٦) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ٦ ، ص ٣٦١ .
- (٧) ابن اياس : نفس المصدر والجزء والصفحة .

المتوفى سنة ٨٦٧هـ (١) والامير بردى التاجى (٢) والامير قرقماش الشريفى المتوفى سنة ٩١٤هـ (٣) والامير جاني بردى قاسم (٤) والامير جاني بيك قرا (٥) والامير قراكرز الحكم وقد تولى هذا الاخير نظر الحسبة بعد انفصالها عن باشوية مكة سنة ٩٢١هـ. (٦)

ولان مكة بلغت القمة فى دنيا المال والاقتصاد فى العصور الوسطى وخاصة فى موسم الحج الذى اعتمد عليه امرؤها باعتبارها أهم مورد مالى للامارة بالاضافة الى الدخل من تجارة العبور التى صارت جدة من أهم مراكزها بعد احتلالها مكانة عدن . فقد تطلب هذا التطور نظم تجارية جديدة أظهرها " نظام المراصد " وهى قوائم الاسعار والفرائب على التجارة والمارة وعلى الصادرات والواردات واستلزم الامر انشاء هيئة مهمتها الاشراف على تحصيل المكوس من التجار والحجاج القادمين من البر والبحر . (٧)

وممن تولى أمر المكس بجدة لشريف مكة ربحان بن عبد الله الحبشى المتوفى سنة ٨١٦هـ (٨) وجابر بن عبد الله الخراشى وكان نظير الشنسلان للشريف حسن بن عجلان فى أمور مكة وقد اشتهر بالامانة والحرمة ففوض اليه الشريف أمر جدة فباشرها احسن مباشرة وعمر فرقتها ونظم المكوس والرسوم التى يأخذها بنو حسن من التجار ٠٠٠٠٠ مات مشنوقا بعد اتهامه بمـوالاة المناوشين لشريف مكة من بنى حسن وذلك سنة ٨١٦هـ ومما ذكر أن ادعية الحاج (٩)

- (١) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ج٥ ، ص ٤٤٤هـ ، ج١٦ ، ص ٣٢٢ .
- (٢) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، ج٥ ، ص ٤٤٤ .
- (٣) ابن اياس : نفس المصدر : ج٤ ، ص ١٤٥ .
- (٤) ابن اياس : نفس المصدر ج٤ ، ص ٢٥٠ .
- (٥) ابن اياس : نفس المصدر ج٤ ، ص ٤٠٩ ، ٤٥٥ .
- (٦) ابن اياس : نفس المصدر ج٤ ، ص ٤٥٥ .
- (٧) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨ - ٢٩ ، التحيى السبى : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج١ ، ص ٧٢٤ ، الجزيرى : نفس المصدر ص ٢٨١ ، نعيم زكى : نفس المرجع ، ص ٣١٠ .
- (٨) الفاسى : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٤٢٥ .
- (٩) الفاسى : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٤٠٠ - ٤٠٣ ، ابن حجر : ابناء الفجر ، ج٣ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

كانت عليه كثيرة فى موسم السنة التى شق فيها " بسبب كثرة زيادته عليهم فى امر المكس فأصيب مع المقدور بسبب دعائهم فان دعوة المظلسوم ليس بينها وبين الله حجاب كما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم " (١) وممن قبض الاموال عن التجار فى مكة عبد الله بن على المزرق الملقب بالعفيف بن النور المتوفى سنة ٨٢٦هـ. (٢)

ولكن يبدو أن التطور الاقتصادى أو النقلة الاقتصادية الهائلة فى جدة بعد اتصالها المباشر مع الشرق أسهم فى فصلها من الناحية الاقتصادية عن إمارة مكة وربطها مباشرة بالدولة المملوكية فى مصر وبالرغم من أن الهدف من هذا العمل فى بداية الامر كان تحقيق التوازن فى ميزانية الدولة وخاصة بعد افلاس نظام الاقطاع وزيادة الاعباء المالية والحربية والتوسع الاقتصادى والعمرانى الذى شمل أجزاء الدولة فانه صار فيما بعد غمرا على الدولة لا غنم فيه وخصوصا بعد التوسع الكبير فى السياسة الاحتكارية وفى أخذ المكوس والضرائب وعلى كل فان تحقيق هدف الدولة من الوضع الجديد فى جدة بشكل منضبط لم يكن يتأتى الا بارسال عدد من العمال والموظفين لمباشرة نشاط التجارة الخارجية فيها وتحصيل الاموال للدولة. (٣)

فكان شاد جدة أو ديوان جمارك جدة كما يعرف حديثا من أهم الهيئات المشرفة على تجارة هذا الثغر اذ صار جهازا بيعيا وشرائيا للدولة يعمل فى مجالى التصدير والاستيراد وفى ظل الظروف الطبيعية المحيطة بالدولة أو المؤثرة عليها كانت الرسوم على السلع الشرقية فى بندر جدة تتراوح بين ١٠٪ و ٣٥٪ من قيمة السلع (٤).

(١) الفاسى نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠٣ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر ج ٢ ، ص ٩٦ .

(٤) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٦٠ .

وكانت الدولة تلجأ الى طرح سلعها من مرجان ونحاس وغير ذلك من الاصناف التى تحمل الى الهند على التجار من جدة بالسعر الذى تحدده وقد جعل هذا التجار يجمعون عنها ويتحولون الى عدن فما كان من الدولة الا ان فرضت الرسوم المرتفعة على السفن المارة بعدن قبل دخولها جدة وجعلت من ذلك وسيلة للضغط السياسى والاقتصادى على عدن للابقاء على مكانة جدة المكتسبة . (١)

وشاد جدة يعمل به جهاز ضخم يعين من قبل الدولة المملوكية منذ أن ، أصبح نظها وظيفة مستقلة تعرف بـنيابة جدة . (٢)

ولنائب جدة من نفوذ الكلمة والسلطة ما يجعله المتحدث على جميع الاقطار الحجازية (٣) .

ومن الوظائف الاشرافية على التجارة هناك ناظر جدة (٤) وكان يسند اليه أمر قضاها وحسبتها (٥) والناظر من كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا الوزير فى تصريف اعماله وقد تعددت ألقاب النظار حسب الاعمال الموكولة اليهم فناظر المال هو الذى يتحدث فى أمر تحصيل المال وصرف النفقات والكلف (٦) وناظر الجيش يتحدث فى اموال الجيوش وحساباتها وناظر الخاص ينظر فيما هو خاص باموال السلطان (٧) وهو يجمع بين السلطتين التنفيذية والاستشارية فيتحدث عن مجموع الامر فى الخاص بنفسه وفى العام

(١) المقرئى : السلوك ج٣ ، ص ٩٢٩ - ٩٣٠ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ١٠٣ .

(٣) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج١٦ ، ص ١٤١ .

(٤) ابن حجر : نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٤٣٤ ، ابن قهد : اتحاف الورى ، ص ٣٦٨ .

(٥) المقرئى : نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٩٧٣ .

(٦) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ١٣٢ .

(٧) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج٥ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦ .

يوخذ رأيه فيه وهو يشبه الوزير لقربه من السلطان واليه تدبير جملة الامور وتعيين المباشرين . (١)

(٢) وفى جدة كان يجمع احيانا بين وظيفة نظر جدة ومباشرة الديوان فيها والمباشر هو الموظف الادارى فى الديوان ومباشرو الختم من الوظائف المستحدثة فى العصر المملوكى وهم يقومون باستيفاء المكوس النوعية على البضائع المصدرة والمستوردة ورسوم الديوان وغيرها ولمنع غش السلع وهم اشبه بموظفى الجمارك فى العصر الحاضر فهم يقومون بمراقبة السلع ويقدررون المكوس التى تختلف باختلاف الاموال ثم يختمون حمولات البضائع بخاتم خاص للدلالة على استيفاء الرسوم المستحقة عليها ويختتم عليها باختام اخرى دلالة على فحصها وسلامتها . (٣)

اما المستوفى فهو موظف من كتاب الاموال وهو من الموظفين الرئيسيين فى الديوان وطبيعة عمله ضبط الديوان ومتابعته والتنبيه على ما فيه مصلحة دائرته التى يعمل بها من استخراج اموالها ونموها . (٤)

وهناك موظف آخر فى ديوان جدة مهمته التفتيش على الديوان ومراجعة حساباته ويعرف بالشاد . (٥)

والواقع أن الكارمية وهم اكبر دعائم البناء الاقتصادى فى البحر الاحمر كانت لهم هيئة اشرافية خاصة تابعة لناظر الخاص وذلك لكثرة مصالحهم التجارية مع الدولة الا انها قد تنفرد احيانا عن نظر الخاص حسب مقتضى الحال وحسب ما يراه السلطان على ان وظيفة " ناظر البحار الكارمى " تكاد تتفق مع مراحل تطورهم وازدهار تجارتهم وقدرتهم على تمويل الدولة ولذلك كان من الضرورى وضع جهاز يعنى بتنظيمهم الادارى والتجارى فى البحر الاحمر

(١) السيوطى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٢) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٦٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ، ص ٤٣٩ هـ .

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٦ ، ابن حجر : ابناء الفجر ، ج ٣ ، ص ٥٠١ .

(٥) المقرئى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٠٥ هـ .

والحجاز ومصر (١) وكان من اختصاص هذه الوظيفة ايضا تولى امر مقايضات البهار ومكسالتوابل الواردة للطور من ميناء جدة . (٢)

وعندما زادت الموارد التجارية للكارم الى الحد الذى جعل استثماراتهم واسعة النطاق استحدث وظيفة " مستوفى البهار والكارم " لتنظيم جباية الضرائب منهم ومراقبة وارداتهم من مخازن تصريفهم فى اليمن وعدن ومكة وجدة وللإشراف على منشآتهم التجارية من خانات وفنادق وتسهيل معاملاتهم .

وعدا ذلك كانت هناك ادارات اخرى مهمتها الاشراف التجارى على الكارمية مثل وظيفة المراقب ، ووظيفة المفتش ، ووظيفة محمل الزكاة وفى اطار رعاية مصالح الكارمية وجدت وظيفة المتحدث لتكون همزة الوصل بين الكارمية والسلطان . (٣)

ولم يقتصر الامر فى التاريخ التجارى للعصر الملوكى على الهيئات المشرفة على نشاطات هذا القطاع من قبل الدولة بل كان هناك هيئات تجارية أهلية يقيمها التجار أنفسهم ترمى الى معالجة النواحي المتصلة بكيانهم وطبيعة حياتهم التجارية وكانت هذه الهيئات معترفا بها من قبل الدولة ومن أبرزها " نقابة تجار الكارمية " فقد كان هؤلاء التجار يكونون اتحادا مغلقا يجمع أفراد الكارمية دون سواهم وقد رسموا سياستهم على اساس التوسع فى المجال التجارى والهيمنة على التجارة الشرقية او احتكارها وجعلوا تنظيمهم هذا اسريا ينتقل من الاب الى الابن فقدسوا الكارمية منذ البدايصة لتدريب ابنائهم على ممارسة العمل التجارى منذ الصغر لاكتساب الخبرة فيه (٤)

وقد كان يتولى رئاسة هذه الهيئة اكثر الكارمية ثراء وجاها وكسان سلاطين الممالك يمنحون لقب كبير التجار ورئيسهم للتاجر الذى يشبهت ولائه للسلطان وبناء على ما اسداه للدولة من خدمات جليلة فى المجالات

(١) القلقشندي: نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٣٢ .

(٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٩ .

(٣) القلقشندي: نفس المصدر ج٤ ، ص ٢٠ ، ج٥ ، ص ٤٥٧ ، نعيم زكى: نفس المرجع ص ٣٢٩-٣٣٠ .

(٤) ابن حجر : ابنو الفجر ، ج١ ، ص ٩٩-١٠٠ ، ج٢ ، ص ٢٧٠ ، ج٣ ، ص ٤٨ .

السياسية والاقتصادية وبناء على ما له من مكانة تجارية مرموقة في مصر والحجاز والبحر الأحمر واليمن . (١)

وقد انتشرت نقابات التجار في الشرق والغرب وهي على غرار الغرف التجارية في الوقت الحاضر وفي مكة كان للتجار هيئة مسئولة عن مراقبة المعاملات التجارية ومنع الغش والتدليس كما يحدث في كل مركز تجاري هام وكان رئيسها يختار من بين كبار التجار الذين لهم باع واسع في دنيا المال والنقود ومداخلة الدولة وكان يعرف برئيس التجار أو كبير التجار أو الشيخ أو الزعيم . (٢)

وعموماً فان هذه الصفات كانت بمثابة الاسس التي تجعل من التاجر جديراً بنيل زعامة التجار ومن الملاحظ أن ريادة التجار في مكة لم تكن يشترط فيها أن يكون التاجر مكيًا فربما تولى هذا المنصب أحد التجار المقيمين فيها إذا كان متمتعاً بالشروط السالفة الذكر . (٣) ولا ريب فـ في ذلك فقد كانت طبيعة المكان .. واتساع الحركة التجارية فيه كفيلة بجذب التجار المسلمين من كافة بقاع المعمورة .

ومهما يكن من أمر فقد كان طبيعياً أن يدرك أهل مكة تلك المكانة التجارية العظيمة لبلدتهم فأقاموا فيها ومن حولها الاسواق والمنشآت التجارية لاستقطاب التجار والمشتريين على مستوى عالمي وبالإضافة الى ما يحدث في هذه الاسواق والمؤسسات من تبادل تجاري ، فقد كانت بمثابة مراكز ثقافية وعلمية وخاصة خلال الأشهر الحرم وهنا تبرز أهمية مكة المكرمة ودورها في حفظ التاريخ ونقله بحكم مركزها الديني والثقافي والاقتصادي .

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة ج١ ، ص ٤٥٠-٤٥١، ابناء الفجر ج١ ، ص ٢٨٨ ، ٣٠٦ ج٢ ، ص ٢٧٠ ، ج٣ ، ص ٥٠٧، صبحي لبيب : التجارة الكارمية ، ص ٣٤-٣٥ .

(٢) الفاسي: العقد الثمين ج٦، ص ١٠٦-١٠٧، ٢٢٩-٢٣٠، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج١٦، ص ٣٥٣ .

(٣) ابن تغري بردي : نفس المصدر والجزء والصفحة .

الفصل السادس

فئات التجار في مكة المكرمة

- التجار المحليون .
- التجار الموسميون
- التجار المنجولون .
- التجار الكارميه .

امسك العالم الاسلامى بزمام التجارة فى العصور الوسطى بحكم سيطرته على المعابر والطرق الرئيسية عبر الخليج والبحر الاحمر والبحر المتوسط وغيرها من الطرق البرية التى كانت تمر عبر اراضيه وسواحله ، وقد زاد هذا النشاط التجارى نتيجة اهتمام السلطات المملوكية بتوفير الامن والارتباط بعلاقات اقتصادية مع الدول المصدرة والمستوردة لتجارة الشرق .

وكان من الطبيعى أن تصبح مكة المكرمة بحكم مركزها الدينى وموقعها على الطرق الرئيسية من أهم مراكز التجارة العالمية فى ذلكالحين فقد كانت السفن تصل الى مينائها جدة وكان التجار المسلمون يتلقون فى اسواقها المحلية والموسمية والسبوية ويتعاملون مع تجارها فى مراكزهم .

ولا شك أن التجار المسلمين كانوا محور التجارة العالمية بصفة عامة وتجارة مكة المكرمة بصفة خاصة ... وقد تحكموا فى تجارة الافاوية التى ازدادت بسببها المبادلات التجارية بشكل كبير بين الشرق والغرب فى ذلك الحين .

ومن الملاحظ أن السيوت الكبرى التى اهتمت بتلك التجارة كانت فى معظمها بيوتا عربية اذ كان العرب يتجرون بمنتهى الحرية فى جميع الموانع والمراكز التجارية الهندية والصينية وغيرها وكان لهم نشاط واسع فى هذه المناطق ، فأنشئوا الوكالات التجارية ، واقاموا المستودعات الكبيرة لبضائعهم وبلغ اهتمام الدول التجارية فى الشرق بشأنهم أن خصص قاض مسلم للفصل والحكم بين المسلمين القاصدين لتلك النواحي والصلاة بهم فى موسم الاعياد والدعاء للسلطان فى الخطب . (١)

وحتى اواخر العصور الوسطى كان التنافس شديدا بين التجار المسلمين والهنود والصينيين فى شراء وبيع وتوزيع السلع الرئيسية وكانت التجارة

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥٥٠-٥٥٨ ، الجزيري : تحفة العجائب ، ق ٢٤٤-٢٤٥ .

الشرقية اذا وصلت الى ملقا حملها التجار العرب المسلمون الى موانئ ومدن الخليج والبحر الاحمر ، وان كانت معظم الرحلات التجارية توجسه اساسا الى البحر الاحمر واليمن والحجاز ليتم نقلها وتصريفها في مصر والشام (١) . ومما يذكر أن عدن كانت آخر نقطة يمكن أن تصل اليها سفن التجار الهنود حتى عام ٨٢٥هـ وهو العام الذي بدأت فيه حدة تستقبل السفن الهندية ومن ثم تتزعم الحركة التجارية مع الشرق (٢) اما السفن الصينية فقد تأخرت قليلا في التعامل التجاري مع جدة حتى عام ٨٣٥هـ وقد ظلّت جدة اقصى نقطة وصلت اليها السفن الهندية والصينية في البحر الاحمر (٣) .

وخلاصة القول ان مفتاح التجارة العالمية في العصور الوسطى كان في يد التجار العرب المسلمين اذ كانت لهم السيادة الاقتصادية لتجارة العبور بين الشرق والغرب ولا ريب في ذلك فقد كان العرب تجارا بالقطرة كما ان الاسلام يشجع على التجارة ويحث على السعى في طلب الرزق ، وقد تطورت النظم التجارية في الاسلام في مختلف فروعها وتم ضبطها بضوابط ساعدت على جعلها وسيلة من وسائل الدعوة الى الله ، فقد كان معظم التجار من الفقهاء ، وكان لذلك اكبر الاثر في قيامهم بالدعوة الاسلامية الى جانب التجارة .

وتشير المصادر التاريخية الى الجاة العريضة والثراء الواسع ، والمكانة الاجتماعية الرفيعة التي تمتع بها التجار في مكة ابان العصر المملوكي كما تشير الى رعاية السلطات المختصة لهم واهتمامها بمصالحهم

(١) باننيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٣٢، ٣٥، ٣٧، ٤٧ ، سونيا هاو : في طلب التوابل ، ص ٤١ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٣٥٥ ، الجزيري : درر الفوائد ، ص ٣٢٢-٣٢٣ .

(٣) ابن حجر : ابناء القمر ، ج ٣ ، ص ٤٧٣ ، ابن تفرى بردي : النجوم الزاهرة ج ١٤ ، ص ٣٦٢ .

علاوة على علاقات الود والمصلحة التي نشأت بين الطرفين ، وحسب ما رواه الفاسي كان لكل واحد من بنى حسن او اكثرهم صاحب من تجار مكة وغيرهم . وله على التاجر نفع او فائدة يأخذها منه فى كل سنة مقابل حمايته . فاذا أراد أمير مكة أو غيره من بنى حسن التعرض لتاجر بسوء تدخل صاحبه لحمايته (١) .

غير أن ظاهرة النزاع بين الاشراف على السلطة فى مكة المكرمة وانعدام الأمن فيها فى كثير من الاحيان بسبب الفتن والقتال تعد من اصعب المشكلات التى واجهت التجار المحليين والقادمين الذين تعرضوا لخسائر جمة ، من مصادرة للأموال ونهب للبضائع والمتاجر ولم يكن بوسع التجار نتيجة لتلك الاوضاع الا الفرار بأموالهم من مكة وجدة الى ينبع وبسبب رسوخ اقتصاديات التجارة فى مكة المكرمة فى تلك الحقبة فإن (٢) التجار الفارين بأموالهم كانوا يرجعون اليها بعد عودة الهدوء والاستقرار ورغبة من التجار فى استتباب الأمن طلبوا من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى اثناء حجه الثانية سنة ٧١٩هـ أن يجعل بمكة قوة عسكرية تعمل على اشاعة الأمن وقمع المفسدين فكان لهم ما طلبوه . (٣)

ولم يكن تأثير النزاع من وجهة النظر الاقتصادية قاصرا على التجار فقد برزت مجموعة من النتائج سبقت الإشارة اليها ولعل من أهمها ما يتصل بارتفاع الاسعار وثدة الغلاء وانقطاع الاقوات لقلّة الصادر والوارد . (٤)

(١) العقد الثمين ، ج٤ ، ص ١٥٤ .

(٢) الفاسي : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٩٠ - ٩١ ، ج٦ ، ص ١٢ ، المقرئى : السلوك ، ج٢ ، ص ٤٠٨ ، ابن حجر : ابناء الغمر ، ج١ ، ص ٣٠٣ ، ج٣ ، ص ٥٦ ، ابن فهد :

اتحاف الورى ، ص ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣١٨ .

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٩٨ .

(٤) انظر الفصل الثانى " النزاع بين بنى قشادة واسباب الغلاء " .

ومن أبرز الصعاب التي واجهت التجار أيضا ٠٠٠٠ اتباع الامراء فى مكة لسياسة الاقتراض من التجار دون ضمان ٠٠٠ فان التاجر لم يكن يستطيع أن يسترد ما أخذ منه على سبيل القرض ، هذا عدا الرسوم والجبايات المتعددة التى كانت تؤخذ منهم .

وكان الامراء يعللون أخذهم لذلك كله بأسباب تتصل بقسوة الحياة وصعوبتها واحتياجهم للاموال للقضاء على الفتن والعمل على استقرار الاحوال الامنية والاقتصادية ٠٠٠ فضلا على خدمة المحمل والحاج . (١)

وفى الحقيقة لم يكن ذلك قاصرا على التجار فى مكة وذلك أن التجار بصفة عامة كانوا يوفون طبقة مقربة لسلطين الممالك الذين أحسسوا بان التجار هم المصدر الاساسى الذى يمدهم بالمال فى أوقات الشدة وخاصة بعد فشل الاقطاع وتدل جميع الشواهد على أن التجار تمتعوا فى عصر الممالك بثروات طائلة وهذا امر طبيعى فى دولة كانت حلقة النشاط التجارى بين الشرق والغرب غير أن ثراء التجار شكل حاجزا يحول بينهم وبين الاطمئنان على اموالهم وتجارتهم فى كثير من الأحيان فقد جعلهم دائماً مطعما لسلطين الممالك فأكثروا من مصادرة اموالهم واشغالهم بالرسوم والمكوس الباهظة لدرجة أن التجار كانوا يدعون على انفسهم ويطلبون أن يفرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة " (٢)

واذا كانت هذه الصعاب تعد من أبرز المشكلات التى واجهت هذه الفئة من التجار من مكة فان ذلك لا يمنع أن يكون لهم دورهم الاساسى المرتبط

(١) الفاسى : نفس المصدر ، ج٦ ، ص ٢٠٧ ، المقرئى : نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٨٥٢ ، ابن حجر : نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، ابن فهد : نفس المصدر ص ٣١٥ .

(٢) المقرئى : نفس المصدر ، ج٤ ، ص ٤٤٤ ، ابن حجر : ابناء الفجر ، ج١ ، ص ٣٦٥ ، ٥٢٩ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين الممالك ، القاهرة ، ١٩٦٢ م ، ص ٣٦ ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٢٤ .

ببيئتهم المحلية والمتأثر بظروفها الخاصة وعموما فقد كان لهؤلاء التجار أثر كبير فى الحياة الاجتماعية . فقد قام عدد منهم ببناء المساكن والاربطة ووقفها على الفقراء والمحتاجين ٠٠٠٠ كما قاموا بانشاء صهاريج المياه وتسبيلها ٠٠٠ بالاضافة الى كثرة القرى والمعروف سواء فى مكة او فى الطريق اليها . (١) ويظهر دورهم بشكل واضح فى المجال العلمى وليس ذلك بغريب فى العصر المملوكى فقد كان من العلامات البارزة فيه ازدهار الحركة العلمية وظهور عدد من الاعلام الافذاذ برعوا فى الفقه والحديث والنحو والادب والتاريخ وقد كان لسلطين المماليك أثرهم فى هذا النشاط العلمى الواسع فقد شجعوا العلم والعلماء وحرصوا على عقد المجالس العلمية والفقهية ومما ورد فى وصف السلطان الظاهر بيبرس أنه " كان يميل الى التاريخ وأهله ميلا زائدا ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب " . (٢)

وعلى كل فقد واهب كثير من التجار فى ذلكالعصر على حضور مجالس العلم وتصدى عدد منهم للقراءات والاشتغال بالتدريس والفتوى وانتفع الناس بهم فى مكة وغيرها . (٣)

وفى هذا الاطار فانه من المهم التعريف بقطاعات التجار والترجمة لنماذج منهم .

التجار المحليون :-

كانت هناك فئتان رئيسيتان لهؤلاء التجار هما فئة التجار المحليين

- (١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٨ ، الفاسى : العقد الثمين ، ج ٣ ، ص ١٠٣ ، ج ٦ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ابن حجر : ابناء العصر ج ٢ ، ص ١٢٧ ، ابو مخرمة : تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١١٧ .
- (٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .
- (٣) الفاسى : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٤٢ ، ج ٥ ، ص ١٢ - ١٣ ، ص ٧٧ - ٧٨ ، ج ٦ ، ص ٤٧١ ، المقرئى : السلوك ج ٣ ، ص ٧٩ ، ابن حجر : ابناء العصر : ج ١ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ج ٣ ، ص ٤٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ١٧٠ - ١٧١ ، ص ٧٦ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ .

من اهل مكة وفئة التجار المقيمين من نزلاء مكة أو المجاورين فيها من انحاء العالم الاسلامى كافة ويبدو أن اسلوب التخصص كان غالبا على صنعة هؤلاء التجار من محليين ومقيمين فمنهم من تخصص فى بيع العطور والبخور ومنهم من تخصص فى بيع البز والعمر^(١)، ومنهم من كان يتاجر فى السجاجيد والبسط وجماعة كانت تتاجر فى بيع التوابل واخرى فى بيع الموءن والمواد الغذائية . هذا بالإضافة الى ارباب الحرف الذين كانوا يعملون لسد حاجات الاسواق المحلية وتوفير اسباب الحياة للناس مثل الخبازين والجزارين والخياطين والحدادين وغيرهم .

وقد انتشرت حوانيت هؤلاء التجار وأرباب الحرف فى انحاء مكة واتخذت كل طائفة او جماعة منهم اماكنها فى الاسواق التخصصية ذلك ان كل سوق اختصت ببيع سلعة بعينها^(٢) ولا شك أن تركيز كل سلعة أو حرفة فى سوق خاصة كان من شأنه أن ييسر على المحتسب وأعوانه أمر الاشراف عليها ومراقبة الموازين والمكاييل والنظر فى الاسعار وخاصة عند احتكار السلع والاقوات التى يحتاج اليها عامة الناس .

ويمكن القول بشكل عام أن التجار المحليين والمقيمين كانت لهم اسهاماتهم فى جميع جوانب الحياة فى مكة وكانوا من المقربين للسوى امراءها فكانوا يستعينون بهم فى حل الازمات والقضايا السياسية والاقتصادية . (٣)

-
- (١) العمر : " المنديل او غيره تغطى به المرأة رأسها والعمارة : كل شئ يضعه الرئيس على الرأس من عمامة او تاج او غيره كالعمرة " ، الفاسى : (٢) انظر الفصل الخامس الاسواق المحلية . العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٣٣٩ .
- (٣) الفاسى : العقد الثمين ، ج١ ، ص ٣٣٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٥ ، ص ٣٧٩ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٢٥٥ .

ولما كان التجار المحليون والمقيمون يمثلون فئة سكانية لها ثقلها ووزنها البارز في مكة لشدة ارتباطهم بحياة الناس ومعاشهم . فضلا على رسوخ اقتصاديات التجارة في هذا البلد بالقياس الى انواع الاقتصادات الاخرى ، نجد لزاما علينا الاشارة الى بعض الاسماء التي لمعت في الميدان التجاري المحلي في ذلك العصر منهم على سبيل المثال " التاجر محمد ابن ابراهيم المكي كان يلقب بالجمال بن العز المتوفى سنة ٧٠٥هـ وكان ذا نظم وعناية بالشعر وقد ورث مالا عن ابيه لكنه بالغ في الاسراف حتى احتاج في آخر عمره وصار يتكسب بالتجارة وغيرها . (١)

ومن أعيان التجار ذوى اليسار والخير في مكة عمر بن علي المكي المتوفى سنة ٧٦٥هـ (٢) وسليمان بن راشد السالمى المتوفى سنة ٧٧٩هـ وهو من أثرياء التجار وقد تعرض هو وأخوه للاختطاف في سنة ٧٧٧هـ اختطفهما بعض الاشراف المناوئين للسيد احمد بن عجلان صاحب مكة ولكن تم انقاذهما على يد فرسان الشريف احمد الذى عمل ما فى وسعه لتوفير الامن ورعاية مصالح الشرعية والتجار (٣) ، وقد خلف هذا التاجر عقارا طائلا بمكة والوادي ونخلة . (٤)

ومن كبار التجار ضياء الدين محمد الهندي الماعانى نزيل المدينة ثم مكة سنة ٧٨٠هـ وكان سبب تحوله من المدينة انه كان تاجرا كثير المال . . فطلب منه أميرها جمار شيئا من المال فامتنع فسجنه ثم افرج عنه . . .

(١) الفاس : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

(٢) الفاس نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٣) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٠٧ .

(٤) الفاس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٦٠٦ .

فاتفق أنهما اجتماعا بالمسجد فوق من جمار كلام في حق الخليفتين ابي بكر وعمر فكفره الضياء وقام من المجلس وتمكن من الوصول الى ينبع واستجار بأميرها ابي الغيث فأرسله الى مصر وهناك شنع على جمار فأمر السلطان بقتل جمار فقتل في الموسم فنهبال جمار دار الضياء فتحول الى مكة . وظل مقيما بها وكان فاضلا عارفا بالفقه والعربية والاصول . (١)

اما محمد بن حسب الله القرشي المتوفى سنة ٧٨٣هـ فكان كبير التجار في عمره وكان يلقب بالجمال ويعرف بالزعيم وكان واسع الشراء ويقال ان تركته بلغت ثلاثمائة ألف ألف ، وقيل ثمانمائة ألف ألف ومائتى ألف درهم ، وقيل ثلاثمائة ألف ألف وستمائة ألف درهم (٢) . وقيل أن ما عثر عليه من ماله بعد وفاته بلغ أكثر من عشرين ألف دينار سوى ما خفى . وقد اكتسب ثروته من التجارة وكان مشهورا بمعرفته لها وحذفه فيها الا انه كان معروفا بالمعاملات الربوية (٣) ، لا يبالي في اعطاء المال على وجه السلف بالفائدة ويعيب على من يطلب منه القليل وكان ينال من غرمائه كثيرا بالقول والفعل وربما حبس بعضهم بغير استئذان الحكام بسبب احسانه اليهم وعلو منزلته عندهم . (٤)

ومن التجار الذين كانت لهم بالامراء صبة التاجر محمد بن احمد المصري نزيل مكة المتوفى سنة ٧٨٩هـ فقد كان بينه وبين احمد بن عجلان وشام كبير وكان يحضر معه في القضايا المتعلقة بالنزاع على السلطة وولى الوكالة عنه احد امراء المماليك هو الامير جركس الخليلي وكان هذا الامير يتولى صدقاته بنفسه كما تولى الوكالة عن غيره من الامراء والتجار (٥)

(١) ابن حجر: المصدر السابق، ج١، ص ٨٧-١٨٨، ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص ٢٦٨-٢٦٩.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ج١، ص ٤٥٥ .

(٣) ابن حجر: ابناء الفجر، ج١، ص ٢٥٠، ج٢، ص ١٢٥ .

(٤) الفسافي: نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) الفاسي: نفس المصدر والجزء، ص ٣٣٠، ابن حجر: نفس المصدر والجزء ص

وكان نزيل مكة عبد الله بن محمد الملقب بالعفيف ، والمعروف بالهيتي المتوفى سنة ٧٩٧ هـ من أعيان التجار بعدن وقد كثر سفره للتجارة إلى مكة ثم استوطنها ٥٠٠٠ ونقل إليها أهله وقد اشتهر بالحكمة وحسن التصرف أقبل عليه صاحب مكة أحمد بن عجلان ورعاه أمراؤها لعقله وكثرة مروءته وخيره . (١)

ومنهم محمد بن على الاصبهاني المتوفى سنة ٧٩٩ هـ فقد كان يتاجر بالعطارة وله دكان بسوق العطارين عند باب بنى شبة وكان معروفا بالخير والمروءة جيدا مقبول الشهادة عند الحكام (٢) .

ومنهم ابن جوشن أحمد بن على المصرى المتوفى سنة ٨٠١ هـ ، من أعيان التجار المعروفين بالبر (٣) ، اوقف وقفاً على الفقراء بهدة بنى جابر .

ومن أعيان تجار اليمن الذين استوطنوا مكة العماد عيسى بن عبد الله اليمنى المعروف بابن الهليس المتوفى سنة ٨٠٢ هـ أقام بمكة خمس عشرة سنة متوالية عاد بعدها إلى اليمن وولاه صاحبها الاشرف اسماعيل (٤) عدن ولكنه لم يلبث أن عزل عنها بعد سنين قليلة . (٥)

ومن كبار التجار محمد بن عمر الجمال المعابدى الوكيل ... كان واسع الثراء والجاه كثير القرى والمعروف - خلف مالا عظيما نقدا وعقارا ، أذهبها ابنه على بعد وفاته في غير وجهها . (٦)

(١) الفاسى : العقدالشمين، ج ٥ ، ص ٢٩٧ ، ابو مخرمة : تاريخ شفر عدن ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٥٧-١٥٨ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر ج ٣ ، ص ١٠٣ .

(٤) هو السلطان الرسول اسماعيل بن الملك الافضل عباس تولى الحكم في اليمن

سنة ٧٧٨ هـ وقد ساد البلاد في فترته الهدوء والاستقرار توفي سنة ٨٠٣ هـ .

(٥) الفاسى : نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٤٥٩ ، ابو مخرمة : تاريخ شفر عدن ج ٢ ، ص ١٥٧-٢٨٩ .

ص ٢٥٤ .

(٦) الفاسى : العقدالشمين، ج ٦ ، ص ٢٥٠ ، ابن حجر : ابناء الغمر ج ٢ ، ص ٢١٧ .

ومنهم ابن جوشن محمد بن على المصرى المتوفى سنة ٨٠٦هـ وقد خلف عقارا طائلا (١) وابن قنين التاجر عبد الرحمن بن سعد الحضرمى المتوفى سنة ٨١٢هـ كان ثريا خيرا ، اشترى بمكة املاكا ثم انتقل الى المدينة المنورة بعد وفاة الشريف أحمد بن عجلان ٠٠٠ وحصول الاختلاف بعده فى أمر الدولة وكانت وفاته بالمدينة بعد ان استوطنها وأقتنى بها املاكا . (٢)

وممن طلب العلم وسعى فى تحصيله الى جانب التجارة احمد بن محمد الدمنهورى المتوفى سنة ٨١٦هـ . الذى كان يعمل فى العطارة وكان له دكان مع العطارين وكان مع ذلك ينسخ عددا من كتب العلم رغب فى تحصيلها استفاد دنيا وملكا أنشأ بناحية الحزورة وكان ينطوى على خير ودين . (٣)

اما أحمد بن عبد الله المكي المعروف بابى مغماس المتوفى سنة ٨١٥هـ فقد كان فى مبدأ أمره صيرفيا ثم صار من أصحاب الاموال والشراء ومن تجار مكة المشهورين وصار يداين الناس كثيرا . (٤)

ومن كبار التجار على بن محمد المعروف بالزعيم المتوفى سنة ٨١٦هـ ورث اموالا كثيرة عن والده وكان يحيط نفسه بمظاهر العظمة والغنى انفق كثيرا من امواله على الدولة بمكة فرعاه الامراء وقربوه وعلى العشوام فاحبوه وكانوا يتسابقون الى خدمته . (٥)

ومن التجار العلماء القاضى المحدث الحافظ جمال الدين محمد بن عبد الله بن ظهيرة المتوفى سنة ٨١٧هـ ، رحل فى طلب الحديث - وله باع واسع فى العلم وانتفع الناس به فى مكة وأقادهم نحو من أربعين سنة .

(١) الفاسى : نفس المصدر ، ج٢ ، ص ١٥٣ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر ، ج٥ ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر ، ج٣ ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٤) الفاسى : نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٧٥ .

(٥) الفاسى : نفس المصدر ، ج٦ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

وكان كثير العبادة مع السميت الحسن والسكون . (١)

وممن اشتغل بالتجارة أبو البركات محمد بن أبي السعود بن ظهيرة لم يعتن بالعلم كثيرا بل كان ممارسا للتجارة مذكورا بسوء المعاملة وولى حصة مكة ونيابة الحكم فى القضاء بها وعزل عنهما عدة مرات لقله علمه ودرايته مات معزولا سنة ٨١٩ هـ . (٢)

ومن أثرياء التجار ظهيرة بن ظهيرة المتوفى سنة ٨١٩ هـ ويعد من جملة العلماء فى ذلك العصر أجاز له جماعة من شيوخ مصر والشام ومكة وقد استفاد من تجارته عقارا كثيرا ٠٠٠٠ ونقدا وعروضاً . (٣)

ومنهم العماد بن عيسى بن موسى القرشى المتوفى سنة ٨٢٠ هـ حفظ القرآن وجوده ومهر فى التجارة واستفاد منها عقارا بمكة والخضراء وخيف بن عامر وغيرها . (٤)

ومنهم زين الدين عطية بن خليفة المعروف بالمطيبيير المتوفى سنة ٨٢٧ هـ كان كبير تجار مكة ٠٠٠ اشتغل بالتجارة طوال حياته وكسب منها كثيرا.

ومن اصناف المتاجر التى عانى التجارة فيها البهار ، واجتمعت لـه أموال عظيمة وعقار كثير فى مكة ووادي مر ونخلة ويذكر أنه كان يكسب فى الدرهم ستة أمثاله ولم يكن معتنيا بتحرير ما يجب عليه من الزكاة ويرى أن أحسانه الى أقاربه وما تأخذه منه الدولة من المال يقوم مقام ذلك ، وكان قليل الرفق فى مطالبه غرمائه ثديدا فى الاقتضاء منهم ٠٠٠ ومن وجوه البر التى تنسب اليه ٠٠ صدقة قررها للفقراء الواردين من اليمن وطريق

(١) الفاسى : نفس المصدر ج ٢ ، ص ٨٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٢) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج ٣ ، ص ١٢٠ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ، ج ٥ ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(٤) الفاسى : نفس المصدر ج ٦ ، ص ٤٧١ .

السراة والطائف وأخرى بهدة بنى جابر على طريق المدينة المنورة وله بمكة
اوقاف عديدة وسبيل ماء أنشاه بقرب المروة وآخر بمنى كما أقام رباطاً
للسنة بسوق الليل (١)، ويذكر السخاوى أنه كان صيرفياً (٢).

ومن التجار ذوى الجاه فى مكة شهاب الدين أحمد بن جابر الله السبىس
المتوفى سنة ٨٢٧هـ كان من المقربين الى الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة
وتولى النظر له فى امواله بواى مر وغيرها وانتفع بذلك وكثرت مراعاة
الناس له وكان واسع الشراء - كثير المال - له مساكن وعقار كثير بمكة
وبساتين ونخيل وسقايها كثيرة بالخضراء من وادى مر وغيرها . (٣)

ومنهم عبد الرحمن الهندى المتوفى سنة ٨٢٧هـ كان ماهراً فى صناعة
العمر وبيعها ولذلك لقب بالعمرى وكانت له عناية بالفقه ، اشتهر بالخيسر
والدين والسكون ويذكر أن أباه كان قاضياً فى الهند أما هو فقد قدم مكة
وجاور بها خمسين سنة ورزق بها أولاداً وبها توفى . (٤)

أما نزيل مكة شهاب الدين أحمد بن سالم الجدى المتوفى سنة ٨٢٧هـ فقد
كان من التجار والعلماء البارزين تولى قضاء جدة واستفاد من تجارتهم
مالاً واسعاً وعقاراً . (٥)

وكان التاجر بركوت بن عبد الله المكيلى المتوفى سنة ٨٣٠هـ حسن
السيرة كثير الافضال محباً لاهل العلم والخير باراً بهم وكان فى سعة من المال
معظمها عند الناس بنى بعدن أماكن عديدة ثم انتقل الى مكة فسكنها وبنى

(١) الفاسى : نفس المصدر ج٦ ، ص ١٠٦-١٠٧ .

(٢) الضوء اللامع ، ج١١ ، ص ١٨٠ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٢٤ .

(٤) الفاسى : نفس المصدر ج٥ ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٥) الفاسى : نفس المصدر ج٣ ، ص ٤٢ .

دارا عظيما واماكن جليلة وقد صاهر التاجر الكارمى الكبير برهان الدين المحلي . (١)

وممن انتهت اليه رياسة التجار بمكة الخواجا التاجر بدر الدين حسن الطاهر اليمنى المتوفى سنة ٨٧١هـ تولى شاد جدة وكان كثير المال والبخل (٢) ومما يحمده من أعماله وقف لما يملكه من منافع الرباط الكائن بمكة بجوار المسجد الحرام عند باب سويقة أحد أبواب المسجد الحرام على الفقراء والمساكين الغرباء المتعطلين من الرجال دون النساء ممن لا سكن لهم ولا يقدرّون على اجرة مسكن وليس لاحدهم بيت يسكن به ، يقيمون فيه قوما بعد قوم ومن سبق الى سكنى الرباط كان أولى وأحق به من غيره ولا يخرج منه ومن سافر منهم سفرا يزيد على ستة أشهر كان لغيره من الفقراء المتصفين بالصفة المذكورة وأوقف على مصالحه منافع العمارة الكائنة على يمين الداخل من باب الرباط المذكور والدكان والمخزن الذى تحتها وكان قد استحق منافع هذا الرباط عن طريق استجاره الشرعى مدة خمسة وتسعين عاما وعشرة أشهر وعشرين يوما متوالية وأوقفه هذه المدة كاملة . وجعل النظر فى ذلك من بعده لذريته الذكور ، فان تعذر ذلك كان نظره للاعلم الاصلح من أهل الحرم الشريف ، وثبت ذلك عند القاضى بمكة (٣) وكان لهذا التاجر علاقات وطيدة مع سلاطين المماليك لقربوه ورعوا أبناءه بعد وفاته . (٤)

وكان الخواجا مصطفى صاحب طرابلس الرومى المعروف بالذبيح المقيم بمكة والمتوفى سنة ٨٧٥هـ قد خلف ثروة طائلة تزيد على عشرين ألف دينار . وقد أوصى بثلاث ماله للفقراء وللقضاة الاربعة بمكة ولصاحبها ونائب جـدة بجزء من ماله وأوقف بيتا له بها على قارىء كان يقرأ له فى مصحف كل يوم .

(١) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج٣ ، ص ٣٨٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ص ١١٧ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ٢٥٣ ، السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١١ ، ص ١٧٦ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٦٨ .

(٤) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٣٦ .

وقد نفذت الوصية . عدا ثلث الفقراء فإنه لم يفرق منه الا اليسير لان السلطان برقوق أمر أن يبطح به المسجد الحرام وان تعمّر به عين عرفة فكان ما أمر . (١)

أما أحمد بن محمود بن فاوان أو كاوان فتطلق عليه المصادر لقب " ملك التجار " وقد قدم مصر صحبة الحجاج من مكة سنة ٨٩٠هـ فعظم أمره بها جدا وذاعت شهرته . (٢)

التجارة الموسميون :-

سبق أن اكدنا أن مواسم الحج ومواسم قدوم متاجر الشرق كانت تمثل المواسم الزاهرة للتجارة عماد الاقتصاد في مكة ولاهمية مكة وكونها مركزا رئيسيا للتجارة ومحطة للتجارة العالمية في ذلك الحين كان يفد اليها أعدادا كبيرة من تجار الشرق والغرب الاسلامي ومن المؤكد أن هؤلاء التجار قد اسهموا بنشاط واسع في مضمار التجارة الدولية ولعل الارباح الى كانوا يجنونها من عمليات التبادل النقدي والتجاري بالانافة الى توفر المستودعات ومناطق التخزين ووجود السلع التجارية المتنوعة كل هذا كان من أهم الاسباب التي اغرت التجار على القدوم والاستفادة من هذه المواسم .

ولا شك أنه كان لقوافل الحج وماصحابها من التجارة الاشر الكبير في ازدياد النشاط التجاري في مكة وفي ظهور مجموعة كبيرة من الاقواق، والمحطات على طرق القوافل فأتاحت لهذه القوافل فرص تعدد عملياتها التجارية من سبادل للمنتجات والسلع المختلفة ... وقد كانت هذه القوافل تصطب معها أعدادا غفيرة من الحجاج والتجار والشركاء والوكلاء التجاريين

(١) ابن فهد : نفس المصدر، ص ٤٤٢، السخاوي : الفوء اللامع، ج ١، ص ١٦٠ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣، ص ١١٦ .

فى معظم الاحيان أشهر الحج الاسلامية (١) وهنا لابد من الاشارة الى ان التجارة الموسمية فى البحر الاحمر قد انحصرت حتى اوائل القرن التاسع الهجرى فى تجار اليمن والكارم لانه لم يكن يسمح لتجار الهند والصين بتخطى عدن شمالا فى البحر الاحمر فكانت رحلتهم التجارية تنتهى عند عدن ثم تقفل سفنهم عائدة من حيث أتت .

ومن المعروف أن تجار اليمن من اوائل التجار المسلمين الذين قاموا بدور كبير فى نشر الاسلام فى الهند والصين وجاوة وافريقية وغيرها . . وألفوا التجارة منذ القدم وكانت لهم علاقات تجارية مع كثير من البلدان فى العصر الوسيط وبالإضافة الى ذلك اقترن ذكرهم فى مكة والمدينة والحجاز بموسم ورود التوابل والعطور من الهند والصين وقد اشتهر قدومهم اليها بالمرزوقى (٢).

ولعل هذه التسمية تشير الى المكانة التجارية الكبيرة لهؤلاء التجار والى الرخاء والازدهار التجارى الذى يجلبه وصولهم وخاصة أن منعهم من القدوم كان يعنى اشتداد الفلاء وقلة المتاجر بل عدمها (٣).

وتشير المصادر الى أن كثيرا من التجار الموسمين قد آثروا المقام فى مكة بعد تردهم عليها وعمرؤا بها الدور والاقواف وكانت لهم علاقات متينة مع أمرائها كما كانوا يتوسطون لديهم فيما يعرض للناس من أمور (٤) ، ويبدو أن ثرائهم واتساع مشروعاتهم التجارية والمنافسة التجارية الحسرة الشريفة بين بلدانهم والدولة المملوكية قد أدت الى مضاعفة الجهود من قبل سلاطين المصاليك للمحافظة على مكانتهم التجارية فى مكة والبحر الاحمر . وعلى الرغم من تشجيعهم التجار على ارتياد مكة وأمر ولايتها باسقاط

(١) بناء على المصادر التاريخية لتلك الفترة كانت السفن الهندية تصل الى جدة فى أشهر الحج وخاصة فى شهرى رجب وذو القعدة وقد دأبت السلطات المملوكية على ارسال المباشرين فى شهر رجب من كل عام للنظر فى جمرک جدة والعودة بعد الموسم الى القاهرة .

(٢) الحسينى : الجواهر الثمينة ، ق ٩٧ أ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ، ص ٦٦٠ ، الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٣٠٩ .

(٤) الفاسى : العقد الثمين ، ص ١٠٢-١٠٣ ، ج ٧ ، ص ٢٧٨-٢٨٠ ، المقرئى : نفس المصدر ج ٤ ، ص ٩٣ ، ابو مخرمة : تاريخ شقر عدن ، ق ٢٤ ، ص ١١٨ .

المكوس عنهم فان المراسيم كانت تستثنى تجار اليمن والعراق والكارم وهى فئات من التجار اشتهرت بغناها الواسع . (١)

واذا كان تجار اليمن والكارم قد تزعموا حركة التجارة الموسمية لفترة طويلة فان هذه الزعامة لم تلبث أن تحولت عنهم تدريجيا فى أعقاب التحول التجارى الذى طرأ نتيجة تعسف سلاطين اليمن مع التجار فقد أخذت حالة الميناء فى التدهور بسبب اضطراب الاوضاع وتعسف ملوك اليمن مع التجار وفرضهم الضرائب الباهظة على ما يحملونه من بضائع وادى ذلك كله الى تحول تجار الهند والصين الى جدة بعد أن ظهرت فى صورة قوة تجارية منافسة وبدأت تكتسب أهمية تضارع أهمية مدن ابان ازدهارها . (٢)

وللاهمية الفائقة للتجارة الشرقية سعى سلاطين المماليك الى جعل موسم ورود التوابل من الهند والصين الى اسواق جدة ومكة خاضعا لاشرافهم المباشرين كما عملوا على اجتذاب تجار الهند والصين ورعاية مصالحهم وتقديم شتى انواع التسهيلات لهم فكانت المراسيم التى تنص على زيادة المكوس على التجار تنص على اعفاء تجار الهند والصين من تلك الزيادة والا يؤخذ منهم سوى العشر (٣) وهو ما جرت به العادة فقد كان التجار القادمون عن طريق البحر يدفعون للسلطات المملوكية العشر من بضائع تجارتهم (٤) ، ثم ان دفعهم العشر كان حسب طلبهم ، فقد اثار هؤلاء التجار الى أنهم ظلموا بأخذ أكثر اموالهم فى عدن ورجعوا فى القدوم الى جدة ليحتموا بالسلطان المملوكى وعرضوا أن يدفعوا عشر أموالهم (٥) .

-
- (١) ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٣٠٦ .
 - (٢) ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٣٦٠ .
 - (٣) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج ٣ ، ص ٥٣٩ - ٥٤٠ .
 - (٤) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٣ .
 - (٥) ابن فهد : اتحاف الوري ، ص ٣٨٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٥ ، ص ٣٣٨ .

وبعد ان كانت التجارة الموسمية فى الماضى قاصرة على تجار الكارم واليمن صارت بعد وصول السفن الشرقية الجدة تشمل فئات متعددة من تجار العالم الاسلامى وكان من أبرزهم تجار الشام ومصر الذين اصبحوا من السمات المألوفة فى الاسواق الموسمية سواء فى مكة أو فيه فرضتها جدة علاوة على تجار الهند والصين وغيرهم وقد كانت ثروات الشرق على صايبدو هى التى تتحكم فى الاتجاهات الرئيسية لتاريخ التجارة ، ومسير التجار فى الشرق والغرب على السواء (١) .

والواقع أن هذه التجارة قدمكنت سلاطين المماليك من الحصول على عائد مالى سريع ووافر عن طريق الضرائب وتوظيف رؤوس أموالهم فى متاجر الشرق وأهمها التوابل ولذلك لا ندهش إذ نجد المحمل المصرى سنة ٨٢٨ هـ ، يتأخر بمنى يوما ملفقا من أجل بهار السلطان الذى أمر بالأل يساع البهار الا على تجار مصر وخدمهم ليضمن الحصول على الضرائب والتحكم فيها بالشكل الذى يرضيه . (٢)

وحتى يحكم المماليك تنظيم سياستهم الضرائبية بعناية تامة فرضوا على جميع الحجاج والتجار القادمين من الشرق أن يأتوا معهم بالتوابل الى جدة لتقوم القوافل بنقلها الى مكة واستغلوا موسم الحج في الاعسـلان على المـلأ... بأن كل من اشترى بضاعة من بضائع التجار وسافر بها الى غير القاهرة حل دمه وماله للسلطان وسافر التجار القادمون الى مكـة من جميع الاقطار مع الـركب المـصرى لتـؤخذ منهم مكوس بضائعهم في القاهرة ثم اذا ساروا الى بلادهم أخذ منهم المكس ببلاد الشام مرة ثانية (٣) وفضلا عن ذلك فان تجار مصر والشام واليمن القادمين من الهند والذين تاجروا في جدة ونافسوا متجر السلطان كانوا يتعرضون لسياسة غرائبية تعسفية

(١) المقرئى: السلوك ٤، ص ٧٣، ٧٦٨، ٩٦٥، ابن حجر: ابنا الغمر ٣، ص ٥٠٧، ٥٣٩، ٥٤٠، ابن اياس: بدائع الزهور، ٢، ص ١٤٢، ٣، ص ١١٦، ابو مخرمة: تاريخ شفر عدن، ق ٢، ص ٦٩، سونيا هاو: فى طلب التوايل، ص ٤٦-٤٧.

(٢) ابن حجر : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٣٤١ .

(٣) المقریزی: نفس المصدر ج٤، ص ٧٣٥، ابن فهد: المصدر السابق ص ٣٦٤، الجزیری: المصدر السابق، ص ٣٢٥.

خاصة من قبل سلاطين المماليك للقضاء على منافستهم . (١)

وبهذه السياسة أصبح السلطان المملوكى ورجال دولته أعظم تجار للتوابل وأكثرهم ثروة بفضل المتجر السلطان وما كانوا يجنونه من حصيله الضرائب التى فرضوها على التوابل حتى تصاعدت اسعارها فى الاسواق . (٢)

وتشير المصادر الى أن تجار الشام قد بذلوا كل جهدهم فى الدفاع عن مستقبلهم التجارى مع المماليك (٣) ولعل ابرز مظاهر احتجاجهم وسخطهم على السلطات المملوكية وعلى الظلم الواقع عليهم من قبل شاد جسدة أنهم فى سنة ٨٥٠ هـ . أعتصموا بالحرم الشريف وليتمكنوا من اعلان تظلمهم أمسكوا بخطيب الجمعة وراحوا ييا للاسلام - فأرتج المسجد لذلك وكثر البكاء والضجيج عند الكعبة - حتى كادت أن تفوت صلاة الجمعة وفى صلاة العصر رفع التجار المصاحف على رؤوسهم وطافوا بالبيت واجتمعوا بالقضاة الاربعة اكثر من مرة كما اجتمعوا بالائمة والاعيان وشائب البلد وذكروا محنتهم مع مشد جدة الامير جانيك الظاهري الذى ظلمهم وأتأصل جانباً عظيماً من أموالهم ثم أنه بعث يطلبهم فخافوا من ظلمه وتركوا البيع والشراء واغرضوا عن النزول الى جدة وسألوا القضاة أن يأذنوا لهم بكتابة محضر بأفعال جانيك . ويرسلوه الى السلطان . فكتب المحضر . . . ولكنهم لم يصلوا الى نتيجة لان خبرهم وصل الى مشد جدة فبعث كتباً الى القضاة وبعض الاعيان يعتذر عما ذكر عنه " ويحلف أنه لم يكن له عندهم غرض " (٤) والجسدير بالملاحظة فى هذه القضية ما اشار اليه ابن فهد عن موقف امير مكة وبعض القضاة ودعمهم لموقف المشد التعسفى وحطهم على التجار وتعذيبهم لهم (٥) .

(١) ابن حجر : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٥٣٩ - ٥٤٠ .

(٢) سونيا هاو : المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٣) المقرئى : المصدر السابق ج٤ ، ص ٧٦٨ ، ٩٦٥ ، ابن حجر : المصدر السابق

ج٣ ، ص ٤٠٠ ، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ج٤ ، ص ٣١٣ - ٣١٤ .

(٤) ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ ، ابن اياس : المصدر السابق

ج٢ ، ص ٢٥٧ .

(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

وعلى كل حال رغم من المشاكل الناجمة عن السياسة الضرائبية فإن التجارة الموسمية كانت مصدر شراء للدولة والتجار بشكل عام وظلت اسواق مكة وجدة الموسمية او موسم الهندي تجتذب التجار المسلمين بكافة فئاتهم طوال العصر المملوكى .

التجار المتجولون :-

مما لا شك فيه ان التجارة باعتبارها نشاطا اقتصاديا ممعنا فى القدم ولارتباط بحياة الانسان والظروف الجغرافية كانت من أبرز الانشطة الاقتصادية فى مكة ان لم تكن النشاط الوحيد وكان التاجر المتجول هو عماد التجارة وهو يمارس التجارة سائحا فى الارض أو فى البحر فى رحلات طويلة أو قصيرة وتدل الشواهد على أن كثيرا من تجار مكة قد مارسوا حياة السفر والترحال فى طلب الرزق فترددوا على اليمن ولفار ومصر وبلاد الشام والحبشة وسواكن والهند والصين وغيرها .

وكان لهم سجل عريق فى تاريخ التجارة الدولية ومنذ العصور الاسلامية الاولى نشطت مكة فى القيام بدورها باعتبارها محطة تجارية ومركزا هاماً من مراكز النقل والتوزيع وكان تجارها يعملون وسطاء تجاريين بين الشرق والغرب (١).

ولقد نشأت من وراء الاسفار تجارات كبيرة مع ان اساسها لم يكن سوى تلك التجارات الصغيرة حين كان البائع المتجول يجوب الاسواق بكيسه المتدلى من عنقه حسب خطة ثابتة كما أن له زبائن معروفين فاذا اغتنى أخذ يستعمل الحصان واذا لقي مضاربة من بائعين أقوياء لجأ الى بيع البضائع التى لا تجتذب قيمتها الفضيلة كبار التجار وفى القرون الوسطى كان يطلق على البائعين المتجولين لقب الارجل المغطاة

(١) سونيا هاو: فى طلب التوابل ، ص ٢٩ ، بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية

بالغبار . (١)

ويضع ابن خلدون الاسس الهامة لنجاح التاجر المتجول بقوله " التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع الا ما نعم الحاجة اليه من الغنى والفقر والسلطان والسوقة ... اذ فى ذلك نفاق سلعته واما اذا اختص نقله بما يحتاج اليه البعض فقط يتعذر نفاق سلعته حينئذ باعواز الشراء من ذلك البعض لعار من العوارض فتكسد سوقه وتفسد ارباحه وكذلك اذا نقل السلعة المحتساج اليها فانما ينقل الوسط من صنفها فان العالى من كل صنف من السلع انما يختص به اهل الشروة وحاشية الدولة وهم الاقل وانما يكون الناس أسوة فى الحاجة الى الوسط من كل صنف فليتحذر ذلك جهده ففيه نفاق سلعته أو كسادها وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو فى شدة الخطر فى الطرق يكون اكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحا وأكفـل بحالة الاسواق لان السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها أو شدة الضرر فى طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها واذ اقلت وعزت غلست اثمانها واما اذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل بالامن فانـه حينئذ يكثـر ناقلوها فتكثـر وترخص اثمانها ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول الى بلاد السودان أرفة الناس واكثرهم اموالا لبعد طريقهم ومشقة وكذلك المسافرون الى الشرق . (٢)

والواقع ان هؤلاء التجار قد أشروا شراء عظيم .. فمما لا شك فيه أن طبيعة الارتحال والانتقال تزيد من فرص الكسب والربح بالإضافة الى أن التجار المنقولين كثيرا ما تنشأ بينهم الشركات ومن أشهرها شركات العنان وشركات القراض او المضاربة وهذا يوءى الى زيادة رأس المال وزيادة فى

(١) جورج لوفران: تاريخ التجارة ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) العبر : ج ١ ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

الربح . (١)

كما أن التاجر المتنقل قد يقوم بالوكالة عن تجار آخرين من بلده او من البلاد التي يمر بها ويأخذ مقابل ذلك مبلغا من المال بناء على عقد بينهما وعلاوة على ذلك فان التاجر المتجول يتمكن من بيع تجارتهم في منطقة واسعة وبذلك ينقل البضائع والمتاجر المختلفة المتنوعة التي تقوم لها الاسواق الراضجة في كل مكان يقصده ثم أن فرص الكسب والربح إنما تكون في صف التاجر السفار لان جهده له والامل في الربح هو الدافع الى العمل بخلاف التاجر المستقر الذي ينقص ربحه بقدر راحته والتاجر المتجول يدير بنفسه مشروع تجارته وكل من يكل اليه ببعض ماله لتشغيله عليه أن يوافق على قراراته دون مناقشة وهو يتمتع بمفرده بطوائد تجارته بأرباح المشاركة في المشروعات الاخرى . (٢)

وعلى الرغم من المميزات العظيمة الناتجة من هذا النوع من التجارة فانه يبدو أن الامن المعيشي لم يكن متوفرا فيها ذلك أن حظ التاجر من عمله كان متوقفا على ما يصادفه مشروعه من نجاح او فشل . . . فقد يخسر التاجر جملة من ماله أو كله في بعض سفراته وهذا امر مسلم به ويقـسـع كثيرا . (٣)

وحتى تكتمل الصورة وتوضح معالمها تجدر الإشارة الى بعض التجار الذين خبروا هذه التجارة في مكة في تلك الفترة فمنهم على سبيل المثال امام الدين محمد بن الزين القسطلاني المكي المتوفى سنة ٧٥٤هـ كان ممن سمع الحديث وحدث بعد أن اجاز له بعض علماء عصره وكان ذا مال وافـسـر

(١) الفاس : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٢) الفاس : نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٢٤ - ٢٥ ، ابن حجر : المصدر السابق

ج٣ ، ص ١٨ ، ابن خلدون العبر : ج١ ، ص ٣٣٠ ، تعميم زكي فهمي : طرق التجارة ، ص ٢٩٨ .

(٣) الفاس : نفس المصدر ، ج٥ ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

السنين الى اليمن للعلم الذى ينفذه صاحبها فى كل سنة ليوقف بعرفة.. لكن التجارة من أهم أعماله . (١)

وكان عثمان بن عبد الله بن ظهيرة المكي ممن زاول التجارة وكثير تردده على الموانئ اليمنية وكانت تعد الابواب الرئيسية للتجارة مع الهند وافريقيا فى ذلك الوقت وقد توفى فى أثناء إحدى رحلاته التجارية بزبيد سنة ٨٠٠ هـ . (٢)

ومن كبار التجار نزيل مكة عبد الله بن ابراهيم الحميرى اليمنى المتوفى سنة ٨٠٧ هـ واهتم بالتجارة وتعددت محطاته التجارية بين مكة والحبشة ومصر واليمن وكان ذا غنى وجاه كبير وكان له كثير من العقار والاقساط فى مكة وصا حولها وقد اوصى فى مرض موته بالتصدق بثلث امواله على الفقراء والمساكين وجماعة من اقاربه ومواليه الذين اعتقهم . (٣)

ومنهم التاجر قاسم بن ابى الغيث اليمنى المتوفى سنة ٨١٤ هـ كان على اتصال تجارى بعدن وغيرها من بلاد اليمن والهند ومصر واستفاد من سفراته التجارية كثيرا وحمل ^{دينارا} دينارًا طائلة - غير انه خسر كثيرا منها فى إحدى سفراته الى مصر وكان موصوفا بالخير ، عمر بمكة دارا حسنة وقفها مع دور اخرى بعدن وزبيد على اولاد له صغار . (٤)

ومن تردد الى اليمن للتجارة محمد بن على الجهنى المكي المتوفى سنة ٨١٥ هـ وكان احد الطلبة بالمسجد الحرام وقد سمع من بعض شيوخ مكة . (٥)

(١) الفاسى : نفس المصدر ، ج ٧ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين ، ج ٦ ، ص ٢٥ .

(٣) الفاسى نفس المصدر ج ٥ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٤) الفاسى : نفس المصدر ج ٧ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٥) الفاسى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .

وعبد الحميد بن مسلم المكي المعروف بابن مخطور المتوفى سنة ٨١٦هـ كان تساجرا صغيرا ثم تردد على سواكن واليمن للتجارة وقد واكب النجاح مشروعاته ورزق حظا وافرا في التجارة ويقال أنه أستاذ مركبا وملاءه نوى " نوى البلح " واشترى كلويبة فيه بدرهم فلما وصل الى مكة باع كلويبة منه بخمسة وعشرين درهما كاملية فصار من الاعيان فترك السفر وعنى بالزراعة واتخذ كثيرا من المزارع والنخيل والمياه وبوادي مر ووادي نخله وغيرها بالاضافة الى دور في مكة ومنى وقد اشتهر بالشهامة والكرم كثرة القرى ولم يكن له في ذلك المنظر من تجار مكة وقد ركز أحمد بن مفتاح المكي المتوفى سنة ٨١٩هـ جهوده في التجارة وكان أبوه عبدا لأمير مكة ثقبه بن رميثة اما هو فقد ترك الخدمة واقبل على التجارة واشترى منها وعرف عند الناس وصار يتردد بسببها الى اليمن وكان موصوفا بالخير والديانة . (٢)

وممن قصد اليمن للتجارة وطلب الرزق أبو بكر بن محمد الدروي المكي محمد
المتوفى سنة ٨٢٠هـ وكان قد اشتغل بالفقه والنحو وفاقته عنايته بالأدب وله
نظم حسن. (٣)

ومن التجار الذين اتسع نطاق تعاملهم التجاري وشمل بلاد شتى عمر بن محمد
الذروي المكي ويعرف بابن الجمال المصري - المتوفى سنة ٨٢٣هـ اهتم بالعلم
والتجارة وتولى الحسبة بعدن ثم عزل عنها وكان قد اودع شيئا من تجارته مع
بعض المسافرين فمات غرقا ويبدو أن خسارته كانت كبيرة فانه لم يلبث
أن مرض ومات (٤). اما يحيى بن يوسف الحمامي المكي المتوفى سنة ٨٣٠هـ فالى
جانب اشتغاله بالفقه فقد تعاطى التجارة وسافر لاجلها الى اليمن وظفار ومصر
وملك بمكة عقارا (٥).

- (١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .
- (٢) الفاسي : نفس المصدر ، ج٣ ، ص ١٨٥ .
- (٣) البخاوي : الضوء اللامع ، ج١١ ، ص ٧٤ .
- (٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ ، ص ٣٥٥ .
- (٥) الفاسي : نفس المصدر ، ج٧ ، ص ٤٥٨ ، البخاوي : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص ٢٦٧ .

ومن تجار اللؤلؤ في مكة أبو القاسم بن محمد بن مقبل المكي ويعرف بالغلة المتوفى سنة ٨٣١ هـ كان تاجرا وبحارا سافر الى هرمز واليمن وغيرها ومارس الغوص للحصول على اللؤلؤ وكان مشهورا بحب الخير وهو صاحب النجم ابن فهد مؤرخ مكة الشهير (١).

وممن رسم سياسته التجارية على أساس التعامل المباشر مع الهند نزيل مكة الخواجا با يزيد الدامغانى المتوفى سنة ٨٦٢ هـ ٠٠٠ وأبو بكر الشحرى التاجر المتوفى سنة ٨٧٠ هـ ومن اعمال البر التي اقامها الاخير بمكة انشاؤه سبيلا في بيته بمضى سنة ٨٥٠ هـ . (٢)

وكان ابو القاسم بن عبد الله المالكي المكي المتوفى سنة ٨٧٥ هـ تاجرا وصانعا للعمير وقد دخل القاهرة والصعيد وتردد على بجيلية باليمن ومات فيها (٣) وكان من كبار العلماء التجاريين أبو بكر النويرى المتوفى سنة ٨٩٣ هـ خطيب

مكة وكان على اتصال تجارى مع اليمن والهند وافريقية وتناول نشاطه الاقمشة وغيرها وقد رأى في سفراته التجارية والعلمية حظا زائدا وكان له عبيد يسافرون له في تجارته ووافته المنية في عدن . (٤)

ومنهم عز الدين بن عبد اللطيف المكي المتوفى سنة ٩٢١ هـ ٠٠ اعتنى بالعلم والتجارة وأجاز له كثير من علماء عصره وسافر مع أبيه في التجارة الى الهند واليمن وسواكن وغيرها . (٥)

ومما سبق يتضح أن اليمن والهند وافريقية شهدت زيادة النشاط التجارى مع مكة وأن التجار بهارسموا سياستهم التجارية على اساس واقع مواكـب

(١) السخاوى : نفس المصدر ج ١١ ، ص ١٣٩ .

(٢) السخاوى : نفس المصدر ج ١١ ، ص ١٠٠ ، ١٥٠ .

(٣) السخاوى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٣٥ .

(٤) السخاوى : نفس المصدر والجزء ، ص ٨٧ .

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

لمتطلبات العصر.....ففى تلك الحقبة كانت الافاوية هى موضوع التجارة الاول بين الشرق والغرب وهى التى ادت الى اغتناء مكة وتجارتها بل الى تفوق الدولة المملوكية وازدهار اقتصادياتها بشكل كبير .

وقبل أن ننهى الحديث عن التجار المتجولين.....ينبغى ألا ننفل فئـة هامة من التجار لعبت دورا بارزا فى الحياة الاقتصادية بمكة وهم تجار السراة والطائف والادوية المحيطة بمكة.....مثل وادى نخلة اليمانية والشامية ووادى نعمان ، ووادى آدم ، ويطن مر وغيرها.....فقد كان تجار هذه النواحي أعنى المزارعين أو الفلاحين يمولون أسواق مكة الموسمية وغيرها .. فقد كانوا يترددون عليها طوال العام لتوزيع حاصلات بلادهم من حبوب وفواكه ومواد غذائية وبيعها أو مبادلتها بسلع وبضائع أخرى ويبدو أن الرغبة فى شراء الفائض كانت تشجع التجارة أكثر من الحاجة الضرورية عند هؤلاء التجار الصغار .(١)

التجــــــــــــــــار الكارمية :-

احتلت فئة التجار الكارمية مكانا مرموقا فى التجارة المملوكية ومثلوا تنظيما تجاريا كان يزداد قوة مع قسوة الظروف السياسية والطبيعية والاقتصادية وعبروا بوفوح عن نمط حضارى للعلاقات التجارية وتنظيماتها وقيمها ومراتبها وقوانينها استمرت قرونا على ان الحقبة الطويلة فى عمــــــــــــر التجارة الخارجية الكارمية لم تكن خلال العصر المملوكى وحده بل منذ عصر الدولة الفاطمية الذى اتضح فيه كيان هذه الفئة ... فقد أشارت المصادر الى "أن الفوطم قد أعدوا اسطولا بعيدا بيلتقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك ويعترضون المراكب فيحميمهم الاسطول منهم وكان عدة هذا الاسطول خمسة مراكب ، ثم صارت الى ثلاث وكان والى قوص هو المتولى لامر هذا الاسطول وربما تولاه أمير من الباب ويحمل اليه من خزائن السلاح ما يكفيه".(٢)

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٧ ، ١٠٠ ، ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٥٢٤ .

والسوءال الذى يشار هنا هو : ما الاصل فى تسميتهم بالكارمية ؟..... وهذا ما يجيب عنه القلقشندى بقوله : ان هذا الاسم مأخوذ عن الكانم وهى منطقة من السودان الغربى تقع بين بحر الفزال وبحيرة تشاد وان هذا الاسم انتشر بين من اشتغلوا بتجارة التوابل بعد أن وقع فيه تصحيف فصار " كارم " وماتزال هذه التسمية محل نقاش اكاديمى مستفيض لاسباب تتمثل بندرة المعلومات حول التسمية ومعناها ذلك أن القلقشندى نفسه يشير الشك فيما رواه بقوله : " ان لفظة الكارمى أو الكارمية وجدت فى الدواوين هكذا ولا معنى لها فى اللغة العربية " . (١)

والواقع أن كثيرا من الدراسات الحديثة أيدت ما ذهب اليه القلقشندى فى نسبتهم الى الكانم ... فى حين شكت بعض الدراسات حول هذه التسمية وافترضت أن الاسم مأخوذ عن متاجرهم نفسها فهناك من يقول أن كلمة kuararima وهى لقطة أمهرية تفيد معنى حب الهال وهو واحد من التوابل التى تاجروا فيها شم صفت الكلمة لتصبح كارم واطلقت على التجار ويرى أحد المؤرخين أنه من الجائز أن تكون نسبتهم الى العنبر او الكارم الذى كان يعد من أكثر المتاجر طلبا وخاصة فى مصر فقد كان بها سوق للعنبر والكارم " اذ لا يكاد يوجد بأرض مصر امرأة وان سفلت الا ولها قلادة من العنبر الاصفر او الكارم " (٢)

ولا شك أن تحديد هذه النسبة يبدو شديدا الصعوبة لافتقار المصادر الموثقة .
كما أن مفهوم الكارم لم يكن واضحا تماما .

والحقيقة أن بعض المؤرخين المحدثين يقعون فى الخطأ حين ينسبون تجار الكارم الى اليهود (٣) والواقع أنه من المؤكد أن الكارمية كانت هيئة تجارية

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج٣ ، ص ٢٥٣ .

(٢) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، ص ٦ - ٧ .

(٣) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ، ص ٣٠٩ .

متماسكة جعلت من الدين الاسلامى أساس وحدتها وقوتها (١) ولم يكن بين الكارم أى يهودى ... اللهم الا من أسلم من اليهود ... ودخل فى صفوفهم على أن يظل على اسلامه ويتوارث أبناؤه الاسلام ديناً وتجارة الكارم صناعته (٢)

وفيما يتصل بدورهم فى العالم التجارى فقد برز تفوقهم وكانوا بحق عمالقة التجارة لعدة قرون وإذا كان التاجر الايطالى يعد مفخرة الحركة التجارية الوسيطة فى البحر المتوسط وعمادها فان التاجر الكارمى فى البحر الاحمر والمحيط الهندى كان اكثر فخارا واجتهادا وكان دعامة من دعائم الاقتصاد الاسلامى ولطالما ساند الدولة المملوكية فى توطيد مركزها وتوكيد زعامتها بين الشرق والغرب فقد سيطر بتجارته على البحر الاحمر وقوى نشاطه فى المحيط الهندى وامتد نفوذه الى الصين وتغلغل فى اعماق افريقية حتى بلاد التكرور. (٣)

وتوطدت علاقاته بتجار الغرب الاوربي فكان بحق كالحلقة التى تمتص عمارة كل البلدان. (٤) وفى عالم المال ودنيا الاقتصاد أصاب الكارمية شهرة عريضة واشروا ثراء عظيما وظهرت براعتهم فى الاعمال المصرفية وتوضيح الارقام أهميتهم فى تاريخ النقد والائتمان فى العصر المملوكى والامثلة عديدة على ضخامة رؤوس اموالهم ومكانتهم المادية ونادرا ما تناولت التراجم تاجرا كارميا دون الاشارة الى غناه الواسع وامواله العظيمة التى تصل الى الملايين فالتاجر الكارمى - ناصر الدين محمد بن مسلم المتوفى سنة ٧٧٦هـ كان اعجوبة عصره فى كثرة ماله حتى كان يقال أنه لا يعلم قدر ماله وان ماله حرز بعد وفاته فجاء عشرة آلاف ألف دينار ويقال أنه خاصم بدر الدين الخروبى التاجر الكارمى الكبير فقال ابن مسلم للخروبى " اشتر بمالك كله شكاير وأحفرها أملاها لأملا " ويقال انه ما مات له عبيد فى الغربية وانهم كانوا يدورون فى التجارات ولا يتفق موت الواحد منهم

(١) الشجاعى: تاريخ الملوك الناصر، ق ١، ص ٢٥١، الفاسى: العقد الثمين، ج ٢، ص ٢٠٠ - ٢٠١

ج ٤، ص ٣١٤، ج ٥، ص ١٩٥، ابن حجر: ابناء الفجر، ج ١، ص ٢٨٥/٢٨٨/٣٠٦/٤٥٠/٤٥١ .

(٢) المقرئى: السلوك، ج ٢، ص ١٣١، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

(٣) صبحى لبیب: المرجع السابق، ص ٢٨

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ١، ص ٤٠٢ .

الا فى مصر حتى ان واحدا منهم غاب عشرين سنة وعاد فمات عنده وقد أوصى بعمارة مدرسته المشهورة بمصر بمبلغ ستة عشر ألف دينار " وكان جسده وأبوه وعمه من التجار حتى كان يقال لعمه شمس الدين " نصف الدينار " (١).

ويكفى للدلالة على ضخامة مشروعاتهم التجارية أن المصادر تشير الى أن احد التجار الكارميه قد بنى مدرسة من ربح يوم واحد فى متجره (٢) ولعل فى هذا بعض المبالغة الا أنه يبين الحجم الهائل للارباح التى كانت تدرها استثماراتهم التجارية الناجحة .

ويذكر ابن بطوطة أن التاجر الكبير فى الصين الذى لا تحصى امواله كثرة يعادل الكارمى فى مصر ويقول فى هذا الصدد " وعادة أهل الصين أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعا تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ويجعل ذلك على باب داره ومن كان له خمس قطع منها جعل فى اصبعه خاتما ومن كانت له عشر جعل خاتمين ، ومن كان له خمس عشرة سموه الستى ، وهو يعنى الكارمى بمصر " (٣).

وغنى عن البيان أن الكارمية قد قدموا أجل الخدمات لدولة المماليك وساهموا مساهمة فعالة فى تنمية اقتصادها ومواردها المالية وكانوا الفئسة المميزة والمفضلة لدى سلاطين مصر واليمن وأمراء الحجاز لكثرة الضرائب التى تجبى منهم (٤) . وقاموا بدور كبير فى تسليف السلاطين واقراضهم وتمويل القوى العسكرية وتجهيز الجيوش المملوكية للجهاد (٥).

ولا يغيب عن البال دورهم الرائع فى اصلاح ذات البين وتحسين العلاقات السياسية وتوثيق المصالح الدولية والتجارية فى عالم العصور

-
- (١) ابن حجر: ابناء الغمر، ج١، ص ٩٩-١٠٠، الدرر الكامنة ج٤، ص ٢٥٧ .
 - (٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص ٤١ .
 - (٣) الرحلة : ص ٦١٧ - ٦١٨ .
 - (٤) ابن شاهين : نفس المصدر، ص ١٠٨ .
 - (٥) ابن حجر: ابناء الغمر، ج٢، ص ٢٧٠، الدرر الكامنة، ج٣، ص ٤٩، ج٤، ص ٤٠٥ .

الوسطى ... يقول الشجاعى عن التاجر الكارمى مجد الدين اسماعيل السلامى ورزق هذا الرجل من السعادة والحظ من ملوك الشرق وعند الملك الناصر (محمد بن قلاوون) ما لم يصل اليه غيره وهو الذى كان سبب صلح المسلمين والتتر وحصل له مال عظيم من الطائفتين وقبول من الملكين وما رزق احد من التجار ما رزق من الحرمة والجاه والوجاهة فى سائر الاقاليم (١) وكان سلاطين مصر واليمن يختارون سفراءهم من كبار تجار الكارمية لما لهم من المكانة العالمية والنفوذ الكبير . (٢)

وقد ترك تجار الكارمية أثرا كبيرا في العالم الاسلامي وكان لهم دور بارز في الارتقاء بالحياة الاجتماعية والثقافية والعمرانية فشيّدوا المساجد والمستشفيات في مكة وغيرها من المدن الاسلامية .

أما فيما يتعلق بكيانهم التجارى فالواضح أن الكارمية لم يتنافسوا فيما بينهم بل كانوا يشكلون رابطة وطائفة تحتكر التجارة الشرقية المربحة ومن أهم مناطقهم فى اليمن كانوا يتجهون بالبضائع الواردة من الهند إلى البحر الأحمر ولهم مواعيد منتظمة تتفق مع مواعيد الرياح ومواعيد وصول السفن الأوروبية إلى الإسكندرية ، وقد كان الكارمية يدرسون أبناءهم ومن يتخبرونهم من عبيدهم الذين تظهر عليهم علامات الفطنة والذكاء على مباشرة أعمالهم فى أسواقهم الكبرى فى مصر والحجاز واليمن والهند وبلاد التكرور وغيرها تجارا ومستثمرين حتى يزداد رسوخ مكانة الأسرة المتوارثة فى تلك الأسواق . . وعلاوة على ذلك كان لمؤسستهم التجارية الكبيرة وكلاء وشركاء مساهمون يجلبون اليهم متاجر البلاد التى يفدون عليها أو يستقرون بها ويروجون فيها المتاجر التى يرسلونها اليهم (٣)

وقد كان للكارمية اسطول بحري ونهرى خاص بهم (٤). ويذكر مورلند

- (١) تاريخ الملك الناصر، ق ١، ص ٢٥١.
- (٢) الخرجى: العقود اللؤلؤية، ج ٢، ص ١٣٩، ١٩٢، ابن حجر: ابناء الغمر، ج ١، ص ٦١، ٢٨٨.
- (٣) ابن حجر: ابناء الغمر، ج ١، ص ٩٩-١٠٠، ٥٣٧، صبحى لبيب: التجارة الكارمية، ص ٣١ - ٣٢.
- (٤) ابن فهد: اتحاف الوري، ص ٣٢٤ - ٣٥٥.

أن أهمية تجار الكارمية لم تكن فى البداية شركة تقوم بعملية مبادلة السلع التجارية وإنما كانت نوعاً من الهيئات البحرية أو البحارة تتولى نقل سلع خاصة بالتجار تحت رعاية من أصحاب المتاجر أو وكلائهم كما كان يحدث تماماً فى سفن النازدة التى لا يمتلكها الكارم ثم مارسوا العمل التجارى بأنفسهم وهو يشير اليهم بلفظ العرب مرة والمصريين مرة أخرى ويقول أن لهم وكلاء فى الهند وعلى ساحل افريقية الشرقى ويكونون وحدة فى شركة بأنصبة متساوية وهو نوع من الشركات المساهمة فى العصور الوسطى. (١)

ولعله من الجدير بالذكر هنا ذكر بعض الاسماء لتجار الكارمية الذين لهم دورهم الكبير فى مكة فى اثناء مجاورتهم او رحلاتهم التجارية فمن خيرة تجار الكارمية الذين اشتغلوا بالتدريس الى جانب عملهم التجارى عبد الله ابن عبد الجبار العثمانى - التاجر الكارمى البزاز وقد حدث بالاسكنسدرية ومصر والمعيد واليمن . (٢)

ومات بمكة التاجر الكارمى الكبير محمد بن الحسين بن الكويك التكريتى اثناء مجاورته بها سنة ٧٦٤هـ وكان قد شيد مدرسة كبيرة للحديث فى مصر وأوقف عليها أوقافاً كثيرة (٣) كما مات سنة ٧٨٥هـ احد كبار التجسسار الكارمية ويدعى محمد بن احمد الخروبى وهو صاحب المدرسة التى بناها بجوار بيته بشاطئ النيل وكانت له مجاورات عديدة بمكة . (٤)

اما التاجر الكارمى زكى الدين أبو بكر الخروبى المتوفى سنة ٧٨٧هـ فقد تولى رئاسة التجار بالديار المصرية وفاق الاقران وخضع له أكابر التجار وصارعين أعيانهم وعظم قدره عند رجال الدولة (٥) وقد كان جواداً واسع

(١) Moreland, M. Indian Shipping P. 74.

(٢) الفاسى : العقد الثمين، ج٥، ص ١٩٥، ابوخرمة : تاريخ شغردن، ج٢، ص ١١٥-١١٦ .
 (٣) ابن حجر : الدرر الكامنة، ج٣، ص ٤٢٩ .
 (٤) ابن حجر : ابناء الفجر، ج١، ص ٢٨٥ .
 (٥) ابن حجر : نفس المصدر ج١، ص ٣٠٦، الدرر الكامنة، ج١، ص ٤٥٠-٤٥١ .

العطاء للفقهاء والشعراء واوصى بأشياء كثيرة فى وجوه البر والقربات منها للحرمين ألفا مثقال ذهباً ويشير ابن حجر الى أن ولاءه للسلطان وما أسداه من خدمات سياسية ومادية للدولة علاوة على مكانته التجارية كانت هى الاسس التى اوصلته الى الرياسة فبعد عودته من الحج سنة ٧٨٦هـ قدم للسلطان ورجال دولته هدايا جلييلة ثم وقع بينه وبين شهاب الدين الفارقى أحد اعيان التجار اليمنيين أمر فترافعا بسببه الى السلطان بـرقـسـسـوق فأنهم الفارقى زكى الدين بتهمة خطيرة " فأخرج الخروبى كتاب الاشـرـاف (اسماعيل) / صاحب اليمن وضمنه كتاب " من الفارقى يقول فيه : ان مصر آل أمرها الى الفساد وليس بها صاحب له قيمة " فلا ترسل بعد هذه السنة هدية فان صاحبها اليوم أقل المماليك وأرذلهم فأمر السلطان بالقبض على الفارقى وقطع لسانه ومصادرة أمواله ثم شفع فيه فأطلق وخلع على زكى الدين خلعة معظمة واستقر كبيراً للتجار " . (١)

ومن اعيان الكارمية نور الدين على الخروبى المتوفى سنة ٨٠٢هـ حج مرارا وكان ذا دين ومروءة وخير أوصى بمائة ألف درهم فضة لعمارة الحرم الشريف المكى فعمر بها بعد الاحتراق . (٢)

وقد بلغ كبير التجار برهان الدين بن المحلى المتوفى سنة ٨٠٦هـ ٠٠ الغاية فى المعرفة بأمور التجارة وكان فى نفس الوقت بحارا ماهـرا وكان يقول : " ما ركبت فى مركب قط ففرقت " . وقد نمت امواله بصورة ضخمة وعظمت منزلته عند الدولة وقام بتجهيز عسكرها من ماله كما قام بتجديد مقدمة جامع عمرو بن العاص وقد بنى قصرا له على شاطئ النيل فى مصر كان اعجوبة الدهر فى اتقان البناء وكثرة الرخام والزخرفة وللمنافع الكبيرة من القاعات والاروقة وأنشأ بجواره مدرسة . ويقال أن تكاليف القصر بلغت خمسين ألف مثقال ذهباً " . (٣)

(١) ابن حجر : ابناء العصر ج ١ ، ص ٢٨٨ .

(٢) ابن حجر : نفس المصدر ج ٢ ، ص ١٢٣ ، عن احتراق المسجد الحرام انظر الاسواق المحلية ص ٧٢

(٣) ابن حجر : نفس المصدر ج ٢ ، ص ٢٧٠ ، ج ٣ ، ص ٥٠٠ - ٥٠١ .

وتشير المصادر الى أن برهان الدين هذا سعى فى عزل الشريف حسن بن عجلان عن امرة مكة بسبب الضريبة الباهظة التى اخذها من أبنه أحمد وبعض تجار الكارم الذين انطلع مركبهم بقرب مكة وقد توفى ابنه أحمد هذا فى مكة فى آخر السنة التى توفى فيها والده وكان قد وصل اليها ومعه من الاموال ما لا يدخل تحت الحصر كما تشير المصادر المعاصرة " حتى انه كان معه فى تلك السنة ستة آلاف زكينة من أصناف البهار فتفرقت اموالها بأيدي العباد فى جميع البلاد (٢) " وقد نال الشريف حسن صاحب مكة من التركة أموالا طائلة ووجد أن ما صار اليه من ديوان ابن المحلى بغير حق ألف وأربعمائة زكينة وقد أتاه مطالب بمال المحلى سنة ٨٠٧هـ فماتل (٣)

ومن تجار الكارمية الذين استوطنوا مكة فترة من الزمن خضر بــــن ابراهيم المتوفى سنة ٨٢٠هـ وقد اشترى بمكة ملكا واستأجر وقتا وكان ذا غنى وافر ويبدو أن أمراء مكة قد أرهقوه بالجبايات والرسوم فان المصادر تذكر أنه انتقل الى القاهرة وأعرض عن الاقامة بمكة لتعب لحقه بها من جهة الدولة " (٤)

وممن انتهت اليه سياسة التجار بالديار المصرية التاجر الكارمى على بن محمد ابن نور الدين الطنبى المتوفى سنة ٨٣٦هـ كان كثير الحج والمروءة والبر واشتهر بحسن المعاملة وباقراضه المحتاج بغير ربح (٥) والواقع انه منذ تنبأت جدة مكان الصدارة فى التجارة الشرقية اتبع سلاطين المماليك سياسة الاحتكار التجارى لمشاجر الشرق وقد أسفرت هذه السياسة عــــن تغييرات كبيرة فى الهيكل الاقتصادى المملوكى وفى كيان التاجر الكارمى الذى كان عماد التجارة فى ذلك الوقت فقد اقصى المماليك هذه الفئة

-
- (١) الفاسى : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٩٩ - ١٠٠ .
 - (٢) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج٢ ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .
 - (٣) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٠١ .
 - (٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٣١٤ ، ابو مخرمة : تاريخ شفر عدن ، ج٦ ، ص ٦٩ .
 - (٥) ابن حجر : ابناء الغمر ج٣ ، ص ٥٠٧ .

ذات الكفاءة العالية في ميدان التجارة فأقتصرت أعمالهم على جلب التوابل والسلع من الهند وأصبحوا مجرد موظفين لدى السلطان بالمرتب والعمولة وفي الوقت نفسه حاول السلاطين رفع بعض تجارهم القائمين ببيع المتاجر السلطانية إلى المكانة التي كانت للكارمية من قبل على الرغم من قلّة خبرتهم في هذا المجال..... فأدى ذلك إلى زيادة الشكوى من سوء تصرفهم في حين توارت شخصية التاجر الكارمي الدولية وبهت دوره في الحياة العامة وأصبح تاجرا عاديا. (١)

وخلاصة القول أن نشاط التجار المسلمين كان فصلا رائعا من فصول
الفن التجاري المتكامل وقد سار بخطى عظيمة نحو اثراء الفكر التجاري
والتجارة الدولية لقرون عديدة .

● 廣東省社會科學院

(١) ابن ابياس: بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١١٥ ، ٢٠٢، ج ٤ ، ص ٣٢٠ ، ٣٣٩ ، ٤٨٠.

الحياة

لقد تناول هذا البحث موضوعا ذا أهمية فى تاريخ مكة المكرمة السياسى والاقتصادى والاجتماعى والحضرى وهو النشاط التجارى فى مكة المكرمة فى العصر المملوكى ولا شك أن التجارة أحد مظاهر الحياة والنشاط البشرى فى أى مجتمع ، وانها تتأثر بما يجرى فى المجتمع وتؤثر فى احداثه .

والمجتمع المكي الذي تناوله البحث هو المجتمع الذي كان يعيش فـى فترة حكم سلاطين المماليك وقد صبغت حياته عوامل دينية وبيئية وحضارية متنوعة كان للتجارة تأثير بها وتأثير فيها .

والبحث في تجارة مكة في تلك الفترة يكشف عن عناصر متعددة شاركت في صياغة نمط الحياة فيها . وفي فصول البحث نتائج أوضحها تناول تلك الظاهرة الحيوية ظاهرة العمل التجاري في مكة في العصر المملوكي تتمثل هـــــــ^{هذه}
النتائج فيما يلي :-

لَمَكَة فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ مَكَانَةٌ عَظِيمَةٌ جَعَلَتْ مِنْهَا عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ مَجْتَمَعًا
ذَا صِبْغَةٍ خَاصَّةٍ وَكَانَ لَهَا أَثَرٌ وَاضِحٌ فِي حَيَاةِ السَّكَّانِ وَنَشَاطِهِمْ وَهَذِهِ الْمَكَانَةُ
مَصْدَرُهَا أَنَّ مَكَّةَ فِيهَا الْكَعْبَةُ الْبَيْتُ الْحَرَامُ أَوَّلُ بَيْتٍ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَضَعُ
فِي الْأَرْضِ وَهُوَ قِبْلَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي صَلَوَاتِهِمْ وَمَكَّةٌ هِيَ مَهْبِطُ الْوَحْيِ الْأَوَّلِ وَمَوْطِنُ
الْبَعْثَةِ وَالرَّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَفِيهَا مَشَاعِرُ فَرِيضَةِ الْحَجِّ أَحَدِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ
الْخَمْسَةِ .

- ولوجود البيت الحرام فى مكة وجدت ظاهرة المجاورة بها وقد كان للمجاورين آثار واضحة فى مختلف مناحى الحياة فى مكة فكان للعلماء اثر فى الحياة العلمية وللتجار اثر فى الناحية الاجتماعية والعمرانية بالانفاق على الفقراء والايتام والعناية بالمرافق العامة وبانشاء الاربطة واصلاح آبار الماء . كما كان لبعضهم اثر فى العمل السياسى فى مكة .

تحدد الدراسة أهمية موسم الحج وهو فى مقدمة الموارد الذاتية لهذه المدينة المقدسة والتي تنعكس على مواردها الاقتصادية وتمنحهم رسوخا وصلابة وتمدها بعوامل النمو والاستمرار فقوافل الحجاج التى كانت تخرج من الاقطار الاسلامية وخاصة من مصر والشام كان يصحبها كثير من التجار ببضائعهم التى كاشوا يتجرون فيها فى الموسم ولخدمة تلك القوافل كان سلاطين المماليك يولون طريق القوافل عناية فائقة باقرار الامن واقامة المنشآت المهمة فى الطريق وفى مكة وفى المدينة من محطات لراحة القوافل وآبار للمياه ومدارس واربطة ، كما أنهم أوقفوا الاوقاف للانفاق على الحرمين وفقرائهما .

موقع مكة الجغرافى جعلها ملتقى لقوافل التجارة القادمة من أنحاء الشرق لبيع متاجرها والقادمة من أنحاء أخرى لشراء البضائع الشرقية من منسوجات وتوابل وعطور ومعادن . وقد نتج من ذلك ان المشرفين على القوافل كانوا يعقدون اتفاقات مع القبائل الضاربة حول طرق التجارة لتأمين مرور القوافل وكان لطريق القوافل من مصر الى مكة دور كبير فى ازدهار الحركة التجارية بمكة .

كان لظهور جدة باعتبارها مرفأ لمكة المكرمة أثر قوى فى النشاط التجارى بمكة وقد تزايدت أهمية جدة لعودة الملاحة الى البحر الاحمر وبما كان يحدث فى عدن من سوء معاملة التجار القادمين اليها وارتبط نشاط جدة التجارى لقربها من مكة وقد كانت الرسوم والضرائب على التجارة فى جدة موردا مهما للخزانة المملوكية ، كما كانت اربح تجارتها سببا لازدهار الحياة الاجتماعية فيها .

كان لسلاطين المماليك فى مصر أثر فى اقرار امور الحكم فى مكة فبعد تدخلوا فى النزاع حول تولى امارتها وقد كانت خاضعة لسلطانهم بعد اعلان الخلافة العباسية فى مصر فى ظلهم وكان للصراع على امرة مكة آثار

سيئة في الحياة الاقتصادية والاضاع الامنية في مكة ولكن تدخل السلاطين المماليك لاقرار الاوضاع بين امراء مكة وحرصهم على استتباب الامن فيها أدبيا الى ازدهار التجارة والنشاط الاقتصادي .

- ومن مظاهر اهتمام سلاطين المماليك بشئون الحجاز عامة وبشئون مكة خاصة أنهم اصلحوا الطرق العامة التي تسلكها القوافل واعتنوا بحفر الآبار وتوفير الحراسة واقرار الامن في مكة وبقيّة انحاء الحجاز .

- للبحر الاحمر اهمية عظيمة من الناحية التجارية فهو الممر المائى الذى يصل ما بين بلاد اوربا وخاصة المطلة على البحر المتوسط وبلاد الشرق التي كانت مصدرا لكثير من المواد التي تروج في بلاد اوربا وقد كان لانتشار الاسلام اثر كبير في زيادة اهمية البحر الاحمر وخاصة بعد أن صار للمسلمين اساطيل بحرية تعمل في التجارة أو اساطيل حربية لحماية السواحل الاسلامية .

- ولقد ازداد اهتمام السلاطين المماليك بالتجارة في البحر الاحمر لما كانت تعود عليهم به من الارباح الوفيرة بتحصيل الرسوم والضرائب والمكوس حتى ان التنافس اشتد بينهم وبين حكام اليمن لضمان السيطرة على التجارة في البحر الاحمر فقد شجع المماليك السفن التجارية على ان تقدم مباشرة الى جدة دون أن تتوقف بعدن وفرضوا ضرائب مضاعفة على السفن التي ترسو بعدن قبل جدة وصادروا كثيرا من السفن اليمنية وقد حرصوا كذلك على تأمين الملاحة فيه وتنشيط الحركة التجارية .

- تغيرت الاحوال التجارية في البحر الاحمر بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة الاوربية اليه وسيطرة البرتغاليين على المياها الشرقية ومنعهم السفن من استعمال طريق البحر الاحمر ولجوشهم الى اعمال القراصنة وقد ادى ذلك الى ضعف الدولة المملوكية وتدهور احوالها الاقتصادية وعدم مقدرتها على مجابهة البرتغاليين وعجزها عن فرض

سيطرتها على المتاجر القادمة من الشرق وبذلك فقدت مورداً كبيراً من مواردها الاقتصادية .

— كانت توابل الشرق وتحفه وكنوزه من السلع التى تلقى رواجاً كبيراً واقبالاً شديداً من الاوربيين على شرائها وكان التجار الذين يعملون فى هذه السلع يجنون أرباحاً وفيرة وكان ذلك الامر من الدوافع لحركات الاستكشاف الجغرافية الاوربية كى يسيطروا على بلاد التوابل .

— كان لمصر مكانة عظيمة فى النشاط التجارى الخاص بالتوابل فى العصور الوسطى اذ كان سلاطين المماليك يولون هذا النشاط اهتماماً عظيماً لما كان يدره من مكاسب كبيرة .

— كان للتجار الكارميه سيطرة قوية على تجارة التوابل وبلغ الشرق وقد تركزت هذه التجارة فى الانواع المعروفة ومن اشهرها .

من التوابل : الفلفل والقرنفل وحب الهال والقرفة والزنجبيل
ومن العقاقير الطبية : الكافور والبيلسان ، السننمك والراوند
ومن العطور والبخور : العود والمسك والعنبر وخشب الصندل واللبان .
ومن الاحجار الكريمة : الياقوت والالماس والزمررد والعقيق والمرجان ،
واللؤلؤ ثم المنسوجات والمواد الغذائية
والماشية والخيول والابل .

—لقى البحث الاضواء على اسباب الغلاء فى مكة ومنها :-

- .. المجاعات والقحط والابوثة مما كان يحدث فى مكة والبلاد المجاورة .
- .. الاحوال الاقتصادية السيئة فى البلاد التى كانت تصدر السلع والبضائع .
- .. الحوادث والكوارث الطبيعية كالزلازل والعواصف وغرق السفن التجارية .
- .. تهديد البرتغاليين لطرق المواصلات ونقل التجارة .
- .. الزدياد فى اعداد المقيمين والوافدين على مكة وخاصة فى موسم الحج .
- .. اضطراب الاحوال الامنية والسياسية فى مكة فى بعض الاحيان .

- من الضرائب التى كانت تؤخذ من التجار بجدة فى العصر المملوكى :-
 - .. ضريبة الربع لشريف مكة وكانت تؤخذ ممن تصلح سفنهم فى جدة .
 - .. ضريبة سنوية تعطى لاشراف مكة لكى يحموا التجار من السلب والنهب .
 - .. كان اشراف مكة يستولون ايضا على شركة التاجر الذى يتوفى بدون وارث .. كما كانوا يأخذون جباية من البلاد المجاورة لمكة كالطائف ووادى مر .
- وكانت هناك ايضا مكوس بلا سند شرعى منها مكس الحاج وقد ابتدعه القرامطة فى عام ٣٣١هـ والغاء صلاح الدين الايوبى واعيد والغنى صرات متعددة ومن تلك المكوس ايضا مكوس التجارة وهذه بدأت فى عهد الفاطميين والغاءها صلاح الدين ايضا ، ولكن الوزير المملوكى هبة الله الفاضل اعادها من جديد .
- كانت مكوس التجارة تؤخذ فى موسم الحج ويعفى منها الطعام ولكن المكس على الطعام اعيد ثم الغى .
- نظم سلاطين المماليك جباية المكوس على المتاجر القادمة من البحر وقد ادى ذلك الى انتعاش صرفاً جدة كما انهم فرضوا على القوافل التى تغادر مكة بعد موسم الحج أن تتجه اولاً الى القاهرة ليؤخذ منها مكوس التجارة وازادوا المكوس على السفن التى ترسو بعدن قبل جدة .
- كان صاحب مكة ينفرد باخذ المكوس والضرائب لينفقها على نفسه وعلى خاصته وفى شئون الامارة ولكن سلاطين المماليك فى العهود المتأخرة احتاجوا الى اموال لسد احتياجات الدولة فشاركوا امراء مكة فى حصيلة تلك المكوس .
- من صور المعاملات التجارية التى كانت معروفة فى ذلك العهد :-
 - .. المقايضة وقد كانت قائمة بين الدولة المملوكية والمدن التجارية الايطالية فى اواخر القرن التاسع الهجرى .
 - .. شركات القراض او المضاربة وشركات العنان .
- عرفت صور اخرى من المعاملات التجارية منها :-

- .. المعاملات الربوية وان كان منهيها عنها وهى محرمة فى الاسلام .
- .. الرهن والودائع واستعمال الحوالات المالية .
- ظهرت طائفة الصرافين فى ميادين التجارة وظهر معهم النظام المصرفى وهوابتكار اسلامى .
- ظهر فى تلك الفترة نظام الاحتكار التجارى وان كان منهيها عنه فى الاسلام وخاصة احتكار الطعام ولكن السلطان برسباى والاشراف فى مكة وبعض كبار رجال الدولة المملوكية كانوا يحتكرون انواعا من السلع ليجنوا منها الارباح الطائلة .
- ادى هذا الاحتكار التجارى الى توجيه الكشف الجغرافية البرتغالية الى البحث عن طريق تجارى لا يخضع للدولة المملوكية وقد عجل هذا بتدهور اوضاعها وبنهايتها .
- كانت الوحدات النقدية المستعملة فى تلك الفترة هى :-
الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلس النحاسية .
وقد تعرضت الدنانير والدراهم لتقلبات وتغيرات متعددة بسبب ارتفاع اثمان الذهب والفضة وكان الاختلال فى النظام النقدى المملوكى يوءدى الى نتائج اقتصادية سيئة منها ارتفاع الاسعار وتعطل التجارة وكسادها .
- اخذت الفلس النحاسية تحل محل الدنانير والدراهم حتى صارت ذات رواج شديد فى الاستعمال ابتداءً من عام ٦٥٠ هـ .
- كانت مكة تتبع ^{نظاما} ماليا ونقديا خاصا ساعد على استقرار الاحوال الاقتصادية بها وعلى نجاح تجارتها ونشاطها المالى .
- اوضحت الدراسة كيف كانت مكة اكبر سوق فى شبه الجزيرة العربية وكيف كانت تمتلئ بأنواع السلع والمنتجات التى كان يتم تصريفها بسرعة وسهولة ومن المنشآت التى عرفت فى تلك الفترة :-
- ١ - الاسواق : وهى بلا شك من اقدم اشكال النظم التجارية وكان سلاطين المماليك مهتمين بالحركة التجارية فى الحجاز ولذلك انتعشت اسواقه .
وقد كان هناك فى مكة اسواق متعددة :

أ - الاسواق المحلية وهى الاسواق الدائمة والثابتة والمستقرة
بمكة وحولها .

ب - الاسواق الموسمية والمقصود بها الاسواق التى كانت تقام فى
مواسم ورود التوابل من الهند والصين الى اسواق مكة وجدة
او وصول اهل السراة الى مكة .

ج - الاسواق السنوية وهى التى كانت تقام فى موسم الحج كل سنة
ثم صارت تقام مرتين كل عام وخاصة بعد تواتر وصول الركيب
الرجبى من مصر والشام .

٢ - الوكالات والخانات والقياس :-

وكانت تقوم بعدة مهمات ، كانت كالا اسواق اذ تتم فيها عمليات
البيع والشراء ، وكانت تماثل دور الاقامة والفنادق والنزل
للتجار الوافدين وكانت تقوم بدور المستودعات فيحفظ فيها
التجار بضائعهم واصوالهم .

- ومن الوظائف المتعلقة بهذه المنشآت والتى عرفت فى تلك الفترة :-
.. وظيفة المحتسب ، وكان يقوم بالاشراف على الاسواق لمنع الغش
والتلاعب فى الاسعار والبضائع والاوزان والمكاييل .
.. عندما انشئ فى جدة جمرك لتحصيل الضرائب ظهرت وظائف تتعلق بهذا
الامر منها :

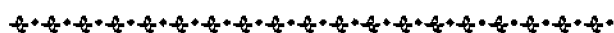
✱ وظيفة ناظر جدة ... وقد تعددت هذه الوظيفة لاجراض متعددة ومختلفة .
✱ وظيفة المباشر الذى كان يستوفى رسوم التجارة ويختتمها بختم خاص .
✱ وظيفة المستوفى .
✱ وظيفة الشاد .

- ظهرت نقابات خاصة لبعض طوائف التجار من اشهرهم طائفة التجار الكارمية .
- كانت هذه النقابات تماثل الغرف التجارية فى العصر الحاضر تقريبا .
- كان التجار فى مكة يمثلون فئات مختلفة منها :-
.. التجار المستقرون الدائمون المقيمون بها .

.. التجار المرتحلون الذين اعتادوا ان يسافروا لجلب بضائعهم ، أو

لبيها في اوطان اخرى .

ومن أشهر الطوائف التي عملت بالتجارة في تلك الفترة طائفة التجار
الكارمية وكانوا يعملون في تجارة التوابل والبهارات وتحف الشرق
وكنوزه ، وقد كان لهم دور كبير في التجارة الشرقية في العصور الوسطى
حتى قلص سلاطين المماليك نشاطهم وقضوا على طوائفهم .



فَالْمُتَلَحِّجَةُ

أولا : المصادر

أ - المصادر المخطوطة

الجزري : أبو المحاسن علي بن أبي الكرم بن عبد الواحد (ت ٨٧٢هـ) .

١ - تحفة العجائب وطرفة الفرائب .

مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٤٤ .

ابن الجوزي : أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ) .

٢ - مشير الفرام الساكن الى أشرف الأماكن في تاريخ مكة والمدينة .

مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد احياء المخطوطات بجامعة الدول العربية
رقم ٤٣٧ تاريخ .

الحسيني : محمد كبريت المدني (القرن الحادي عشر هـ)

٣ - الجواهر الثمينة في محاسن المدينة .

مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد احياء المخطوطات بجامعة الدول العربية
رقم ١٠٢٢ تاريخ .

الحضراوي : احمد بن محمد بن احمد

٤ - الجواهر المعدة في فضائل جدة وتاريخها .

مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٢٧ دهلوي .

السنجاري : علي بن تاج الدين بن تقى الدين المكي

٥ - منائح الكرم في اخبار مكة والبيت وولاية الحرم (٣ أجزاء)

مخطوط بجامعة ام القرى مركز البحث العلمى و احياء التراث الاسلامى رقم
٣٠ تاريخ .

الطبرى : محمد بن علي بن فضل بن عبد الله بن محمد (القرن الثانى

عشر هـ) .

٦ - اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن

مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد احياء المخطوطات العربية رقم ٨٧٠ تاريخ .

- ابن الضياء القرشي : ابو البقاء محمد بن احمد (ت ٨٥٤ هـ) .
- ٧ - تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف
مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية رقم ١٢٨ تاريخ .
- العاقلي : محمد بن محمد
- ٨ - عرف الطيب في اخبار مكة ومدينة الحبيب .
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٧٤ تاريخ .
- الفاشي : محمد بن احمد بن علي ، تقى الدين ابى الطيب (ت ٨٣٢ هـ) .
- ٩ - تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام .
مخطوط مصور ميكروفيلم بمكتبة رواق الاتراك - الازهر رقم ١٤٧١ تاريخ .
- ابن فهد : نجم الدين عمر بن محمد (ت - ٨٨٥ هـ) .
- ١٠ - اتحاف الوري باخبار ام القرى . (٤ أجزاء) .
مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٥٤ تاريخ .
-

١ - اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار .

• مكة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م •

٢ - كتاب تاريخ مصر المعروف ببداية الزهور في وقائع الدهور (٥ أجزاء) .

تحقيق محمد مصطفى، القاهرة - ١٣٩٥ - ١٤٣٨٣/١٩٧٥ - ١٩٦٣م.

۳ - كنز الدرر وجامع الغرر (۹ اجزاء)

الجزء الاول : الدرة العليا في اخبار بدء الدنيا .

تحقيق بيراندرا مكة القاهرة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٤ - الجزء الثامن: الدولة الزكية في اخبار الدولة التركية .

تحقيق اولرخ هارمان القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

٥ - الجزء التاسع : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر

تحقيق هانس روبرت رويمر القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م .

بامخرمة : ابو محمد عبد الله الطيب (ت ٩٤٧ هـ)

٦ - تاريخ ثغر عدن

• لیڈن ۱۹۳۶م

۲۔ البخاری : الامام ابی عبد اللہ محمد بن اسماعیل (ت ۲۵۶ھ) •

صحیح البخاری (۸ اجزاء)

طبعة دار الفكر .

٨ - يزرك بن شهريار الناخذه الرام هرمزى (القرن الرابع هـ)
عجايب الهند بره وبحره وجزايره

ابن بطوطة : ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٧٧٩ هـ) .

٩ - رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار)
بيروت ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

ابن بعره : منصور الذهبى الكاملى

١٠ - كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية

تحقيق عبد الرحمن فهمى القاهرة ١٣٨٥ هـ .

البلوى : خالد بن عيسى

١١ - تاج المشرق فى تحلية علماء المشرق

تحقيق الحسن السائح المغرب .

البهوتى : منصور بن يونس (ت ١٠٥١ هـ)

١٢ - الروض المربع بشرح زاد المستنقع - مختصر المقنع فى فقه امام السنة احمد

بن حنبل الشيبانى رضى الله عنه (جزءان)

ط ٢ ، القاهرة ١٣٤٣ هـ .

ابن البيطار : ضياء الدين ابى محمد المالى الاندلسى (ت ٦٤٦ هـ)

١٣ - الجامع لمفردات الادوية والاغذية (٤ اجزاء)

القاهرة ١٢٩١ هـ .

الترمذى : الامام الحافظ ابى عيسى بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ)

١٤ - الجامع الصحيح (٥ اجزاء)

حققه وصحه عبد الرحمن بن عثمان - بيروت .

التجيبى السبتي : القاسم بن يوسف

١٥ - مستفاد الرحلة والاعترا ب

تحقيق عبد الحفيظ منصور - تونس ١٣٩٥ هـ .

ابن تغرى بردى : جمال الدين ابو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ)

١٦- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (١٤ جزء ١)

القاهرة ١٩٢٩/١٩٧٢م

ابن جبير : ابو الحسن محمد بن احمد الكنتاتى الاندلسى الشاطبى البلبسى

(ت ٦١٤ هـ)

١٧- رحلة ابن جبير

بيروت ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .

الجزيرى : عبد القادر بن محمد الانصارى (القرن العاشر هـ)

١٨- درر الفوائد المنظمة فى اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة .

القاهرة ١٣٨٤ هـ .

الجزيرى :

١٩- الفقه على المذاهب الاربعة (٤ اجزاء)

القاهرة ١٩٣٥ م .

ابن حجر : شهاب الدين احمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ)

٢٠- الدرر الكامنة فى اعيان المئة الثامنة (٤ اجزاء)

بيروت

٢١- ابناء الغمر ببناء العمر (جزءان)

تحقيق وتعليق الدكتور حسن حبشى القاهرة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

٢٢- فتح البارى بشرح صحيح البخارى

بيروت

ابن حنبل : الامام احمد بن حنبل

٢٣- مسند الامام احمد بن حنبل وبهامشه منتخب كنز العمال فى سنن الاقوال

ابن خرداذبة: ابو القاسم عبد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠ هـ)

٢٤- المسالك والممالك

بغداد

الخزرجي : شمس الدين ابو الحسن علي بن الحسن (ت ٨١٢ هـ)

٢٥- العقود اللؤلؤية في اخبار الدولة الرسولية (جزءان)

تحقيق محمد بسيوني عسل القاهرة ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ)

٣٦- تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب

والعجم والبربر ومن عاصروهم من ذوى السلطان الاكبر .

القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

٢٧- مقدمة ابن خلدون القاهرة ١٣٢٢ هـ

الدارمي : الامام ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٢٥٥ هـ)

٢٨- سنن الدارمي (جزءان)

بيروت

ابو داود : الامام سليمان بن الاشعث (ت ٢٧٥ هـ)

٢٩- سنن ابي داود (٤ اجزاء)

بيروت

الدمشقي : جعفر بن علي

٣٠- الاشارة الى محاسن التجارة

القاهرة ١٣١٨ هـ

الدمشقي او شيخ الربوة : شمس الدين ابي عبد الله محمد ابي طالب الانصاري

(ت ٧٢٧ هـ)

- ٣١- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر :
بـطـريـورغ ١٢٨١ هـ / ١٨٦٥ م .
- ابن الديبع : ابي الضياء عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٤٤ هـ)
- ٣٢- قرة العيون باخبار اليمن الميمون (قسمان)
حققه وعلق عليه محمد بن علي الاكوع الحوالى القاهرة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .
- ابن رسته : ابي علي احمد بن عمر (القرن الثالث هـ)
- ٣٣- الاعلاق النفيسة
ليدن ١٨٩١ م .
- زين الدين المعبرى الملبارى (ت ٩٨٥ هـ)
- ٣٤- تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتكاليين
لشبوثة ١٨٩٨ م .
- السخاوى : الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ)
- ٣٥- الضوء اللامع لاهل القرن التاسع (١٢ جزء)
القاهرة ١٣٥٥ هـ .
- ابو السعود : ابن محمد العمادى الحنفى
- ٣٦- تفسير ابي السعود أو ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم .
تحقيق عبدالقادر احمد عطا - الرياض
- السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ)
- ٣٧- حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة (جزءان)
القاهرة ١٩٦٨ م .
- ابن شاهين : غرس الدين خليل الظاهرى (ت ٨٧٣ هـ)
- ٣٨- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .
باريس ١٨٩١ م .

الشجاعى : شمس الدين

- ٣٩- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى واولاده
حققته وترجمته الى الالمانية بربارة شيفر فيسيادن
١٣٩٨هـ / ١٩٧٨ م .

الشيرزى : عبد الرحمن بن نصير (القرن السادس هـ)

- ٤٠- نهاية الرتبة فى طلب الحسبة .
تحقيق ومراجعة الدكتور / السيد الباز العرينى - بيروت .

الاصطخرى : ابن اسحاق ابراهيم بن محمد (القرن الرابع هـ)

- ٤١- المسالك والممالك
تحقيق محمد جابر عبد الوال الحينى القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .

الاصفهانى : الحسن بن عبد الله

- ٤٢- بلاد العرب
تحقيق حمد الجاسر د . صالح العلى - الرياض ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

الطبرى : محب الدين الحافظ ابى العباس احمد (ت ٦٩٤هـ)

- ٤٣- القرى لقاصد ام القرى
تحقيق مصطفى السقا ، ط ٢ ، مصر ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

ابن طولون : شمس الدين محمد (ت ٩٥٣هـ)

- ٤٤- مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان (قسمان)
تحقيق محمد مصطفى القاهرة ١٣٨١-١٣٨٤هـ / ١٩٦٢-١٩٦٤م .

ابن العماد : ابى الفلاح عبد الحى (ت ١٠٨٩هـ)

- ٤٥- شذرات الذهب فى اخبار من ذهب (٨ اجزاء)

عمارة اليمنى : ابو محمد نجم الدين ابى الحسن على (ت ٥٦٩هـ)

- ٤٦- تاريخ اليمن المسمى المفيد فى اخبار صنعاء وزبيد وشعراة ملوكها واعيانها

وادبائها .

حققه وعلق عليه محمد بن على الاكوع الحوالى ، ط٢ ، القاهرة

١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

العينى : بدرالدين ابى محمد محمود بن احمد . (ت ٨٥٥هـ)

٤٧- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر

٤٨- عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى (٢٥ جزء ١٩)

بيروت

الفاسى : تقى الدين محمد (ت ٨٣٢هـ)

٤٩- شفاء الغرام باخبار البلد الحرام

تحقيق لجنة من كبار العلماء والادباء ١٩٥٦م .

٥٠- العقد الثمين فى تاريخ البلد الامين

تحقيق محمد حامد الفقى القاهرة

ابو الفدا : الملك الموءيد اسماعيل صاحب حماه (ت ٧٣٣هـ)

٥١- المختصر فى اخبار البشر

بيروت

ابو الفرج قدامة بن جعفر (القرن الرابع هـ)

٥٢- الخراج وصناعة الكتابة ملحق كتاب ابن خرداذبة المسالك والممالك

بغداد

القلقشندي : شهاب الدين ابو العباس احمد بن على (ت ٨٢١هـ)

٥٣- صبح الاعشى فى صناعة الانشاء (١٤ جزء ١٤)

القاهرة ١٩١٣- ١٩١٩م .

القطبى : عبدالكريم بن محب الدين (ت ١٠١٤هـ)

٥٤ - تاريخ البلد الحرام المعروف باعلام العلماء الاعلام ببناء المسجد الحرام
حققه وعلق عليه احمد محمد جمال ، عبد العزيز الرفاعي مكة

١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م .

ابن قيم الجوزية : شمس الدين محمد بن ابي بكر (ت ٧٥١ هـ)

٥٥ - الطب النبوي

مكة

ابن كثير : عماد الدين ابي الفدا اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ)

٥٦ - البداية والنهاية

بيروت ١٩٦٦ م .

٥٧ - تفسير القرآن العظيم

طبعة دار الكتب المصرية

ابن ماجة : الحافظ ابي عبد الله محمد بن يزيد

٥٨ - سنن ابن ماجة

تحقيق وتعليق محمد فواء عبد الباقي ، طبعة دار الفكر

المارودي : ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب

٥٩ - الاحكام السلطانية والولايات الدينية

بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

ابن المجاور : جمال الدين ابو الفتح بن يعقوب (ت ٦٩٠ هـ)

٦٠ - صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى تاريخ المستبصر

ليدن ١٩٥١م

المسعودي : ابي الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ)

٦١ - مروج الذهب ومعادن الجوهر

تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

- مسلم : الامام ابى الحسين بن الحجاج بن مسلم
٦٢- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم (٨ اجزاء)
بيروت
- المقدس، المعروف بالبشارى (القرن الرابع هـ)
٦٣- احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم
بغداد
- المقريزى : تقى الدين احمد بن على (ت ٨٤٥ هـ)
٦٤- اغاثة الامة بكشف الغمة او تاريخ المجاعات فى مصر
حمص ١٩٥٦ م .
- الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك
٦٥- تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ م .
- السلوك لمعرفة دول الملوك .
٦٦- الجزء الاول والثانى : تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ١٩٥٧/١٩٧٢ م .
الجزء الثالث والرابع : تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة
١٩٧٠/١٩٧٣ م .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (جزءان)
٦٧- طبعة بالافست
- الوريثانى : الحسين بن محمد
٦٨- نزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ والأخبار ط ٢ ، بيروت ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .
- ياقوت : شهاب الدين ابى عبد الله (ت ٦٢٧ هـ)
٦٩- معجم البلدان
بيروت

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٥ هـ)

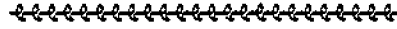
٧٠- غاية الاماني في اخبار القطر اليماني (قسمان)

تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م

اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن واضح (ت ٢٨٤ هـ)

٧١- البلدان ملحق كتاب الاعلاق النفيسة

ليدن ١٨٩١ م



ثانيًا : المراجع

أ - المراجع العربية

ابراهيم رفعت باشا

- ١- مرآة الحرمين او الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية (جزءان)

احمد ابراهيم الشريف

- ٢- دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الاول والثاني

للهمزة ط ٢ ، بيروت ١٩٧٧ م .

احمد دراج

- ٣- ايفاحات جديدة على التحول في تجارة البحر الاحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجري العدد الخاص بالمحاضرات العامة للجمعية المصرية للدراسات التاريخية الموسم الثقافي ١٩٦٨/٦٧ م .

احمد رمضان احمد

- ٤- شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى
القاهرة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ م .

احمد السباعي

- ٥- تاريخ مكة ط ٢

مكة ١٣٨٠ هـ .

احمد عيسى عاشور

- ٦- الفقه الميسر في العبادات والمعاملات ط ٤

القاهرة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨ م .

احمد مختار العبادى ، السيد عبد العزيز سالم

٧- تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام

بيروت ١٩٨١م .

امين محمود عبدالله

٨- طرق الحج والتجارة العربية فى العصر الاسلامى مجلة الفيصل العدد ١٨

ذى الحجة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

ارنست كونت

٩- الفن الاسلامى ترجمة احمد موسى

بيروت ١٩٦٦م .

ك . م . يانيكار

١٠- آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ،مراجعة احمد

خاكي .

جورج فاضلو حوراني

١١- العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة واوائل القرون

الوسطى ، ترجمة د. السيد يعقوب بكر

القاهرة

جورج لوفران

١٢- تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث ترجمة هاشم الحسين

بيروت

أبو الحسن على الحسنى الندوى

١٣- السيرة النبوية ط ٣

جدة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

حسنين محمد ربيع

١٤- البحر الاحمر فى العصر الايوبي ندوة تاريخ البحر الاحمر بجامعة عين شمس

سنة ١٩٧٩ م.

١٥- وثائق الجزيرة واهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانئ الحجاز واليمن

فى العصور الوسطى ، الندوة العالمية الاولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية

قسم التاريخ كلية الآداب جامعة الرياض " الملك سعود حاليا .

١٩٧٧ م .

حسنين حامد حسان

١٦- المدخل لدراسة الفقه الاسلامى ط٢

القاهرة ١٩٧٩ م.

حمد الجاسر

١٧- طريق الحيرة الى مكة مجلة العرب ج٥ السنة السادسة

ذو القعدة ذو الحجة هـ/ تشرين اكتوبر نوفمبر ١٩٧٩ م.

١٨- مر الظهران وادى فاطمة ، مجلة العرب ج١، السنة الثانية

رجب ١٣٩٣ هـ / آب اغسطس ١٩٧٣ م.

سامح عبد الرحمن فهمى

١٩- الوحدات النقدية المملوكية .

جدة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

سعيد عبد الفتاح عاشور

٢٠- العصر المماليكى فى مصر والشام ، ط ٢

القاهرة ١٩٧٦ م.

٢١- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك

القاهرة ١٩٦٢ م.

✓ ٢٢- مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية

القاهرة ١٩٥٩م.

سونيا هاو

✓ ٢٣- فى طلب التوابل ترجمة محمد عزيز رفعت ،مراجعة الدكتور / محمود النحاس

القاهرة ١٩٥٧م.

السيد احمد ابو الفضل عوض

٢٤- مكة فى عصر ما قبل الاسلام

الرياض ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

السيد عبدالعزيز سالم

٢٥- تاريخ العرب قبل الاسلام

الاسكندرية ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

سيد عبد المجيد بكر

✓ ٢٦- الملاح الجغرافية لدروب الحجيج

جدة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

صبحى الصالح

٢٧- النظم الاسلامية نشأتها وتطورها

بيروت ١٩٧٨م.

صبحى لبيب

✓ ٢٨- التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ،المجلة التاريخية المصرية

المجلد الرابع ،العدد الثانى

١٩٥٢م.

عبد الرحمن ابا حسين

✓ ٢٩- دور مكة التاريخى والثقافى مجلة قافلة الزيت المجلة العشرون ،العدد ١٢

سنة ١٣٩٢هـ .

عبد الرحمن فهمي

٣٠- / النقود العربية ماضيها وحاضرها .

القاهرة ١٩٦٤م .

عبد العزيز الشناوي

٣١- اوروبا في مطلع العصور الحديثة ط ٣

مصر الجديدة ١٩٧٧م .

على بن حسين السليمان

٣٢- / النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية في اواخر العصور الوسطى

(١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

القاهرة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤م .

٣٣- / العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك

القاهرة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م .

لويس موزل

٣٤- / طريق الحج العراقي القديم ، مجلة العرب ، ج٣ ، السنة الرابعة

رمضان ١٣٩٢ هـ / تشرين الاول اكتوبر ١٩٧٢م .

محمد الاكوع الحوالى

٣٥- اليمن الخضراء مهد الحضارة

القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م .

محمد باقر الصدر

٣٦- البنك اللاربوى في الاسلام اطروحة للتعويض عن الربا ودراسة لكافة اوجهه

نشاطات البنوك في ضوء الفقه الاسلامى ط ٧

بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م .

ب- المراجع الأجنبية

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

- 1- Burckhardt (J. L.) :
 - Travels in Arabia , 2 Vols : London, 1819.
- 2- De Gaury (G.) :
 - Rulers of Mecca, London, 1951.
- 3- Jomier ;:
 - Le mahmal et La Caravane Egyptienne de Pelgrime de La Mecque , Le Caire, 1935.
- 4- Moreland (W.H.) :
 - The Ships of the Arabian sea about A.D. 1500.
The Journal of the Royal Asiatic Society
of Great Britain and Ireland.

XXXXXXXXXXXXX

الفهرست

(قائمة المحتويات)

الصفحة	
٤	المقدمة
٢٠	الفصل الاول
	عوامل ازدهار النشاط التجارى فى مكة المكرمة
	— مكانة مكة المكرمة فى نفوس المسلمين .
	— المجاورون ودورهم الاقتصادى والسياسى
	والعمرانى والعلمى .
	— مواسم الحج .
	— موقع مكة على طرق القوافل التجارية .
	— جدة ميناء مكة المكرمة .
٧٢	الفصل الثانى
	دور سلاطين المماليك وامراء مكة فى استتباب الامن وتأمين
	الطرق
	— امرة مكة والصراع بين بنى قتادة على توليها .
	— الجهود الخاصة باقرار الاوضاع فى مكة المكرمة .
	— توفير الحراسة واقرار الامن واصلاح الطرق البرية .
	— تأمين طريق البحر الاحمر وتنشيط الحركة التجارية
	فيه .
١٣٨	الفصل الثالث
	انواع السلع الصادرة والواردة
	— التوابل .
	— العقاقير الطبية .
	— العطور والبخور .
	— الاحجار الكريمة .

- المنسوجات .
- المواد الغذائية .
- المواشى والخيول والجمال .
- اسباب الغلاء .

٢٠٩ الفصل الرابع

المكوس والمعاملات التجارية

- العشور والمكوس التجارية وطرق جبايتها .
- المعاملات التجارية .
- انواع النقود والقيم النقدية .

٢٧٠ الفصل الخامس

المنشآت التجارية

- الاسواق .
- الوكالات والخانات والقياس وغيرها من
- المنشآت التجارية .
- المشرفون على المنشآت التجارية .

٣٠٠ الفصل السادس

فئات التجار فى مكة المكرمة

- التجار المحليون .
- التجار الموسميون .
- التجار المتجولون .
- التجار الكارمية .

٣٣٦ الخاتمة

٣٤٥ قائمة المراجع

